سلسلة المراجع فى التربية وعلم النفس
- الكتاب الخامس والثلاثون -

نظريات المناهج التربوية

الدكتور علي أحمد مدكور
عميد معهد الدراسات التربوية - جامعة القاهرة

١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي
٩٤ شارع عباس العقاد - مدينة نصر - القاهرة
ت: ٢٧٥٢٩٨٤ - فاكس: ٢٧٥٢٧٣٥
٦ أ شارع جواد حسني - ت: ٣٩٣٠١٦٧
www.darelfikrelarabi.com
INFO@darelfikrelarabi.com

٣٧٥,٠٠١ على أحمد مدكور.
ع ل ن ظ نظريات المناهج التربوية/ على أحمد مدكور. ـ ط. ج
مزيدة ومنقحة. - القاهرة: دار الفكر العربى، ٢٠٠٦ .
٥١٧ ص؛ ٢٤ سم. - (سلسلة المراجع فى التربية
وعلم النفس؛ الكتاب الخامس والثلاثون).
ببليوجرافية: ٥٠٣ - ٥١٤.
تدمك: ٠ - ٢٠٣٩ - ١٠ - ٩٧٧.
١ ـ التعليم - مناهج. ٢ ـ التربية الإسلامية.
٣ ـ التعليم - نظريات. أ ـ العنوان. ب ـ السلسلة.

التصميم والإخراج الفنى
محيى الدين فتحى الشلودى
رقم الإيداع: ١٧٧٦ / ٢٠٠٦
تنفيذ وطباعة الكتاب: مطبعة البردى بالعاشر من رمضان

رقم الإيداع	٢٠٠٦ / ١٧٧٦
I. S. B. N الترقيم الدولى	977 - 10 -2039 - 0

سلسلة المراجع فى التربية وعلم النفس

تصدر بإشراف نخبة من الأساتذة

تصدر هذه السلسلة بغرض النهوض بمستوى المراجع والكتب فى مجال التربية وعلم النفس والاجتماع بحيث تشتمل على أحدث ما صدر فى هذا المجال عالميا مع معالجته بمنظور ورؤية عربية مدعمة بخبرات الخبراء.

ويسر اللجنة الاستشارية أن يشارك أصحاب الفكر والكُتّاب وأساتذة الجامعات بنشر مؤلفاتهم المتميزة فى تلك السلسلة.



تقديم

بقلم الأستاذ الدكتور/ جابر عبد الحميد جابر

●●●●●●●

الإصلاح التربوى وتطوير المناهج ورفع مستوى أداء التلاميذ وتوظيف كل المكانات المادية والبشرية لتحقيق هذا الإصلاح والتطوير، ورفع مستوى الأداء هو الشغل الشاغل لجميع المجتمعات الناهضة.

ومن المشكلات الرئيسية التى تحول دون هذا ما يأتى:

- تأكيد المعرفة المجردة وإهمال معرفة التطبيقات والمشكلات الاجتماعية.

- عدم توازن المنهج حين تعطى الأولوية للعلوم والرياضات.

- تشظى المنهج حين يزخر بمشروعات منفصلة متمركزة حول مادة دراسية بمفردها، تتنافس وتتبارى ليجد كل منهما موضع قدم فى المنهج التعليمى، والإخفاق فى وضع وتطوير مشوعات يتم القيام بها فى إطار منهج تعليمى متماسك وكلى.

- الصدق المشكوك فيه للأخذ بنظرية بنية المادة الدراسية كمبدأ وحيد يحكم وضع المنهج وتطويره، وتجاهل وإهمال الدراسات عبر العلوم، والتى تتطلب الجمع بين تخصصات مختلفة وتؤكد وحدة المعرفة.

- الأولوية التى تعطى للموهوبين أكاديميا مع إهمال ذوى الحاجات الخاصة.

- الإخفاق فى توفير دراسات تقويم تكوينى فى تطوير رزم المنهج والمواد التعليمية.

- الإخفاق فى المراعاة السليمة لطبيعة ميول المتعلم واهتماماته.

- اعتبار الأساس فى إصلاح المنهج النزعة القومية والحرب الباردة وإهمال الاهتمامات الاجتماعية والإنسانية الأرحب.

إن هذه المشكلات وغيرها كثير يمكن أن يتم التخفف منها بالأخذ بمنهج التربية فى التصور الإسلامى والذى يتناول علاقة الإنسان بالكون وعلاقته بالله،

وعلاقته بالآخر، وعلاقته بنفسه أن حقيقة الحياة فى التصور الإسلامى كفيلة بعمارة الأرض وتربية الإنسان، وخلق مجتمع إسلامى سليم يقوم على العلم والمعرفة والعدل والعمل والحرية والتغير الثقافى والحضارى والارتقاء القيمى.

إن هذا المنهج التربوى كفيل بتعميق مفهوم الدين والعبادة وترسيخ عقيدة الإيمان بالله، والأخوة فى الله، وتحقيق الإيمان، وإدراك حقيقة الكون والحياة الدنيا والآخرة، وتحقيق الوسطية، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، واستعادة تميز الأمة الإسلامية، والعمل على تحقيق وحدتها، وتحقيق الذات، وإدراك أهمية التفكير العلمى وفهم مناهجه والتدرب على أساليبه، وبناء الشخصية المتكاملة ذات القيم الرفيعة.

وهذا المدخل يقتضى تنوعا فى طرائق التدريس وتباينا فى خبرات التعلم واختلافا فى التقويم. ومما يزيد من وضوح النظرية الربانية ترجمتها إلى واقع عملى: أهدافا وبرامج تعليمية وخبرات تعلم وأساليب تقويم.

وفى الكتاب تناول للنظريات العلمانية بأطيافها المختلفة الأساسية والمثالية والواقعية والموسوعية والبرجماسية والتطبيقية الماركسية تناولا عميقا يقوم على تحليل منهجى نقدى.

والكتاب جدير بأن يدرسه طلاب التربية والباحثون فى مجال التعليم فى أنحاء العالم العربى والإسلامى وأن يستوعبوا مغازيه وأن يترجموا هذا الإطار الفكرى إلى برامج منظومية ومواد تعليمية فاعلة وأنماط سلوكية وافية. الأمر الذى يعيد للأمة الإسلامية وأبنائها الدرجة العالية التى ينبغى أن يبلغوها، والمقام الرفيع الذى ينبغى أن يشغلوه بحيث تقدم الحضارة الإسلامية عطاءها للحضارات الإنسانية الأخرى.

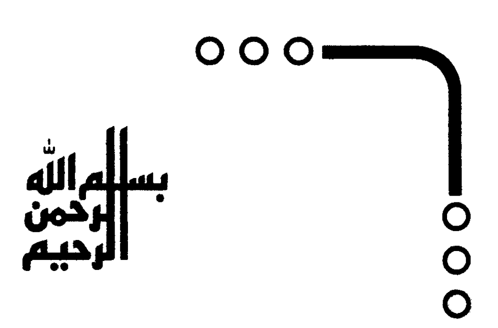
ومؤلف الكتاب الدكتور على مدكور أستاذ قدير متمكن من أدواته الأكاديمية والتربوية والعملية وله بصيرة نافذة وفكر ثاقب ولغته سائغة وأسلوبه متدفق.

والكتاب مضمونا ومنهجا جدير بأن يفيد منه كل مهتم ببناء البشر وتنمية المجتمع الإنسانى.

وعلى الله قصد السبيل.

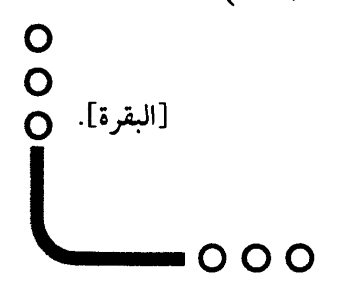
أ.د. جابر عبد الحميد جابر

٥/ ١/ ٢٠٠٦م



﴿... وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾﴾

[البقرة].





مقدمة الطبعة الشرعية الرابعة

طبع هذا الكتاب لأول مرة عام ١٩٨٤م فى دار الثقافة للطباعة والنشر بالقاهرة، وطبع للمرة الثانية - بعد أن زيد ونقح - بواسطة دار الفرقان فى عمان عام ١٩٩٠م. وطبع للمرة الثالثة بعد مزيد من التنقيح والإضافة **بدار الفكر العربى** بالقاهرة عام ١٩٩٧م. وهذه هى الطبعة الرابعة التى زيدت ونقحت - شأنها شأن سابقاتها، والتى أرجو أن ترى النور هذا العام عام ٢٠٠٦م. وبعد فليس لأحد غير **دار الفكر العربى** بالقاهرة أن يطبع هذا الكتاب أو يصوره دون إذن منى أو من الدار.

يمكن تصنيف النظريات التى تحكم الممارسة التربوية فى معظم أنحاء عالم اليوم إلى نوعين: النظريات الربانية التى ترى أن دين الله هو منهج ونظام للحياة؛ وذلك كالتربية المسيحية الأصيلة، والتربية الإسلامية التى تتسق مع التصور الإسلامى للألوهية والكون والإنسان والحياة. والنوع الثانى هو تلك النظريات العَلْمانية بأطيافها المختلفة كالأساسية الإنجليزية، والموسوعية الفرنسية، والبراجماتية الأمريكية، والتطبيقية الماركسية التى ما تزال تمارس بشكل أو بآخر فى بعض بلاد العالم اليوم.

والكتاب يستعرض هذه النظريات بطريقة تحليلية نقدية بقدر الإمكان وإن كانت مبادئ النظرية المسيحية غير مستوفاة عندى حتى الآن.

أسأل الله تعالى أن يرزقنا صدق القول، وسداد الفكر، واستقامة النهج، وإخلاص النية، وإحسان العمل، وحسن الخاتمة...

﴿رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾ [آل عمران].

صدق الله العظيم

على أحمد مدكور



مقدمة الطبعة الأولى

في هذا الزمن، زمن التفجر المعرفي المتلاحق، والتطور الهائل في وسائل الاتصالات والإعلام. زمن البث الإذاعي والتليفزيوني الدولي المباشر، الذي يحمل في طياته غزوا ثقافيا مقصودا وغير مقصود، الزمن الذي يبدو العالم فيه كقرية صغيرة، يرى ويسمع القاصي فيها الداني، الزمن الذي بدأت تتآكل فيه الحدود والفواصل بين الثقافات والنظم في العالم.. في هذا الزمن لا تملك هذه الأمة أن تصير طرفا إيجابيا فاعلا في التفاعل الثقافي العالمي فقط، بل لا بد أن تصير طرفا قائدا، ورائدا، وموجها لهذا التفاعل. ولا يوجد بديل آخر إلا التبعية، والانسحاق.

وهنا يجب أن نفرق بين التفاعل الثقافي، والغزو الثقافي. فالتفاعل الثقافي مشروع، بل ومطلوب. لكن التفاعل لكي يسمى تفاعلا فإنه يجب أن يقع بين جانبين على درجة واحدة من الندية، بحيث يعطي كل جانب منهما ويأخذ. وبحيث يتم العطاء والأخذ بشكل واع، وفي ظل الاختيار الحر. فكل طرف يأخذ ما يريد، ويدع ما لا يريد وفق قواعد ومعايير مدروسة. وبذلك يطور كل طرف أساليبه وأنماط حياته، مع الاحتفاظ بهويته. والتفاعل الثقافي بهذه الصورة، رغم أنه مشروع وممكن الحدوث، إلا أنه نادر، وقصير العمر نسبيا.

أما الغزو الثقافي فيتم من طرف قوي غالب لطرف ضعيف مغلوب. وعادة ما يتحول المغلوب إلى مقهور، ثم إلى مبهور بقوة قاهره، فيأخذ منه ما يحتاج إليه وما لا يحتاج إليه، ورويدا رويدا . يتحول إلى تابع ذليل له. وهذه الصورة الأكثر حدوثا في تاريخ البشرية.

فعندما كان المسلمون يسيرون وفق منهج الله، كانوا هم الغالبون، وكانوا قادة الدنيا وسادتها، وكان لهم من الله الاستخلاف، والتمكين والتأمين، والنصر،

وبركات من السماء والأرض. وعندما انحرفوا بسلوكهم وأخلاقهم ومفاهيمهم عن منهج الله، فقدوا كل شيء: القيادة، والريادة، وحتى تفاعل الند للند، وتحولوا إلى السلبية، والتبعية، والسير وفق «فلسفات» الآخرين ونظرياتهم.

أما بالنسبة لدول العالم المتقدمة ماديا، فهى تقف اليوم هى الأخرى على حافة الهاوية، وذلك بسبب إفلاسها فى عالم «القيم» التى يمكن أن تنمو الحياة فى ظلها نموا سليما، وتترقى ترقيا صحيحا، خاصة بعد أن انتهت «الفلسفات» فيها «والديمقراطيات» إلى ما يشبه الإفلاس[1]. إنها فى حاجة إلى منقذ، إلى مخلص.. والإسلام هو هذا المنقذ والمخلص.

لابد - إذن - من العودة الكاملة الشاملة إلى الله. إن فهم منهج الله، وتطبيقه تطبيقا صحيحا فى واقع الحياة هو البداية التى يجب أن ننطلق منها فى كل اتجاه. فى السياسة والاقتصاد والاجتماع والتربية. فالإسلام هو المنهج الوحيد الذى يستطيع إنقاذنا من التردى الذى نحن فيه نتيجة السير وفق «فلسفات» و«أيديولوجيات» مختلفة ومتناقضة. أقل ما يمكن أن يقال فيها: إنها أزياء فصلت وطرزت لمجتمعات تختلف فى عقائدها، وقيمها، وأنماط حياتها، اختلافا جذريا عن مجتمعاتنا. وإننا منذ انفتحنا عليها نعبُّ منها عبًّا دون مناقشة. لم نصل إلا إلى هذه الفوضى الثقافية والتربوية التى هى طابع حياتنا المعاصرة.

إن الدين - فى التصور الإسلامى - هو النظام العام، أو المنهج الذى يحكم الحياة[2] فهو مرادف لكلمة «نظام» أو «منهج» فى الاصطلاحات الحديثة. مع شمول هذا المفهوم للإيمان والاعتقاد فى القلب، والسلوك فى الواقع، والشريعة لكل جوانب المجتمع الإنسانى.

---

(١) سيد قطب: معالم فى الطريق، بيروت، دار الشروق، الطبعة الشرعية العاشرة، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م. ص ٥.

(٢) سيد قطب: العدالة الاجتماعية فى الإسلام، الطبعة التاسعة، بيروت، دار الشروق، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م ص ٧٨ - ٧٩. وانظر أيضا: أبو الأعلى المودودى: الحكومة الإسلامية، جدة، الدار السعودية للتوزيع والنشر، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤ م، ص ٧٠.

وبناء على هذا، فإن الإسلام هو نظام النظم، حيث تندرج تحته نظم عدة: ففيه: نظام للاقتصاد، ونظام للسياسة، ونظام للأسرة، ونظام للتربية.. إلخ. وهذه النظم وإن اختلفت فى أشكالها وأساليبها ووسائلها من وقت لآخر، أو من بيئة إلى أخرى، إلا أنها تستمد أصولها، وتستلهم أساليبها ووسائلها من خصائص ومقومات النظام الإسلامى العام. كما أنها كلها تهدف إلى غاية واحدة. وهى إقدار الإنسان المسلم على القيام بحق الخلافة، وهو عمارة الأرض، وترقية الحياة على ظهرها وفق منهج الله.

والنظام الإسلامى يختلف فى طبيعته الأصلية عن سائر النظم والمناهج الأخرى، وذلك لأنه نظام من صنع الله، ولأنه نظام عالمى النزعة، ينظر إلى العالم على أنه وحدة متكاملة، ويرمى إلى ضم البشرية كلها تحت لوائه.. متساوية، متآخية، متعاونة. وهو يختلف عن النظم الأخرى لأنه يقوم على قاعدة تختلف عن القواعد التى تقوم عليها الأنظمة البشرية الأخرى جميعا. فالإسلام يقوم على أساس أن الحاكمية لله وحده، فهو الذى يشرع وحده. وسائر الأنظمة تقوم على أساس أن الحاكمية للإنسان، فهو الذى يشرع لنفسه. وهما قاعدتان لا تلتقيان. ومن ثم فالنظام الإسلامى لا يلتقى مع أى نظام، ولا يجوز وصفه بغير صفة الإسلام.

إن الإسلام نظام من صنع الله، فلا يجوز الخلط بينه وبين نظم من صنع البشر، تحمل طابعهم من النقص والكمال، والخطأ والصواب، والهدى والضلال، بينما النظام الإسلامى نظام كامل لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. كما أنه منهج متكامل، ووحدة متجانسة، وإدخال أى عنصر غريب فيه يؤدى إلى سوء فهمه وانحراف أهله.

ويقوم النظام الإسلامى العام على مبدأين أساسيين: مستمدين من تصوره الكلى للألوهية، والكون، والحياة والإنسان:

المبدأ الأول: هو وحدة الإنسانية فى الجنس، والطبيعة، والنشأة: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ...** ۝١﴾ [النساء].

المبدأ الثاني: هو أن الإسلام هو النظام العالمى العام، الذى لا يقبل الله من أحـد نظاما غـيـره، فهـو لا يقـبل من أحد دينا إلا الإسـلام: ﴿**إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ**... ﴿١٩﴾﴾ [آل عمـران]، ﴿**وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ** ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران].

إن قيام النظام الإسلامى العام على المبدأين السابقين، كان له أثره القوى فى كل النظم والسياسات التى تفرعت منه، كمنهجه فى التربية، وسياسته فى الحكم، ونظامه فى المال والاقتصـاد والأسرة، إلى آخره. ومن ذلك أنه لا يشرع لجنس ولا لجيل، وإنما للأجناس جمـيعا، وللأجيال جميـعا، فى كل زمان، وفى كل مكان، وبذلك «اتبع الأسس الإنسانيـة الشاملة فى كل تشريعاته ونظمـه، ووضع القواعد العـامة، والمـبادئ الواسـعـة، وترك الكثـير من التطـبيـقـات لتطور الزمن وبروز الحاجات»(١).

إذا كـان ذلك كـذلك، فإن مـشكلة هذا الـكتاب تتـمـثل فى الإجـابة عن التساؤلات التالية:

١ - ما التـصور الإسلامى لمناهج التـربية، وهل يمكن تسـمية هذا التـصور «فلسفة» أو «نظرية»؟

٢ - ما مفهوم منهج التربية فى التـصور الإسلامى. وما خصائصه التى تميزه عن غيره من المناهج؟

٣ - ما الأسس التى يقوم عليها منهج التربية فى التصور الإسلامى؟ وبعبارة أخرى، ما تصـورات الإسلام للألوهية، والكون، والإنسـان، والحياة، وهى الأسس التى يقام عليها بناء منهج التربية فى الإسلام؟

٤ - ما انعكاسات مفهوم منهج التـربية فى الإسلام، وخصائصه، والأسس التى يقـوم عليـها بناؤه، على مكـونات هذا المنهج، وهى: الأهداف، والمحتوى، وطرق وأساليب التدريس، وطرق وأساليب التقويم؟

٥ - ما النظريات الرئيسية الأخـرى التى تحكم الممارسات التربوية فى معظم مناطق العالم؟

---

(١) سيد قطب: المرجع السابق، ص ٨٠.

للإجابة عن الأسئلة الخمسة السابقة، فإن هذا الكتاب سيجىء - إن شاء الله- فى خمسة أقسام هى على النحو التالى:

أولا: الإجابة عن السؤال الخاص بتحديد التصور الإسلامى لمناهج التربية.

ثانيا: الإجابة عن السؤال الثانى من أسئلة الكتاب الخمسة، وذلك بتحديد مفهوم منهج التربية فى التصور الإسلامى، وتحديد خصائصه التى تميزه وتفرده عن كل المناهج الأخرى.

ثالثا: الإجابة عن السؤال الثالث، وفيه يتم توضيح تصور الإسلام العام للألوهية والكون، والإنسان، والحياة. فالألوهية والكون، والإنسان، والحياة فى التصور الإسلامى هى الأسس التى يقوم عليها بناء منهج التربية فى الإسلام.

رابعا: الإجابة عن السؤال الرابع، والخاص بانعكاسات مفهوم منهج التربية فى الإسلام، وانعكاسات خصائصه المميزة له، وانعكاسات أسسه المتمثلة فى تصور الإسلام للألوهية والكون والإنسان والحياة، على عناصر هذا المنهج أو مكوناته، التى هى: الأهداف، والمحتوى، وطرق وأساليب التدريس، والتقويم.

خامسا: الإجابة عن السؤال الخامس، الخاص بالنظريات المنهجية التى تحكم الممارسات التربوية فى معظم مناطق العالم. ثم القيام بنظرة مقارنة بين التصور الإسلامى والنظريات الأخرى كلها.

وبعد، فإنى أتذكر قول العماد الأصفهانى: «إنى رأيت أنه لا يكتب إنسان كتابا فى يومه إلا قال فى غده: لو غير هذا لكان أحسن، ولو زيد كذا لكان يستحسن، ولو قدم هذا لكان أفضل، ولو ترك هذا لكان أجمل، وهذا من أعظم العبر، وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر».

أرجو الله أن يتقبل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم، وأن يعفو عن أخطائنا، وأن يجعل خيره فى ميزان حسناتنا؛ إنه ولى ذلك والقادر عليه.

على أحمد مدكور





محتويات الكتاب

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

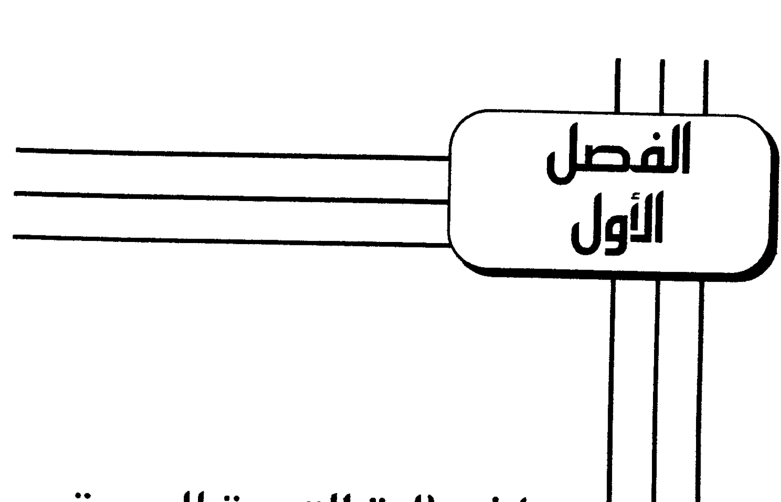
الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة
الفصل الثامن	
نظريات المناهج العلمانية الغربية	٣٨١

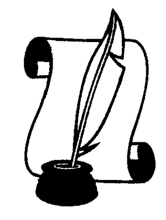
الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة





إشكالية التربية العربية
مع العلمانية والحداثة
وما بعدها



العلمانية:

يمكن تصنيف النظريات الفلسفية التي حكمت الممارسة التربوية في العالم إلى صنفين:

الصنف الأول: النظريات الربانية:

وهي تلك التي ترى أن الدين منهج ونظام للحياة. وأن الله هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو على كل شيء قدير، منه صدر كل شيء وإليه يعود كل شيء؛ وذلك كالتربية اليهودية الأصيلة التي أنزلها الله في التوراة على موسى عليه السلام، والتربية المسيحية الأصيلة التي أنزلها الله في الإنجيل على عيسى عليه السلام، والتربية الإسلامية التي تتمثل في التصور الإسلامي للألوهية والكون والإنسان والحياة.

الصنف الثاني: النظريات العلمانية:

وهي تلك التي تفصل بين الله وبين الكون والحياة. فما أصل هذه النظرية العلمانية؟

تعود فكرة النظرية العلمانية إلى الفكر الأفلاطوني الأرسطي؛ فقد كان إله أفلاطون وأرسطو لا عمل له ولا إرادة. فأفلاطون يزعم أن من كمال إلهه ألا يشعر بذاته. أما أرسطو فقد كان من كمال إلهه ألا يشعر وألا يفكر إلا في ذاته، لأنه يتنزه عن الشعور بما عداه.

وقد انعكست هذه الفكرة على مفهوم العلمانية عندما حدث الفصام النكد بين الكنيسة وبين المجتمع في العصور الوسطى في أوروبا نتيجة اعتداء الكنيسة على حقوق الناس باسم الله.

فكان أن عزل الناس الكنيسة وحاصروا دورها في الحياة، وظهر مصطلح «العَلْمانية» لأول مرة - كما يقول الدكتور عبد الوهاب المسيري[1] - عام ١٦٤٨م

---

(١) عبد الوهاب المسيري: العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، (جزئان) القاهرة، دار الشروق. ٢٠٠٢م، ص٧.

عند توقيع صلح «ستفاليا» وبداية ظهور الدولة القومية الحديثة. وكان المصطلح يشير فقط إلى علمنة ممتلكات الكنيسة ونقل هذه الممتلكات إلى سلطة غير دينية، إلى سلطة الدولة.

ومصطلح «عَلْمانية» ترجمة لكلمة Secularism الإنجليزية وهى كلمة مشتقة من الكلمة اللاتينية Secular، وهى تعنى «العالم أو الدنيا» التى تقابل «الكنيسة».

وقد تطور مدلول الكلمة على يد چون هوليوك (١٨١٧ - ١٩٠٦م)، حيث عرَّف العلمانية بأنها «الإيمان بإمكانية إصلاح حال الإنسان من خلال الطرق المادية دون التصدى لقضية الإيمان بالله، سواء بالقبول أو بالرفض»[١].

وقد افترض هذا التعريف ضرورة وجود نموذج متكامل أو رؤية شاملة للكون والإنسان والحياة. وقد افترض أيضا أن هذا النموذج يحتاج إلى منظومة قيمية ومعرفية تنبع من مصدر معين.

وقد ترك هوليوك هذا المصدر مفتوحا لاختيار كل إنسان ولكل مجتمع. وقد أدى ترك الأمر مفتوحا هكذا أن اختلف الناس فمنهم من ذهب إلى الطبيعة والكون ووضعهما مكان الإله، ومنهم من ذهب إلى العقل وجعله إلها...

وهكذا تم عزل الإله الحق - سبحانه - فى ملكوت السماء، وإبعاده عن ملكوت الأرض!

وبالتالى تم بعد ذلك تقليص مصطلح العَلمانية فأصبح يعنى «فصل الدين عن الدولة» أى فصل العقيدة والشريعة والعبادات عن مسيرة الحياة العامة.

وقد استورد العرب فى العصر الحديث هذا المفهوم ضمن الأشياء الكثيرة التى استوردوها من الغرب، دون إدراك أنه من المستحيل انتزاع المصطلح من منظومته الحضارية وغرسه فى منظومة حضارية أخرى؛ لأنه يظل يحمل آثارا قوية من سياقه الحضارى السابق الذى يظل مرجعية صامتة له. كما أن غرس المصطلح فى المنظومة العربية الإسلامية يعانى صعوبة شديدة الخصوصية وشديدة الإحكام.

---

(١) المرجع السابق.

فعمليات العَلمنة لم تنبع إذن من الواقع التاريخى ولا الاجتماعى العربى، وإنما أتى بها الاستعمار الغربى خلال الفترة الاستعمارية فى القرون التاسع عشر والعشرين والحادى والعشرين.

وقد اكتشف كثير من الدارسين العرب والمسلمين - بحكم تجربتهم التاريخية - كثيرا من الجوانب المظلمة للعلمانية. فهناك ابتداء ارتباط العَلمانية بالإمبريالية. فأولى تجارب العلمانية الغربية حركة «الاكتشافات» التى تطورت لتصبح الحركة الإمبريالية التى اشتركت فيها كل الدول الغربية لإبادة الملايين من البشر ونهب العالم كله تقريبا.

ويمكن فى هذا الإطار أن نشير إلى الغزوة الصهيونية لأرض فلسطين. فالصهيونية فى جوهرها حركة عَلمانية داروينية حولت أرض فلسطين والفلسطينيين إلى مادة استعمارية تطرد خارج فلسطين. وساندتها فى ذلك الإمبريالية الغربية العلمانية، وكل هذا فى إطار العقل المادى المطلق. كما لم يتوقف الابتزاز والظلم الإمبريالى العلمانى حتى الآن، والأمثلة على ذلك ما حدث فى ڤيتنام والبوسنة والشيشان، وما يحدث الآن فى العراق وفى الخليج.

واكتشف المثقفون العرب أيضا بتجربتهم التاريخية أن الثورة الفرنسية التى نادت بالحرية والإخاء والمساواة هى التى أرسلت قواتها الاستعمارية إلى أماكن كثيرة، وأفرزت عهد الإرهاب، كما أرسلت نابليون لغزو روسيا ومصر وغيرها من بلاد العالم. وفى مصر جمع ٦٠٠ عالم من المناهضين لغزوته وكان يقتل منهم ثلاثة كل يوم[١].

واكتشف المثقفون العرب والمسلمون أن الديمقراطية العلمانية البريطانية قد احتلت أجزاء كثيرة فى المشرق والمغرب ونهبتها ثم تركتها مقطعة الأوصال مشحونة بالمشكلات التى يصعب حلها.

لقد اكتشفوا أيضا أن ارتباط العلمانية بالتسامح واتساع الأفق، والتعددية، وقبول الآخر، والإيمان بالعلم ليس ضروريا إذا كان ذلك يتناقض مع مصالحها!

(١) انظر إلى محمود محمد شاكر: رسالة «فى الطريق إلى ثقافتنا»، كتاب الهلال، العدد (٤٤٢)، أكتوبر ١٩٨٧.

فالانتخابات الديمقراطية التى تجىء بالإسلاميين فى الجزائر إلى الحكم تلغى، وتلك التى أتت بالحزب الإسلامى بزعامة أربكان فى تركيا تضطره القوى العلمانية بالقوة إلى التخلى عن الحكم. وهى الآن تناوش القوى الإسلامية التى أتت إلى الحكم بالانتخابات الديمقراطية، وتتحين لها الظروف المناسبة للقضاء عليها.

والعلمانية الديمقراطية لا تقبل الحكم الديمقراطى الإسلامى فى إيران الذى يتبنى الإسلام كمنهج ورؤية للكون والإنسان والحياة، وتتهم إيران بأنها أحد محاور الشر!

والعلمانية الديمقراطية فى الولايات المتحدة الأمريكية تمارس كل أنواع الاستبداد والتسلط، وتدبر المؤامرات والانقلابات، وتحتل النظم والمؤسسات فى البلاد الأخرى عن طريق المخابرات، بل وتحتل الآن أفغانستان والعراق وتمنع قيام نظم فيها على أساس الرؤية الإسلامية للكون والإنسان والحياة، وكذلك تفعل عن طريق النخب الحاكمة وعن طريق المخابرات فى معظم الأقطار العربية الإسلامية.

لقد صنع الغرب العَلمانى نخبًا عَلمانية فى البلاد العربية، جعلت من مهمتها تفكيك أوصال المجتمع بالقضاء على البقية الباقية من الجماعات الدينية إسلامية كانت أو مسيحية، كما أنها نصبت نخبا عَلمانية وقوت سلطاتها وسطوة مؤسساتها الأمنية. فكانت النتيجة أن أصبحت هذه النخب منفصلة تماما عن الشعوب التى تحكمها وعن خطابها الحضارى. واستمرت هذه النخب فى عملية العلمنة دون تحريف للنظم والمؤسسات الاجتماعية، فأدى ذلك إلى تخلف معظم هذه البلاد وإلى حرمانها من أعز أبنائها المخلصين الذين هجروها فرارا بدينهم، أو خوفا على دنياهم، أو كلاهما معا.

العلمانية الشاملة:

العلمانية مفهوم متطور من البسيط إلى المعقد ومن الجزئى إلى الكلى - كما يقول الدكتور عبد الوهاب المسيرى -، فقد بدأ بفكرة عدم إدراك الإله لذاته، أو عدم إدراكه إلا لذاته، كما قال بذلك أفلاطون وأرسطو، ثم تحول إلى مجرد تحويل ممتلكات الكنيسة الدينية إلى سلطة الدولة غير الدينية، ثم إلى فصل الدين عن

الحياة، إلى أن أصبح مفهوما يشتمل على رؤية للكون والإنسان والحياة. وهذا هو المقصود بالمفهوم الشامل، وسنلقى نظرة على هذا المفهوم فيما يأتى:

العلمانية الشاملة هى رؤية شاملة للكون والإنسان والحياة، تحاول بكل صراحة إبعاد الدين عن كل مجالات الحياة. وهى رؤية مادية عقلانية تدور فى إطار المرجعية الواحدية المادية، التى ترى أن مركز الكون كامن فيه، غير مفارق أو متجاوز له، فلا توجد غيبيات أو قوى أخرى خارج إطاره.

والعلمانية ترى أن العالم كله مكون من مادة واحدة، لا قداسة لها، ولا تحتوى على أسرار أو غيبيات.

وهو أى العالم فى حالة حركة دائمة لا غاية لها ولا هدف. ولا تكترث حركته بالخصوصيات أو المطلقات أو الثوابت.

ومادة العالم فى الرؤية العلمانية تشكل كلا من الإنسان والطبيعة؛ فهى رؤية واحدية طبيعية مادية[1].

وتتفرع عن هذه الرؤية **منظومات معرفية،** تقوم على اعتبار أن الحواس، والواقع المادى هما مصدر المعرفة. فالعالم يحتوى بداخله ما يكفى لتفسيره والتعامل معه.

وتتفرع عن هذه الرؤية أيضا **رؤية أخلاقية** تقوم على اعتبار أن المعرفة المادية هى المصدر الوحيد للأخلاق. كما تتفرع عنها **رؤية تاريخية** تقوم على اعتبار أن التاريخ يتبع مسارا واحدا، حتى وإن تفرع أو أخذ مسارات مختلفة فإنها ستؤدى فى النهاية إلى النقطة نفسها.

وترى الرؤية العلمانية أن **الإنسان جزء لا يتجزأ من الطبيعة،** وأنه ليست له حدود مستقلة تفصله عنها، ومن ثم فهو ظاهرة بسيطة أحادية البعد، وهو كائن ليس له وعى مستقل، أى أنه غير قادر على التجاوز والاختيار الأخلاقى الحر!

---

(١) عبد الوهاب المسيرى، مرجع سابق، ص٩.



إن العلمانية على **مستوى المرجعية النهائية** أو «الكامنة» **تستبعد الإله أو تنكر وجوده**، كما تستبعد أى مطلقات أو ثوابت من عملية الحصول على المعرفة، ومن عمليـة صياغة المنظومـات الأخلاقية. وهى فى الوقت نفـسه تستبعـد الإنسان من مركز الكون بشراسة وحدّة، وتنكر عليه مركزيته وحريته، وتجعله محكوما بقوانين المادة والطبيعة! انظر الاتحاد السوفيتى السابق كمثال.

لكن العلمانية على مستوى الواقع وعلى مسـتوى المرجعية «المتجاوزة» قد لا تكون إلحادية أو معادية للإنسان على مستوى القول والنموذج المعلن.

فالعلمانيـة رؤية «متطورة» وفقا للأبعـاد التاريخية والزمانيـة والمكانية، فهى تسير وفق حلقات متتابعة وحسب الظروف.

أما العلمـانية الجـزئية - فصل الدين عن الدولة - فهى تسـود حينما تكون مقـصورة على المجـالين السيـاسى والاقتـصادى، وحين تكون هناك بقـايا ثوابت ومنطلقات دينـية وإنسانيـة، وحين تتسم الدولة ووسائل الإعـلام وأجهزة التنمـية بالضعف والعـجز عن اقتـحام مجالات الحـياة وعن التنميـة الشاملة. انظر بعض أقطار الوطن العربى الآن كمثال.

وتظهـر العلمانيـة الشـاملة مع تزايد قـوة الدولة ووسائل الإعـلام وانتشـار اللذات، وتمكنهـا من الوصول إلى الفـرد وإحكام القبـضة عليـه من الداخل ومن الخارج، ومع اتساع عمليـات العلمنة وضمور الثوابت والمطلقات، وسيـادة النسبية الأخلاقية والنسبية المعرفية[1]. انظر الولايات المتحدة وأوروبا الغربية الآن كمثال.

إشكالية الثقافة العربية الإسلامية مع الحداثة وما بعدها:

بدأ عرض الحداثة على الثقـافة العربية والإسلامية مع بداية الحـملة الفرنسية على مصر والعالم العربى من نهاية القرن الثامن عشر. وتعززت مع وصول محمد على مع بداية القرن التاسع عشر وابتعاثه للنجباء من أبناء مصر إلى الغرب وخاصة

(١) المرجع السابق، ص١١.

فرنسا. وتعززت مـرة ثانية مع وصول الاحتلال البريطانـى لمصر وأجزاء أخرى من الوطن العربى والإسلامى.

وقـاد راية الحداثة المسـتشـرقون الغـربيـون وقادها مـعهم، ثم من بعـدهم المستشرقـون العرب. والفئة الأخيرة من أبناء جلدتنا لكنهم يعـيشون داخل منظومة الثقافة الغربية ويؤدون من الداخل الدور الذى كـان يؤديه المستشرقون الغربيون من الخارج. والأحكام التى نطلقها هنا لا تدعى المطلق، ولكنها تأخذ بالاتجاه الغالب.

وقد لقيت الحداثة رواجا لدى بعض النخب الثقافية بصفة عامة، ولدى تلك التى تسيطر على منابر الخطاب الثقافى، وعلى وسائل الإعلام والنشر بصفة خاصة بل إن تلك الوسائل قد هيئت لتلك الفئة عن قصد.

ومن سوء الحظ أن الذين قدموا الحداثة إلى الناس قد اتخذوا مدخلا يناهض أهدافهم ويهدر جل جهودهم، ويضيع الفرصة أمـام تجربة الحداثة العربية للاستفادة من الحداثة الغربية وإليكم أهم الأسباب:

١ - لقد قدم منظرو الحداثة دعوتهم إلى الناس على نحو يدعو إلى القطيعة مع التراث. وفهم الناس من هذه الدعوة أن الانتماء إلى الحداثة يقتضى إعلان البراءة من الماضى وإعلان الحرب على التراث بمفهومه العام. ولم يهتم الحـداثيون من التراث إلا بالموروث الكلامى وبالجـو التاريخى بين تهافت الفـلاسفة، وتهـافت التهافت. ولم يعن مـعظم الحداثيين عناية لائقة بالـتجربة العلمـية الضـخمـة، وبالإسهام العلمـى الإسلامى فى الحـضارة الأوروبيـة. وكان الأجـدر أن ينصب الجهـد على بيان إنجـاز العلمـاء المسلمين من أمثـال الرازى وابن النفـيس والبيـرونى والطوسى والخوارزمى والخيام وغيرهم من العلماء الـذين أسسوا للحضارة العلمية الإنسانية.

وقد واجهت دعوة المستشـرقين العرب والمسلمين من أمثال سلامة موسى وطه حسين وغيرهما مناهضة وصدودًا كبيرين، مما جعل الحداثة تنكفئ دون أن تحقق هدفها الذى أعلنته، ولم تقـدم للفكر العربى شيئا ذا بال.

٢ - ومن أهم أسباب انكفاء الحداثة، ومناهضة معظم مظاهرها أن منظِّرى الحداثة قدموا مع دعوتهم إلى مقاطعة التراث - بديلا جاهزا هو الانخراط فى موكب الغرب الحضارى، وربط مستقبل الأمة بالمستقبل الأوروبى. مما جعل الناس يتفضون متسائلين فى استنكار: من نحن؟ وما هويتنا؟ وماذا يجب أن نكون؟

٣ - ربما كان من أكبر أخطائهم أنهم وهم يحاربون التراث لم يوضحوا الفارق بين التراث وبين القرآن والسنة، وتركوا الناس يعتقدون أن القرآن والسنة من التراث وكل ما يجرى على التراث يمكن أن يجرى على القرآن والسنة. كما انطلق بعض دعاة تنقية التراث إلى اعتبار القرآن الكريم نصا تاريخيا! وظهرت دراسات تناقش القرآن على ضوء نظرية الثابت والمتحول، وتجتهد فى التفسير والتأويل عن غير دراسة ولا علم، بحجة فتح باب الاجتهاد. وقد انفتح الباب ودخل منه من أفتى بتحليل الحرام وتحريم الحلال، تحت لافتة القراءة المعاصرة للنصوص أو القراءات النقدية، أو المراجعات التاريخية، الأمر الذى جعل الناس يرتابون فى دوافع السلوك وغايات هذه الدراسات والبحوث التى تستمد مرجعيتها من علماء الغرب الذين أعلنوا كراهيتهم للخصوصية الثقافية، أو الاستثناء الثقافى الذى يعتمد على جوهر ثابت. ذلك الجوهر الذى عجزوا عن هزيمته مرارا وتكرارا.

٤ - كان من أكبر دواعى هزيمة أنصار حركة التنوير الحداثى أنهم لم يختاروا لدعوتهم من التراث إلا الإشكالى من الأدبيات الإسلامية، والذى كان مثار فتنة واختلاف بين الناس عبر القرون. فبدلا من تنقية التراث الماضى من الشوائب، وإحياء كل ما هو عقلانى ومفيد للحياة، أطلقوا الأفكار المريبة إلى أن القرآن هو النص الوحيد الذى لا شك فى مرجعيته، ولكن السنة مشكوك مرجعيتها! لكن هذه الدعوة ووجهت بقوله تعالى فى القرآن نفسه: ﴿... وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ... ﴿٧﴾﴾ [الحشر]، وفشلت هذه المحاولة أيضا.

٥ - لقد نشطت دعوة الحداثيين فى اعتماد العامية بدلا من الفصحى فى الكتابة فى وسائل الإعلام، كما نشطوا إلى الدعوة للحداثة فى الفنون والآداب والموسيقى. وبدأت بعض وسائل الإعلام فى تنفيذ ذلك. وراح عدد من كتاب الحداثة يتسابقون إلى إصدار الروايات والكتب والبحوث والأشعار بالإنجليزية والفرنسية، وتزامن ذلك مع حركة نقدية نشطة تعتمد المناهج الغربية الحديثة من البنيوية والتحليلية والتفكيكية وغير ذلك من المدارس الغربية التى لا تكاد تصل إلى العرب والمسلمين حتى تكون قد انتهت صلاحيتها فى الغرب.

وحين انتهى عصر الحداثة فى الغرب وبدأ عصر ما بعد الحداثة، لم يعد دعاة القطيعة المعرفية مع التراث يجدون ما يقولون لأمتهم التى لم تدخل الحداثة كى تنتقل إلى ما بعد الحداثة.

وهكذا ضيع الحداثيون على الأمة فرصة التحديث العقلانى الإيجابى بدعوتهم إلى المقاطعة المعرفية مع تراثهم - الأمر الذى يهددهم باقتلاع جذورهم الثقافية - وبفرضهم الحداثة الغربية على الثقافة العربية الإسلامية وتجاهل خصوصيتها، ومرجعيتها واستثنائها الثقافى، واعتبارهم العودة إلى التراث سبب تخلف الأمة! وبتجاهلهم العناصر المشرقة للثقافة الإسلامية، وانكبابهم على القضايا والمسائل الخلافية والمعارك الكلامية وبمعركتهم مع التراث الإسلامى مع ترك مفهومه عاما ليشمل القرآن والسنة، واتسعت المعركة مع الجميع.

٦ - كان من أهم أسباب إشكالية الحداثة وما بعدها مع الثقافة العربية الإسلامية، أنها كانت تجربة نخبوية متعالية - كما قال الدكتور رياض نعسان أغا - فبدلا من أن تتقرب من المجتمع العربى الإسلامى بالاحترام الضرورى لمعتقداته وتقاليده وأصول ثقافته، استخدم بعض الحداثيين لغة هجائية وصلت إلى حد البذاءة فى بعض الأعمال التى تنتمى إلى «قلة الأدب». بالإضافة إلى ذلك كان السلوك الشخصى لبعض الحداثيين لا يدعو إلى الاحترام ولا ينسجم مع الوجدان العام ولا مع القيم الإسلامية[1].

(١) رياض نعسان أغا: الوطن، العدد ٩٢١، مسقط، سلطنة عمان.



وإذا كان هذا كله قد أدى إلى تجسيد نوع من القطيعة مع الثقافة الغربية عموما، كما أدى إلى إخفاق تجربة الحداثة العربية إلا أن ذلك لم يمنع بعض المخلصين أن يعملوا فى صمت دون أن يدعوا إلى الحداثة الغربية ولا إلى ما بعدها، وإنما يعملون على نشر الوعى الحقيقى الذى تسطع أنواره من جوهر الأمة وتصورها العام للألوهية والكون والإنسان والحياة. هؤلاء هم الذين قدموا للأمة مجموعة من أجمل الأعمال كما حفظوا مئات من الكتب العظيمة فى التراث، دون دعوة منهم إلى العيش فى الماضى بأثر رجعى، وترجموا كثيرا من الكتب الغربية والشرقية المفيدة، وبذلك جمعوا بين الأصالة والمعاصرة فى آن.

ازدواجية التربية والعقل والثقافة

وأسهم بعض التربويين فى إجهاض الحداثة العربية الإسلامية عن طريق نقل الشجرة التربوية الغربية والأمريكية منها على وجه الخصوص، والتى نبتت فى تربة المدرسة المادية السلوكية، وعملوا على استزراعها فى التربة العربية ذات الأصول الإنسانية الإسلامية! فكانت النتيجة مسخا مشوها لكلتا الحضارتين الغربية والعربية.

ورغم أن مناهج علم التربية المقارن ترى أن التربية شجرة لا تنبت إلا فى تربتها، ولا تنمو إلا من ريٍّ أهلها، إلا أن الحداثيين من التربويين أمعنوا فى ترجمة الكتب الغربية فى أصول التربية، وعلم النفس، والمناهج وطرق التدريس، وإعداد المعلمين وتدريبهم، وصبوا كل ذلك فى أدمغة المتعلمين الذين وجدوا فجوة هائلة بين النظرية والتطبيق، وبين ما يقوله المدرسون وما يقومون به بالفعل، فضعفت ثقتهم بالمعلمين، وقلت قيمة المدرسة فى أعينهم، وخف وزن التربية والتعليم فى نفوسهم، وثقل وزن الامتحانات والحصول على الدرجات والشهادات، وانتهى بنا الحال إلى ما نحن عليه الآن.. لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء!

وإمعانا فى السير فى هذا الطريق حتى آخره، لجأ معظم التربويين إلى أصول التربية الغربية، وقاطعوا أصول التربية الإسلامية وأصول علم النفس فى التصور الإسلامى، وقاطعوا التراث، ونظروا إليه باحتقار، وأسموا مجلداته «بالكتب الصفراء» وأسموا محاولات قراءته للاستفادة مما هو مفيد فيه بأنها عودة

إلى الظلامية والتخلف، ومحاولة للعيش فى الماضى بأثر رجعى!.. وهكذا أفقدنا الحداثيون فى مجال التربية فرصة الحداثة وتجربتها التى ينبغى أن تبدأ من أصولنا وخصائص شخصيتنا، ثم تنطلق إلى الآفاق الرحبة للكون والإنسان والحياة، فكانت النتيجة أننا فقدنا الأصالة والمعاصرة فى ذات الوقت.

ولقد اتسمت التربية العلمانية - التى جاءت إلى العالم العربى لأول مرة مع غزوة نابليون بونابرت مصر عام ١٢١٣هـ الموافق ١٧٩٨م - باستهدافها العقل، واستبدال الفكر، وتغيير الهوية، بالإضافة إلى احتلال الأرض، ونهب الثروة، واستعباد الإنسان. وكانت العلمانية هى الوافد الجديد فى ركاب الغزاة.

ومن ذلك التاريخ وحتى اليوم، ومن مصر إلى العراق، وفى كل موقع من بلاد الإسلام قامت فيه للاستعمار الغربى دولة وسلطة، أخذ هذا الاستعمار شيئا فشيئا يحل النزعة العلمانية فى تدبير شئون الدولة والمجتمع وتنظيم أحوال العمران، محل الشريعة الإسلامية، ويزرع القانون الوضعى العلمانى فى مكان الإسلام وفقهه ومعاملاته، وما يزال الصراع مستمرا فى جميع أنحاء الأمة.

وكان الاستعمار يعتمد على التربية بالدرجة الأولى فى إحلال الفكر العلمانى محل الفكر الإسلامى فى البلاد العربية والإسلامية. وقد تأكد هذا اللون من الفكر على يد محمد على والى مصر ١٨٠٥، عندما أوفد أعدادا كبيرة من الطلاب النابهين فى بعثات تعليمية إلى فرنسا زعيمة العلمانية فى العالم الغربى، وعلى يد هؤلاء تم تحويل التعليم الرسمى للدولة المصرية من التعليم الأزهرى الإسلامى إلى ما يسمى بالتعليم الحديث المبنى على أساس المناهج الغربية كما تم فى المقابل إفقار التعليم الإسلامى فى جميع مجالاته، كما تم محاصرة خريجيه بإغلاق أبواب العمل والترقى أمامهم.

منذ ذلك الوقت بدأ يبرز فى العالم العربى نظام حديث فى التعليم يقوم على الفصل البطىء بين الدين والحياة بجوار التعليم القديم الذى يعتبر أن الدين هو المنهج الذى يوجه أمور الحياة. وبدأ هذا النظام ينمو بالتدريج فى البلاد العربية والإسلامية إلى أن أصبح هو النظام الرسمى للدولة.



لكن النظام القديم الذى يعتمد على التصور العقيدى والتصور الشرعى فى بناء التصور الاجتماعى ما يزال مستمرا، وقد بدأ نظاما للتحديث والتطوير مع بداية الستينيات من القرن العشرين، ولكن فى ضوء الثوابت العقيدية. فالتعليم فى الأزهر على سبيل المثال قد أدخل العلوم الحديثة إلى مناهجه فصار يجمع بين الأصالة والمعاصرة، وكذلك فعلت جامعة القرويين فى المغرب العربى وجامعة الزيتونة فى تونس.

وقد بدأت الكنيسة منذ فترة فى العودة التدريجية إلى أصول الكتاب المقدس الذى أنزله الله على عيسى عليه السلام، بالربط بين الكنيسة والحياة. وأبرز مثال على ذلك ما تم خلال الفترة البابوية للبابا يوحنا بولس الثانى الذى توفى فى أبريل ٢٠٠٥، حيث كانت مواقفه حاسمة فى ربط تعاليم الكنيسة بمواقف الحياة ومشكلاتها على المستوى العالمى.

وعلى هذا الأساس تبلورت فلسفات التربية ونظرياتها فى اتجاهين بينهما عموم وخصوص مطلق، حيث يجتمع الاتجاه العلمانى مع الاتجاه الربانى عموما والإسلامى على وجه الخصوص فى اعتبار الكون مصدرا للمعرفة وينفرد الاتجاه الإيمانى الإسلامى والمسيحى فى اعتبار الوحى هو المصدر الأول والأساسى للمعرفة.

وبذلك يمكن القول إن هناك ثلاثة أنواع من النظريات هى كالآتى:

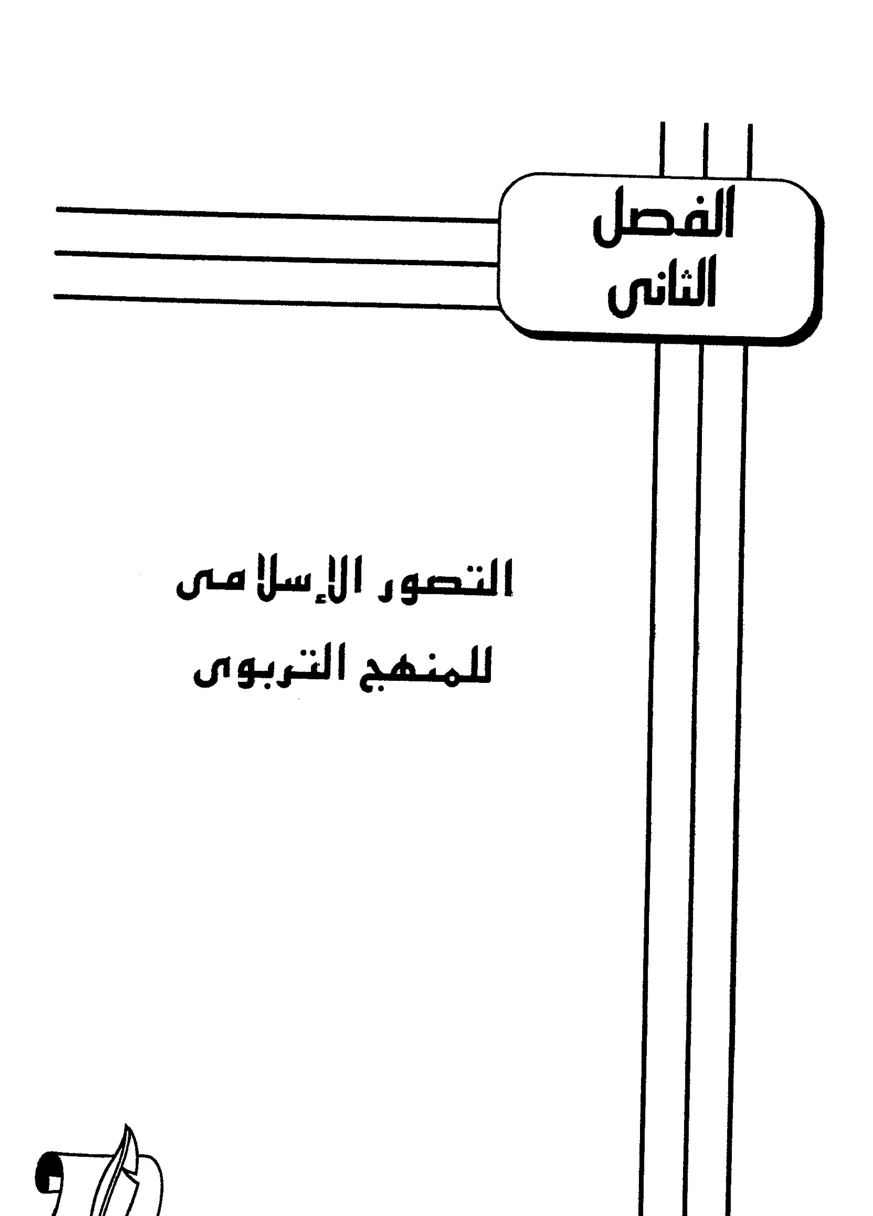
١ - النظريات الإنسانية الإسلامية.

٢ - النظريات الإنسانية العلمانية.

٣ - النظريات المادية السلوكية.

وسنتناول هذه النظريات بالترتيب فى فصول هذا الكتاب.

وبالله التوفيق



الفصل الثانى

التصور الإسلامى للمنهج التربوى

فلسفة التربية، ونظرية التربية

تعتمد مناهج التربية كلها تقريبا على نظريات تربوية. والنظريات التربوية تعتمد على فلسفات عامة. فما الفلسفة وما النظرية، وما العلاقة بينهما؟ وهل يحتاج منهج التربية الإسلامية إلى فلسفة أو إلى نظرية؟ هذا ما نجيب عنه فيما يلى:

مفهوم الفلسفة:

الفلسفة مصطلح يونانى الأصل مكون من كلمتين: «فليو» ومعناه: حب، «صوفيا»، ومعناها: الحكمة. فالفلسفة إذن هى حب الحكمة أو محبة الحكمة. وبالرغم من جاذبية هذا المفهوم للوهلة الأولى، إلا أن الفلاسفة والمفكرين قد اختلفوا بل وتناقضوا فى ماذا تعنى محبة الحكمة؟ وما زال هذا الاختلاف والتناقض قائما منذ أن نشأ هذا المصطلح إلى يومنا هذا. **فالبعض يرى أن الفلسفة هى العلم بحقائق الأشياء والعمل بما هو أصلح، والبعض يرى أنها مفهوم جامع الحقائق الألوهية، والكون، والإنسان، والحياة،**، وثالث يرى أنها علم دراسة الغيبيات وما وراء الطبيعة، ورابع يرى أنها علم دراسة السلوك الإنسانى فى علاقته بالكون من حوله.. إلخ. وقد ظل مفهوم الفلسفة يحمل طابعا فرديا، وبقيت مذاهبها مجرد وجهات نظر تحمل شارة أصحابها إلى يومنا هذا[1]. ومع ذلك فلكل فلسفة تصور خاص للكون والإنسان والحياة.

أما فلسفة التربية الغربية «فهى باختصار الجانب التطبيقى للفلسفة العامة فى ميدان التربية. ومن وجهة النظر هذه يصبح من وظائف الفيلسوف التربوى تطبيق مبادئ الفلسفة المثالية أو الواقعية أو البراجماتية أو ما إلى ذلك على التربية؛ ولذا

---

(١) توفيق الطويل: أسس الفلسفة/ ط٥، القاهرة، دار النهضة العربية، ١٩٦٧ م ص ٣٨.
انظر: عبد الرحمن صالح عبد الله، المنهاج الدراسى أسسه وصلته بالنظرية التربوية الإسلامية، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، ١٤٠٦ - ١٩٨٦، ص ٣٢.

فإن من ينظر فى أسماء مدارس فلسفة التربية يجد أنها ذات المدارس الفكرية التى يتحدث عنها الفلاسفة. فهناك فلسفة مثالية عامة، وهناك أيضا فلسفة مثالية فى التربية»[1]، وهناك فلسفة براجماتية عامة، وهناك فلسفة براجماتية فى التربية . . . وهكذا

فما المقصود بالفلسفة فى التصور الإسلامى؟

لقد اعتدنا أن نقول للشخص الذى يقول كلاما كثيرا بلا معنى: لا داعى لهذه الفلسفة! وأن نرد على الإنسان الذى يقول كلاما غير مفهوم: هذه فلسفة لا فائدة من ورائها، فهل الفلسفة كلام بلا معنى، وحديث بلا فائدة؟ إن الحقيقة غير ذلك[2].

إن الفلسفة تفسير شامل للوجود، يتعامل الإنسان على أساسه مع هذا الوجود. ويتكون هذا التفسير من خمس حقائق جوهرية هى: حقيقة الألوهية، وحقيقة الكون، وحقيقة الإنسان، وحقيقة الحياة، وحقيقة العلاقات والارتباطات الوثيقة بين الحقائق الأربع السابقة.

إنه بناء على فهم الإنسان لذلك التفسير الشامل للوجود (الفلسفة)، وعلى فهمه لحقيقة مركزه فى الوجود الكونى، ولغاية وجوده الإنسانى، يحدد منهج حياته، ونوع النظام الذى يحقق هذا المنهج، والفرق بينه وبين المناهج الأخرى.

فالفلسفة فى الحقيقة هى تصور للألوهية والكون والإنسان والحياة. وكل فلسفة وجدت منذ سقراط وأفلاطون وأرسطو، ومرورا بالفلسفات الإيمانية، والإسلام أبرز مثال لها، والفلسفات الإلحادية، والماركسية أبرز مثال لها، هى كلها تصورات للألوهية والكون والإنسان والحياة. وكل فلسفة منها تختلف عن الأخرى باختلاف رؤية أصحابها لحقيقة الألوهية، ولأصل الكون، وطبيعة الإنسان، وغاية الحياة.

---

(١) انظر: عبد الرحمن صالح عبد الله: المرجع السابق، ص ٣٨.

(٢) انظر: على أحمد مدكور: منهج التربية أسسه وتطبيقاته، القاهرة، دار الفكر العربى، الفصل الأول.

فالفلسفة الإسلامية - مثلا - تستمد تصوراتها من القرآن والسنة؛ لذلك فهى تؤمن بأن الله واحد أحد، فرد صمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد. وأنه الأول والآخر، والظاهر والباطن، وهو على كل شىء قدير، منه صدر كل شىء، وإليه يعود كل شىء، وأنه خلق الكون وجعله غيبا وشهودا، وخلق الإنسان لعبادته، وجعله خليفة فى الأرض لإعمارها وترقية الحياة على ظهرها وفق منهجه تعالى وشريعته. وخلق الحياة دنيا وآخرة، وجعلهما متكاملتين، لا بديلتين ولا نقيضتين.

أما الفلسفات المادية كالماركسية - مثلا - فهى تؤمن بأنه لا إله موجود والحياة مادة، وتؤمن بالكون المشهود، وتنكر الكون المغيب، وترى أن الإنسان مخلوق من مخلوقات الطبيعة وحتمية من حتميات المادة، وأن الحياة ميلاد وموت، لا شىء قبل ذلك ولا شىء بعد ذلك فهى تنكر الحياة الآخرة!

والفلسفة بهذا المعنى هى منهج ونظام للحياة، فهى توجه حياة الإنسان وحياة المجتمع فى سلوكه وعلاقاته وارتباطاته ونظمه ومؤسساته السياسية والاقتصادية والاجتماعية الثقافية والفنية والأدبية والتربوية والإعلامية والإعلانية... إلخ.

فهل بعد كل هذا يستطيع إنسان أو يستطيع مجتمع أن يعيش بلا فلسفة؟ الإجابة بالقطع: لا يستطيع. وهذه مهمة مناهج التربية، فمناهج العلوم الدينية بصفة خاصة ومناهج العلوم الكونية بصفة عامة لا بد أن تتعاون فى رسم التصور الفلسفى للإنسان والمجتمع. فعلوم الدين تزود الإنسان والمجتمع بالتصور العقيدى، والتصور الاجتماعى النابع منه، والعلوم الكونية تزود الفرد والمجتمع بالنظريات والمعلومات والمهارات التى يقيمون على أساسها النظم والمؤسسات وحدود العلاقات والارتباطات.

إن فلسفة المجتمع هى هويته الخاصة وشخصيته المتميزة، فإذا أغفلت مناهج التربية هذا الهدف فإن المجتمع يصبح قابلا للاستلاب الثقافى والانحراف عن استقامة فطرة الله فيه.



مفهوم النظرية التربوية:

النظرية بمعناها العام الذى يشيع فى الغرب، هى تفسير الأمور فى الماضى أو الحاضر أو المستقبل استنادا إلى اعتقاد ثابت أو مفترض.

والنظرية العلميـة بمعناها الدقيق، هى محاولـة لتفسير عـدد من الفروض أو قوانين الطبيعة من خلال وضعها فى إطار عقلى عام(١).

والنظرية التربـوية هى مجمـوع المبادئ المترابطة التى توجـه العمليـة التربوية وتحكم الممارسات التعليمية.

فإذا كانت النظرية العلمية وصفية وتفسيرية فى الأساس، فإن وظيفة النظرية التربوية - كما يقول «بول هيرست» - هى التشخيص والعلاج. وإذا كانت النظرية العلميـة تحاول وصف وتفسـير ما هو قـائم، فإن النظرية التربوية تصف وتقـرر ما ينبغى عمله مع الناشئة، وتوجه وترشد الممارسات التربوية.

ومن هذا المنطلق فإن بول هيرست وغيره «من المربين الغربيين الذين يرفضون بناء النظرية التربوية على النمط العلمى يدعون إلى إعطاء الفلسـفة دورا رئيسيا فى بناء النظرية التربوية، لأنها تمدها بالقيم التى يريدون غرسها فى الناشئة»(٢).

اعتماد النظرية على الفلسفة:

يوضح «مور» العـلاقة بين «الفلسفـة» و«النظرية» التربوية، فيـشبه العـملية التربوية بالبناء المكون من عـدة طوابق. ففى الطابق الأول توجد مـختلف الأنشطة والممارسات التـعليمية، كـالتدريس، والتدريب والتخطيط، وكل المـمارسات التى يشترك فيها المدرسون والطلاب والإدارة المدرسية. وفى الطابق الثانى توجد النظرية التربويـة التى يمكن اعتـبارها مجـموعـة من المبادئ والإرشادات التـى تهدف إلى

---

(١) ت. مور: النظرية التـربوية، ترجمة محـمد أحمد الصادق، وعـبد المجيد عـبد التواب شيحة، ط ١، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية ١٩٨٦ م ص ١٧.

(٢) عبد الرحمن صالح عبد الله، مرجع سابق، ص ٧٤.

توجيه وإرشاد الممارسات التعليمية الجارية فى الطابق الأول. وفى الطابق الثالث أو الأعلى، توجد فلسفة التربية التى تعنى بكل ما يدور فى الطابقين الموجودين أسفل منها. إنها تحلل المفاهيم مثل التربيـة والخبرة، وتحدد لها المعانى التى تدخل فى بناء النظرية فى الطابق الثانى، وتوجه الممارسات التربوية فى الطابق الأول[1].

إذن فكل مناهج التربية الغربية تعتمد على نظريات ترشدها وتوجه سلوكها، وكل نظرية تعتمد على فلسفة أو أكثر تستمد منها مبادئها ومفاهيمها.

فهل منهج التربية الإسلامية فى حاجة إلى نظرية توجهه، وإلى فلسفة يستمد منها مفاهيمه ومبادئه؟

محاولات بناء فلسفة للتربية الإسلامية:

إنه ليس من الضرورى أن نواجه الفلسفات الغربية المختلفة والمتناقضة بفلسفة إسلامـية، وليس من الضـرورى أن نواجه نظرياتهم التى لا يجـمع شتاتهـا جامع بـ«نظريات إسلاميـة». ليس من الضرورى كل هذا لسبب بسيـط هو أن لنا شريعة ربانية كاملة شاملة تتمثل فى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ. أما هم، فقد قطعوا كل صلاتهم بالديـن، فلم يبق لهم غير «الفـلسفة» و«النظرية». فـما يجـوز عليهم لا يجوز علينا.

فالإسلام عقيدة وشريعـة يكفى المسلمين شر اللجوء إلى الفلسفات التى هى من وضع البشر. الفلسفات يلجأ إليها غير المسلمين لعدم وجود شريعة - عاملة - لديهم. وفى ذلك يقول ابن عـبد البر فى كتابه «جامـع بيان العلم وفضله..»: إن أهل الفلسـفـة قد قـسـموا العلـوم إلى علم أعلى، وعلم أوسط، وعلم أسـفل، وجعلوا الفلسـفة هى العلم الأعلى؛ لأن هذا العلم عندهم يرتبط بأمـور قد أغنت عن الكلام فـيهـا كتب الله الناطقـة بالحق المنزلة بالصدق، ومـا صح عن الأنبـياء صلوات الله وسلامه عليهم»[2].

---

(١) ت. مور: النظرية التربوية، مرجع سابق، ص ٢٢.

(٢) ابن عبد البر النمرى القرطبى: جامع بيان العلم وفضله، جـ٢، ص ٣٧ - ٣٨.

ولكن يبـــدو أن بعـضنا - ممن يفكرون فى الإســلام وهــم داخل المنظومـة الغربـية - يصر عـلى أن تكون لنا «فلسفـة» مثل مـا لهم «فلسفـة» وأن تكون لنا «نظرية» مثل ما لهم «نظرية».

فبالرغم من أننا نعرف أن الجيل الأول لهـذه الأمة، وهو جيل فذ فريد، .. جيل قرآنى لم يعرف إلا القرآن وسنـة رسول الله ﷺ، لم يعرف أية «فلسفة» ولم يتربَّ من خـلال أية «نظرية» وبالرغم من ذلك قاد الأمة التى سادت الـدنيا. الأمة التى وصفهـا الله بقوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ... ﴿١١٠﴾﴾ [آل عمران]، وبالرغم من أننا نقرأ ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ... ﴿٩﴾﴾ [الإسراء].

ونقـرأ قول الرسـول الكريم ﷺ: **«لقـد تركت فـيكم مـا إن تمسكتم به لن تضلوا أبدا كتاب الله وسنتى»** (رواه الستة).

أقول بالرغم من هذا الوضـوح، وبالرغم من صفاء النبع المتمـثل فى كتاب الله وسنة رسولـه ﷺ، إلا أن هناك إصرارا على بناء «فلسفـة إسلامـية» على نمط الفلسفة الإغريقية، فجاء القـرنان الرابع والخامس الهجريان بمفكرين مسلمين يطلق عليهم وصف «فلاسفـة الإسلام» وجاءت فلسفتهم ظلا للفلسفة الإغـريقية، غريبة عن روح الإسلام وتصوره الأصيل.

فما الذى حدث؟. اختلطت الينابيع الغربية بالنبع الأصيل الصافى. اختلطت فلسفـة الإغريق ومنطقهم، وأسـاطير الفرس وتصـوراتهم، وإسرائيليات اليـهود، ولاهوت النصارى، وغير ذلك من رواسب الحضارات والثقافات، واختلط كل هذا بتفسـير القرآن، وعلم الكلام، كمـا اختلط بالفقه والأصول أيـضا، وتخرج على ذلك النبع المشوب سائر الأجيال بعد ذلك.

وازدادت الشوائب فى النبع الصافى على مر القـرون بفعل عوامل العداء من الخارج والداخل، حتى جاءت الحـملات الاستعمارية مع بداية القـرن التاسع عشر الميلادى. فبدأت فى عزل ذلك النبع الأصـيل رويدا رويدا عن طريق الحياة، لتحل محله التيارات الغربية المتـربصة.... وها نحن الآن عندما نقول إننا لكى نسترجع هويتنا الأصيلة، لا بد من العودة إلى النبع الصافى مرة أخرى.... إلى كتاب الله

وسنة رسوله ﷺ - نجد من يـرد علينا قائلا: وحتى عندما نعـود إلى كتاب الله، فنحن فى حاجـة إلى أن نستنبط منه «فلسفة» أى رؤية للألوهيـة والكون والإنسان والحياة.

محاولات بناء نظرية للتربية الإسلامية

وكما أن هناك من يرى ضرورة إيجـاد «فلسفة إسلامية» للتـربية، فإنه يوجد من يرى ضرورة بناء «نظرية إسلامـية» للتربية على غرار «النظرية» الغـربية، لكنها تختلف عنها فى أنها ثابتة، وغـير قابلة للرفض. وأنا لا أدرى كيف تكون «نظرية» وتكون غـير قـابلة للرفض؟! ويـرى بعض الباحـثـين أن هذه النظرية تقـوم على الحكمة، وهى عبارة عن مجموعة من المبادئ المترابطة التى جاء بها الإسلام لتوجيه الممارسات التربوية[١].

لا «فلسفة» ولا «نظرية» بل «تصور إسلامى»

إننا لسنا بحاجة إلى «فلسفة» لمناهج التربية، ولا إلى «نظرية» بل إلى «تصور إسلامى» لهذه المناهج.. تصـور يعتمد على الأصول الإسلامـية - قرآنا وسنة -، ثم على الجميل البـاقى من التراث الإسلامى، ثم على معطيـات العلوم والبحوث العلمية التى لا تتعارض مع الأصول الإسلامية، وذلك للأسباب التالية:

١ - أن «النظرية» تمثل وجهـة نظر شخصيـة أو جماعية، وهـى تحمل شارة أصحابهـا، وهى قابلة للقبول والرفض كلية، فلو حـبذنا وجود «نظرية إسلاميـة» فلا بد أن تكون بها عناصر ثابتة، غـير قابلة للرفض، وهذا يتعارض مع كونها «نظرية» فكيف يكون ذلك؟.

٢ - لو حبـذنا وجود «نظرية إسلاميـة» فلا بد أن تعتـمد هذه النظرية على مبادئ وموجهات من القرآن والسنة، وهذه أمور ثابتة، وملزمة لنا إلزاما

---

(٦) انظر: عبد الرحمن صالح عبد الله، مرجع سابق، ص ٧٦، وما بعدها.

وانظر أيضا: عبد القادر هاشم رمزى: النظرية الإسلامية فى فلسفة الدراسات الاجتماعية التربوية، الدوحة، دار الثقافة، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.

مطلقا، وليست مجرد فرضيات - كما يقول أصحاب النظريات - قابلة للصواب والخطأ عن طريق التجربة والممارسة، فكيف يكون ذلك؟.

٣ - أن هذا البناء المفترض أن يكون المسمى بـ «النظرية الإسلامية للتربية» لا بد أن يسترشد ويستأنس بالأفكار والمعايير والقيم والممارسات ذات القيمة الباقية فى التراث الإسلامى، كأفكار ابن خلدون، والغزالى، وابن تيمية وغيرهم ممن لهم آثار باقية على امتداد التاريخ الإسلامى. كما أنه من الضرورى الاسترشاد أيضا. بمعطيات العلوم والبحوث العلمية فى التراث الإنسانى، التى يمكن أن تساعدنا فى ترقية فهمنا للتصور الإسلامى للكون، والإنسان والحياة، ومن نافلة القول أن كل هذه أمور متغيرة، ونحن لسنا ملزمين بها إلزاما مطلقا كما هو الحال مع الأصول الربانية السابقة، فكيف نجمع فى «وجهة نظر» واحدة بين الثابت والمتغير، والملزم وغير الملزم؟

٤ - إذن نحن فى حاجة إلى «تصور إسلامى للتربية» لا إلى «نظرية إسلامية للتربية». ويمكن إبراز الفرق بين المصطلحين على النحو التالى: إننا نتفق - غالبًا - على أن لكل «نظرية» عناصر ثلاثة:

أ - مصادر.

ب - وسائل وأساليب وطرائق.

جـ - مقاصد وغايات.

ولا شك أن أصحاب أية «نظرية» قد يختلفون أو يطورون أو يغيرون فى عناصرها الثلاثة، ابتداء من المصادر، ومرورًا بالوسائل والأساليب والطرائق، وانتهاء بالمقاصد والغايات. ويمكن التأكد من ذلك بمراجعة «النظرية الطبيعية» الإغريقية القديمة مع وضعها الحالى فى الغرب، أو الداروينية القديمة مع الداروينية الحديثة، أو الشيوعية الماركسية مع الشيوعية اللينينية، مع الجورباتشوفية أو «البروستورويكا»

الأخيـرة. . إلخ. ففى كل هذه الحـالات، نجد الاخـتلاف فى وجـهات النظر، والانقـلاب من النقـيض إلى النقـيـض وارد من المصـادر إلى الغايات والمقاصد.

أما فى «التصور الإسلامى للتـربية» فالمصادر ثابتة، والأهداف أو المقاصد والغـايات ثابتة. والشىء الوحيد المتحرك والمتـغير - ويجب أن يكون كذلـك - هو الطرائق والوسائل والأسـاليب التى تتغيـر وتتطور كلمـا ترقى فهم الإنسـان للأصول، وكلمـا اجتـهد فى الوصـول إلى المقاصد والغايات. من هنا فقط يأتى اختلاف «التصور الإسلامى لمناهج التـربيـة» من جـيل إلى جـيل، ومن زمن إلـى زمن، ومن مكان إلى مكان.

فإن قيل: لقد جـمعت فى مصادر «التصور» بيـن الأصول الثابتة كالقـرآن والسنة، والمصادر غـير الثـابتة كالأفكار والخـبرات التـراثية، ومعطيات العلوم والبحوث العلـمية، فكيف يكون ذلك؟ فالجواب: هو أن التراث ومـعطيات العلوم ما هى إلا وسـائل مساعدة لـترقية فـهمنا للأصول الثـابتة، ولترقـية جهـودنا فى تحقـيق الأهداف والوصول إلى الغايات والمقاصد.

٥ - بقى أن أضـيف أن مصطلح «نظـرية» لمـنـاهج التربية الإسلامـية، كان وما زال يحمل إلىَّ وإلى كثيرين غيرى عدة احتمالات غير مريحة:

أولاً: أنه قد يكون خطوة نحو عزل الأصول - موجهات القرآن الكريم - عن العمل والممارسة المباشرة. وهذا يتعارض مع كون الإسلام «منهجًـا» لحكم الحياة، و«تصـميمًا» لبـناء يريد الله من الإنسان القيام على تنفيذه فى واقع الأرض.

ثانيًا: أنه قد يكون سبيلاً إلى تحويل الإسلام - وهو منهج حركى فاعل فى واقع الحياة - إلى مـجرد «نظرية» للدراسة الذهنيـة، والمعرفة الثقافية.

ثالثًا: أنه قد يعطى الإيحاء بأننا مجرد مقلدين مهزومين؛ نريد أن نواجه «النظريات» البشرية بـ«نظريات» إسلامية، وهذا وضع لا يليق بأصحاب الرسالة الربانية العالمية الخاتمة الشاملة.

إذن، نحن فى حاجة إلى «**تصور إسلامى لمناهج التربية**». تصور ثابت؛ من حيث إنه يعتمد على الأصول الربانية الثابتة وعلى الأهداف والمقاصد والغايات الثابتة فى جوهرها، وإن اختلفت أشكالها. وهو فى نفس الوقت تصور متطور راق؛ من حيث إنه يختلف فى طرائقه وأساليبه ووسائله، باختلاف الزمان والمكان وحاجات الناس.

يقول الأستاذ سيد قطب: «يجب أن يعرف أصحاب هذا الدين جيدًا أنه- كما أنه فى ذاته دين ربانى فإن منهجه فى العمل منهج ربانى كذلك - متوافق مع طبيعته، وأنه لا يمكن فصل حقيقة هذا الدين عن منهجه فى العمل»[1]. قال تعالى فى شأن الطريقة التى نزل بها القرآن فى مكة: ﴿**وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا** ﴿١٠٦﴾﴾ [الإسراء]. فالفرق والمكث مقصودان حتى تتم ترجمة كل آية، أو مجموعة من الآيات إلى واقع حي متحرك، لا إلى صورة «نظرية». فمن الخطأ والخطر أن تتبلور الشريعة فى صورة «نظرية» مجردة للدراسة الذهنية، والمعرفة الثقافية[2].

هذه هى طبيعة هذا الدين، يجب أن نعرفها، وألا نحاول تغييرها تلبية لرغبات معجلة مهزومة أمام أشكال النظريات البشرية. فهو بهذه الطبيعة صنع الأمة المسلمة أول مرة، وبها يصنع الأمة المسلمة فى كل مرة يراد فيها أن يعاد إخراج الأمة المسلمة للوجود كما أخرجها الله أول مرة.

«يجب أن ندرك خطأ المحاولة وخطرها معًا. فى تحويل العقيدة الإسلامية التى تحب أن تتمثل فى واقع نام حى متحرك، وفى تجمع عضوى حركى..

---

(1) سيد قطب: معالم فى الطريق، مرجع سابق، ص٤٧.

(2) المرجع السابق. ص٤٤.

تحويلها عن طبيعتها هذه إلى نظرية للدراسة والمعرفة الثقافية، لمجرد أننا نريد أن نواجه النظريات البشرية الهزيلة بـ«نظرية إسلامية»[1].

لقد جاء الإسلام ليغير واقع العقيدة السائد وواقع الحياة السائد، وواقع منهج التفكير السائد. ومن ثم لا يجوز للمسلمين أن يفعلوا العكس بأن يحولوا منهج الإسلام فى التفكير والعمل ليتناسب مع المناهج الوضعية السائدة فى صورة «فلسفية»، أو «نظرية».

إن تخلف المسلمين إنما حدث عندما حادوا عن طريق الله، بسبب اختلاط المصادر والينابيع، فقد خلطوا النبع الربانى الأصيل الصافى بالينابيع البشرية الزائفة، وأخضعوا الإسلام لمناهج التفكير البشرية، وكأنما المنهج الربانى أدنى من المناهج البشرية. و«كأنما نريد أن نرتقى بمنهج الله فى التصور والحركة ليوازى مناهج العبيد»[2].

إن الفصل بين أصول التربية الإسلامية وبين الممارسة الواقعية لهذه الأصول هو تمييع لهذه الأصول.. ربما يصل إلى حد التضييع لها.

إن منهج التربية الإسلامية - كمنهج الإسلام العام - «يكره بطبيعته أن يتمثل فى مجرد تصور ذهنى معرفى، لأن هذا يخالف طبيعته وغايته، ويجب أن يتمثل فى أناسى، وفى تنظيم حى، وفى حركة واقعية... وكل نمو نظرى يسبق النمو الحركى الواقعى، ولا يتمثل من خلاله، هو خطأ وخطر كذلك..»[3].

ويتمثل الخطر فى أن «النظرية» التى قد تشتق من الأصول لتقوم عليها الممارسة، سوف تعمل كطبقة عازلة بين الأصول والممارسة القائمة عليها، أى أنها سوف تعكر النبع الصافى أولاً، ثم تخلطه بينابيع أخرى رويدًا رويدًا... ثم تقضى عليه.

يقول ابن القيم فى «أعلام الموقعين» تحت عنوان: لا حاجة للناس بعد رسول الله ودينه، لأنه جاءهم بخير الدنيا والآخرة، ولم يحوجهم الله إلى أحد

---

(١) المرجع السابق. ص٤٥.
(٢) المرجع السابق. ص٤٨.
(٣) المرجع السابق. ص٤٦.

سواه، كما وفق الله أصحاب نبيه الذين اكتفوا بما جاء به، واستغنوا به عما سواه، وفتحوا به القلوب والبلاد، وقالوا: هذا عهد نبينا إلينا وهو عهدنا إليكم. وقد كان عمر - رضى الله عنه - منع الحديث عن رسول الله ﷺ خشية أن يشتغل الناس به عن القرآن، فكيف لو رأى اشتغال الناس بآرائهم وزبد أفكارهم وزبالة أذهانهم عن القرآن والحديث؟[1] وقد قال الله تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ [العنكبوت].

﴿... وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [النحل].

والخلاصة أننا لا بد من أن نرجع إلى النبع الصافى الخالص، النبع المضمون الذى لم تشبه شائبة، النبع الذى منه تربت وترعرعت الأمة الإسلامية الأولى. نرجع إليه لنستمد منه تصورنا لمنهج التربية الإسلامية، ولمناهج السياسة والاقتصاد والاجتماع، وكل الجوانب الأخرى للحياة. نرجع إليه مباشرة... دون وساطة من «فلسفة» أو «نظرية».

هذه هى طبيعة الإسلام فى التفكير والعمل. «وهو بهذه الطبيعة، صنع الأمة الإسلامية أول مرة - كما يقول الأستاذ سيد قطب - وبها يصنع الأمة المسلمة فى كل مرة يراد فيها أن يعاد إخراج الأمة المسلمة للوجود كما أخرجها الله أول مرة»[2]:

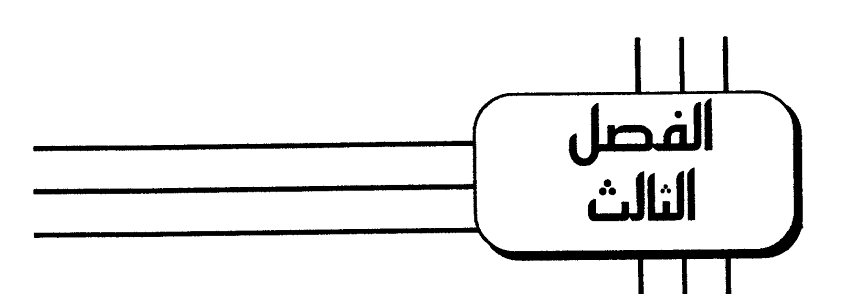
﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام]. هذا هو صراط الله؛ وهذا هو سبيله.. وليس وراءه إلا السبل التى تتفرق بمن يسلكونها عن سبيله.

بناء على هذا التصور نتناول فى الفصول القادمة مفهوم المنهج وخصائصه، وأسسه ومكوناته فى التصور الإسلامى، ثم نعرض بعد ذلك لنظريات المناهج لدى المدرسة العلمانية.

---

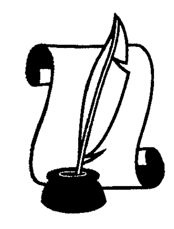
(١) ابن القيم: أعلام الموقعين عن رب العالمين، بيروت، دار الجيل، بدون تاريخ جـ٤، ص٣٧٦.

(٢) سيد قطب: معالم فى الطريق، مرجع سابق ص٤٥.



الفصل الثالث

مفهوم منهج التربية في التصور الإسلامي وخصائصه





مفهوم المنهج:

يتناول هذا الفصل الإجابة عن الأسئلة الآتية:

- ما مفهوم منهج التربية فى التطور الإسلامى؟
- وما الفرق بينه وبين المناهج الأخرى؟
- وما الخصائص والمقومات التى يقوم عليها هذا المنهج وتميزه عن كل المناهج الأخرى؟

إن مهمة هذا الفصل هى الإجابة عن هذه الأسئلة.

مفهومات عامة للمنهج:

يعرف ابن منظور المنهج بأنه الطريق البين الواضح. ومنهج الطريق وضحه[1] والمنهاج كالمنهج. وفى التنزيل: ﴿... **لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا** ...(٤٨)﴾ [المائدة] والمنهاج - كما يقول ابن كثير -: هو «الطريق الواضح السهل، والسنن والطرائق»[2].

لكن تعريف المنهج بأنه الطريق السهل الواضح، وأنه السنن والطرائق، هو تعريف عام يصلح لكل جوانب الحياة ومجالاتها: كالزراعة والصناعة والتجارة والتربية وغير ذلك. ومن هنا كان لابد من السير به خطوة نحو التخصص.. نحو التربية.

ويرى معظم المتخصصين المعاصرين فى المناهج وطرق التدريس. أن المنهج التربوى هو «مجموع الخبرات والأنشطة التى تقدمها المدرسة تحت إشرافها للتلاميذ بقصد احتكاكهم بها وتفاعلهم معها. ومن نتائج هذا الاحتكاك والتفاعل يحدث

---

(١) ابن منظور: لسان العرب، جـ٥، ص ٤٥٥٤.

(٢) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، جـ٢، دار الأندلس، ١٤٠ هـ، ص٥٨٨.

تعلم أو تعديل فى سلوكـهم، ويؤدى هذا إلى تحقيق النمـو الشامل المتكامل الذى هو الهدف الأسمى للتربية»[١].

ويلاحظ على هذا التعريف أمران:

الأول: أنه واسع بحيث يشمل الخبرات التربوية المختلفة، والتى عن طريقها ينتقل محتوى المنهج، كما يشمل أيضًـا المواد المستخدمة، والطرق والوسائل المتبعة فى عملية التدريس والتقويم.

الأمر الثـانى: أن مـفهـوم المنهج هنا يشـمل البرنامـج، والبرنامج يشـمل المقـررات، والمقررات تشـمل الوحـدات، والوحدة قـد تتكون من درس أو عـدة دروس.

وهذا المفـهوم للمنهج، رغم اتـساعـه وشمـوله، إلا أنه لا يصلح أن يكون مفـهومًا لمنهج التـربية فى التصـور الإسلامى؛ لأنه مفـهوم يصل الناس بالأرض، ويؤهلهم للاستـمتاع بهـا، وعمارتهـا، والكفاح من أجلهـا، دون نظر إلى خالق الأرض والسماء، ومـبدع الكون كله، ودون ربط للإنسان بمصـدر وجوده، وغاية وجوده. ولهذا، فإن هذا المفهوم ربما يصلح لكل المجتمعات ولكل الثقافات. فكل مجـتمع يسـتطيع أن يصمـم منهجًـا - وفقًا لهـذا المفهـوم - يناسب حيـاته على الأرض.

والأمر مختلف تمامًا بالنسبة لمنهج التربيـة فى التصور الإسلامى. فمهمة هذا المنهج الأولى والأخـيرة: هى أن تصل الإنسـان بالله، ليصلح حـاله على الأرض وينظم حيـاته فيها، فـيعمرها ويرقـيها عن طريق الكد والكدح المستـمرين، وعن طريق التحليل فـيها والتركـيب، واستغلال كل الطاقـات والإمكانات المدركة التى منحه الله إياها. وبحـيث يفعل كل هذا بينمـا يكون متجـهًا - فى نفس الوقت- بعقله وقلبه إلى الله. وهنا يرتبط ملكوت الأرض بملكوت السماء.

---

(١) محمـد عزت عبد الموجـود وزملاؤه: أساسيات المنهـج وتنظيماته، القاهرة، دار الثـقافة للطباعة والنشر، ١٩٨١م ص١١.

مفهوم منهج التربية فى التصور الإسلامى:

ومن هنا تظهر الحاجة إلى تعريف مناسب لهذا المنهج الربانى الفريد. وهنا يمكن القول - اجتهادًا - إن منهج التربية فى التصور الإسلامى هو **«نظام من الحقائق والمعايير والقيم الإلهية الثابتة، والمعارف والخبرات والمهارات الإنسانية المتغيرة، ينبع من التصور الإسلامى للكون والإنسان والحياة، ويهدف إلى تربية الإنسان، وإيصاله إلى درجة كماله، التى تمكنه من القيام بواجبات الخلافة فى الأرض، عن طريق إعمارها، وترقية الحياة على ظهرها، وفق منهج الله»**.

الخصائص التى يتميز بها هذا المفهوم:

وهذا المفهوم لمنهج التربية الإسلامية، يتميز ويتفرد بمجموعة من الخصائص أهمها أنه نظام، ربانى، عالمى، ثابت، شامل، متوازن، إيجابى، واقعى، ونعرض لهذه الخصائص بشىء من التفصيل فيما يلى:

١ - النظام:

الخاصية الأولى هى أن منهج التربية فى التصور الإسلامى «نظام»! أى أنه بمفهومه وخصائصه، وأسس بنائه، وعناصره يكون كلا متكاملاً، كل جزء فيه يتأثر ببقية الأجزاء ويؤثر فيها. ويتأثر بالكل ويؤثر فيه. فالأهداف تنبع من الأسس، وتؤثر فى المحتوى، وفى طرائق التدريس، وفى التقويم والتطوير، والعكس بالعكس.

٢ - الربانية:

الخاصية الثانية لمنهج التربية الإسلامية هى الربانية.

يقول الدكتور يوسف القرضاوى: إن المراد من الربانية هنا أمران:

- ربانية المصدر والمنبع. - وربانية الوجهة والغاية[1].

---

(١) يوسف القرضاوى: الخصائص العامة للإسلام، القاهرة، مكتبة وهبة، ط٢، ١٤٠١هـ، ص٧.



ربانية المصدر والمنبع:

إن أولى مقومات النظام الإسـلامى أنه نظام ربانى «صادر من الله للإنسان، وليس من صنع الإنسـان. تتلقاه الكينونة الإنسـانية بجملتـها من بارئهـا. وليست الكينونة الإنسانية هى التى تنشئه، كمـا تنشئ التصور الوثنى، أو التصور الفلسفى - على اختـلاف ما بينهمـا - وعمل الإنسان فـيه هو تلقيـه وإدراكه والتكيف به، وتطبيق مقتضياته فى الحياة البشرية»(١).

وإذا كان الفكر البشرى لم ينشئ هذا النظام، فـإن له وجودا قويا فى مجاله للعمل فيه. «بيد أن عمله هو التلقى والإدراك والتكيف والتطبيق فى واقع الحياة.. غير أن القاعدة المنهجية الصحيحة للتلقى... هى هذه... إنه ليس للفكر البشرى أن يتلقى هذا التصـور بمقررات، يستـمدها من أى مصـدر آخر، أو يستـمدها من مقولاته هو نفسه، ثم يحاكم إليـها هذا التصور، ويزنه بموازينها... إنما هو يتلقى موازينه ومقرراته من هذا التصور ذاته، ويتكيف به، ويستقيم على منهجه»(٢).

«وفى الوقت ذاته يعتبـر الفكر البشرى - فى ميزان هذا التصـور - أداة قيمة وعظيمة، يوكل إليها إدراك خصائص هذا التصور ومقوماته - مستقاة من مصدرها الإلهى - وتحكيمـها فى كل ما حـوله من القيم والأوضاع. دون زيادة عليـها من خارجها، ودون نقص كـذلك منها... ويبذل منهج التربية الإسـلامية لهذه الأداة العظيمة من الرعـاية والعناية، لتقويمهـا وتسديدها وابتعاثها للعـمل فى كل ميدان هى مهيأة له.. الشىء الكثير»(٣).

إذن فوظيفة الإنـسان فى هذا النظام هى التلقى فى حدود طبيعتـه الإنسانية، وفى حدود وظيفته. «فـالإنسان محكوم أولاً بطبيعته: طبيـعة أنه مخلوق حادث، ليس كليًّا ولا مطلقًا. ليس أزليًّا ولا أبديًّا، ومن ثم فإن إدراكـه لابد أن يكون

---

(١) سيد قطب: خصائص التطور الإسلامى ومقوماته. الطبعة السابعة، بيروت، دار الشروق، ١٤٠٢هـ- ١٩٨٢م، ص٤٤.

(٢) المرجع السابق، ص٤٥.

(٣) المرجع السابق، ص٤٧.

محدودًا بما تحـده طبيعتـه، ثم هو محدود بوظيـفته، وظيفة الخـلافة فى الأرض؛ لتحقيق معنى العبودية لله فـيها. . . ومن ثم فقد وهب من الإدراك ما يناسب هذه الخلافة بلا نقص ولا زيادة. . .

ربانية الوجهة والغاية:

أما ربانية الوجهة والغاية فنعنى بها - كما يقول الدكتور القرضاوى -: "أن الإسـلام يجعل غـايته الأخـيرة وهدفـه البعـيد، هـو حسن الصلة بالله - تبـارك وتعالى -، والحصول على مرضاته. فهـذه غاية الإنسان، ووجهة الإنسان، ومنتهى أمله وسعـيه وكـدحه فى الحـياة"[1]. . . ﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاقِيهِ ﴿٦﴾﴾ [الانشقاق]، ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾﴾ [النجم].

وبناء على مـا سبق، فإنه يـترتب على كون المنـهج الإسلامى منهـجًا ربانى المصدر والغاية، أنه منهج «كـامل متكامل، لا يقبل تنمية ولا تكمـيلاً، كما أنه لا يقبل «قطع غـيار» من خارجـه، فهو من صنعـة الله، فلا يتناسق معـه ما هو من صنعة غيره»[2].

ووظيفة الإنســان فى هذا المنهج هى تلقيه، وإدراكه، والاجـتهاد فى إطاره، والتكيف به، وتطبيق مقتضياته فى واقع الحياة.

الربانية والمنهج:

إن منهج التربية الإسـلامية كمنهج الإسلام العـام، منهج ربانى فى مصدره وغايته؛ ولذلك فهو يزود الإنسان (المتعلم) بمجموعة الحقائق والمعايير والقيم الثابتة التى توجه عمله وإسهامه، بل وتعينه على عمارة الأرض وترقيتها وفق منهج الله. فلا مراء أنه من الضرورى لكل إنسان (متـعلم) أن يفهم الحقائق الثابتة فى الكون: كحقـيقة الألوهية وحـقيقة الربوبيـة، وحقيقـة الكون، وحقيقـة الحياة، وحقـيقة

---

(١) يوسف القرضاوى: مرجع سابق، ص٧.

(٢) سيد قطب: خصائص التطور الإسلامى ومقوماته، مرجع سابق ص٤١.



الإنسان... إلى آخره. فبدون فهم هذه الحقائق، لا يستطيع الإنسان أن يفهم حقيقة وجوده، ولا دوره فى هذا الوجود، فضلاً عن مصدر وجوده وغايته.

ومن الضرورى أن يعرف الإنسان (المتعلم) المعايير التى يرجع إليها فى إقامة الجوانب المختلفة لحياته على الأرض. فالشورى معيار للسياسة ونظام الحكم، والعدالة الاجتماعية معيار للنظام الاقتصادى، والتراحم، والتكافل، والتعاون معايير لتنظيم الحياة الاجتماعية والعلاقات بين الناس... وهكذا.

ومن الضرورى أن يفهم الإنسان (المتعلم) مجموعة القيم الأساسية التى يقوم عليها نظام الحياة الإنسانية الراقية. فالعلم واستخدامه فى إعمار الحياة وترقيتها (لا فى خرابها)، والإحسان والدقة فى العمل، والنظام، والنظافة، وصدق الشعور فى القول والعمل... كل هذه قيم ثابتة، لا يمكن أن يقوم نظام إنسانى راق - فى أى وقت - على وجه الأرض بدونها.

إن الإسلام لا يتسامح - كما يقول الأستاذ سيد قطب - «أن يتلقى المسلم أصول عقيدته ولا مقومات تصوره، ولا تفسير قرآنه وحديثه وسيرة نبيه، ولا منهج تاريخه وتفسير نشاطه، ولا مذهب مجتمعه، ولا نظام حكمه، ولا منهج سياسته، ولا موجبات فنه وأدبه وتعبيره... من مصادر غير إسلامية، ولا أن يتلقى فى كل هذا من غير مسلم يثق فى دينه وتقواه»(١).

وهذا الأمر أكبر وأثقل فى ميزان الله من أن يعتمد فيه على رأى شخصى. فالأمر فيه لله وللرسول، يقول الله سبحانه عن الهدف النهائى لليهود والنصارى فى شأن المسلمين بصفة عامة: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٩)﴾ [البقرة].

﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١٢٠)﴾ [البقرة].

---

(١) سيد قطب: العدالة الاجتماعية فى الإسلام، مرجع سابق، ص٢٠٣.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴿١٠٠﴾﴾ [آل عمران].

والواقع أن الإسلام يفرق فى هذا الأمر بين نوعين من العلوم: العلوم التى تتصل بتفسير النشاط الإنسانى كله: كالفنون والآداب والعلوم الإنسانية عمومًا. فهذه يجب على المسلم ألا يتلقاها إلا على يد مسلم يوثق فى علمه ودينه.

أما ما يردده بعض مفكرينا من آن لآخر، من أن الفنون والآداب يجب أن تدرس كفنون جميلة فى حد ذاتها، دون ربطها بالعقائد والأخلاقيات، فهذا رأى مرفوض إسلاميًّا؛ لأن الإسلام لا يعترف بنظريات «العلم للعلم» و«الفن للفن». فالعلوم والفنون ما هى إلا وسائل وأدوات خلقها الله؛ ليتعلمها الإنسان ويستخدمها فى عمارة الأرض، وترقيتها وفق منهج الله.

أما العلوم البحتة كعلوم الكيمياء والفيزياء والأحياء وعلوم الصناعة والزراعة... إلخ. فالأصل أن يسعى المجتمع المسلم لتوفير الكفايات فيها، باعتبار أن تعلمها فرض كفاية. فإذا لم تتوافر الكفايات أثم المجتمع كله. وإلى أن تتوافر الكفايات فى هذا الميدان فإن للمسلم أن يتلقى هذه العلوم عن المسلم وغير المسلم.

وليس معنى ما تقدم هو الدعوة إلى الانغلاق وعدم التفكر، وعدم الاستفادة من أفكار الآخرين وتجاربهم أينما كانوا، فليس هذا من الإسلام فى شىء.

وقد وضع لنا الرسول الكريم ﷺ المبدأ الهادى فى هذا السبيل حيث قال: «**الحكمة ضالة المؤمن حيثما وجدها فهو أحق الناس بها**».

إذن فهذه دعوة إلى الانفتاح على الفكر الإنسانى، لا إلى الانغلاق، ولكنه الانفتاح الذى ينشد الحكمة، ويزن كل شىء وفقًا لمعايير وقواعد منهج الله.

٣ - التوحيد:

الخاصية الثالثة من خواص منهج التربية فى الإسلام هى خاصية التوحيد. فالتوحيد هو المقوم الأول للنظام الإسلامى. فهو حقيقة أساسية فى العقيدة

الإسلامية. وبالتوحيد يتفرد النظام أو المنهج الإسلامى من بين سائر النظم والمناهج الاعتقادية والفلسفية السائدة فى الأرض.

«ونبادر فنقرر أن «التوحيد» كان هو «الخاصية» البارزة فى كل دين جاء به من عند الله رسول. كما أنه «المقوم الأول» فى دين الله كله... وأن «الإسلام» - على إطلاقه - كان هو الدين الذى جاء به كل رسول. بما أن الدين هو إسلام الوجه لله وحده. واتباع منهج الله -وحده- فى كل شؤون الحياة، والتلقى من الله - وحده- فى هذه الشؤون كلها، والعبودية لله وحده بطاعة منهجه وشريعته ونظامه، والعباده لله وحده سواء فى الشعائر التعبدية أو فى نظام الحياة الواقعية»:
﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ (٢٥)﴾ [الأنبياء].
فالقرآن الكريم فى الآية السابقة يؤكد هذه الحقيقة إجمالاً. ويؤكدها تفصيلاً فيما يلى:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٥٩)﴾ [الأعراف].

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ (٦٥)﴾ [الأعراف].

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ... (٨٥)﴾ [الأعراف].

﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ (٩) إِذْ رَأَىٰ نَارًا فَقَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى (١٠) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَىٰ (١١) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (١٢) وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ (١٣) إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي (١٤)﴾ [طه].

﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي



وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [المائدة].

«ولكن التحريفات والانحرافات التى وقعت فى تصورات أتباع الرسل، إلى جانب طغيان الجاهليات على الديانات، لم تبق فى الأرض كلها من تصور دينى صحيح، إلا التصور الذى جاء به محمد ﷺ وحفظ الله أصوله، فلم تمتد إليها يد التحريف، ولم تطمسها كذلك الجاهليات التى طغت على حياة الناس... ومن ثم أصبح التوحيد خاصية من خصائص هذا الدين»[1].

يقوم التصور الإسلامى على أساس أن هناك ألوهية وعبودية... ألوهية يتفرد بها الله سبحانه، وعبودية يشترك فيها كل من عداه وكل ما عداه... وكما يتفرد الله - سبحانه - بالألوهية، كذلك يتفرد - تبعًا لهذا- بكل خصائص الألوهية.. كذلك يتجرد كل حى وكل شىء من خصائص الألوهية. فهناك إذن وجودان متميزان: وجود الله، ووجود ما عداه من عبيد الله، والعلاقة بين الوجودين هى علاقة الخالق بالمخلوق، والإله بالعبيد...

«هذه هى القاعدة الأولى فى التصور الإسلامى... ومنها تنبثق وعليها تقوم سائر القواعد الأخرى... وقيام التصور الإسلامى على هذه القاعدة الأساسية هو الذى يجعلها إحدى خصائصه»[2].

فالله - سبحانه- واحد فى ذاته، متفرد فى كل خصائصه، ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص].

والله - سبحانه- خالق كل شىء: ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [الأنعام].

---

(١) انظر: سيد قطب: فصل: «التوحيد» فى تفصيل الانحرافات والتحريفات التى وقعت فى تصورات أتباع الرسل، فى الديانتين: اليهودية والنصرانية، وفى خصائص التصور الإسلامى ومقوماته.

(٢) المرجع السابق، ص١٨٣.

والله - سبحانه- هو مالك كل شيء:

﴿ ... وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ... ﴿١٧﴾ ﴾ [المائدة].

والله - سبحانه- هو الرزاق لكل من خلق ولكل ما خلق:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [فاطر].

﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لاَّ تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ... ﴿٦٠﴾ ﴾ [العنكبوت].

والله سبحانه هو مدبر كل شيء. ومصرف كل شيء، وحافظ كل شيء:

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنْ بَعْدِهِ... ﴿٤١﴾ ﴾ [فاطر].

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ ... ﴿٢٥﴾ ﴾ [الروم].

﴿ ... وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً ﴿٢﴾ ﴾ [الفرقان].

وكل خلائق الله - سبحانه - تقر له بالعبودية والطاعة والقنوت:

﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ ﴾ [فصلت].

﴿ ... وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ... ﴿٤٤﴾ ﴾ [الإسراء].

التوحيد والحرية الإنسانية:

ولا يتم الحديث عن خاصية التوحيد إلا بالحديث عن مقتضيات هذا التوحيد. ومن مقتضيات الألوهية فى التصور الإسلامى ما يأتى:

١ - إفراد الله - سبحانه - بخصائص الألوهية فى تصريف حياة البشر، كإفراده - سبحانه- بخصائص الألوهية فى اعتقادهم وتصورهم، وفى ضمائرهم وشعائرهم على السواء... فيتوجهون لله وحده بالشعائر التعبدية والتقوى.

٢ - ومن مقتضيات التوحيد أيضًا أن «يعتقد المسلم أن لا حاكم إلا الله، وأن لا مشرع إلا الله، وأن لا منظم لحياة البشر وعلاقاتهم وارتباطاتهم بالكون وبالحياة وبالأحياء وببنى الإنسان من جنسه إلا الله. . . فيتلقى من الله وحده التوجيه والتشريع، ومنهج الحياة، ونظام المعيشة، وقواعد الارتباطات، وميزان القيم والاعتبارات. . . سواء»[1].

٣ - أما الأثر المتفرد الذى ينشئه النظام الإسلامى فى ضمير الإنسان المسلم والمجتمع المسلم عن طريق خاصية «التوحيد» فهو تحرير الإنسان. . . أو بتعبير آخر. . . ميلاد الإنسان. . . «إن المنهج الإسلامى - بهذه الخاصية - يخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده. و«الإنسان» بمعناه لا يوجد على الأرض إلا يوم تتحرر رقبته، وتتحرر حياته من سلطان العباد - فى أية صورة من الصور - كما يتحرر ضميره من هذا السلطان سواء»[2].

«إن الناس فى جميع الأنظمة التى يتولى التشريع والحاكمية فيها البشر. . . يقعون فى عبودية العباد. . . وفى الإسلام - وحده - يتحررون من هذه العبودية للعباد بعبوديتهم لله وحده»[3].

وهذه هى الهدية التى أهداها الله لعباده فى الأرض عن طريق التوحيد. ويستطيع أصحاب عقيدة التوحيد أن يهدوها - بدورهم - للبشرية كلها. إن أصحاب هذه العقيدة «لا يملكون أن يقدموا للبشرية اليوم أمجادا علمية، ولا فتوحات حضارية يبلغ من ضخامتها أن تتفوق تفوقا ساحقا على كل ما لدى البشرية منها. . . ولكنهم يملكون أن يقدموا لها شيئًا أعظم من كل الأمجاد العلمية، والفتوحات الحضارية، إنهم يقدمون «تحرير الإنسان» بل «ميلاد الإنسان»[4].

---

(١) سيد قطب: المرجع السابق، ص١٩٠.

(٢) المرجع السابق، ص١٩٨.

(٣) المرجع السابق، ص١٩٨.

(٤) المرجع السابق ص٢٠٠.

٤ - العالمية:

الخاصية الرابعة من خواص منهج التربية فى الإسلام هى العالمية.

فالإسلام عقيدة. وشريعة لحكم الحياة. ولما كانت هذه العقيدة ربانية المصدر والغاية وإنسانية الطابع، وخاتمة الشرائع السماوية فهى عالمية. ومعنى عالمية الإسلام أنه دعوة لجميع البشر؛ دعوة ليست عنصرية، ولا قومية، ولا محدودة بحدود جغرافية أو إقليمية أو وقتية.

الإسلام فى صورته التامة والخاتمة:

يقول الأستاذ سيد قطب: «إن الإسلام تمشيًا مع طبيعته العالمية، قد احتضن الرسالات والديانات كلها من قبله، وقرر مع وحدة الإله، وحدة العقيدة، ووحدة الدين الذى أرسل الله به رسله جميعًا، فكل الرسل جاءوا بدين واحد، هو الإسلام، إسلام القلب لله وحده بلا شريك، هذا هو أساس العقيدة الذى لا يتبدل. أما التشريع الذى ينظم حياة الجماعة فهو الذى يتطور فى الرسالات الإلهية على أيدى الرسل؛ تبعًا لمصلحة البشرية ودرجة نموها، وتطور إدراكها... حتى إذا جاء الإسلام فى صورته النهائية التى جاء عليها فى رسالة محمد ﷺ كان قد احتضن الفكرة الأساسية فى دين الله الواحد، واستبقى الصالح من المبادئ والتشريعات والنظم فى الرسالات السابقة وأكمل الناقص منها وأتمه»[1]:

﴿... الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ...﴾ [المائدة].

إن رسالة الإسلام النهائية الخاتمة التى تمثلت فى رسالة محمد ﷺ، ليست رسالة للعرب، ولا لجنس دون غيره من أجناس البشر. فإذا كانت الصورة التى نزل بها الإسلام على موسى كانت خاصة ببنى إسرائيل وإذا كانت الصورة التى

---

(١) سيد قطب: نحو مجتمع إسلامى، بيروت، دار الشروق، ط٦، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م ص١١٠.

نزل بها الإسلام على عيسى لهداية الضالين من بنى إسرائيل، فإن الإسلام فى الصورة الخاتمة التى نزل بها القرآن الكريم، وشرحت فى سنة رسول الله ﷺ، إنما جاءت لهداية البشرية جميعًا، وفى كافة أنحاء الأرض.

الإسلام رسالة عالمية وشريعة كونية:

الإسلام رسالة عالمية، وشريعته التى يستمد منها الناس منهج حياتهم هى شريعة كونية. والنصوص فى ذلك واضحة وحاسمة، فالقرآن هو آيات الله وكلمته للإنسان جمعاء: ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ۝٢٧﴾ [التكوير] ومحمد ﷺ هو رسول الله للناس كافة: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً ... ۝٢٨﴾ [سبأ]. وقد أرسل بالإسلام رحمة للناس جميعًا: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ۝١٠٧﴾ [الأنبياء].

«إن هذا الدين ليس إعلانًا لتحرير الإنسان العربى، وليس رسالة خاصة بالعرب... إن موضوعه هو «الإنسان».. نوع «الإنسان»... ومجاله هو «الأرض»... كل «الأرض». إن الله - سبحانه وتعالى - ليس ربا للعرب وحدهم، ولا حتى لمن يعتنقون العقيدة الإسلامية وحدهم... إن الله هو «رب العالمين»... وهذا الدين يريد أن يرد «العالمين» إلى ربهم، وأن ينتزعهم من العبودية لغيره. والعبودية الكبرى - فى نظر الإسلام - هى خضوع البشر لأحكام يشرعها لهم ناس من البشر... وهذه هى العبادة التى يقرر أنها لا تكون إلا لله.. وأن من يتوجه بها لغير الله يخرج من دين الله مهما ادعى أنه فى هذا الدين»[1].

ولقد نص رسول الله ﷺ، على أن اتباع الناس لشرائع العباد وأحكامهم هو «العبادة» التى صار بها اليهود والنصارى «مشركين» مخالفين لما أمروا به من «عبادة» الله وحده.

---

(١) سيد قطب: معالم فى الطريق، ط١٠، بيروت، دار الشروق، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٢م، ص٦٩-٧٠.

إن إقامة البناء الاعتقادى فى الضمير وفى الواقع على أساس العبودية الكاملة لله وحده، هى المدلول العلمى لشهادة أن لا إله إلا الله. كما أن التلقى فى كيفية هذه العبودية عن رسول الله ﷺ هو وحده المدلول العلمى لشهادة أن محمدًا رسول الله.

إن هذه هى قاعدة المنهج الإسلامى التى تميزه عن كل المناهج والأنظمة الأخرى التى عرفتها البشرية، وهى أساس منهج الوجود كله وليس الحياة الإنسانية فقط، فالوجود كله من خلق الله.

﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾ [النحل].

﴿... وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾﴾ [الفرقان].

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف].

إن شريعة الله للإنسان ما هى إلا قطاع من الناموس الإلهى العام الذى يحكم فطرة الإنسان، وفطرة الوجود الكونى العام، وينسق حياة الإنسان مع الوجود الكونى من حوله.

فالشريعة التى سنها الله لتنظيم حياة البشر - كما يقول الأستاذ سيد قطب: «هى شريعة كونية، متصلة بناموس الكون العام، ومتناسقة معه... ومن ثم فإن الالتزام به ناشئ عن ضرورة تحقيق التناسق بين حياة الإنسان، وحركة الكون الذى يعيش فيه»، «ولما كان البشر لا يملكون أن يدركوا جميع السنن الكونية ولا أن يحيطوا بأطراف الناموس العام... فإنهم - من ثم - لا يملكون أن يشرعوا لحياة البشر نظامًا يتحقق به التناسق بين حياة الناس وحركة الكون، ولا حتى التناسق بين فطرتهم المضمرة وحياتهم الظاهرة. (وهكذا) يصبح العمل بشريعة الله واجبًا لتحقيق ذلك التناسق...»[1].

---

(١) سيد قطب: معالم فى الطريق، المرجع السابق ١١١.

إن هذا التناسق يحقق للإنسـان السلام مع نفسه، كمـا يحقق له السلام مع الكون المحيط به. أمـا السلام مع النفس فيـنشأ من توافق حركـته مع دوافع فطرته الصحيحة، وبذلك تنتظم حركة الإنسان الظاهرة مع فطرته المضمرة.

وأما السلام مع الكون فينشأ من تطابق حركته مع حركة الكون المحيط به فى الاتجاه والغاية. بذلك «يـتحقق الخير للبـشرية عن طريق إهدائها وتعرفـها فى يسر إلى أسـرار هذا الكون، والطاقـات المكـنونة فـيه والـكنوز المذخـورة فى أطوائه، واستخدام هذا كله وفق شريعة الله؛ لتحـقيق الخير البشرى العام، بلا تعارض ولا اصطدام»[1].

ولهذا فـإنه عندما يحـيد الإنسـان عن هذه الشريعـة فإنه يحـدث نوعًا من الشقاق الذى يؤدى حتمًا إلى كوارث نفسية وكونية. فالحياد عن شريعة الله يحدث الشقاق بين الإنسان وفطرته السليمة التى فطره الله عليها، فيصاب بأبشع الأمراض النفسية والجسـمية. والحياد عن شريعة الله يحدث الشـقاق بين الإنسان من جانب وبين الكون من حـوله الخاضـع لله بفطرته من جـانب آخر، فـتحـدث الكوارث الطبيـعية التى تدمـر الإنسان فى كل مكان، حيث تنقلب طاقـات الكون وذخائره وقواه من وسائل لتعمير الحياة وترقيتها إلى عوامل تدمير وخراب وشقاء[2].

لكن عالمية الإسلام وكونية شريعـته، لا تعنى أخذ الناس قسرًا على اتباعه: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ... (٢٥٦)﴾ [البقرة]، بل تكون الدعوة إليه بالحكمة والموعظة الحسنة، والمنطق العقلى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ... (١٢٥)﴾ [النحل].

يقول الأستـاذ سيد قطب: «إن الإسلام لم يشأ أن تكون وسـيلته إلى حمل الناس على اعتناقه هى القهر والإكراه فى أى صورة من الصور، حتى القهر العقلى عن طريق المعجزة لم يكن وسيلة من وسائل الإسـلام كما كان فى الديانات قبله،

---

(١) المرجع السابق، ص١١٢.

(٢) انظر المرجع السابق، فصل: شريعة كونية.

من نحـو الآيات التسع لمـوسى، والكلام فى المهد وإحـيـاء الموتى وإبراء الأكمـه والأبرص لعيـسى . . . لقد شاء الإسـلام أن يخاطب القوى المدركـة فى الإنسان، ويعتمـد عليها فى الاقتناع بالشـريعة والعقيدة، وذلك جـريًا على نظرته الكلية فى احترام هذا الإنسان وتكريمه»[١].

ولذلك لم يضق الإسلام ذرعًا باختلاف الناس فى المنهج والعقيدة، بل اعتبر هذا ضرورة مـن ضرورات الفطرة، وغـرضًا من أغراض الإرادة الـعليا فى الحـياة والناس:

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ... ﴿١١٩﴾﴾ [هود].

﴿... وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [المائدة].

والقرآن يطمئن الرسـول ﷺ ويهدئ من حماسة المسـلمين فى حمل الناس على الإسـلام، حـين يقـرر أن إرادة الله لم تحـتم أن يكون الناس جـميـعًـا من المؤمنين، وأنه لا إكراه لأحد ليكون من المسلمين:

﴿وَلَوْ شَـاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾ [يونس].

﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ... ﴿٢٥٦﴾﴾ [البقرة].

إذن ليـست غـاية المسلمـين إكراه أحـد على الدخـول فى الإسـلام، لكن الكثـيـرين «يخلطون بين منهج هـذا الدين فى النص على اسـتنكار الإكـراه على العقيدة، وبين منهجه فى تحطيم القوى السياسية المادية التى تحول بين الناس وبينه، والتى تعبد الناس للناس، وتمنعهم من العبودية لله. . . وهما أمران لا علاقة بينهما ولا مجال للالتباس فيهما»[٢].

---

(١) سيد قطب: نحـو مجتمع إسـلامى، بيروت، دار الشروق، ط٦، ١٤٩٣هـ/ ١٩٨٣م، ص١٠٣-١٠٤.

(٢) سيد قطب: معالم فى الطريق، مرجع السابق ص٦٦.

إن المسلمين حينما يلجأون إلى الجهاد فإنما يلجأون إليه لواحد أو أكثر من الأسباب التالية:

- الدفاع عن حرية الدعوة وحرية العقيدة.
- الدفاع عن الذين يؤذون بسبب عقيدتهم.
- الوقاية ضد أولئك المخاتلين الذين ينقضون عهودهم السلمية مع المسلمين.
- دفع العدوان ودفع الفتنة ودفع الظلم عن المظلومين من المسلمين وغير المسلمين.

إن الداعين إلى الإسلام يحتاجون إلى نوع من القوة والمنعة؛ لأنه لابد للشريعة من قوة تكفل احترامها، وتحقيق النظام الاجتماعى الذى يقوم عليها. فليست مهمة الأمة الإسلامية مقصورة على مجرد الدعوة لدين الله، لكنها بالإضافة إلى ذلك لا بد أن تقوم بحماية حرية العقيدة والعبادة للناس جميعًا. وحماية الضعفاء من ظلم الأقوياء، وكفالة العدل والأمن للناس جميعًا من دخل منهم الإسلام ومن لم يدخل، ومقاومة الشر والفساد فى الأرض، وذلك بحكم الوصاية الرشيدة التى أناطها الله بها، إذ يقول الحق فى ذلك:

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ... (١١٠)﴾ [آل عمران].

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا... (١٤٣)﴾ [البقرة].

لكن الإسلام لا يقرر الدفاع عن حرية العقيدة لأتباعه فقط، وإنما يقرره لأصحاب الديانات الأخرى أيضًا، بل «ويكلف المسلمين أن يدافعوا عن هذا الحق للجميع، ويأذن لهم فى القتال تحت هذه الراية، راية ضمان حرية العباد لجميع المتدينين... وبذلك يحقق أنه نظام عالمى حر، يستطيع الجميع أن يعيشوا فى ظله

آمنين، متمتعين بحرياتهم الدينية على قدم المساواة مع المسلمين وبحماية المسلمين»[1].

ولقد شرع القتال أيضًا دفاعًا عن الذين أوذوا بسبب عقيدتهم ولحماية أماكن عبادتهم، سواء كانت صوامع، وهى معابد الرهبان، أو بيع، وهى كنائس النصارى، أو صلوات، وهى كنائس اليهود، أو مساجد وهى مصليات المسلمين. وقد وعد الله بالنصر هؤلاء الذين يدافعون عن أماكن العبادة حيث قال:

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ [الحج].

وقد يقاتل المسلمون لدفع العدوان بدون اعتداء، أو لدفع الفتنة عن الدين وترك الدين لله. فالقاعدة العامة أنه لا قتال إلا مع المقاتلين، ولا عدوان إلا على الظالمين:

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٩٣﴾ الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ [البقرة].

وقد يقاتل المسلمون حربًا وقائية ضد أولئك الذين يخونون المسلمين وينقضون دائمًا معاهداتهم السلمية معهم، بحيث يعيش المسلمون فى قلق دائم

---

(١) سيد قطب: معالم فى الطريق، مرجع السابق ص٦٦.

وتوتر مستمر، هنا يحق للمسلمين أن يعلنوهم بنبذ ما بينهم وبينهم من معاهدات. وحتى مع هؤلاء ليس للمسلمين من سبيل إذا هم جنحوا للسلم واختاروها بصدق[١]:

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (٥٥) الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لا يَتَّقُونَ (٥٦) فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (٥٧) وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ (٥٨) وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لا يُعْجِزُونَ (٥٩) وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ (٦٠) وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦١) وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ (٦٢)﴾ [الأنفال].

أصل البشرية واحد:

إن الإسلام يرد البشرية كلها إلى أصل واحد، ويجعل الرابطة الكبرى بين البشر هي رابطة الإنسانية ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً ... (١)﴾ [النساء].

وعلى أساس هذه الرابطة الإنسانية يمكن الإسلام جميع الأجناس البشرية، على اختلاف ألوانهم ولغاتهم أن تجتمع فى حمى الإسلام، وفى ظل نظامه الاجتماعى، على أساس آصرة واحدة، هى آصرة الإنسانية: «**ليس منا من دعا إلى عصبية، وليس منا من قاتل على عصبية، وليس منا من مات على عصبية**». (أخرجه أبو داود).

إن البشر - كما يقول الأستاذ سيد قطب - أمة واحدة[٢]، ولذلك فلا معنى لاستغلال جنس لحساب جنس آخر، أو وطن لحساب وطن آخر، فمثل هذا العمل

(١) نحو مجتمع إسلامى، مرجع سابق، ص١٠٦.

(٢) المرجع السابق: ص٩٦.

يعتبر مضحكًا ومقززًا فى التقدير الإسلامى، لأن تقوى الله، والعمل الصالح لخير عباده هما معيار الأفضلية الوحيد فى ميزان الله:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ... ﴿١٣﴾﴾ [الحجرات].

«لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى».

الأرض كلها لله والناس مستخلفون فيها:

إن الأرض كلها لله، والناس جميعًا مستخلفون فيها: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ... ﴿٣٠﴾﴾ [البقرة]. فالإسلام لا يعرف الحدود الإقليمية، كما لا يعرف حدود الأجناس والألوان، فالجنس البشرى كله مستخلف فى هذه الأرض لإعمارها وترقيتها واستغلال كنوزها وثرواتها. والناس تبعًا لذلك كلهم إخوة، لا ينالون من رحمة الله وعونه ما لم يتراحموا بينهم ويتعاونوا على العمل الصالح، فلا عجب إذن، أن يقول الرسول ﷺ: **«ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء»**، بدون تخصيص لجماعة معينة أو عنصر معين أو جنس معين.

«وتبعًا لإزالة حواجز الجنس واللون واللغة... يزيل الإسلام تلك الحواجز الجغرافية التى تقوم بين شعوب الأرض وتخلق ذلك الشعور القومى الحاد، وتعمل بذلك على خلق المنافسة الخطرة بين القوميات المتباينة، وتؤدى فى النهاية إلى التكالب الاستعمارى، الذى هو فى صميمه استغلال أمة لأمة، أو جنس لجنس أو وطن لوطن» وبديهى أن الواقع الأول للصراع الاستعمارى فى العصر الحديث، كان (ولا يزال) هو شعور القومية الحاد، للتمييز وراء تلك الحدود الإقليمية، ورغبة كل دولة فى أن تجد للشعب.. الذى تمثله مجالاً حيويا لاستمداد الخامات والموارد البشرية، ولتصريف المنتجات والغلات الفائضة».

«وبديهى أن الحروب الحديثة كلها قد قامت على هذا الأساس، وأن الشر الذى أصاب البشرية فى الحربين الماضيتين، والذى يوشك أن يدمرها فى الحرب

المقبلة. . . كله قد نشأ من ذلك الشعور القومى الحاد، ومن ضعف الروح العالمية والروح الإنسانية»[1].

إن الإسلام يحطم النظام الاستعمارى بأسلوبيه العسكرى والفكرى أو الثقافى، ويضع مكانه نظام الأخوة فى الإنسانية، والأخوة العالمية، والأخوة الإسلامية.

والإسلام حين يزيل «تلك الحواجز الجغرافية أو العنصرية التى تقوم عليها فكرة الوطن القومى، فإنه لا يلغى فكرة الوطن على الإطلاق إنه يبقى على المعنى الطيب وحده لهذه الفكرة، معنى التجمع والتآخى والتعاون والنظام، ومعنى الهدف المشترك الذى تلتقى عليه الجماعة من الناس، فيجعل الوطن فكرة فى الشعور لا رقعة من الأرض. هذه الفكرة يجتمع فى ظلها الناس من كل جنس ولون وأرض، فإذا هم أبناء وطن واحد، وإذا هم إخوة فى الله، وإذا هم متعاونون على ما فيه خيرهم وخير البشرية جميعًا. . تلك الفكرة هى الإسلام»[2].

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ... ﴾ [الحجرات: ١٠].

«المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا» (أخرجه الشيخان).

«مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى» (أخرجه الشيخان)

إن فكرة الإسلام تقوم مقام فكرة الوطن فى معناها الخير، فهى تقضى بأن كل أرض يظلها الإسلام هى وطن لجميع المسلمين، وكل مسلم على ظهر الأرض هو مواطن فى أى أرض للمسلمين. إن كل مسلم - على وجه الأرض بملك - بدون استئذان حاكم أو شرطى - أن يدخل الوطن الإسلامى أو يخرج منه،

---

(١) المرجع السابق: ص٩٤.

(٢) المرجع السابق: ص٩٦.

ويذهب فى أرجائه ويروح، دون جواز سفر، ودون وقفة عند الحدود. هذا هو تصور الإسلام للوطن الإسلامى وللمواطنة.

وكل إنسان - وإن لم يكن مسلمًا - يملك أن يعيش فى ربوع الأرض الإسلامية، مكفول الحرية فى العقيدة والعبادة، مكفول الدم، والرزق، والعمل، ما دام خاضعًا للقوانين التى تنظم حياة الجماعة، شأنه فى ذلك شأن المسلمين فى هذه الأرض.

إن كل دولة غير مسلمة لها الحق أن تتعاقد وتتعاهد مع الدولة الإسلامية، على عمارة الأرض وإصلاحها، أو على السلم والمهادنة، وهى واثقة أن عهدها محفوظ ما وفت هى بعهدها ووعدها ولم تنقض منه شيئًا.

وهكذا، يمكن القول بأن الإسلام - عقيدة ونظامًا - هو الدين الوحيد الذى يمكن أن يوصف بأنه عالمى، وهو الدين الوحيد الجدير بعالم حر، عالم واحد، تنعم فيه البشرية بالأمن والسلام والاستقرار.

العالمية والمنهج:

إن منهج التربية الإسلامية إذن هو منهج تربية «الإنسان»... الإنسان الصالح الذى يستطيع أن يعيش فى كل مكان... وليس فقط «المواطن» المحصور فى حدود «المواطنة الضيقة». وتربية الإنسان ليس فيها بالطبع إغفال لتربية المواطن، ولكنها أشمل وأكمل. فالحقيقة أنه لا خوف أبدًا على المواطن من الإنسان، ولكن الخوف كل الخوف على الإنسان من المواطن الذى انحصر فكره وانتماؤه داخل حدود وطنه.

إننا فى أمس الحاجة إلى تنمية النظرة «الإنسانية العالمية الشاملة» فى التعليم، وتطوير المفهوم «الإنسانى» فى التربية، وهذا المفهوم لا تستطيع «فلسفة» أو «أيديولوچية» مرتبطة بمكان وزمان معينين تنميته وتطويره.

إن منهج الإسلام وحده، دون مناهج الأرض كلها، هو الذى يستطيع تحقيق مفهوم «الإنسانية» فى نفوس الناشئة، فتحقيق إنسانية الإنسان يتمشى مع إنسانية

المنهج الإسلامى وعالميته التى تقررت فى القرآن فى سورة من أوائل السور المكية، وهى سورة التكوير، فى قوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾ وتقررت فى خطاب المولى - سبحانه - لنبيه ﷺ فى قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء].

لقد جنت الإنسانية ثمار التأكيد على «المواطنة الضيقة» فى صورة صراعات دولية، وحروب عالمية وإقليمية، واستعمار واحتلال لأراضى الآخرين. واغتصاب لحقوقهم، وتسخير لجهودهم فى خدمة غيرهم، وإذلال لآدميتهم وإنسانيتهم.

إننا الآن فى زمن جديد تماما، فنحن نعيش العصر النووى، عصر القنابل الذرية، والإشعاع النووى القاتل، والشتاء الذرى، والصقيع النووى الذى يمكن أن يحدث نتيجة حجب الغبار الذرى لأشعة الشمس عن الأرض، فيبدأ عصر الجليد والظلام الذى تتجمد فيه البشرية إلى ما شاء الله.

إننا نعيش فى عصر سبقت قوة الإنسان يقظة ضميره، عصر لا يملك الإنسان فيه القدرة - كما قال «أينشتين» - على إدارة الصراعات والحروب العالمية أو الإقليمية، دون أن يمتد خطرها ودمارها إلى ما حولها[1]. نحن - إذن - فى عصر نحتاج فيه إلى تنمية وتطوير مفهوم «الإنسانية» بمعناه العالمى الشامل، لا إلى تنمية مفهوم «المواطنة» بمعناه الضيق المحدد بحدود المكان والزمان.

فالوطنية الضيقة، وتربية المواطن المحدود فى قيمه وولائه بين حدود دولته، أثمر كثيرا من الشرور التى نعانى منها الآن. فمشكلة الحرب والسلام التى يتوقف عليها مصير البشرية كلها، تشتد وطأتها، ويزداد غليانها كل يوم، حتى وصلت إلى مرحلة تنذر بالخطر الحقيقى، وما ذلك إلا لأنها تدار بيد «مواطنين» يريدون تسخير خيرات العالم كله لصالح أوطانهم على حساب الآخرين.

---

(١) محمد حسنين هيكل: حوار مع أينشتين، أخبار اليوم، عدد ٢٢٠٤، فى ١٩٨٧/١/١٤م.

وحتى بعد أن ظهرت نظرية استحالة الحروب النووية الساحقة الماحقة لكل شيء على وجه الأرض، فقد بدأ الصراع يتحول من الحرب والقتال إلى صراع النظم والنماذج الاجتماعية والاقتصادية والعقائدية. وبمعنى آخر فالصراع قد تحول من ميادين القتال إلى بيوت الناس، ومدارسهم، وعقولهم.

ولا نتجاوز إذا قلنا إنه لا عاصم لنا اليوم من الانقياد إلى أحد أطراف الصراع والسير ذيلا له، إلا التمسك بالمنهج الإسلامى الذى كرم الإنسان، وحفظ له شخصيته المستقلة حين قال ﷺ: **«لا يكن أحدكم إمَّعة يقول: إن أحسن الناس أحسنت وإن أساءوا أسأت، ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا وإن أساءوا ألا تظلموا»**.

إن الولاء للمواطنين وللوطنية الضيقة وليس «للإنسان» فى كل مكان، هو الذى يعرض «السفينة العالمية» - إذا جاز هذا التشبيه - للخطر. فبعد ثورة الاتصالات وما ترتب عليها من تفجر معرفى، أصبحت الكرة الأرضية كسفينة واحدة تتعرض لمخاطر جسيمة فى عرض البحر. فيها من يشكو من التخمة وفيها من يشكو من الجوع إلى حد الهلاك.

فيها من يعانون وفرة الإنتاج! فماذا يصنعون وكيف يخزنون الفائض الهائل من الحبوب واللحوم والزبد والجبن والخضر؟ وفيها المحاصرون الذين يموتون جوعا، ويرجون فتوى تجيز لهم أكل الميتة ولحوم البشر. فيها الأغنياء الدائنون الذين يفرضون شروطهم، ويشرعون سياطهم، وفيها الفقراء المدينون الذين يخضعون لكل عمليات الابتزاز والاستغلال والظلم. فيها من يصنع سلاح الدمار ويبيعه ليزداد ثراء، وفيها من يشترى هذا السلاح ليقاتل به حتى الموت!

وهكذا.... تحدق الأخطار «بالسفينة العالمية» من كل جانب، بسبب الأنانية، والشره، والظلم، والطائفية، والعنصرية، والاستغلال.... بسبب الحضور القوى «للمواطنين» والغياب المستمر «للإنسان».

إن الإسلام هو المنهج العالمى الوحيد الذى يستطيع أن يحكم نظام الكون، هو وحده بين كل مناهج الأرض، الذى لا يفرق بين البشر على أساس طبقى أو

عنصرى أو طائفى، وإنما يتوجه إلى قلوبهم وضمائرهم مباشرة، حيث يكمن «الإنسان» الجوهر الفذ، الذى تتكون منه الإنسانية. وهو بذلك الملجأ الوحيد الباقى لإنقاذ البشرية من الهول الرهيب المحدق بها.

بناء على ما سبق، فإننا - فيما أرى - لا نحتاج إلى تربية «المواطن الصالح». «فالمواطن الصالح» عادل، مجد، أمين، متواضع، قانع.... فى موطنه، لكنه عادة ما يتحول إلى ظالم، مستبد، غاضب، شره.... فى غير موطنه. وقد رأينا صور ذلك، وما زلنا نراها كل يوم، ابتداء من مصر وأفريقيا والشام وڤيتنام إلى أفغانستان ولبنان والهند والبوسنة والهرسك والعراق، وفى كل موقع من مواقع الاستعمار القديمة منها والحديثة.

وخلاصة القول: إن المدرسة الإنسانية فى التربية قديمة قدم الإسلام، فبينما كل مناهج الأرض تلتقى - كما يقول الأستاذ محمد قطب - على أن هدف التربية هو إعداد «المواطن الصالح»، نجد أن الإسلام يسعى لتحقيق هدف أشمل وأعمق وهو إعداد «الإنسان الصالح» الإنسان على إطلاقه، بمعناه الإنسانى الشامل، الإنسان بجوهره الكامن فى أعماقه، الإنسان من حيث هو إنسان، لا من حيث هو مواطن فى هذه البقعة من الأرض أو فى ذلك المكان»[(1)].

والإنسان الذى يهدف الإسلام إلى تربيته هو الإنسان الذى يستمد منهج حياته وشعوره وسلوكه من منهج الله، وهو بالجملة الإنسان الذى يفى بشروط الخلافة التى فضله بها خالقه على كثير ممن خلق، فينشط فى عمارة الأرض وفق منهج الله، مستغلا كل الطاقات وقوى الإدراك الممنوحة له.

٥ - الثبات:

الخاصية الخامسة من خواص منهج التربية فى الإسلام هى الثبات. ويسمى الأستاذ سيد قطب هذه الخاصية، خاصية «الحركة داخل إطار ثابت وحول محور

---

(١) محمد قطب: منهج التربية الإسلامية، الجزء الأول، بيروت دار الشروق، ط٦، ١٤٠٢هـ ١٩٨٢م، ص١٣.

ثابت». فبما أن النظام الإسلامى نظام ربانى، قائم على التوحيد، وظيفة الإنسان فيه هى التلقى والاستجابة والتكيف والتطبيق فى واقع الحياة، وبما أنه ليس نتاج فكر بشرى وأنه هبة من خالق الإنسان للإنسان. . . . . بما أنه كل ذلك، فهو يتميز بأنه نظام يقوم على «الحركة داخل إطار ثابت حول محور ثابت»[1].

فهناك «ثبات» فى «مقومات» النظام الإسلامى الأساسية، و«قيمه» الذاتية. فهذه المقومات والقيم لا تتغير بتغير «ظواهر» الحياة الواقعية، و«أشكالها» العملية. فالتغير فى ظاهر الحياة وأشكال الأوضاع العملية يظل محكوما بالمقومات والقيم الثابتة لهذا النظام. وهذه الخاصية، وهى خاصية الحركة داخل إطار ثابت ومحور ثابت، هى طابع الصنعة الإلهية فى الكون كله.

بين الثبات والتغير:

وعلى ذلك يرى الإسلام أن الحياة الإنسانية - كجزء من الكون الكبير - ليست كلها ثابتة، وليست كلها متغيرة. بل فيها جانب ثابت لا ينبغى أن يتغير، فإذا تغير تختل الحياة البشرية ويسودها الاضطراب. وفيها جانب متغير لا يمكن أن يبقى جامدا على حاله دائما، لأنه إذا تجمد وبقى على حاله تجمدت الحياة وتوقفت عن النمو:

ومن الجوانب الثابتة التى تمثل «المحور الثابت» الذى يدور عليه المنهج الإسلامى: كل ما يتعلق بالحقيقة الإلهية: كحقيقة وجود الله، وسرمديته، ووحدانيته، وقدرته، وتدبيره لأمر الخلق، وحقيقة أن الإيمان بالله، وملائكته وكتبه ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، شرط لصحة الأعمال وقبولها.

وحقيقة أن الدين عند الله الإسلام، وأن الإسلام معناه إفراد الله بالألوهية وكل خصائصها، والاستسلام لمشيئته، والرضى بالتحاكم إلى أمره ومنهجه

---

(١) انظر فى تفصيل خاصية «الثبات» إلى الأستاذ سيد قطب: خصائص التصور الإسلامى ومقوماته، فصل «الثبات».

وشريعته. وحقيقة أن الإنسان مخلوق مكرم على سائر المخلوقات فى الأرض، وأنه مستخلف من الله فيها، مسخر له كل ما فيها، ومن ثم فليس فيها ما يعلو قيمة الإنسان، أو يمكن أن تهدر بسببه قيمة الإنسان. وحقيقة أن الناس جميعا من أصل واحد، ومن ثم فهم متساوون، وأن القيمة الوحيدة التى يتفاضلون بها - فيما بينهم - هى التقوى والعمل الصالح. ولا قيمة - إذن - لمال أو جنس أو طبقة أو غير ذلك. وحقيقة أن غاية الوجود الإنسانى هى عبادة الله، وأن وظيفة الإنسان هى القيام بحق الخلافة فى الأرض، أى عمارتها وترقية الحياة على ظهرها وفق منهج الله. وحقيقة أن الدنيا دار ابتلاء وعمل، وأن الآخرة دار حساب وجزاء، لكن تبقى القيمة الثابتة للإنسان وهى أنه خليفة الله فى الأرض لعمارتها وترقيتها وفق المنهج المرسوم. فهو قد يزرع الأرض بالفأس والمحراث، لأن الضرورات وأوضاع الحياة تتطلب ذلك، وبذلك يفى بشروط الخلافة. وتتطور الأوضاع فنرى أن شروط الخلافة تتطلب استخدام الميكنة الزراعية، وتتطور الأوضاع فنرى أن من الضرورى تفجير الذرة وإرسال الأقمار الصناعية لكشف طبيعة الغلاف الجوى للأرض... وهكذا تتغير صور الخلافة فى الأرض، ولكن يبقى مفهومها الثابت على كل حال، وهو ممارسة الإنسان لحقه فى عمارة الأرض وفق منهج الله، وأن لا يعلو شىء فى هذه الأرض على الإنسان، وأن لا تهدر قيمته من أجل تفجير الذرة أو صنع الأقمار الصناعية أو زيادة الإنتاج، لأن الإنسان هو سيد كل شىء على الأرض، فلو أهدرت قيمته فلن ينتج شيئا ذا قيمة على الإطلاق: ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ... ﴿٧١﴾﴾ [المؤمنون].

أما الجوانب المتغيرة، فهى الأوضاع والظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية والتربوية، وكل ما شابه ذلك. فهذه الأوضاع تتغير على الدوام بحكم فاعلية الإنسان فى الأرض واستخلاف الله له فيها، وبحكم تفاعل عقله الدائم مع الكون المادى وما ينتج عن ذلك من تغير فى الأوضاع الاقتصاية والاجتماعية والسياسية والتربوية.

وهكذا يرى الإسلام «أن هذا التغير لا ينبغى أن يكون منفلتا من كل قيد، وإنما تحكمه - فى تغيره - القيم الثابتة أو الجوانب الثابتة فى حياة الإنسان، فتضبط منطلقة فى الأرض دون أن توقف حركته أو تعوقها، وتمنع من حياته الخلل والاضطراب. وأن الشريعة الربانية قد روعى فيها - من لدن منزلها سبحانه - أن تستجيب للجانبين معا على نحو معجز، ففى الجوانب الثابتة تعطى الشريعة تفصيلات ثابتة غير قابلة للتغير. وفى الجوانب المتغيرة تعطى أصولا عامة ثابتة، وتترك للعقل البشرى المؤمن أن يجتهد بما يراه محققا للمصلحة - فى المصالح المرسلة التى لم ينزل فيها نص - بحيث لا يتخطى تلك الأصول الثابتة ولا يصطدم معها، وهذا هو الذى يعطى تلك الشريعة مرونتها وصلاحيتها لجميع الأجيال إلى قيام الساعة»[1]. .

والأمر الآن على خلاف ذلك فى أوروبا بصفة عامة، وفى أمريكا بصفة خاصة، فإن ما أصاب الفكر الأمريكى والأوروبى خاصة بعد ظهور نظرية دارون فى النشوء والارتقاء، قد وضع الحياة الأمريكية والأوروبية كلها - بجانبيها الثابت والمتغير معا - على خط التغير، الذى يدعونه التطور. وقد أدى هذا «إلى انفلات البشرية كلها إلى الفوضى الهائلة التى تعيشها اليوم بدعوى أن التطور العلمى والمادى قمين بأن يغير الحياة كلها من ألفها إلى يائها ولا يترك فيها شيئا ثابتا على الإطلاق!». . . وقد نشأ عن ما يسمى فى أوروبا وأمريكا الآن «صراع الأجيال»[2].

«فما دامت الحياة كلها موضوعة على خط التغير، فأنى للأجيال أن تلتقى على أمر واحد من أمور الحياة، والزمن «المتطور» قد فصل بين جيل وجيل وإلى غير لقاء؟ فإذا تواجه جيلان - فى أى أمر - فهى مواجهة الصراع لا مواجهة الهدنة ولا مواجهة الاتفاق!»[3].

---

(١) محمد قطب: مناهج التربية الإسلامية، الجزء الثانى، بيروت، دار الشروق ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، ص٣٢٠-٣٢١.

(٢) المرجع السابق، ص٣٢٣.

(٣) المرجع السابق.

أما المجتمع الإسلامى الذى يطبق منهج الله ويسير وفق شريعته فإنه لا يعرف ظاهرة «صراع الأجيال» ولكنه يعرف جيدا ظاهرة «اختلاف الأجيال» وقد أدرك ذلك عمر - رضى الله عنه - ببصيرته النافذة حين قال: (أحسنوا تربية أولادكم فقد خلقوا لجيل غير جيلكم). وكان يرمى من وراء ذلك إلى ضرورة تنويع وتغيير بعض طرق التربية وأساليبها بما يتفق مع الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية المتغيرة. لكن ذلك كله لا بد أن يكون مضبوطا بالقيم الثابتة لكى لا يجرفهم التغير فيحيدوا عن سواء السبيل.

إن صور الحياة - كما يراها الإسلام - تتغير، ولا بد أن تتغير وتتطور، ولكن ينبغى أن تظل - فى تغيرها وتطورها - محكومة بمنهج الله المنزل أصلا لكى يواكب نمو الحياة الدائم. ويضبط منطلقه فلا يضل عن الطريق.

إن راكب الجمل قد تتغير حياته فيركب السيارة أو الطائرة أو الصاروخ، لكنه يظل فى كل الأحوال موصول القلب بالله، شاعرا بفضله عليه فى وصوله إلى هذه الدرجة من التقدم، ويقول وهو يصعد الصاروخ: ﴿ ... **سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾** ﴾ [الزخرف].

وقد تتغير حياة الراعى أو الزارع البدائى إلى وضع يستخدم فيه أحدث وسائل التقانة فى الرعى والزراعة، وقد ينشئ صناعة حديثة معتمدا على إنتاجه، ولكنه لا يغش ولا يسرق، ولا يحتكر، لأن الله حرم هذا عليه.

وقد تتعلم الفتاة، وتصل إلى أعلى مراتب التعليم، وتنال أسمى الدرجات العلمية، لكنها لا ترفض قوامة الرجل، لأن القوامة لم تعط للرجل بحكم الشهادات التى يحصل عليها دون المرأة. «وإنما سببها فروق فطرية أودعها الله فى فطرة كل من الرجل والمرأة، لتقسيم الحياة داخل الأسرة، وداخل المجتمع على وجهها الصحيح»[1].

وهكذا، تتغير صور الحياة فى الأرض، ولكن يظل البناء الرئيسى للفرد والأسرة والمجتمع لا يتغير صور تطبيق منهج الله فى واقع الأرض وفى كل صورة من صور الحياة.

(١) محمد قطب، المرجع السابق، ص٣٢٦.



٦ - الشمول:

والشمول هو الخاصية السادسة من خصائص المنهج الإسلامى العام وبالتالى منهج التربية. وهى خاصية نابعة من الخاصية الأولى لهذا المنهج، وهى أنه ربانى، من صنع الله وليس من صنع البشر، **فالشمول هو طابع الصنعة الإلهية**[1].

وللشمول صور ثلاث: أولى هذه الصور وأكبرها «رد الوجود كله... بنشأته ابتداء، وحركته بعد نشأته، وكل انبثاقة فيه، وكل تحور وكل تغير وكل تطور، والهيمنة عليه وتدبيره وتصريفه وتنسيقه... إلى إرادة الذات الإلهية السرمدية الأزلية الأبدية المطلقة.. فالله - سبحانه - هو الذى أنشأ هذا الكون ابتداء، وهو الذى يحدث فيه بمشيئته كل تغير جديد وكل انبثاق وليد... وهذه هى حقيقة التوحيد الكبرى التى هى المقوم الأول للتصور الإسلامى»[2].

وهكذا يتمثل الشمول هنا فى رد كل شىء فى هذا الكون إلى الله، وشمول إرادته وتدبيره وهيمنته وسلطانه لكل شىء، ويرسم القرآن الكريم هذه الخاصية فى كثير من الآيات، هذه بعضها:

﴿**إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ** ﴿٤٩﴾﴾ [القمر].

﴿**... وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا** ﴿٢﴾﴾ [الفرقان].

﴿**... وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ** ﴿٨﴾﴾ [الرعد].

﴿**إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ** ﴿٤٠﴾﴾ [النحل].

﴿**إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ** ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف].

---

(١) انظر: تفصيل خاصية الشمول فى سيد قطب، المرجع السابق، فصل «الشمول».

(٢) المرجع السابق، ص٩٢.

والصورة الثانية من صور خاصية الشمول فى المنهج الإسلامى: هى أن النظام الإسلامى يتناول الحقائق الكلية كلها: حقيقة الألوهية، وحقيقة الكون، وحقيقة الحياة، وحقيقة العبودية، وحقيقة الإنسانية - ويربط بين مجموع الكينونة البشرية فى كل متكامل.

«وهكذا تتكون من مجموعة الحقائق التى يتناولها هذا التصور فى شمول وسعة ودقة وتفصيل، صورة كاملة شاملة وتفسير جامع مفصل، لا يحتاج إلى إضافة من مصدر آخر، بل لا يقبل إضافة من مصدر آخر، لأنه أوسع وأشمل، وأدق وأعمق، وأكثر تناسقا وتكاملا من كل مصدر آخر...»[1].

«إن هذا التصور من الشمول والسعة، ومن العمق والدقة، ومن الأصالة والتناسق بحيث يرفض كل عنصر غريب عليه، ولو كان هذا العنصر «اصطلاحا» تعبيريا من الاصطلاحات التى تقتضيها أزياء التفكير الأجنبية. فكل اصطلاح له تاريخ معين، وله إيحاءات معينة مستمدة من ذلك التاريخ، ولا يمكن تجريده من هذه الملابسات، والزج به فى مجال جديد، منقطع عن تاريخه.. وللتصور الإسلامى اصطلاحاته الخاصة المتفقة فى طبيعة اشتقاقها اللغوى، وفى ملابساتها التاريخية والموضوعية، مع طبيعته وإيحاءاته... وهذه ظاهرة دقيقة، تحتاج إلى حس لطيف يدرك مقتضيات هذا التصور فى الشعور، ومقتضياته كذلك فى التعبير»[2].

ولا شك أن القرآن ملىء بالنصوص المتنوعة التى تكون قاعدة كاملة شاملة للتصور الإسلامى المستقل، المستمد من المصدر الربانى المضبوط والمستغنى عن كل مصدر جزئى أو ظنى للمعرفة.

والصورة الثالثة من صور الشمول: هى أن المنهج الإسلامى يخاطب الكينونة الإنسانية بكل جوانبها، وبكل أشواقها، وبكل حاجاتها وبكل اتجاهاتها،

---

(١) سيد قطب: المرجع السابق، ص٩٧.

(٢) المرجع السابق.

ويردها إلى جهة واحدة تتعامل معها، وتتوجه إليها بكل شيء، ترجوها وتخشاها. كما يردها إلى مصدر واحد تتلقى منه تصوراتها ومفاهيمها وقيمها وموازينها، وشرائعها وقوانينها، وذلك لأن تلك الجهة، أو ذلك المصدر هو خالق كل شيء، ومالك كل شيء ومدبر كل شيء[1].

وهكذا تتجه الكينونة الإنسانية فى كل فكرها وشعورها وسلوكها إلى جهة واحدة مهما اختلفت السبل والطرق.

«والكينونة الإنسانية حين تتجمع على هذا النحو تصبح فى خير حالاتها، لأنها تكون حينئذ فى حالة «الوحدة» التى هى طابع الحقيقة فى كل مجالاتها:

- فالوحدة هى حقيقة الخالق سبحانه.
- والوحدة هى حقيقة هذا الكون، على تنوع المظاهر والأشكال والأحوال.
- والوحدة هى حقيقة الحياة على تنوع الأجناس والأنواع.
- والوحدة هى حقيقة الإنسان على تنوع الأفراد والاستعدادات.
- والوحدة هى غاية الوجود الإنسانى - وهى العبادة - على تنوع مجالات العبادة وهيئتها.

وهكذا حيثما بحث الإنسان عن الحقيقة فى هذا الوجود (فإنه يصل حتما إلى الوحدة)[2].

الشمول ومفهوم العبادة فى الإسلام:

إن من أبرز سمات الإسلام أنه منهج عبادة. لكن العبادة فى هذا المنهج ليست مقصورة على مناسك التعبد المعروفة من صلاة وصيام وزكاة وحج.. إلى آخره، وإنما يتميز مفهوم العبادة فى الإسلام بأنه أعمق من هذا بكثير[3].

---

(١) المرجع السابق، ص١٠٧.

(٢) المرجع السابق، ص١٠٨.

(٣) انظر: أبو الأعلى المودودى: مفاهيم إسلامية حول الدين والدولة، الرياض، الدار السعودية للتوزيع والنشر، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ص٣٩ - ٤٢.

إن العبــادة هى العبــودية لله وحده والتلقى عــن الله وحده فى أمور الــدنيا والآخرة. ثم هى الصلة الدائمة بالله فى كل الأحوال.

فالعبادة فى الإســلام تستغرق حياة الإنسان بكاملهــا، وهى تتمثل فى أمرين رئيسيين:

الأمر الأول: هو الاعتــراف بوجود إله واحــد يستــحق أن يحمــد على كل شىء.

والأمر الثانى: هو الأخذ بالسنن الإلهية التى يسيــر الكون بموجبها. فالله - سبحانه وتعالى - جعل الإنسان خليفة فى هذه الأرض. والمؤمن مطالب بأن يأخذ بالأسباب التــى تعينه على عمارة الأرض واســتغلال ما أودع الله فيــها من ثروات وطاقات[1] وفق منهج الله.

والعــبادة بهــذا المعنى تشمل الحــياة كلهــا. إنها لا تقــتصــر على اللحظات القصيــرة التى تشغلها مناسك العــبادة. وليست مناسك التــعبد إلا مجرد مــفاتيح للعبادة، أو «محطات»[2] يقف عندها السائرون فى الطريق يتزودون بالزاد. وليست هذه المفاتــيح أو المحطات هى كل المقصــود فى قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات]. وإلا فما قيمة لحظات صغيرة عابرة فى صفحة النفس وفى صفحة الكون لا تكاد تترك أثرا.

«إن الإسلام يوسع مفهوم العبادة حتى تشمل كل الحياة. كل عمل يتوجه به الإنسان إلى الله فــهو عبــادة. وكل عمل يتركــه الإنسان تقربا لله واحــتسابا فــهو عبادة. وكل شعور نظيف فى باطن النفس فهو عبادة. وكل امتناع عن شعور هابط من أجل مرضاة الله فــهو عبادة. وكل ذكر لله فى الليل والنهار فــهو عبادة، ومن ثم تشمل العبادة الحياة، ويصبح الإنسان عابدا لله حيثما توجه إلى الله[3].

---

(١) سـيد قطب: فى ظلال القـرآن. الطبـعة العـاشـرة، بيروت، دار الشـروق، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م، ص٥٨٩-٥٩١.

(٢) محمد قطب: مرجع سابق، ص٣٤.

(٣) محمد قطب: مرجع سابق، ص٦٧.

ويرجع مفهوم العبادة هذا فى الإسلام إلى الصورة الثالثة من خاصية الشمول. ذلك أن مظاهر التجمع فى الكينونة الإنسانية - كما يقول الأستاذ سيد قطب - «أن يصبح النشاط الإنسانى كله حركة واحدة، متجهة إلى تحقيق غاية الوجود الإنسانى. . . . . . العبادة. . . العبادة التى تتمثل فيها عبودية الإنسان لله وحده فى كل ما ينهض به من شؤون الخلافة». .

«وهذا التجمع النفسى والحركى هو ميزة الإسلام الكبرى بما أنه يتناول بالتفسير كل الحقائق التى تواجه النفس البشرية فى الكون كله، ويتناول بالتوجيه كل جوانب النشاط الإنسانى. ففى الإسلام - وحده - يملك الإنسان أن يعيش لدنياه وهو يعيش لآخرته. وأن يعمل لله وهو يعمل لمعاشه، وأن يحقق كماله الإنسانى الذى يطلبه الدين، فى مزاولة نشاطه اليومى فى خلافة الأرض، وفى تدبير أمر الرزق. ولا يتطلب منه هذا إلا أمرا واحدا: أن يخلص العبودية لله فى الشعائر التعبدية وفى الحركة العملية على السواء. وأن يتوجه إلى تلك الجهة الواحدة بكل حركة وكل خالجة، وكل عمل وكل نية، وكل نشاط وكل اتجاه. مع التأكد من أنه لا يتجاوز دائرة الحلال الواسعة، التى تشمل كل طيبات الحياة. فالله خلق الإنسان بكل طاقاته لتنشط كلها، وتعمل كلها، وتؤدى دورها. . . ومن خلال عمل هذه الطاقات مجتمعة يحقق الإنسان غاية وجوده، فى راحة ويسر، وفى طمأنينة وسلام، وفى حرية كاملة منشؤها العبودية لله وحده».

وبهذه الخاصية صلح الإسلام أن يكون منهج حياة شاملا متكاملا، منهجا يشمل الاعتقاد فى الضمير، والتنظيم فى الحياة - لا بدون تعارض بينهما - بل فى ترابط وتداخل يعز فصله، لأنه حزمة واحدة فى طبيعة هذا الدين، ولأن فصله هو تمزيق وإفساد لهذا الدين».

«إن تقسيم النشاط الإنسانى إلى «عبادات» و«معاملات» مسألة جاءت متأخرة عند التأليف فى مادة «الفقه». ومع أنه كان المقصود به - فى أول الأمر - مجرد التقسيم «الفنى» الذى هو طابع التأليف العلمى، إلا أنه - مع الأسف - أنشأ فيما بعد آثارا سيئة فى التصور، تبعته - بعد فترة - آثار سيئة فى الحياة الإسلامية كلها. إذ جعل يترسب فى تصورات الناس أن صفة «العبادة» إنما هى خاصة بالنوع

الأول من النشاط الذى يتناول «فقه العبادات». بينما أخذت هذه الصفة تبهت بالقياس إلى النوع الثانى من النشاط الذى يتناوله «فقه المعاملات» وهو انحراف بالتصور الإسلامى لا شك فيه. فلا جرم أن يتبعه انحراف فى الحياة كلها فى المجتمع الإسلامى».

وليس فى التصور الإسلامى نشاط إنسانى لا ينطبق عليه معنى العبادة. أو لا يطلب فيه تحقيق هذا الوصف. والمنهج الإسلامى كله غايته تحقيق معنى العبادة أولا وأخيرا[1].

إن منهج الإسلام فى التربية، ونظام الحكم، ونظام الاقتصاد، والتشريعات الجنائية المدنية، ونظام الأسرة، وسائر التشريعات التى يحتويها هذا المنهج لا تهدف إلا إلى غاية واحدة، وهى تحقيق معنى «العبادة» وفق هذا المنهج.

إن تقسيم النشاط الإنسانى إلى «عبادات» و«معاملات» جعل بعض الناس يفهمون أنهم يملكون أن يكونوا «مسلمين» إذا هم أدوا نشاط «العبادات» من صلاة وزكاة، وصوم، وحج.. إلى آخره» وفق أحكام الإسلام، بينما هم يزاولون كل نشاط «المعاملات» وفق منهج آخر، فرنسيا كان أم أمريكيا، أم روسيا، وهذا وهم كبير. فالإسلام وحدة لا تنفصم. وكل من يفصمه إلى شطرين - على هذا النحو - فإنه يخرج من هذه الوحدة، أو بتعبير آخر من هذا الدين...»[2].

وبهذا فإن العبادة فى الإسلام ليست مجرد إقامة الشعائر، وإنما العبادة هى الحياة. فالحياة كلها خاضعة لشريعة الله. والإنسان فى الحياة عابد طالما أنه متجه بكل نشاطه إلى الله، مهما كان نوع العمل أو النشاط الخير. قال رسول الله ﷺ: **«الساعى على الأرملة والمسكين كالمجاهد فى سبيل الله، أو القائم الليل الصائم النهار»** (رواه الشيخان، والترمذى، والنسائى) وعن أنس - رضى الله عنه - قال: كنا مع النبى ﷺ فى سفر، فمنا الصائم، ومنا المفطر. قال: فنزلنا منزلا فى يوم حار، أكثرنا ظلا صاحب الكساء، فمنا من يتقى الشمس بيده. قال: فسقط

(١) سيد قطب: خصائص التصور الإسلامى ومقوماته، مرجع سابق، ص١٠٨-١٠٩.
(٢) المرجع السابق، ص١١٠.

الصُّوَّام، وقام المفطرون فضربوا الأبنية، وسقوا الركاب فقال الرسول ﷺ: «**ذهب المفطرون اليوم بالأجر كله**» (أخرجه الستة).

إن العبادة بهذا المعنى هى ما فهمه عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - حين رأى رجلا يظهر النسك والتماوت، فخفقه بالدرة، وقال له: «لا تمت علينا ديننا أماتك الله»(١).

وبهذا المعنى الشامل تصبح العبادة هى الصلة الدائمة بين المسلم وربه وتصبح هى التربية الدائمة للإنسان: جسمه وعقله ووجدانه.

الشمول والتكامل فى منهج التربية فى الإسلام:

إذا كان الشمول والتكامل من خصائص الصنعة الإلهية، فهما إذن من خصائص منهج التربية الإسلامية. فالمنهج هو الجانب التطبيقى للأصول التربوية. وبذلك فهو ليس غاية فى ذاته، ولكنه وسيلة لتحقيق غاية، وهى تنمية شخصية الإنسان كله: جسمه وعقله ووجدانه تنمية شاملة متكاملة. وهذا يقتضى أن يكون المنهج المعد لهذا الغرض شاملا متكاملا فى خبراته وجميع أوجه مناشطه.

ولا يعنى ما سبق أن الجوانب المعرفية والوجدانية والحركية فى الخبرة الإنسانية منفصلة عن بعضها البعض، فحقيقة الأمر أن كل فعل حلال يقوم به الإنسان فى الأرض لا يخلو من الجوانب الثلاثة السابقة: فيه جانب الجسم، وجانب العقل، وجانب الوجدان. فالتحدث باللغة مثلا - وهو نشاط حركى - يستخدم فيه الإنسان عقله، وينفعل به أيضا. والرياضة البدنية يبدؤها الإنسان المسلم باسم الله، وينفعل بها، ويستخدم فى أدائه لها عقله وجسمه، وكذلك القراءة والكتابة، وإجراء التجارب.. إلى آخره، فكل عمل تتوافر فيه العناصر الثلاثة، لكن مع الاختلاف فى النسبة.

وتكامل جوانب الخبرة الإنسانية فى منهج التربية الإسلامية يتفق مع فكرة الإسلام عن الكون والوجود والإنسان. فالوجود كله صادر عن الإرادة المباشرة لله.

---

(١) انظر: سيد قطب: العدالة الاجتماعية فى الإسلام، مرجع سابق، ص١٣.

﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس].

وهذا الوجود الصادر عن الإرادة المطلقة وحدة متكاملة كل جزء فيه متناسق ومتكامل مع بقية الأجزاء..

﴿... وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾﴾ [الفرقان].

﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القمر].

﴿... وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ... ﴿٦٥﴾﴾ [الحج].

﴿لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يس].

﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾﴾ [الملك].

وهكذا فتكامل جوانب الخبرة الإنسانية فى منهج التربية الإسلامية يتماشى مع تصور لوحدة الوجود وتكامل أجزائه، لكونه صادرا عن الإرادة المباشرة للواحد المطلق وهو الله.

وتكامل جوانب الشخصية الإنسانية فى مفهوم منهج التربية الإسلامية يتفق أيضا مع تصور الإسلام لوحدة الإنسان الفرد، ووحدة الإنسانية جمعاء. فالإنسان الفرد وحدة متكاملة، وقواه المختلفة موحدة الاتجاه. فهو ليس جسما مستقلا بذاته عن الروح والعقل. وليس عقلا منفصلا لا علاقة له بالجسم والروح، وليس روحا هائمة بلا رابط من عقل وجسم. بل هو كيان واحد متكامل الأجزاء.

ويتفق هذا أيضا - كما يقول الأستاذ سيد قطب - مع فكرة الإسلام عن وحدة الإنسانية وتكاملها. «فلأن الوجود الموحد صادر عن إرادة واحدة، ولأن الناس جزء من الكون متعاون متناسق مع سائر أجزائه، ولأن أفراد الإنسان خلايا متعاونة متناسقة فيما بينها؛ لذلك كان تصور الإسلام أن الإنسانية وحدة تفترق أجزاؤها لتجتمع، وتختلف لتتسق، وتذهب شتى المذاهب لتتعاون فى النهاية

بعضها مع بعض، كى تصبح صالحة للتعاون مع الوجود الموحد»[1]: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ... ﴿١٣﴾﴾ [الحجرات].

إذن، فهناك حكمة من وراء هذا الاختلاف والتجزؤ وهو التعاون والتكامل. وإلا فلو شاء الله لجعل الناس جميعا أمة واحدة...

﴿... وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [المائدة].

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [النحل].

وهكذا خلق الله الناس أمما وشعوبا مختلفة لا ليتصارعوا ويختلفوا، ولكن ليتعاونوا ويتكاملوا.

ولكن الله لم يأخذ الناس قسرا إلى هذه الغاية، ولكنه جعل لكل منهم طريقا ومنهجا، وخلق لكل منهم استعدادا، ولكل منهم مشربا. لقد خلق الله الناس باستعدادات متفاوتة، نسخا غير مكررة ولا معادة. ثم أنزل لهم نواميس الهدى والضلال، تمضى بها مشيئته فى الناس، وتركهم يستبقون وجعل هذا ابتلاء لهم يقوم عليه جزاؤهم يوم يرجعون إليه، وهم إليه راجعون[2].

إذن، فالأصل فى الوجود الوحدة والتعاون والتناسق فى حدود منهج الله وشريعته. ومن شذ عن هذه السنة من المؤمنين فليرد إليها بكل وسيلة، لأن سنة الله فى الكون أولى بالاتباع من أهواء الأفراد والجماعات:

﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾﴾ [الحجرات].

---

(١) سيد قطب: العدالة الاجتماعية فى الإسلام، مرجع سابق، ص٢٣.

(٢) سيد قطب: فى ظلال القرآن، مرجع سابق، جـ٦ ص٩٠٣ وجـ١٤ ص١٢٩٢.

وهكذا تتفق وحدة الشخصية الإنسانية، ووحدة تكامل الخبرة الإنسانية فى منهج التربية الإسلامية مع الأصل فى الإسلام، وهو أنه دين التوحيد، ودين الوحدة والتكامل بين القوى الكونية جميعا.

٧ - التوازن:

«والتوازن» هو الخاصية السابعة للنظام الإسلامى ولمنهج التربية فى الإسلام. وخاصية التوازن مترابطة مع خاصية «الشمول» فالنظام الإسلامى هو نظام شامل، وهو شمول متوازن.

صور التوازن:

وللتوازن عدة صور أهمها ما يلى:

١ - هناك التوازن بين ما يدركه الإنسان فيسلم به، وينتهى عمله فيه عند التسليم، وبين ما يتلقاه الإنسان، فيدركه، ويبحث عن علله وبراهينه وغاياته، ويفكر فى مقتضياته العملية، وتطبيقها فى حياته الواقعية. إن الإنسان لا يستطيع إدراك كل شىء فى الوجود، فإدراكه لا يتسع لكل شىء. فأودع الله فى فطرته الارتياح للمجهول والمعلوم، والتوازن بين هذا وذاك فى كيانه.

ويقول الأستاذ سيد قطب: «إن العقيدة التى لا غيب فيها ولامجهول، ولا حقيقة أكبر من الإدراك البشرى المحدود، ليست عقيدة، ولا تجد فيها النفس ما يلبى فطرتها وأشواقها الخفية إلى المجهول، المستتر وراء الحجب المسدلة... كما أن العقيدة التى لا شىء فيها إلا المعميات التى لا تدركها العقول ليست عقيدة، فالكينونة البشرية تحتوى على عنصر الوعى. والفكر الإنسانى لا بد أن يتلقى شيئا مفهوما له، له فيه عمل، يملك أن يتدبره ويطبقه... والعقيدة الشاملة هى التى تلبى هذا الجانب وذاك، وتتوازن بها الفطرة، وهى تجد فى العقيدة كفاء ما هو مودع فيها من طاقات وأشواق...»[١].

---

(١) سيد قطب: خصائص التصور الإسلامى ومقوماته، مرجع سابق، ص١١٤-١١٥.

فإذا كان الإنســان لا يدرك ماهية الذات الإلهية، وعــلاقة إرادة الله بالخلق، وحقــيقة الروح، وغيــر ذلك من الحقائق التى لا ســبيل إلى إحاطته بهــا - فهناك صــفــات الذات الإلهــيــة من وجــــود، ووحــدانيــة، وقــدرة، وإدراك، وخلق، وتدبير. . . . وكلهــا صفات يستطيــع الفكر الإنسانى إدراكها، وإدراك ضــرورتها، وإدراك نتائجها فى الوجود. وهناك «الكون»: حقيــقته، ووجوده، وعلاقة الإنسان به، ومصدره، وعبوديته لله. وهناك «الحياة» بشتى أجناسها وأنواعها، ومصدرها، وعلاقاتهــا بالإنسان، وهناك «الإنسان» حــقيقتــه، ومصدره، وخصائصــه، وغاية وجوده، ومنهج حيــاته. . . فكل هذه ترد فى منطق مفهوم مــريح للعقل والقلب، وكلها مدعمة بالبراهين والأدلة التى تجعل الإنسان يقبلها ويسلم بها فى اطمئنان:

﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بَل لاَّ يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الطور].

﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس].

٢ - الصورة الثانية من صور التوازن، هى التــوازن بين طلاقة المشيئة الإلهية، وثبات السنن الــكونية. فالمشــيئة الإلهيــة طليقة، تفــعل كل شىء وأى شىء متى أرادت، وهى ليست ملتزمة بقاعدة أو قانون، فهى حين تريد تفعل ما تريد:

﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾ [النحل].

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿٤٠﴾﴾ [آل عمران].

﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾﴾ [آل عمران].

«وفى الوقت نفســه شاءت الإرادة الإلهية المدبرة، أن تتبــدى للناس عادة فى صورة نواميس مطردة، وســنن جارية، يملكون أن يراقبوها، ويدركــوها، ويكيفوا حياتهم وفقها، ويتعــاملوا مع الكون على أساسها. . . على أن يبقى فى تصورهم



ومشاعرهم أن مشيئة الله - مع هذا - طليقة، تبدع ما تشاء، وأن الله يفعل ما يريد، ولو لم يكن جاريا على ما اعتادوا هم أن يروا المشيئة متجلية فيه، من السنن المقررة والنواميس المطردة.. ومن ثم يوجه الله الأبصار والبصائر إلى تدبر سننه فى الكون والتعامل معها... والانتفاع بهذا النظر فى الحياة الواقعة»[1].

﴿ لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ... ﴿٤٠﴾ ﴾ [يس].

﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ ﴾ [آل عمران].

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلاً إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الروم].

٣ - وهناك صورة التوازن بين مجال المشيئة الإلهية الطليقة، ومجال المشيئة الإنسانية المحدودة. وهى القضية المشهورة باسم قضية «القضاء والقدر» أو الجبر والاختيار.

«والإسلام يثبت للمشيئة الإلهية الطلاقة.. ويثبت لها الفاعلية التى لا فاعلية سواها... وفى الوقت ذاته يثبت للمشيئة الإنسانية الإيجابية - كما سنفصل ذلك فى خاصية «الإيجابية» - ويجعل للإنسان الدور الأول فى الأرض وخلافتها، وهو دور ضخم، يعطى الإنسان مركزا ممتازا فى نظام الكون كله، ويمنحه مجالا هائلا للعمل والفاعلية والتأثير. ولكن فى توازن مع الاعتقاد بطلاقة المشيئة الإلهية، وتفردها بالفاعلية الحقيقية، من وراء الأسباب الظاهرة. وباعتبار أن وجود الإنسان ابتداء، وإرادته وعمله، وحركته ونشاطه داخل فى نطاق المشيئة الطليقة، المحيطة بهذا الوجود وما فيه ومن فيه»[2].

والقرآن الكريم ينص على وجود هذا التوازن، فنقرأ فيه:

---

(١) سيد قطب: المرجع السابق، ص١١٨-١١٩.

(٢) المرجع السابق، ص١٢٠-١٢١.

﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾﴾ [الحديد].

﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ [التوبة]

﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ... ﴿٧٨﴾﴾ [النساء].

ونقرأ فى الجانب الآخر:

﴿... إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ... ﴿١١﴾﴾ [الرعد].

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾ [الأنفال].

﴿وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ ... ﴿١١١﴾﴾ [النساء].

وبالرغم من هذا، فإن وجود الإنسان، وإرادته وعمله وحركة نشاطه، داخل فى نطاق المشيئة المطلقة، المحيطة بهذا الوجود وما فيه ومن فيه؛ ولذلك نقرأ فى القرآن:

﴿كَلاَّ إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾﴾ [المدثر].

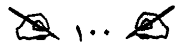
﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ ...﴿٣٠﴾﴾ [الإنسان].

لكن شمول مشيئة الله وإراداته «من شأنها أن تسمح للإنسان بقدر من الإيجابية فى الاتجاه والعمل، يقوم عليه التكليف والجزاء، دون أن يتعارض هذا القدر مع مجال المشيئة الإلهية المطلقة، المحيطة بالناس والأشياء والأحداث»[1].

٤ – الصورة الرابعة من صور التوازن هى التوازن بين عبودية الإنسان المطلقة لله، ومقام الإنسان الكريم فى الكون. وقد سلم الإسلام من التطرف الذى وقعت

---

(١) سيد قطب: المرجع السابق، ص١٢٣-١٢٤.



فيه المذاهب والفلسفات ما بين تمجيد الإنسان إلى حد التأليه مرة، وتحقيره إلى حد الزراية والمهانة مرة أخرى.

فالإسلام يفصل فصلاً قاطعًا بين حقيقة الإنسان الألوهية، ومقامها، وخصائصها، وبين حقيقة العبودية، ومقامها، وخصائصها، بحيث لا يكون ضباب ولا تحدث شبهة.

فالله ليس كمثله شيء، وهو الأول والآخر، والظاهر والباطن، وهو الباقي وحده، وهو الخالق وحده، وهو الرازق وحده، وهو العالم وحده.

والإنسان ما هو إلا عبد لله، ككل مخلوق في هذا الوجود، لا يشارك الله في حقيقة أو ماهية أو خاصية أو صفة:

﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾ [مريم].

«ولكن الإنسان - بعبوديته هذه لله - كريم على الله. فيه نفخة من روح الله. فَكُرِّم في الكون، حتى ليأمر الله الملائكة - وهم عباده المقربون - أن يسجدوا له سجود التكريم»[1]:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الحجر].

والإنسان مستخلف من قِبَل الله في هذه الأرض، مسيطر على كل ما فيها، مسخر له الأرض وما فيها، وقد أعده الله لهذه المهمة قبل أن ينزل إليها:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا

(١) سيد قطب: المرجع السابق، ص١٣١.

أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [البقرة].

﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ... ﴿١٣﴾ ﴾ [الجاثية].

ومحسوب حسابه فى تصميم الكون قبل أن يكون:

﴿ وَأَلْقَىٰ فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [النحل].

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ ﴾ [الحج].

وهكذا، فلا تعارض - فى المنهج الإسلامى - بين المنزلة الرفيعة للإنسان وبين عبوديته لله، بل رفعة الإنسان وتكريمه وفاعليته مستمدة جميعها من كونه عابدا لله وحده.

٥ - والصورة الخامسة من صور التوازن هى: التوازن بين مصادر المعرفة، بين التلقى من الوحى والنص، والتلقى من الكون والحياة. لم يتطرف الإسلام كما تطرفت العقائد والمذاهب والفلسفات الأخرى. لم يفعل كما حدث فى أوروبا من اتخاذ «الوحى» وحده مصدراً للمعرفة.. ثم الانصراف عن الوحى إلى «العقل» واتخاذه وحده مصدرا للمعرفة، ثم الانصراف عن العقل واتخاذ «الطبيعة» وحدها مصدراً للمعرفة. لم يتعسف الإسلام ولم يتطرف إلى درجة «تأليه» المصدر الذى يتلقى عنه مع إهمال المصادر الأخرى إهمالاً تامّا. بل أخذ الإسلام من جميع المصادر، ووازن بينها، وأعطى كلا منها ما يستحق من الدرجة والاعتبار.

فالإسلام يرد كل شىء ابتداء إلى إرادة الله وتدبيره، ويرد الخلق كله - بما فيه الكون وما فيه، والإنسان وجميع قدراته - إلى إرادة الله الواحد. ومن ثم فالإسلام لا يجد تناقضًا فى أن يكون للكون أو (الطبيعة)، وأن يكون للحياة وأوضاعها واقتصادها وسياستها دور فى إمداد «الإنسان» بالمعرفة عن طريق «العقل»

وسائر المدارك والطاقات الكامنة فيه، باعتبار أن هذا كله من صنع الله. . . فهى من عنده، كما أن الوحى من عنده أيضًا[1].

فالكون - إذن - هو كتاب الله المفتوح الذى يزود الإنسان بالمعرفة كما يزوده بها الوحى. ولكن مع فارق أساسى: هو أن المعرفة التى يتلقاها الإنسان بمداركه من هذا الكون قابلة للخطأ والصواب؛ لأنها من إدراك الإنسان وعمله، أما ما يتلقاه الإنسان من الوحى فهو اليقين الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

«لقد خلق الله هذا الكون متوافقًا فى فطرته وتكوينه مع هذا الإنسان. ومع سائر الأحياء. فكلهم من خلق الله. وكلهم يتلقى من الله. وكلهم يتمتع بهداه»[2].

﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾﴾ [طه].

﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾﴾ [الأعلى].

﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ... ﴿٣٨﴾﴾ [الأنعام].

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا ... ﴿٥٣﴾﴾ [طه].

«وفى التوافق والتناسق والتعاون بين خلق الله جميعًا - وفيهم الإنسان - ترد نصوص قرآنية ذات إيحاء بالوحدة والتضامن والتناسق فى طبيعة التكوين فى الاتجاه العام»[3].

---

(١) سيد قطب: المرجع السابق، ص١٣٨.

(٢) المرجع السابق، ص١٣٨.

(٣) المرجع السابق، ص١٣٩.

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَادًا ﴿٦﴾ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾﴾ [النبأ].

﴿أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴿٢٩﴾ وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٣١﴾ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴿٣٢﴾ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ ﴿٣٣﴾﴾ [النازعات].

والخلاصة: أنه بناء على تأكيد الإسلام على أن هناك اتفاقًا وتناسقًا بين الكون والإنسان، وبناء على أن الكون والإنسان وكل الحياة والأحياء من خلق الله وحده، فإن مصادر معرفة الإنسان هى:

١ - الوحى، أى التلقى عن الله سبحانه ابتداء.

٢ - الكون وكل الحياة والأحياء.

٣ - الإنسان ذاته؛ فهو مصدر من مصادر التأمل والمعرفة عن طريق العقل.

والنصوص القرآنية كثيرة، وكلها توجهنا إلى هذه المصادر. فهى توجهنا إلى المصدر الأول الأصيل والصادق:

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ... ﴿٩﴾﴾ [الإسراء].

﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٣﴾﴾ [يوسف].

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الجاثية].

﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾﴾ [البقرة].

والقرآن يوجهنا إلى التلقى والمعرفة من كتاب الكون المفتوح، ومن كتاب النفس المكنون:

﴿ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الذاريات].

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ... ﴿٥٣﴾ ﴾ [فصلت].

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾ [البقرة].

ويوجهنا القرآن إلى استخدام العقل للمعرفة والتعلم، إما بتدبر آيات الله فى الكون، وإما بتدبر حقائق الوحى وحقائق الحياة وسننها:

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ [النساء].

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الحج].

﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [النحل].

وهكذا تتوازن مصادر المعرفة فى الإسلام، وتتناسق.. كل بحسب وزنه، دون تطرف أو شطط، أو تأليه ما ليس منها بإله[1].

٨ - الإيجابية:

الخاصية الثامنة فى النظام أو المنهج الإسلامى العام، هى الإيجابية. وللإيجابية صورتان - كما يقول الأستاذ سيد قطب -: الإيجابية الفاعلة فى علاقة

(١) المرجع السابق: ص١٤٢.

الله - سبحانه - بـالكون والحياة والإنسان. والإيجابية الفاعلـة من ناحية الإنسان ذاته في حدود مجاله الإنساني.

الصورة الأولى، وهي الإيجابيـة الفاعلة في علاقـة الله - تعالى - بالكون والحيـاة والإنسان.. ففي التـصور الإسلامي، ليس هناك شك في إيجـابية الله - سبـحانه - في عـلاقته بخـلائقه كلهـا، ومنها الإنسان. «فـالإنسان» في التـصور الإسلامي يتعامل مع إله مـوجود. خالق. مريد. مدبر. مهيـمن. قادر. فعال لما يريد.. كـامل الإيجابيـة والفاعليـة... إليه يرجع الأمـر كله. وإلى إرادته يرجع خلق هذا الكون ابتداء، وكل انبثاقة فيـه بعد ذلك، وكل حركة، وكل تغير، وكل تطور. ولا يتم في هذ الكون شـيء إلا بإرادته وعلمه وتقـديره وتدبيـره. وهو - سبـحانه - مباشـر بإرادته وعلمه وتدبيره لكل عـبد من عبـاده، في كل حال من أحواله ولكل حي ولكل شيء في هذا الوجود كذلك.

ويحفل القرآن الكـريم بتقرير هذه الحقيـقة الأساسية، وهي إيـجابية الله - سبحانه - في علاقته بالكون والحياة والأحياء بما فيهم الإنسان:

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ [الأعراف].

﴿ ... وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ ﴾ [فاطر].

﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ ﴾ [الأنعام].

﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم

(١) المرجع السابق: ص١٤٦.

مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ ﴿١١﴾ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ ﴿١٣﴾﴾ [الرعد].

وهكذا، فالإنسان المسلم يؤمن ويدرك أن الله خالقه ورازقه، ومالك أمره كله فى الدنيا والآخرة، كما يؤمن ويدرك ويحس أنه يتعامل مع إله واحد،له إرادة واحدة، ومنهج واحد، وبذلك فهو يعلم بدقة ما يريده منه الله، وما يكرهه منه.

فإله المسلم ليس كإله أرسطو؛ سلبيا لا عمل له ولا إرادة، من كماله ألا يشعر بغير ذاته، ولا يفكر إلا فى ذاته، وليس كإله أفلاطون؛ لا يشعر حتى بذاته؛ لأنه يتنزه عن ذلك الشعور. وليس كإلهى الفرس: «هرمز» الخاص بعالم النور والخير، و«أهرمان» الخاص بعالم الظلام والشر، اللذين احتدمت المعارك بينهما. وهو ليس إلهًا خاصًا كإله بنى إسرائيل «يهوا» الذى رسمته تصوراتهم المنحرفة على أنه غيور ثائر محطم إذا ما عبد شعبه الآلهة الغريبة، وهو راضٍ ومستريح ونادم على ما فعل إذا ما عاد شعبه إليه. وليس كالتصورات الكنسية التى تجعل إرادة الله متلبسة فى إرادة المسيح... إلى آخره.

«وإله المسلم ليس مثل «الطبيعة» الخرساء الصماء، التى لا تطالب عابديها بعقيدة ولا بشعيرة، ولا بالسير حسب منهج ولا نظام فى الحياة، ولا أخلاق ولا آداب، ولا ضمير ولا سلوك، ولا تحس بوجودهم أصلاً. فالمسلم يعرف أن إلهه «الله» الحى الذى لا يموت، الصمد المقصود فى الحاجات، الرقيب الذى لا يغفل، الذى لا يظلم، الرحيم الذى يجيب المضطر إذا دعاه، ويكشف السوء».

«وقد عنى الإسلام عناية بالغة بتقرير هذه الحقيقة فى تصور المسلمين وتأكيدها، وتقرير وجود الله سبحانه فى حياتهم وتوسيعه وتعميقه... وكانت حياة الجماعة المسلمة الأولى فى ظلال الوحى المتلاحق، المتعلق بواقع حياتهم، وبما يهجس كذلك فى ضمائرهم، مثلاً حيًا وترجمة عملية، لهذه الحقيقة... فقد رأينا يد الله - سبحانه - تتدخل جهرة، وعينه تلحظ، وسمعه يرعى، أحوالهم اليومية، وأعمالهم الشخصية، وحياتهم الفردية والجماعية»[1].

---

(١) سيد قطب: المرجع السابق، ص١٥٢.

لقد شهدنا العناية الإلهية تتدخل علانية فى شأن أسرة صغيرة، لتقرر الحكم فى قضية بين امرأة وزوجها، حين لم يجد الرسول ﷺ فيها رأيا:

﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ①﴾ [المجادلة].

كما شهدناها تتدخل فى شأن الرجل الأعمى الفقير، ابن أم مكتوم، مع رسول الله ﷺ فى هذه الصورة الرائعة:

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ① أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ ② وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ ③ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ ④ أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ ⑤ فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ ⑥ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ⑦ وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ ⑧ وَهُوَ يَخْشَىٰ ⑨ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ⑩ كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ⑪ فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ ⑫﴾ [عبس].

وشهدنا هذا التدخل - كما يقول الأستاذ سيد قطب[1] - فى الأحداث الكبرى: كالهجرة، وبدر، وأحد. ورأينا هذا التدخل المباشر فى شأن موسى - عليه السلام- مع فرعون، وفى شأن نوح مع قومه، وفى شأن إبراهيم - عليه السلام - مع قومه، وفى شأن الكون كله...

ولقد كان من أثره استقرار هذه الحقيقة فى ضمير الجماعة المسلمة الأولى، ومعايشتهم لها ليل نهار تلك العظمات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والحربية والخلقية التى ليس لها نظير فى التاريخ الإنسانى كله من قبل ومن بعد.

والصورة الثانية من صور الإيجابية فى المنهج الإسلامى العام.. هى إيجابية الإنسانية فى الكون، وإيجابية المؤمن بهذه العقيدة فى واقع الحياة على وجه خاص.

«إن هذا التصور، ما يكاد يستقر فى الضمير حتى يتحرك لتحقيق مدلوله فى صورة عملية، ليترجم ذاته فى حالة واقعية، والمؤمن بهذا الدين ما يكاد الإيمان

(١) تفاصيل ذلك موجود فى فصل «الإيجابية» المرجع السابق.

يستقر فى ضميره حتى يعرف أنه قوة فاعلة مؤثرة، فاعلة فى ذات نفسه، وفى الكون من حوله».

«إن التصور الإسلامى ليس تصوراً سلبيًّا فى عالم الضمير؛ قانعًا بوجوده هناك فى صورة مثالية نظرية أو تصوفية روحانية، إنما هو «تصميم» لواقع مطلوب إنشاؤه، وفق هذا التصميم. وما دام هذا الواقع لم يوجد، فلا قيمة لذلك التصميم فى ذاته، إلا باعتباره حافزاً لا يهدأ لتحقيق ذاته».

«هذا ما يثيره التصور الإسلامى فى شعور المسلم، ومن ثم يجد دائمًا هاتفًا ملحًّا فى أعماقه، يهيب به على تحقيق هذا التصور فى دنيا الواقع، ويؤرقه، حتى يهب للعمل ويفرغ طاقته الإيمانية كلها فى هذا العمل الإيجابى البناء. وفى إنشاء واقع تتمثل فيه هذه العقيدة فى حياة الناس».

«وحيثما ذكر الإيمان فى القرآن، أو ذكر المؤمنون، ذكر العمل، الذى هو الترجمة الواقعية للإيمان. فليس الأمر مجرد مشاعر. إنما هو مشاعر تُفرَّغ فى حركة، لإنشاء واقع، وفق «التصميم» الإسلامى للحياة»[1].

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (١٥) ﴾ [الحجرات].

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٥٥) ﴾ [النور].

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ... (١١٠) ﴾ [آل عمران].

﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ

(١) المرجع السابق: ص١٥٦، ١٥٧.

وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾ ﴾ [آل عمران].

«فليس هناك إيمان هو مجرد مشاعر فى الوجدان أو تصورات فى الذهن، لا ترجمة لها فى واقع الحياة. وليس هناك إيمان هو مجرد شعائر تعبدية، وليس معها عمل يكيف منهج الحياة كله وتخضعه لشريعة الله»[1].

وفى طبيعة المنهج الإسلامى ذاته ما يحفز الإنسان على الحركة الإيجابية لتحقيق هذا المنهج أو التصميم فى واقع الحياة. «فالمسلم يعرف - من تصوره الإسلامى - أن «الإنسان» قوة إيجابية فاعلة فى هذه الأرض. وأنه ليس عاملاً سلبيًّا فى نظامها. فهو مخلوق ابتداء ليستخلف فيها، وهو مستخلف فيها ليحقق منهج الله فى صورته الواقعية: لينشئ ويعمر، وليغير ويطور، وليصلح وينمى، وهو معان على هذه الخلافة: معان من الله - سبحانه - جعل النواميس الكونية وطبيعة الكون الذى يعيش فيه معاونة له:

﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [النحل].

وهو معان من الله كذلك بما وهبه من القوى والاستعدادات الذاتية والقدرات الإدراكية، وهو يكلفه أمر الخلافة:

﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [النحل].

---

(١) سيد قطب: المرجع السابق، ص١٥٨.

وشعوره بـأنه مكلف بالعمل، ومعان عليـه، ينفى عنه الشعور بالسلبـية فى نظام هذا الكون. . . وانتفاء الـشعور بالسلبية يهـيئه للحركة الإيجـابية كذلك. إذ يعلمه أن قدر الله ينفذ فيه والأرض من حوله، عن طريق حركته هو ذاته[1]:

﴿ ... إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ... ﴿١١﴾ ﴾ [الرعد].

﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ ﴾ [التوبة].

﴿ ... وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٥١﴾ ﴾ [البقرة].

﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [التوبة].

الإيجابية ومنهج التربية الإسلامية:

إن خاصية الإيجابية فى منهج الله العـام تقتضى من المتعلم فى منهج التربية فى الإسـلام أن يدفع عن نفـسه الشـعور بـالسلبيـة، وأن يتـزود بدوافع الحركـة الإيجابية، كما تقتضى من المتعلم أيضًا نشاطا إيجابيا وواعيا بأبعاد الموقف التعليمى وتفاعلاً معه. والأصل هنا أن منهج التربية الإسلامية لا يعتمد فى طرائقه وأساليبه على التلقين وحـده، بل يهتم - بالدرجة الأولى - بالتـعلم عن طريق الأحداث، وعن طريق الممارسـة والعمل، وعن طريق الثواب والعقاب، وعـن طريق القصة، وضرب المثل، والتجـسيم والتصوير، والقدوة، وعن طريق استـخدام قوى الإدراك الظاهرة والباطنة التى زود الله الإنسان بها؛ ليستخدمها إلى أقصى طاقاتها:

﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [النحل].

﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴿٢٩﴾ ﴾ [ص].

---

(١) انظر: سيد قطب: المرجع السابق، ص١٦٠، ١٦١.

إن مجـرد المعرفـة النظرية، أو العلم الذى لا يؤثر فى سلوك الإنســان وفى واقع حياته لا قيمة لهما ولا يعتد بهما منهج التربية الإسلامية. إن ذلك العلم خاو من المعنى ولا قيـمة له. وتلك المعرفة سطحـية ولا قيمـة لها أيضًا. لأنهـا مجرد معـرفة «ذهنية» لا تؤثر فى سلوك الإنســان، ولا تغير شـيئًا فى واقع حـياته على الأرض. إن تلك المعرفـة وذلك العلم - باختـصار - لا يعينـان الإنسان على أداء وظيفتـه فى عمارة الأرض وترقيـتها وفق منهج الله؛ ولهذا كان الـوحى قاطعًا فى رده على المنافقين: إن كنتم مؤمنين حقًا فآية إيمانكم هى تنفيذ أحكام الله:

﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء].

٩ - الواقعية:

الخاصية التـاسعة من خواص النظام أو المنهج الإسلامى - التى يشـرحها لنا الأستاذ سيد قطب - هى الواقعية، أى التحقيق فى عالم الواقع، فالمنهج الإسلامى هنا يتعامل من الحقـائق الموضوعية، ذات الوجود الحقـيقى المؤكد، والأثر الواقعى الإيجابى، لا مع تصورات عقلـية مجردة، ولا مع مثاليات لا مـقابل لها فى عالم الواقع، أو لا وجود لها فى عالم الواقع.

ثم إن «التصميم» الذى يضـعه للحياة البشرية يحمل طابع الواقـعية كذلك؛ لأنه قابل للتحقـيق الواقعى فى الحياة الإنسانية. ولكنهـا فى الوقت ذاته واقعية مثالية أو مثالية واقعية؛ لأنها تهدف إلى أرفع مستوى وأكمل نموذج، تملك البشرية أن تصعد إليه..[1].

«إنه يتعامل مع الحقيقة الإلهية متمثلة فى آثارها الإيجابية وفاعليتها الواقعية. ويتعامـل مع الحقيقة الكونـية متمثلة فى مـشاهدها المحسوسـة، المؤثرة أو المتأثرة. ويتعـامل مع الحقـيقة الإنسـانية، مـتمثلـة فى الأناسى كما هم فى عـالم الواقع، فالحقيـقة الإلهية التى يتعامـل معها هذا المنهج تتمثل فى «الله» المتـفرد بالألوهية،

(١) سيد قطب: المرجع السابق، ص١٦٣.

وبكل خصائص الألوهية، لكن خصائص الألوهية كلها فى عالم الواقع، وذات أثر فى عالم الواقع، ويمكن لكل متدبر أن يدرك آثارها الواقعية فى كل مظاهر الكون من حوله، فالعقل البشرى هنا غير متروك للضرب فى التيه، يتصور الحقيقة الإلهية على هواه من خلال قضايا منطقيـة مجردة، أو «ميتافيزيقا» مثـالية لا أثر محسوسًا لها.

وإنما يتعامل المنهج الإسلامى مع إله «موجود» يدل خلقه على وجوده، وهو «مريد» «فعال» لما يريد، تدل حركة هذا الكون وما يجرى فيه على إرادته وقدرته.

وباختصار «فإن الحـقيقة الإلهية فى التصور الإسلامى حـقيقة فاعلة فى هذا الوجود، وتلتـمس خصائصـها وصفاتهـا فى آثارها الواقعيـة فى هذا الوجود... وهذا ما يفـصله القرآن الكريم، وهو يصف الحقيـقة الإلهية للناس، وهو يـعرفهم بربهم تعريفًا يسيـرًا عميقًا واضحًا، وهو يسـتشهد بواقع الكون وواقع الناس، فى منطق فكرى واقعى جميل[1]:

﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ (17) وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ (18) يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ (19) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ (20) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (21) وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ (22) وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (23) وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (24) وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ (25) وَلَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ (26) وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (27) ﴾ [الروم].

---

(1) سيد قطب: المرجع السابق، ص١٦٩.

﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١١) لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٢)﴾ [الشورى].

بمثل هذه الواقعية يواجه المنهج الإسلامى الكون. . . «فهو يتعامل مع هذا الكون الواقعى المتمثل فى أجرام وأبعاد، وأشكال وأوضاع، وحركات وآثار وقوى وطاقات. لا مع الكون الذى هو «فكرة» مجردة فى الشكل والقالب. . ولا مع الكون الذى هو «صورة» أو «مثال» فى العقل المطلق أو الكون الذى هو «الطبيعة» الخالقة التى تطبع الحقائق فى العقل البشرى.

الكون فى التصور الإسلامى هو كل الخلائق التى أبدعها الله، وقال لها كونى فكانت. والتى نسقها بحيث لا تتعارض ولا تتصادم، والتى جعلها خاضعة لإرادته؛ عابدة له مسخرة لأمره. فالكون إذن هو السموات والأرض، والنجوم والكواكب، جميع الكائنات، الليل والنهار، والنور والظلام، الرعد والبرق والمطر، هو كل المخلوقات والظواهر الكونية ذات الوجود الحقيقى، والتى يدركها الإنسان، ويوجه القرآن عقل الإنسان وقلبه إليها إدراكها، كدليل على وجود خالقها، ووحدانيته، وهيمنته وتدبيره، وعلمه وتقديره[1].

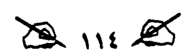
﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (١)﴾ [الأنعام].

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (٣)﴾ [يونس].

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥) إِنَّ فِي اخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ (٦)﴾ [يونس].

---

(١) سيد قطب: المرجع السابق، ص١٦٩- ١٧٠.



﴿ ... وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لاَّ رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ ﴿٧﴾ ﴾ [الحج].

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ ﴾ [الفرقان].

«كذلك يتعامل التصور الإسلامى مع الإنسان، مع هذا الإنسان الواقعى، المتمثل فى هؤلاء البشر كما هم، بحقيقتهم الموجودة مع هذا الإنسان ذى التركيب الخاص، والكينونة الخاصة. الإنسان من دم ولحم وأعصاب وعقل ونفس وروح.. الإنسان ذى النوازع والأشواق، والرغائب والضرورات.. الإنسان الذى يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق، ويحيا ويموت، ويبدأ وينتهى، ويؤثر ويتأثر، ويحب ويكره، ويرجو ويخاف، ويطمع وييأس، ويعلو وينحط، ويؤمن ويفكر، ويهتدى ويضل، ويعمر الأرض أو يفسد فيها ويقتل الحرث والنسل... إلى آخر سمات الإنسان الواقعى، وصفاته المميزة»[1].

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾ [الحجرات].

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [يس].

﴿ قُتِلَ الإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ﴿١٧﴾ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ﴿١٩﴾ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ ﴿٢٢﴾ ﴾ [عبس].

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ

(١) سيد قطب: المرجع السابق، ص١٧٣.

الْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾ ﴾ [البقرة].

إن هذا هو «الإنسان» الذى خلقه الله ليستخلفه فى هذه الأرض، يقوم فيها بالخلافة الحركية الإيجابية، التى تنشىء وتبدع فى عالم المادة ما يتم به قدر الله فى الأرض والأحياء والناس.

«إنه الإنسان الواقعى... ومن ثم فإن المنهج الذى يرسمه له الإسلام منهج واقعى كذلك، منهج حركى تنطبق حدوده على حدود طاقات الإنسان، وتكوينه وواقعية لحمه ودمه وأعصابه، وجسمه وعقله وروحه، الممتزجة فى ذلك الكيان».

«والمنهج الإسلامى للحياة، على كل رفعته ونظافته وربانيه ومثاليته - هو فى الوقت نفسه منهج لهذا الإنسان - فى حدود طاقاته الواقعية - ونظام لحياة هذا الكائن البشرى الذى يعيش على هذه الأرض، ويأكل الطعام، ويمشى فى الأسواق، ويتزوج ويتناسل، ويحب ويكره، ويرجو ويخاف، ويزاول كل خصائص الإنسان الواقعى كما خلقه الله».

«وهو يأخذ فى اعتباره فطرة هذا الإنسان، وطاقاته واستعداداته، وفضائله ورذائله، وقوته وضعفه، فلا يسوء ظنه بهذا الكائن، ولا يحتقر دوره فى الأرض... كما لا يرفع هذا الإنسان إلى مقام الألوهية.. كذلك لا يتصوره ملكا نورانيا... ومن ثم لا يستقذر دوافع فطرته ومقتضيات هذا التكوين الفطرى».

«ومع اعتبار المنهج الإسلامى لإنسانية الإنسان من جميع الوجوه، فهو وحده الذى يملك أن يصل به إلى أرفع مستوى، وأكمل وضع، يبلغ إليه الإنسان، فى أى زمان وفى أى مكان»(1) هذه هى المثالية الواقعية، والواقعية المثالية فى آن.

بهذا المفهوم الشامل المتكامل لمقومات المنهج الإسلامى وخصائصه، لا نقول: إنه منهج قابل للتطبيق، بل نقول: إنه منهج قد طبق بالفعل على مدى قرون طويلة، وتربت فى ظله أجيال عديدة، وأخرج للإنسانية أمة وصفها الله

---

(1) سيد قطب: المرجع السابق، ص١٧٦ - ١٧٧.

بقوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ... (١١٠)﴾ [آل عمران].

فعندما طبقت الأمـة الإسلامية هذا المنهج، بهذا التصور كـانت خير أمة فى تاريخ البشرية، وحوت من ألوان العظمة فى كل اتجاه ما لم يجتمع لأمة أخرى فى تاريخ الإنسانية بهـذه الوفرة، وذلك التنوع. عظمات حربية، وعظمات سـياسية، وعظمات علمية، وعظمات إدارية، وعظمات نفـسية، وعظمات روحية، عظمات من كل نوع رسخت أسس التـاريخ الإسلامى على الأرض، بما قدمت من مـبادئ ومثل عليـا مطبقة فى التاريخ الإسـلامى بصورة فريدة. صـورة يلتقى فيهـا المثال والواقع، فـلا تكاد تعرف - من روعـة العظمـة المذهلة - أيهمـا الواقع، وأيهمـا المثال![1].

وبعد هذا العـرض، نستطيع أن نقول عن يقـين لا يتطرق إليه شك: إنه لا يمكن تصميم منهج سليم للتـربية الإسلامية ولا نظام للاقتصـاد، أو السياسة، أو الاجتماع دون «فهم» لهذا التصور الشامل المتكامل لمنهج الإسلام وخصائصه السابق ذكرها، فهمًا يقوم على الإيمان بهذا التصور والعمل بمقتضاه.

الواقعية ومنهج التربية الإسلامية:

إن منهج التربية الإسلامـية منهج إيجابى وواقعى فهو - كمـا يقول الأستاذ سيد قطب-: «تصميم» لواقع مطلوب إنشاؤه على أساس هذا التصميم. والإنسان وحده - باعتبـاره خليفة الله فى الأرض - هو المكلف بتنفيذ هذا «التـصميم» عن طريق التفكر والتدبر والنشاط بإيجابية وفاعلية.

وينسحب هذا - بطبيعة الحال - على الموقف التعليمى، فمجرد تقديم الخبرة للمتـعلم لا يعنى - بالضرورة - تعلمه، وتعديـل سلوكه فى الاتجـاه المطلـوب. فلا بد من أن ينشط الإنسان، ويتفاعل مع الموقف التعليمى، بل ولا بد أن ينعكس أثر هذا الموقف على سلوك الإنسان بعد ذلك.

(١) محمد قطب: منهج التربية الإسلامية، مرجع سابق، ج٢، ١٥.

والأصل فى هذا، أن التعلم لا يحدث وفقًا لتصور منهج التربية الإسلامية إلا بعد تمام خمس خطوات مرتبة ترتيبًا سببيًّا، وهى كما يلى:

١ - وجود دافع فطرى أو حاجة من حاجات النفس الغريزية أو المكتسبة.

٢ - أن يحس الإنسان أو المتعلم بحاجته إلى هدى الله. فى إشباع هذه الحاجة أو ذلك الدافع.

٣ - فإذا كان لديه هذا الاتجاه وهذا الشعور، فإنه يدفعه إلى النشاط وإلى التفاعل والأخذ بكل الأسباب الممكنة من أجل التعرف على تفاصيل ما يريد أن يعرف.

٤ - ونتيجة للاستعانة بهدى الله، والأخذ بكل الأسباب الممكنة، يحدث الفهم، ويتم التحصيل.

٥ - فإذا جاء السلوك بعد ذلك موافقًا للفهم والإدراك والتحصيل، فإن التعلم يكون قد تم.

إن هذه ما نراه واضحًا جليًّا فى قوله تعالى:

﴿ ... وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ... (٢٨٢) ﴾ [البقرة]...

﴿الم (١) ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ (٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣)﴾ [البقرة]. وهكذا، فإذا لم يتكون الشعور والاتجاه، ويتم النشاط، ويحصل الإدراك والفهم، ويتحول كل ذلك إلى سلوك عملى فى واقع الأرض، إذن فالتعلم لم يقع.

منهج فريد:

وانطلاقًا من المفـهوم السابق والقواعـد التى يرتكز عليها، فإن منهج الـتربية الإسلامية قد يتفق مع بعض مناهج العالم فى كثير من التفصيلات والفروع، ولكنه يختـلف عنه - قطعًا - فى القـواعد والأصـول التى ينبثق منهـا. فمـعظم مناهج الأرض تهتم - مـثلا - بدراسة العلوم والرياضيـات، وكذلك يفعل منهج التـربية الإسلامية. إلا أن كثيرًا من بلاد الدنيا قد تهتم بتدريس هذه المناهج لا لترقية حياة المواطنين فى مجتمـعاتها فقط، ولكن لاستغلال تطبيقـاتها التقنية فى صنع أدوات الحرب والدمار، لا للدفـاع على النفس فقط، بل وللاعتداء على حـقوق الآخرين وحرماتهم أيضًا. إن الناظر حوله يـرى حروبًا مدمرة لكل حى على وجه الأرض. هذه الحروب تمولـها وتغذيهـا مجـتمعـات تقدمت فى تطبـيقـاتها التقنيـة للعلوم والرياضيات. لكن منهج التـربية الإسلامية إنما يهتم بهـذه المواد والدراسات لتزويد الإنسـان المسلم بالمعلومـات والمهـارات والتجـارب التى تمكنـه من عمـارة الأرض وترقيتها وفق منهج الله، والقـيام بحق استخلاف الله له فيها أينما وجـد، وحيثما وجد.

ومعظم مناهج الأرض تهتم بدراسة التاريخ والجـغرافيا، وكذلك يفعل منهج التربية الإسلامية، إلا أن معظم هذه المناهج يهدف إلى تربية العزة القومية، والنعرة الوطنية، وتخليد المثل والنماذج التاريخيـة لتقوية الاتجاهات العنصرية. لكن منهج التربية الإسلامية يؤكد عالمية الدعوة الإسلامية وإنسانيتها التى قررها الله فى قوله:

﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [التكوير]. . .

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء].

فمنهج التربيـة الإسلامية لا يهدف إلى إعداد «المواطن» الصـالح، وإنما يسير وفق ما تقتضيـه عالمية الإسلام، فيسعى إلى تحقيق هدف أكبـر وأشمل - كما سبق أن قلنا - وهو إعداد «الإنسان» الصالح أيًا كان موطنه. الإنسان القادر على القيام بحق الخلافة. وحق الخلافـة لدى الإنسان هو المساهمة بإيجابية وفـاعلية فى عمارة الأرض وفق منهج الله.

كمـا أن من أهم أهداف الدراسة فى العلوم الاجـتمـاعية عـمومًـا هو تربية الاتجاه إلى التفكير فى النفس وفى الآفـاق، وتدبر العبرة من الحوادث التى تقع فى الأرض، وربط كل ذلك بـإرادة الصـانع الحكيـم، وهنا - مـرة أخـــرى - ترتبط الأرض بالسماء، والدنيا بالآخرة.

ومعظم مناهج الدنيـا تهتم بتدريس الآداب والفنون المختلفـة. وكذلك ينفع منهج التـربية الإسـلاميـة، لكن مـعظم هذه المناهج تهـدف - فقط - إلى تربيـة الإحســاس بالذوق والجمـال فى الطبيعـة وفى الكون فى ذاته. لكن منهج التـربية الإسلامية يضيف إلى تربية الإحســاس بالذوق والجمال فى الكون كله، اعتباره من صنع الله الذى أتقن كل شىء. فوظيـفة الفن إزالة البلادة المتراكـمة على القلوب، وجلاء الإحساس، وإثارة المشاعر للتعبد بدقة الصانع القادر.

ومعظم مناهج الدنيا تهـتم بتدريب المتعلمين على الرياضة البـدنية والألعاب الرياضية المختلفـة. ومنهج التربية الإسلامية يفعل ذلـك، لا لتدريب الناشئة على الطاعـة والحرص على النظام فـقط، كمـا تفـعل بعض النظم، ولا لتربيـة الروح التعاونية والجـماعية فقط، كما تفعل بعض النظم الأخـرى، ولا لصناعة الأجساد الجميلة وبيعهـا والاتجار بها فى أسواق الرقيق المعاصرة، كمـا تفعل بعض الهيئات والمؤسسات. وإنما الذى يعنى منهج التـربية الإسلامية من التربية البـدنية والرياضية هو بناء المؤمن القوى بجسمه وعقله ومشاعره. المؤمن القادر على الكد والكدح فى الأرض بما يسره الله له، المؤمن القادر على محاربة طواغيت الأرض، والقادر على الجهاد فى سبـيل تنفيذ منهج الله «**فالمؤمن القوى خـير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف**» كما قال رسول الله :

والمؤمن القوى هو الذى لا يظلم الناس، ولا يظلم نفسه، ولا يرضى بوقوع الظلم دون أن يحـاربه. والمؤمن القوى هو الذى يكافح فـى سبيل تحـقيق العـدالة الاجتماعـية فى حدود منهج الله. فالإسلام لا يريد الناس يتنازلون عـن حقوقهم المشروعة - تحت أى ضغط - ويعدهم بسوء العذاب فى الآخرة، ويسميهم «ظالمى أنفسهم:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ ﴾ [النساء]. وأكثر من ذلك، فالإسلام يحرض المؤمن على القتال فى سبيل الحصول على حقه «**ومن قتل دون مظلمته فهو شهيد**» (رواه النسائى).

وعلى هذا فإن منهج التربية الإسلامية لا يقيد الإنسان فى نطاق حاجاته الأرضية أو الوطنية أو القومية، وإنما يزوده بالحقائق الثابتة، والمفهومات والمعلومات والمهارات والخبرات المتغيرة، التى تقدره على الربط بين الأرض والسماء فى آن واحد، فقيمة العلم تكمن فى مدى فائدته فى بناء الإنسان بحيث يكون قادرًا على عمارة الأرض وترقيتها فى حدود منهج الله، فالمنهج هنا يربط بين التقوى والعلم:

﴿ ... وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ... ﴿٢٨٢﴾ ﴾ [البقرة].

ويجعل العلم سبيلاً إلى معرفة الله وخشيته:

﴿ ... إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ... ﴿٢٨﴾ ﴾ [فاطر].

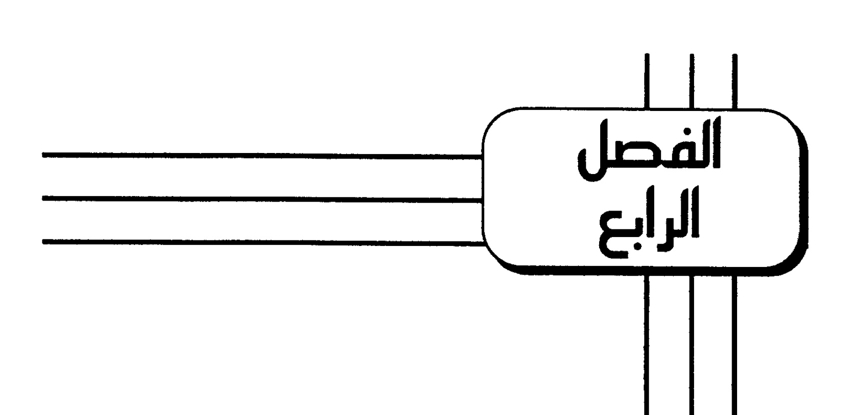
إن العلم فى منهج التربية الإسلامية هو معرفة قوانين الله فى الكون وتطبيقاتها فى عمارة الأرض، فالعلم الصحيح - إذن - هو الذى يؤدى إلى معرفة الله. وهذا العلم فريضة مقدسة «**طلب العلم فريضة على كل مسلم**» (رواه ابن ماجه)، وبذل الجهد فى طلب العلم جهاد، أى عبادة «**من سلك طريقًا يطلب فيه علمًا سهل الله له طريقًا إلى الجنة**» (رواه مسلم).

نحن إذن حيال منهج فذ، فريد، شامل، متكامل، لتربية الإنسان كله: جسمه وعقله ووجدانه، تربية شاملة متكاملة، تربية الإنسان القوى القادر على المساهمة فى عمارة الحياة وترقيتها، الإنسان التواق إلى العدل، المناضل من أجل الظفر بالحرية ـ الذى تحركه الأشواق إلى الخير، والحق، والجمال، الإنسان الذى يعمر قلبه الإيمان، وحب الآخرين، والرغبة فى إسعادهم، الإنسان الذى يتحدى الخطر والفقر، ويقتحم المجهول فى جسارة مستعينًا بالله؛ ليصوغ لنفسه وللناس عالمًا أفضل.

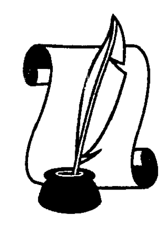


إن ذلك المنهج يربى الإنسـان الموصـول الصلة دائمًا بالله، الذى يربط بين الدنيا والآخـرة، كمـا يربط ملكوت الأرض بملكوت السمـاء. . . ذلك المنهج هو هويتنا التـربوية، لأنه وسيلتنا إلى تحـقيق هويتنا الكلـية، وهى أن نكون مسـلمين حقًا.

ولكن ما الأسس التى يقـوم عليها بناء هذا المنهج السـابق للتربية، بمفهـومه وخصائصه؟ هذا ما نجيب عنه فى الفصول التالية إن شاء الله.



أسس منهج التربية
فى التصور الإسلامي



خلصنا فى الفصل السابق إلى أننا لن نتحدث عن «فلسفة» ولا عن «نظرية» لمناهج التربية، وإنما ستتحدث عن «التصور الإسلامى» لهذه المناهج ولما كانت المناهج التربوية - كما هو متفق عليه علميا وعالميا - لها أسس يقوم عليها بناؤها، وتتمثل فى طبيعة المعرفة: The Nature of Knowledge، وطبيعة الإنسان The Nature of Man، وطبيعة المجتمع والحياة The Nature of Life and Society، ومن هذه الأسس ينبثق مفهوم المنهج وخصائصه، وكذلك أهدافه، ومحتواه، وطرائق وأساليب تدريسه وتقويمه، لما كان ذلك كذلك، فإن السؤال الذى يبرز هنا هو: ما الأسس التى يقوم عليها منهج التربية فى التصور الإسلامى؟

والإجابة عن هذا السؤال هى جوهر الحديث فى هذا الفصل من الكتاب:

طبيعة المعرفة وأسس المنهج:

الحديث عن طبيعة المعرفة يعنى الإجابة عن الأسئلة الثلاثة الآتية:

١ - ما مصادر المعرفة؟

٢ - كيف يعرف الإنسان؟ أو ما كيفية المعرفة؟

٣ - ما مهمة المعرفة للحياة والمجتمع؟

الإجابة عن السؤال الأول: ما مصادر المعرفة؟ تعنى ضرورة التعرض للرؤى الفلسفية المختلفة للألوهية والكون: فالرؤية التى تؤمن بالله الواحد الخالق لكل شىء، تجعل الوحى هو المصدر الأول للمعرفة، وتجعل الكون مصدرا ثانيا للمعرفة التى لا تتم إلا بإرادة الله، والإسلام خير شاهد على هذا التصور.

وهناك من الرؤى من يؤمن بوجود الله، لكنه يعزله فى ملكوت السماء، ولا يجعل له - سبحانه - دخلا فى تصريف ملكوت الأرض. وهنا يصير الوحى مجرد مصدر من مصادر المعرفة التى تتم بإرادة الإنسان وحده، دون دخل لإرادة الله، وتجعل المصدر الرئيسى للمعرفة هو الكون، والعلمانية مثال صادق لهذه الرؤى.

وهناك من الرؤى من لا يؤمن بـوجود الله أصـلا، ويرى أن الحـياة مـادة، ويرى أن الكون هو فقط هذا الكون المشهود بمفرداته المرئية المحسوسة! وينكر الكون المغيب ابتداء بالروح وانتهاء بمفردات الملأ الأعلى! وهذه الرؤى لا تؤمن إلا بمصدر واحد للمعرفة هو المادة فى صورها المختلفة! والماركسية أبرز مثال على ذلك.

إذن فالإجابة عن السـؤال الأول: ما مصادر المعرفة؟ تقتـضى تحديد أساسين مهمين من أسس بناء منهج التربية، هما على الترتيب فى الأهمية والأولوية:

١ ـ حقيقة الألوهية فى التصورات الفلسفية المختلفة.

٢ ـ حقيقة الكون فى التصورات الفلسفية المختلفة.

وللإجابة عن السؤال الثانى: كيف يعرف الإنسان؟ أو كـيف يحدث التعلم للإنسان؟ يقتـضى هذا بيان حقيقـة الإنسان فى التصور الإسـلامى وفى التصورات الأخرى، وبيان حقيـقة فطرته، وطبيعـته الإنسانية. وبيان حقيقة النفس فى التصور الإسلامى وفى التصورات الأخرى، ثم بيان مطـالب النمو وحاجاته، مع الاهتمام بطبيعة الإنسان الكبير وحاجاته ومطالبه وأثر كل ذلك فى مناهج التربية والتعليم.

وعلى هذا فإن الإجابة عن هذا السؤال الثانىٰ فى طبيعة المعرفة: كيف يعرف الإنسان؟ أو كـيف يحدث التـعلم؟ تقتـضى تحديد الأساس الثـالث من أسس بناء منهج التربية ألا وهو:

٣ ـ حقـيقة الإنسـان، من حيث مـصدره، ومركـزه فى الكون، ووظيفـته فى الحياة، وغايته.

وللإجـابة عن السؤال الثـالث: ما مـهمـة العلم والمعرفة لكـل من الإنسان والمجتمع والحـياة؟ يقتضى الأمـر بيان طبيعـة المجتمع فى التصـور الإسلامى وفى التصـورات الأخرى، وبيان أهم المعاييـر التى تحكم سلوكيات الأفراد فـيه، وتحكم نوعيات الروابط والصلات والنظم الاجـتماعية والمؤسسات، وتوجهـها إلى غاياتها المنشودة، ومـثلها المرجوة، كـما يقـتضى هذا بيان نوعـية الموجهـات السياسـية، والاقتصادية، والاجتماعية، والثـقافية، والأدبية، والتربوية، والإعلامية... إلخ،

وبيان العلاقة بين العلم والمعرفة، وأهميتها فى بناء المجتمع، وبيان العلاقة بين التربية والتغير الاجتماعى والتقدم الحضارى.. إلخ.

وهكذا نكون قد وصلنا إلى الأساس الرابع والأخير من أسس بناء منهج التربية للكبار والصغار على السواء، وهذا الأساس هو:

٤ ـ حقيقة الحياة والمجتمع من حيث: العقيدة والموجهات، والروابط والصلات، والنظم والمؤسسات، والعلم والمعرفة ودورهما الفاعل فى كل ذلك.

هذه الأسس الأربعة السابقة تمثل التصور المعرفى والتصور الاعتقادى الفلسفى للإنسان والمجتمع والحياة. فهى تمثل التفسير الشامل للوجود الذى يتعامل الإنسان على أساسه مع هذا الوجود. وبما أن المنهج نظام تربوى اجتماعى، فإن المناهج التربوية تختلف باختلاف النظم الاجتماعية وتصوراتها الاعتقادية والفلسفية للألوهية، والكون، والإنسان، والحياة.

وعلى هذا فإن الممارسة المنهجية التى تتمثل فى أهداف المنهج ومحتواه، وطرائق وأساليب تدريسه، وطرائق وأساليب تقويمه وتطويره، تختلف هى أيضا باختلاف حقائق التصور الفلسفى الاعتقادى الأربع السابقة، التى تمثل أسس المنهج والتى تختلف من مجتمع إلى آخر.

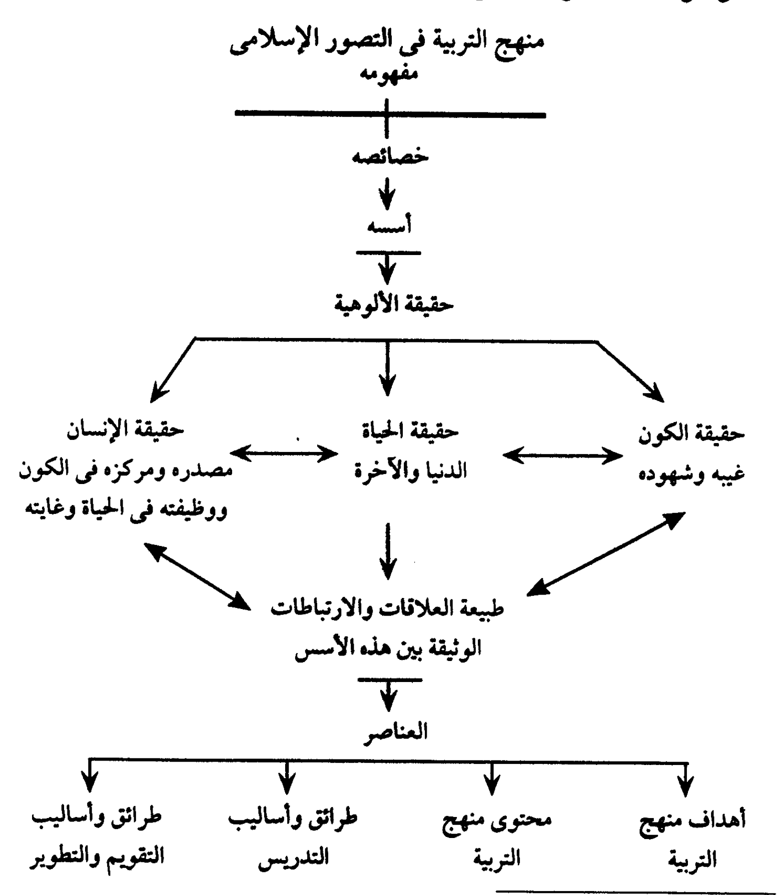
من العرض السابق لطبيعة المعرفة، يتضح لنا أن للمنهج ـ وفقا لطبيعة التصورات الفلسفية والاعتقادية المختلفة ـ أسساً أربعة هى:

- التصور الفلسفى لحقيقة الألوهية.
- التصور الفلسفى لحقيقة الكون.
- التصور الفلسفى لحقيقة الإنسان.
- التصور الفلسفى لحقيقة الحياة.

إن هذه الحقائق الأربع والعلاقات والارتباطات بينها تمثل أساس التصور الاعتقادى الإسلامى وأساس التصور الاجتماعى المنبثق عنه، كما أنها تمثل الأسس



الفلسفية لمنهج التـربية. إن الإنسان لا يملك أن يعيش حياة إسلاميـة صحيحة دون هذا التصور والإيمان به، والعـمل بمقتضاه؛ لذلك فإن هذا التصـور بشعبه الأربع: الله، الكون، الإنسان، الحـياة، هو القاعـدة والأساس الذى ينبغـى أن يبنى عليه منهج التربية والتعليم فى التصور الإسلامى (انظر الشكل الموضح)[1]. ونتناول كل أساس من هذه الأسس فيما يلى:



(١) انظر: على أحمد مـدكور، منهج التربية أسـسه وتطبيقاته، القـاهرة، دار الفكر العربى، ٢٠٠١، الفصل الثانى.

الأساس الأول
حقيقة الألوهية فى التصور الإسلامى

حقيقة الألوهية حقيقة إيجابية فاعلة فى الكون والإنسان. «فالتصور الإسلامى يبدأ من الحقيقة الإلهية التى يصدر عنها الوجود كله، ثم يسير مع هذا الوجود فى كل صوره وأشكاله وكائناته وموجوداته، ويعنى عناية خاصة بالإنسان ـ خليفة الله فى الأرض ـ فيعطيه مساحة واسعة من الصورة، ثم يعود بالوجود كله مرة أخرى إلى الحقيقة الإلهية التى صدر عنها، وإليها يعود».

والتصور الإسلامى «فى هذه الجولة الواسعة من الله وإليه، يشمل كل دقائق الكون، لا يغادر منها شيئا يقع فى محيطه، سواء منها ما تدركه الحواس وما لا تدركه، وما يدركه العقل بوعيه، وما تدركه الروح فيما وراء الوعى، ويشمل كل نشاط الإنسان وكل طاقاته. سواء نشاطه المادى ونشاطه الروحى، وسواء حياته الاقتصادية والاجتماعية والفكرية، وسواء عمله فى الحياة الدنيا وفيما وراء هذه الحياة»[1].

أما الحقيقة الإلهية فى الفكر الأفلاطونى والأرسطى فأمرها غريب، فإله أفلاطون وإله أرسطو لا عمل لهما ولا إرادة وإذا كان أرسطو يرى أن من كمال إلهه ألا يشعر إلا بذاته، وألا يفكر إلا فى ذاته، فإن أفلاطون يزعم أن من كمال إلهه «الأحد» ألا يشعر حتى بذاته، لأنه يتنزه عن ذلك الشعور!

وقد أثر هذا اللون من الفلسفة فيما يتصل بالحقيقة الإلهية على المدارس الفكرية والتربوية التى أتت بعد أفلاطون وأرسطو. فتوماس الإكوينى المتأثر بأرسطو، وهو أحد أبرز المؤسسين للفلسفة الواقعية المدرسية، قد شارك فى إقامة هذه الفلسفة على الاعتراف بكل من الطبيعة، والقوة الخارقة للطبيعة ممثلة فى الإله الذى خلق الوجود، فهذه الفلسفة ذات طبيعة ثنائية بين الإله والطبيعة! فلكل

---

(١) محمد قطب: منهج الفن الإسلامى، بيروت، دار الشروق، ١٤٠٣ هـ، ١٩٨٣ م، ص ١٦.

منهما صفات خاصة به لا تنسب إلى الآخر، فالزمان والمكان والتغير والنمو من خصائص الحوادث الطبيعية، فى حين أن الأزلية، وعدم التغيير، وعدم التقيد بالزمان والمكان من خصائص الإله![1].

فإذا كانت وظيفة مناهج التربية ـ فى التصور الإسلامى للحقيقة الإلهية ـ هى أن تغرس فى المعلم الإيمان بالله ـ ذاتا وصفات ـ والإيمان بمنهج الله للكون والإنسان والحياة، وأن توصل هذا المتعلم إلى درجة كماله التى تمكنه من المساهمة فى تنفيذ منهج الله فى الحياة ـ إذا كان ذلك فى التصور الإسلامى، فإن سلبية الإله فى التصور الأفلاطونى الأرسطى، والازدواجية بين الإله والطبيعة لدى تلاميذ المدرسة الواقعية المدرسية... بالإضافة إلى عوامل أخرى ـ كان كل ذلك هو الخطوة الأولى نحو فصل حقيقة الحياة عن الحقيقة الإلهية.. وفصل الدين عن الحياة، وظهور النظام «العلمانى» الغربى، هذا النظام الذى يقوم على أساس فصل الدين عن الحياة، وأن لله ملكوت السماء، وللإنسان ملكوت الأرض، وأن ما لقيصر لقيصر وما لله لله!.

وعلى ذلك الأساس قامت معظم الدراسات النفسية ودراسات الأصول التربوية فى الغرب، وجاءت النظرية الموسوعية غير بعيدة عن هذا التصور للحقيقة الإلهية، فالحقيقة الإلهية هى إحدى مكونات الكون! مع الطبيعة والإنسان! وأصبح من مهام التربية الأساسية فى النظرية البراجماتية، تكييف المتعلم مع البيئة والطبيعة من حوله، لا على أساس أنهما من خلق الله، بل على أساس أن الطبيعة خالقة. ومن مهام التربية أن يفهم المتعلم القوانين التى تحكم العالم المادى من حوله، لا على أساس أن هذه القوانين نواميس وسنن خلق الله الكون عليها، وإنما على أساس أن الطبيعة هى صانعة قوانينها! فإدراك الحقائق والقوانين العلمية للطبيعة هو وسيلة للمعرفة الجوهرية الكاملة! وبذلك أغلقت تماما برامج ومناهج التربية الدينية!

---

(١) على أحمد مدكور: نظرية المناهج العامة، عمان، دار الفرقان، ١٩٩١، ص ٣٣٣ ـ ٣٣٥.

ولقد كانت هذه هى الحلقة الأخيرة. حيث جاءت الحلقة الأخيرة على يد أنصار النظرية التطبيقية الماركسية التى وضعت النهاية المتوقعة لهذا التطور الأخرق، فآمنت بأنه «لا إله موجود والحياة مادة!» فتطور المادة، وحتمية التاريخ، وحتمية الاقتصاد. . كل هذه الحتميات هى التى تصنع كل شيء، وتخلق كل شيء: الكون، والإنسان والحياة! وجاءت النظرية التربوية لتكريس هذا الفكر النظرى الذى يتصادم مع طبيعة الفطرة الإنسانية، والحياة الإنسانية، والرقى الإنسانى. . وجاءت النتيجة فى صورة أجيال، من أكثر خلق الله بؤسا وضياعا على وجه الأرض.

لقد تقلب العالم وتغير تصوره لهذه الحقيقة ـ حقيقة الألوهية ـ أما فى التصور الإسلامى فقد بقيت هى الحقيقة الأولى والكبرى والأساسية والفاعلة؛ لأن الحق ـ سبحانه ـ قد قال فيها ما لا يملك أحد أن يقول:

﴿ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (٢٥٥) ﴾ [البقرة].

﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (٩٥) فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٩٦) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٩٧) وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ (٩٨) ﴾ [الأنعام].

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢) هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣) هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٤) لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ (٥) يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٦) ﴾ [الحديد].

فى هذه النماذج وغيرها يتمثل على وجه الإجمال وجود الله - سبحانه - وحضوره وقدرته. وآثار هذه القدرة فى صفات الكون، وفى أغوار النفس، وفى أحداث الحياة، وفيها تتنوع مقومات التصور الإسلامى وتتوزع، ثم تتضام بعد ذلك وتتجمع، لتكون «الكل» الذى يشخص ويمثل ذلك التصور.. هذا «الكل» هو: العبودية لله وحده بلا شريك، والدينونة لـله وحده بلا منازع، وشمول هذه العبودية لكل شىء ولكل حى فى هذا الوجود، فى عالم الغيب وفى عالم الشهادة، فى الحياة الدنيا وفى الآخرة، فى نظام الكون وفى حياة الناس، وتفرد هذه الألوهية الواحدة بخصائصها، وتجرد هذه العبودية من هذه الخصائص.

هذه هى قاعدة التصور الإسلامى الأساسية، فالتصور الإسلامى «يفصل فصلا تاما بين طبيعة الألوهية وطبيعة العبودية، فهما لا تتماثلان ولا تتداخلان، كذلك يبين التصور الإسلامى بيانا حاسما: من هو «الله» صاحب الألوهية ومن هم «العبيد» الذين تتمثل فيهم العبودية»[1].

فعن مشيئة الله الواحد - سبحانه - صدرت كل الخلائق، وبقدر الله تقوم وتتحرك، لا شريك له فى هذه الألوهية.. لا فى حقيقتها ولا فى خصائصها، ولا فى سلطانها.

إن المنهج القرآنى يجلى هذه الحقيقة بآثارها الفاعلة فى هذا الوجود. فى الخلق والتدبير، فى تصريف هذا الكون وما فيه ومن فيه، فى تسخير الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم، فى إيلاج النهار فى الليل، وإيلاج الليل فى النهار، فى إرسال الرياح لواقح، وإنزال الماء من السماء، فى انبثاق الحياة من الموت وانبثاق الصبح من الظلام، فى إخراج الحى من الميت وإخراج الميت من الحى، فى بدء الخلق وإعادته، فى القبض والبسط، فى البعث والنشور، فى النعمة والنقمة، فى الجزاء والحساب، فى النعيم والثواب.. فى كل حركة وكل انبثاق، وكل تغير وكل تحور فى عالم الغيب أو فى عالم الشهادة، فى هذا الوجود الكبير[2].

---

(١) سيد قطب: مقومات التصور الإسلامى، مرجع سابق، ص ٨١.

(٢) المرجع السابق: ص ٤٣.

وهكذا. . فنادرا ما يتحدث المنهج القرآنى عن الذات الإلهية والصفات الإلهية فى الصورة التجريدية كما يفعل الفلاسفة وعلماء اللاهوت وعلماء الكلام. . والحقيقة الإلهية هى فى طبيعتها الكلية المطلقة الأزلية الأبدية أكبر من مجال إدراك الكينونة البشرية الجزئية المحدودة الحادثة الفانية. ولكن حسب «الكبير» منها ما يصح به تصوره، وما يستقيم به فكره وما يصلح به ضميره، وما تنتظم به حياته وما يعرف به حقيقة مركزه، ودائرة سلطانه، ومقتضيات عبوديته لهذه الألوهية. . وهو قادر على إدراك هذا القدر عن تلك الحقيقة الكلية المطلقة الأزلية الأبدية. القدر الذى لا يصح له تصور ولا يستقيم له فكر، ولا يصلح له ضمير، ولا تنتظم له حياة، ولا يتحدد له اتجاه، ولا يفلح له سعى، ولا يقبل منه عمل، إلا حين يصبح إدراكه له، لا إدراك «الفكرة» أو «النظرية» ببرودتها الساكنة! ولكن إدراك «العقيدة» بحيويتها الدافعة، وإلا حين يقوم خلقه وسلوكه، وتقوم حياته وأوضاعه، وتقوم شرائعه وقوانينه وتقوم قيمة وموازينه، وتقوم معرفته وثقافته، ويقوم نشاطه كله فى الحياة على أساس هذه «العقيدة»[1].

جوهر العقيدة التوحيد:

عقيدة الإسلام تشمل الإيمان بالله، وملائكته، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، وكل ركن من هذه الأركان وثيق الصلة بسائر الأركان، فهى تكون كلا واحدا متكاملا، لكن سائر الأركان مرتبط بالركن الأول ارتباط صدور، وارتباط غاية، فكل شىء صادر من الله. . . وكل شىء عائد إليه.

فالله. . هو الحقيقة الكبرى، والحقيقة الأولى. . والحقيقة الأخيرة، والحقيقة الأزلية، وهذا الاسم «الله» علم على الذات المقدسة، التى نؤمن بها ونعمل لها، ونعرف أن منها حياتنا، وإليها مصيرنا.

والإيمان بوجود الله، ذاتا وصفات هو لب العقيدة، وجوهر التوحيد. . ووجود الله تعالى من البديهيات التى يدركها الإنسان بفطرته، ويهتدى إليها بطبيعته. وليس من قضايا العلوم المعقدة، ولا من حقائق التفكير الصعبة.

(١) المرجع السابق: ص ١٨٧.

والعقيدة الإسلامية منهـج عمل متكامل للدنيا والآخرة، فهى تربط ملكوت الأرض، بملكوت السمـاء فى كل حركة، وكل شعور، وكل عـمل، وكل تفكير. فالـعمل للدنيـا هو فى ذات الوقت عمل للآخـرة، والعمل للآخـرة هو فى ذات الوقت عمل لإعمار الدنيا على عهد الله وشرطه. ونشاط الإنسان المسلم كله عبادة لله، طالما توجه به الإنسان إلى الله: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لا شَرِيكَ لَهُ ...﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام].

والتوحيد هو جوهر دين الله للبشر من آدم ـ عليه السلام ـ إلى محمد ﷺ:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء].

والتوحـيد ثلاثة أنواع: توحيد الربوبيـة، وتوحيد الألوهية، وتوحـيد الذات والصفات. **أما توحيـد الربوبية**، أو ما يسمى بتوحيـد الله بأفعاله كالخلق والرزق والإحياء، والإماتة، والإيمان بوجوده ذاتا وصفـات، فهذا الإيمان فطرة مستكنة فى خلق الله للإنسان، وعـهد مقطوع على بنى البشر منذ خلقـهم الله، وهم بعد فى ظهر الغيب:

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾ [الأعراف].

وأما توحيد الألوهية، فيسمى توحيد الله بأفعال العباد، وهذه الوحدانية هى القاعدة التى يقوم عليها التصـور الإسلامى كله، وينبثق منها منهج الإسلام للحياة كلها، بنظمهـا السياسية والاقـتصادية والاجتماعـية والتربوية والثقافـية، فمن هذا التصور ينشـأ الاتجاه إلى الله وحده بالعبـودية والعبادة، فلا يكون إنسـان عبدا إلا لله، ولا يتجـه بالعبادة إلا لله، ولا يلـتزم إلا بطاعة الله... وعن هذا التـصور تنشأ قاعدة الحاكمية لله وحـده، فيكون الله وحده هو المشرع للعبادة، بحيث تجىء التشريعـات البشرية من شريعة الله، وعن هذا التـصور تنشأ قاعدة استـمداد القيم الخلقية، والعلمية والمعرفية كلها من ميزان الله. وبذلك فى شرعية لنظام أو لقانون أو لتغير سياسى أو اجتماعى أو اقتصادى أو تربوى يخالف منهج الله:

﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (٢٥٥)﴾ [البقرة].

وبناء على ذلك فلا طاعة إلا لله ولمن يعمل بأمر الله وشرعه، والسلطان لا سلطان له إلا من تنفيذه لمنهج الله. والله هو صاحب السلطان والسيادة وحده. فلا سلطان ولا سيادة على ضمائر البشر وسلوكهم إلا لله.

فالتشريعات وقواعد الأخلاق، ونظم الحياة كلها لا تتلقى إلا من صاحب السيادة الأوحد وهو الله. وهذا هو المعنى الإيمان بالله. ثم ينطلق الإنسان حرا بعد ذلك إلا من الحدود التى شرعها الله، عزيزا على كل أحد إلا بسلطان من الله:

﴿الم (١) اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ (٢) نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ (٣) مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ (٤) إِنَّ اللَّهَ لا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ (٥) هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٦) هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُوا الأَلْبَابِ (٧)﴾ [آل عمران].

الشهادة على الناس:

﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٨)﴾ [آل عمران].

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا... (١٤٣)﴾ [البقرة].

إن حقيقة التوحيد، توحيد الألوهية، توحيد القوامة... القوامة بالقسط، هى الحقيقة الأولى التى يقوم عليها التصور الإسلامى، كما سبق أن قلنا.. لكن

شهادة الحق ـ سبحانه ـ بأنه لا إله إلا هو، مسوقة هنا ليساق بعدها ما هو من مستلزماتها، وهو أنه لا يقبل من العباد إلا العبودية الخالصة، الممثلة فى الإسلام بمعنى الاستسلام اعتقادا وشعورا وعملا.

أما شهادة الملائكة وشهادة أولى العلم، فهى ممثلة فى طاعتهم لأوامر الله وحدها، والتلقى عن الله وحده، والتسليم بكل ما يجيئهم من عنده بلا شك ولا جدال.. فالملائكة «يفعلون ما يؤمرون» والراسخون فى العلم يقولون: «آمنا به، كل من عند ربنا».

وأمة الإسلام أمة وسط وشاهدة على الناس بإقامة حكم الله فى حياتها هى أولا، وفى حياة الناس ثانيا ـ بالدعوة إلى الله، وبالجهاد فى سبيل الله.

وعلى هذا فالذين يقولون: إنهم يؤمنون بالله، ولكنهم يشركون معه غيره فى الألوهية، حين يتحاكمون إلى شريعة من صنع غيره، وحين يطيعون من لا يتبع رسوله وكتابه، وحين يتلقون التصورات والقيم والموازين والأخلاق والآداب من غيره.. هذه الأمور كلها تناقض القول بأنهم يؤمنون بالله، ولا تستقيم مع شهادة الله ـ سبحانه ـ بأنه لا إله إلا هو، ولا تستقيم مع صفة الإسلام ووظيفتها وهى أنها أمة «وسط» شاهدة على الناس.

إن الإيمان بالملائكة جزء من الإيمان بالغيب.. لا يكتمل الإيمان إلا به، فهم عباد الله المكرمون، الذين يسبحون بحمد الله ويقدسون له ويفعلون ما يؤمرون.. وهم يحيطون بنا، ونحن نتعامل معهم فى حياتنا اليومية رغم أننا لا نراهم.. فالإيمان بوجودهم من الإيمان.

كتاب الله واحد:

والإيمان بكتب الله المنزلة على رسله جزء من الإيمان بعقيدة التوحيد:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [آل عمران].

إن كـتاب الله هـو كل ما نزل على رسـله، وقرر وحـده ألوهيـته ووحـدة قوامته، فهـو كتاب واحد فى حقيقته، أوتى اليهـود نصيبا منه وهو التوراة، وأوتى النصارى نصيبا منه وهو الإنجيل، وأوتى المسلمون الكتاب كله وهو القرآن، باعتبار القرآن جامعا لأصول الدين كله، ومصدقا لما بين يديه من الكتاب:

﴿ ... مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ... ﴿٣٨﴾ ﴾ [الأنعام].

﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [ص].

لقد خلق الله البشر، وهو أعلم باحتياجاتهم، فتكفل برزقهم:

﴿ ... هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ... ﴿٦١﴾ ﴾ [هود].

وتكفل بتعليمهم وتربيتهم فأودع فيهم قوى الإدراك الظاهرة والباطنة:

﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [النحل].

وتكفل بهدايتهم، فأرسل إليهم الأنبياء والرسل لإقامتهم على أمر الله:

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ... ﴿٣٦﴾ ﴾ [النحل].

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الأنبياء].

ورسول الله ﷺ هو صاحب الرسالة الخاتمة التى بها تمام الدين وتمام النعمة:

﴿ ... الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ... ﴿٣﴾ ﴾ [المائدة].

ويقول ﷺ: **«مثلى ومـثل الأنبيـاء من قبلى كمـثل رجل بنى بنيانا فـأحسنه وأجمله، إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون: هلاَّ وضعت هذه اللبنة؟ فأنا اللبنة، وأنا خاتم النبيين»** [رواه مسلم].



الإيمان باليوم الآخر:

الإيمان باليوم الآخر جزء لا يكتمل الإيمان إلا به، وهو إيمان بالغيب الذى لم يشهده أحد، فسبيله الصحيح هو النقل مما جاء فى الكتاب والسنة.

والإيمان بالغيب هو أحد أهم صفات المتقين:

﴿الم ﴿١﴾ ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾﴾ [البقرة].

والإيمان بالغيب هو أحد أهم عوامل استقامة الحياة على منهج الله؛ لذلك فإن الذين لا يؤمنون باليوم الآخر يضلون فى الدنيا والآخرة.

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ ... ﴿١٤٧﴾﴾ [الأعراف].

﴿وَإِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [المؤمنون].

﴿... فَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [النحل].

والإيمان باليوم الآخر يشتمل على مجموعة من الحقائق يلزم الإيمان بها أيضا وهى: فتنة القبر وعذابه ونعيمه، والساعة وأماراتها، والبعث، والحساب وما يتبعه من ثواب وعقاب والصراط، والجنة، والنار.

الإيمان بالقدر خيره وشره:

لا يصح إيمان الإنسان إلا إذا آمن بالقدر خيره وشره، وأنه من عند الله، وأنه لا يكون شىء فى الكون إلا ما قدره الله، والإيمان بالقدر يدفع المؤمن إلى العمل الصالح بعزم وثبات على الحق:

﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ [التوبة].

والإيمان بالقدر عصمة من الوهن والجزع عند المصائب والأمور التى تصيب الناس باليأس وتفتت عزائمهم:

﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [التغابن].

ويقول الرسول ﷺ: «**المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفى كل خير، احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شىء فلا تقل: لو أنى فعلت لكان كذا وكذا. ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان**» [رواه مسلم].

العقيدة والمنهج وحرية الإرادة:

إن منهج التربية فى التصور الإسلامى يركز فى أذهان المتعلمين أن حريتهم إنما تكون فى عبادة الله وحده. وإن الحرية الإنسانية إنما تقوم على قاعدتين أساسيتين.

القاعدة الأولى: هى إفراد الله بالعبودية.

القاعدة الثانية: هى اصطفاء الله للإنسان بحرية الاختيار وحرية الإرادة والمسئولية فى تطبيق منهج الله فى الأرض.

إن المؤمن الذى يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، اعتقادا فى الضمير، وسلوكا فى الواقع هو الذى يفرد الله بالعبودية، ومن ثم يفرده بالحاكمية. إن هذا المؤمن هو الشخص الوحيد الحر؛ لأنه لا يعبد طواغيت الأرض، ولا يرجو منها شيئا ولا يخافها. وكلما استغرق الإنسان فى عبوديته لله وحده، كان أكثر حرية، وأكثر أمنا واطمئنانا:

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [النور].

والإنسان فى عبوديته لله على ثلاث مراتب:

المرتبة الأولى هى مرتبة عبودية الإنسان لله خضوعا لقانون الفطرة، وانقيادا

لعهد الله وميثاقه الذى أخـذه على بنى آدم وهم بعد فى ظهر الغيب السحيق حين سألهم: ألست بربكم؟ فاعترفوا له بالربوبية، وأقروا بالوحدانية.

إن المشهد الفـريد لتلك الحقيقة الهـائلة العميقة، المسـتكنة فى أعماق الفطرة الإنسانية، وفى أعماق الوجود، تصوره الآية الكريمة:

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ ﴾ [الأعراف].

إن هذه الرتبة من العبـودية قد لا يختلف فيها الإنســان عن الحيوان الذى لا يعقل، والشـجر الذى لا يتحـرك، والملائكة الذين يفعلون ما يؤمـرون. والإنسان على هذه الدرجـة من العبـودية لله لا يمتاز عن غـيره من المخلوقـات. وهذه هى درجة العبودية غير الإرادية لله أو عبودية الفطرة.

المرتبة الثانية من عبودية الإنسان لله، هى تلك التى يستخدم الإنسان فيها ما منحه الله من قوى الإدراك الظاهرة والباطنة فى معرفة الله وعبادته، فالإنسان حين يستخـدم عقله وقلبه وسمـعه وبصره وعلمه فى تدبر آيات الله ومنـهجه المنزل فى كتابه وفـى سنة رسوله ﷺ وفى كتاب الكون المفـتوح، وحين يصل من كل ذلك إلى معنى العبوديـة الحقة لله، فإنه يكون قد تحول من عبـودية الفطرة غير الإرادية لله إلى العبودية المقصودة القائمة على العلم، وحرية الإرادة، والاختيار التى خص الله بها الإنسان دون غيره من المخلوقات.

﴿ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ... ﴿٩﴾ ﴾ [الإسراء].

﴿ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الذاريات].

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ... ﴿٥٣﴾ ﴾ [فصلت].

﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [النحل].

المرتبة الثالثة، وهى تلك التى يستخدم فيها الإنسان قواه المدركة الواعية وعلمه وحريته فى الاختيار، وكل قواه ومواهبه فى عبادة غير الله! فالإنسان فى هذه الدرجة لا يفقد فقط شرف التفوق على سائر المخلوقات، بل ويصبح أحط مكانة وأسوأ شأنا من الحيوانات:

﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٧٩) ﴾ [الأعراف].

﴿ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى (١٢٦) ﴾ [طه].

نعم، هؤلاء أحط من الدرجة الحيوانية؛ لأن الحيوان لم يكن ضالا، فى حين أن هؤلاء ضلوا وغووا، ولم يكن الحيوان منكرا جاحدا، بينما هؤلاء أنكروا وجحدوا، ولم يكن الحيوان كافرا ومشركا فى حين أن هؤلاء كفروا وأشركوا.

ومن هذا نصل إلى أن الدرجة الثانية هى أسمى وأعمق درجات العبودية لله؛ لأنها عبودية قائمة على العلم والمعرفة بالله، وعلى الاختيار الحر والإرادة الواعية. إن حرية الاختيار والتصرف، والإرادة الطليقة هما أسمى ما منحه الله للإنسان، وحين تقوم عبادة الإنسان لله على أساس من حرية الاختيار والإرادة الواعية، فإن هذه هى أسمى وأعمق درجات إفراد الله بالعبودية كما أنها أسمى وأعمق درجات الحرية والإنسانية.

هنا نصل إلى القاعدة الثانية التى تقوم عليها حرية الإنسان المسلم، وهى المسئولية، فالإنسان الذى اصطفاه ربه ـ دون سائر مخلوقاته ـ بالحرية، والإرادة الطليقة والقدرة على الاختيار، ذلك الإنسان هو المخلوق الوحيد الخليق بأن تناط به مسئولية فهم منهج الله وتنفيذه فى واقع الأرض، فالحر هو الوحيد الذى يمكن أن يكون مسئولا، والحرية والمسئولية وجهان لعملة واحدة، واصطفاء الله للإنسان

كى تناط به مسئولية حمل أمانة فهم وتنفيذ منهجه فى الأرض، هو منتهى التكريم للإنسان.

﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً ﴿٧٢﴾﴾ [الأحزاب].

إن السموات والأرض والجبال وما بينها من خلائق، تعرف ربها بلا محاولة، وتهتدى إلى سنته وناموسه الذى يحكمها بخلقتها وتكوينها ونظامها، وتطيع ناموس الخالق طاعة مباشرة بلا تدبر ولا واسطة، وتؤدى وظيفتها غير شاعرة ولا مختارة.

فالشمس تدور فى فلكها بطريقة لا تختل جزءا من ثانية. وتؤدى وظيفتها ودورها الكونى - كما قدر لها - أداء كاملا. والأرض تدور دورتها، تخرج زرعها وتفجر ينابيعها، وتجرى المياه فى بحارها وأنهارها وفق سنة الله بلا إرادة منها، وكذلك القمر والنجوم والكواكب والجبال والوهاد. كلها تمضى لشأنها بإذن ربها. وتعرف بارئها، وتخضع لمشيئته بلا جهد منها ولا كد ولا محاولة.

لقد أشفقت هذه الخلائق من أمانة التبعة، أمانة الإرادة، أمانة المعرفة الذاتية والمحاولة الخاصة. وهناك من يقول: إن المقصود بالأمانة هنا هى فهم منهج الله وتنفيذه فى واقع الأرض. ولا أرى تعارضا بين التفسيرين، حيث إن معرفة الإنسان لربه بإدراكه وشعوره، والاهتداء إلى ناموسه وسنته بالتدبر والتبصر.. كل هذا يقتضى العمل وفق هذا الناموس فى عمارة الأرض، أى أن معرفة الإنسانية، والتربية والتعليم والتعلم من تصميم وتنفيذ المناهج المختلفة، كل هذا يهدف إلى الوصول إلى غاية كبرى، هى فهم منهج الله وتنفيذ مقتضياته فى واقع الأرض.

لقد ظلم الإنسان نفسه حين حمل الأمانة وهو على ما هو عليه من الضعف، وضغط الشهوات والميول والنزعات، وقصور العلم، وقصر العمر، وحواجز الزمان والمكان.

لكن الإنسان الذى يصل إلى معرفة الله بإدراكه وشعوره، ويهتدى إلى منهجه بتدبيره وتفكيره، ويعمل وفق هذا المنهج بفكره وجهده، ويقاوم انحرافاته

ونزعاته، ويـجاهد أهواءه وشهـواته.. حين يصل الإنسان إلى هـذه الدرجة وهو مدرك واع مريد، فإنه يصل حقا إلى مقام كريم، ومكان بين خلق الله فريد(١).

إنهـا إذن ـ الإرادة الحـرة ـ والإدراك الوعى والاختـيـار الطليق، والمحـاولة المستمرة لفـهم منهج الله وتطبيق مقتضياتـه فى واقع الأرض، وحمل تبعة كل هذا ومسئوليـته هذه ـ إذن ـ هى ميزة الإنسان الفريدة، على سـائر خلق الله، فهى سر التكريم، ومناط التكليف:

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً (٧٠) ﴾ [الإسراء].

﴿ ... إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ... (١١) ﴾ [الرعد]

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ... (٥٣) ﴾ [الأنفال].

إن منهج التربية الذى يفـوته تعميق هذه القضية فى نفـوس المتعلمين صغارا كانوا أم كبارا فإنه يكون قد فاته خير كثير، بل فاته كل الخير.

والخـلاصـة: أن هذا الأسـاس من أسس بناء المنهج لا بـد أن ينعكس على المناهج التربوية على النحو التالى:

١ ـ التأكـيد على أن الوحى هـو المصدر الأول للعلم والمعـرفة فى التـصور الإسلامى. وأن هذا المصدر يتمـثل فى القرآن والسنة، وليس فى المذاهب أو الفرق الإسلامية.

٢ ـ التأكيد على إيضاح حقيقة الألوهية فى التصور الإسلامى والفوارق بينها وبين حقيقة العبودية، ومقتضيات ذلك من الإنسان المسلم.

٣ ـ التأكيد على مفهوم التوحيـد، على أساس أنه جوهر العقيدة فى التصور الإسلامى. وأن التوحيد قرين الحرية، وأن الشرك قرين الاستبداد والظلم.

---

(١) سيد قطب: فى ظلال القرآن، مرجع سابق، ص ٢٨٨٤ ـ ٢٨٨٥.



٤ ـ التأكيد على أن الله أرسل بالإسلام رسلا لأقوام خاصة فى طفولة البشرية وأنه ـ سبحانه ـ ختم الإسلام بالرسالة العالمية الشاملة حينما بلغت الإنسانية مرحلة النضج والرشد.

٥ ـ التأكيد على أن كتاب الله ـ كتاب الإسلام ـ واحد، أوتى اليهود نصيبا منه، وأوتى النصارى نصيبا منه، وجاء القرآن بالكتاب كله: ﴿ ... **مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ** ... (٤٨) ﴾ [المائدة].

٦ ـ بيان مفهوم «الدين» فى التصور الإسلامى، والتأكيد على أنه منهج شامل، ونظام للحياة.

٧ ـ التأكيد على مفهوم «العبادة» وبيان أنها تشمل النشاط الإنسانى كله، طالما توجه به الإنسان إلى الله.

***

الأساس الثانى

حقيقة الكون فى التصور الإسلامى

الكون آية الله الكبرى، ومعرض قدرته المعجزة المبهرة، أراده الله فكان، وقدره تقديرا محكما، وجعل كل شيء فيه خاضعا لإرادته وتدبيره.

والكون ـ فى التصور الإسلامى ـ غيب وشهود.. وهو من خلق الله «عالم الغيب والشهادة» والكون المغيب كالروح، والملائكة، والجن.. إلخ، نحن نؤمن به إيمان تسليم بوجوده كما علمنا الله، ونتكيف بذلك، وواجب الباحثين والمعلمين والمتعلمين والمناهج التربوية كلها أن يتأدبوا بأدب القرآن، وأن يقفوا عند حد ما جاء به، ولا يتركوا العقل يسبح فيه: ﴿وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء].

أما الكون المشهود فهو كل ما نحسه حولنا، كالشمس، والقمر، والسماء، والأرض، والبحار، والأنهار، والشجر والدواب... إلخ.. وقد عرض لها الإسلام على أنها دلائل قدرة الله. وعلائم صنعه الدقيق الحكيم، ولتكون نبراسا يهدى الناس إلى معرفة الله، وفهم منهج الله، والعيش وفقا له.

وواجب مناهج التربية أن تتناول هذا الجانب من الكون بالدراسة والتفكير والتدبر، واكتشاف قوانين الله ونواميسه وسننه فيه، وأن تعلم الصغار والكبار كيف يتلطفون فى التعامل مع هذا الكون المادى، ومع البيئة المادية من حولهم ويبعدون عنها التلوث والنفايات والإشعاعات، وبذلك يستثمرون خيراتها لخدمة أنفسهم ولخدمة البشر جميعا.

حقيقة الكون لدى بعض التصورات الفلسفية:

أما الكون المادى فى نظر المثاليين الذين يكونون الأساس فى النظرية الجوهرية أو الأساسية، فهو ممثل فى العقل؛ فالعقل ـ الممثل بعقل الله ـ هو سبب وجود الكون، فالكون عملية عقلية عظيمة، فالله أوجد العقل الإنسانى الذى أدرك الكون، فكان سببا فى وجوده، وبما أن العقل الإنسانى هو الذى أدرك الطبيعة أو

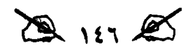
الكون، فإنه يـشارك فى طبيـعة العـقل المطلق ـ عقل الإله ـ ويعـد جزءا منه، أو صورة مصغرة لـه! ومهمة التربية أن تتيح الفرصـة للعقل كى يدرك الأشياء، فكل شىء لا يكون موجودا إلا إذا أدرك بالعقل ـ فالأشـياء ليس لها وجود فى ذاتها!، وإنما لا بد أن تدرك بالعقل كى تكون موجودة!

وبناء على هذه النظرة فالتعلم ليس ابتكارا ولا إبداعـا، ولكنه تحقيق الفكرة المطلقة بالنسبة للحقيقة والخير والمثل التى وضعت سلفا، وليست قيمة الأفكار مبنية على ما لها من أهمـية فى حياة المتعلمين أو ضرورة فى إنجـاز مشروعاتهم، أو فى ترقيـة حيـاتهم، بل إن قيـمة الأفكار فى ذاتهـا، حيث إنهـا تصور الواقع المـمثل للحقـائق اللانهائيـة، ومن أجل ذلك فالأفكار جـديرة بالتعلم، وهى تسـتحق أن يكون تعلمها هدفا فى حد ذاته!.

ولقد أثر هذا اللون من الفكر على كل المدارس التى كونت الروافد الأساسية للنظريات التربوية التقليدية فى الغرب فـأوجدت الازدواجية بين العقل والجسم فى الطبيعة الإنسانيـة، وبما أن خاصة التفكير هى جوهر الطبيعـة الإنسانية، فلقد كان الهدف الرئيسى للمنهج متمركزا حول تربيـة العقل وتدريبه على التفكير الصحيح. من خلال الفلسفـة والعلوم التى لا تتطلب الملاحظة والممارسة والتـجريب والعمل الميدانى!

ولقد أدى التفـريق بين العقل واعتبـاره صورة مصغـرة للعقل المطلق «الإله» وبين الجسم، وتركيز التربية على العقل، أدى هذا إلى تكويـن المجتمعات الطبقية، التى تسود فيها الطبقات الأرستقراطية؛ حيث خرجت المدرسة مجتمعا طبقيا مكونا من طبقـة التربية العقليـة والفلسفية، وهى طبـقة الحكام؛ وطبقة أخـرى تعمل فى الصناعة والتـجارة؛ حيـث يقل التركيـز فى تربيتهـا على العقل؛ ثم طبـقة الجنود والعـمـال الذين تعلمـوا عن طريق العـمل اليـدوى والعـمل الميـدانى والملاحظة والتجريب. وصنفت المدارس على هذا الأساس الطبقى.

وفى بعض النظريات تم التحرك بعيدا عن العقل قليلا، واعتبر «الكون» كلا كبيرا مشـتملا على جزئيات متناسقة.. وأهم هذه الجزئيـات: الطبيعة، والإنسان،



والإله، بل اعتبر الإنسان فى أهم مرحلة من مراحل تطوره أحد مكونات الطبيعة.

هنا بدأت الفلسفة الواقعية الطبيعية تطفو على السطح إلى درجة أن صار الإنسان أحد مكونات الطبيعة. لكنه يمتلك طاقات وقدرات بشرية هائلة. ومهمة التربية تربية الطاقات والقدرات هذه منذ الصغر، حتى يستطيع الإنسان السيطرة على الطبيعة ويقترب من مرحلة الكمال الإلهى!

وبالرغم من أن فكرة الكونية والطبعية أتت فى المقدمة فى فكر كومينيوس وديكارت، وبيكون، وجون هس، إلا أنهم لم يكونوا قد تخلصوا من الفكرة المثالية بعد؛ فالإنسان قد صنع فى صورة إله، وإنسانية الإنسان قد بنيت على العقل، فلا سلطة سواه، ولا مقياس لحقيقة إلا بالمبادئ والمعايير التى يضعها. وقد ألقى هذا على عاتق مناهج التربية تبعة تعليم الناس وتنمية مواهبهم الفطرية، كما ألقى على عاتق الناس تبعة الاستمرار فى التربية للوصول إلى الكمال.

ولقد انقلب مفهوم «الكون» رأسا على عقب فى النظريتين: النفعية «البراجماتية» والتطبيقية «الماركسية» فهاتان النظريتان تعتمدان على الفلسفتين: الطبيعية والواقعية وأفكار دارون المتطورة عنهما، وعلى الفلسفة التجريبية الميدانية، فالواقعية تتمسك بأن الكون هو هذه الأشياء الموجودة فى هذا العالم المحسوس، وأن هذا العالم المحسوس هو عالم حقيقى فى حد ذاته، وأن هذا العالم والأشياء الموجودة به لا يعتمد فى وجوده على إدراك عقل الله أو عقل الإنسان، فالواقعيون الطبيعيون يرفضون أى شىء وراء الطبيعة.

والحياة الإنسانية بكل أبعادها الجسمية والعقلية والروحية والخلقية هى حدث طبيعى عادى، يمكن عزوه فى كل أبعاده إلى العمليات العادية للطبيعة! فالطبيعة خالقة للإنسان والحياة؛ فهى مصدر الإنسان، ومصدر المعرفة، ومصدر الحياة!

وعلى هذا فالتربية تعتمد على الخبرة والتجربة والملاحظة، والطبيعة هى مصدر مناهج التربية، فهى تحتوى على الصدق، فالصدق حقيقة يمكن ملاحظتها، وهذا الصدق يمكن الحصول عليه بواسطة الفحص العلمى للطبيعة!.

وقد أثر هذا الفكر على حركة التربية والمناهج فى أمريكا، ثم انتقل إلى أوروبا على يد عدد من المفكرين من أمثال هيربارت سبنسر وشيلر وغيرهما، حتى

أن الملاحظ الآن لحركة التربية والمناهج فى أوروبا يجد أنها أقرب إلى هذا المنظور منها إلى نظرياتها التقليدية القديمة التى كانت تستحوذ على التفكير التربوى الأوروبى حتى نهاية الحرب العالمية الثانية.

والخلاصة أن الفلسفة العقلية ترى أن العقل هو مصدر المعرفة؛ لأن العقل الممثل لعقل الله فى رأيهم هو سبب وجود الكون والطبيعة، وأن الأشياء الطبيعية ليس لها وجود فى ذاتها، وإنما توجد إذا أدركها العقل. فالعقليون يرون أن العقل مشارك لعقل الله فى الخلق وفى المعرفة!

أما أنصار المدرسة الطبيعية فيرون أن الطبيعة هى مصدر المعرفة، وأن الإنسان أحد مكونات الطبيعة، ولكنه يملك طاقات وقدرات هائلة، وأن العالم المحسوس هو عالم حقيقى فى حد ذاته، وأنه لا يعتمد فى وجوده على عقل الله أو عقل الإنسان؛ لذلك فهم يرفضون أى شىء وراء الطبيعة. ومهمة التربية تنمية الطاقات والقدرات الإنسانية عن طريق الخبرة والتجربة وملاحظة الطبيعة.

الكون فى التصور الإسلامى:

أما الإسلام فهو ينص على أن الله هو مصدر المعرفة؛ فهو خالق كل شىء، بما فى ذلك الطبيعة، والإنسان، والكون كله، وأن العقل الإنسانى والطبيعة والكون - بما فى ذلك قوانينه التى يسير عليها - كلها مخلوقات لله، وكلها أدوات للعلم والمعرفة، وليست مصادر لهما.

إن العقيدة الإسلامية من شأنها أن تنشىء فى إدراك المؤمن تصورا واضحا لحقيقة الكون، ولعلاقته بربه، وعلاقته بالحياة والأحياء ـ بما فى ذلك الإنسان ـ وأن تقر فى عقله وضميره الطمأنينة لذلك التصور.

والكون فى التصور الإسلامى هو آية الله الكبرى ومعرض قدرته المعجزة المبهرة، أراده الله فكان، وقدره تقديرا محكما، وجعل كل شىء فيه خاضعا لإرادته وتدبيره:

﴿ ... وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾ ﴾ [الفرقان].

﴿ ... وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ ﴾ [الرعد].

﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾ [النحل].

«إن الكون ـ كما يقرر المنهج القرآنـي ـ كون مخلوق حادث، وليس بالقديم الأزلى. كمـا أنه لم ينشأ من ذات نفـسه، لقد خـلقه الله سبـحانه خلقـا، وأنشأه إنشـاء، بعد أن لم يكن، سـواء فى ذلك مـادة بنائه الأساسـية، أو الصـورة التى ظهرت فيها، ولم يشـارك اللهَ ـ سبحانه ـ أحد فى خلق هذا الكون، ولا فى خلق شىء منه، سـواء فى ذلك مادته أو صورته. إن الـله سبحـانه هو الذى أعطى كل شىء خلقه، وأعطى كل شىء صورته، وأعطى كل شىء وظيفته»[1].

﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾﴾ [النحل].

﴿مَّا أَشْـهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّـمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾﴾ [الكهف].

القرآن والحقائق العلمية:

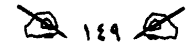
وإذا كان القـرآن قد أشار إلى بعض الحقـائق الكونية، فإن هذا ليس مـبررا لكى نلتمس الموافقـات بين النصوص القرآنية التى تشير إلى بعض الحـقائق الكونية وبين النظريات والكشوف العلمـية الحديثة؛ لأن هذا خطأ من الناحية الاعـتقادية، ومن الناحية المنهـجية العلمية أيضا. أمـا من الناحية الاعتقادية فالنـصوص القرآنية صحيحة وصادقة بذاتها لا بشهـادة من خارجها عليها، والمؤمن لا يجوز أن تدركه الهزيمة أمام علم البشر، فيستشهد به على صدقها وصحتها[2].

ثم إن ما تعارف البشر على أنه «نظريات علميـة» و«حقائق علمية»، كلاهما ليس قطعى الدلالة، ولا مطلق الدلالة، فهو علم ظنى فى أحسن الأحوال. . . إن من المعروف أن «النظريات العلمية» ليست سوى «فروض راجحة» لتفسير ظاهرة أو ظواهر كونية، وهى عرضة للتبديل والتغـيير والتعديل والإلغاء، فأين يذهب النص القرآنى إذا نحن علقـناه بنظرية أو ببعض الفروض المتـغيرة؟ هل نحـمله ونجرى به وراء نظرية أخرى لعلها تتوافق معه؟!

---

(١) سيد قطب: مقومات التصور الإسلامى، مرجع سابق، ص ٣٢٠.

(٢) انظر: سيد قطب، مقومات التصور الإسلامى، مرجع سابق، ص ٣٢٢ ـ ٣٢٤.



إن الحقائق القطعية المطلقة لا يملكها إلا الله - سبحانه - بحكم ألوهيته المهيمنة على الكون كله، أما «الحقائق العلمية» فهى - كما يقرر العلماء - مجرد احتمالات راجحة، لا قطعية الدلالة ولا مطلقة الدلالة. وطبيعة المنهج العلمى التجريبى لا تسمح بغير هذا، فالإنسان هو الذى يقوم بالتجربة، ومن ثم فهو لا يعتمد على نتائج إحصائية (بمعنى استقرائية)، وإنما يعتمد على نتائج قياسية، فهو يجرى تجاربه على عدد محدود - مهما كثر - من المادة التى هى موضوع التجربة ثم يقيس ما لم تتناوله تجاربه على ما تناولته هذه التجارب.

إن الحقائق الإلهية القطعية المطلقة لا تحتاج إلى برهان خارج عنها، ولا يستشهد على صدقها وصحتها بشىء من الحقائق الظنية المقيدة، لا من الناحية الاعتقادية فقط، ولكن من الناحية المنهجية العلمية أيضا.

«لذلك لا ينبغى أن نسارع إلى تعليق مدلولات النصوص القرآنية بما وصل إليه علم البشر، أو بما سيصل إليه علمهم فى المستقبل.. إن أقصى ما يمكن أن نتوقعه من علم البشر أن يصلوا إلى بعض الحقائق التى تتفق مع بعض الحقائق القطعية النهائية المطلقة التى حدث بها خالق الكون العليم الخبير»[1].

الكون المادى:

والكون فى التصور الإسلامى قسمان: كون محسوس، وكون غير محسوس.. شهادة وغيب.. ولقد تناول الإسلام الكون المادى المنظور، وعرض لكثير من ظواهره، كالشمس، والقمر، والسماء، والأرض، والمطر، والنبات، والبحار، والأنهار، والجبال، والشجر، والدواب.. إلى آخره، وقد تكلم الإسلام عنها فى بدء خلقها، وتكلم عنها فى عوارض وجودها، وتكلم عنها فى بعض نهاياتها، وقد عرض لهذه النواحى لا ليعالج أمرها علاجا فنيا تحليليا، فيكون كتاب هيئة، وكتاب حيوان ولكن عرض لها؛ لأنها دلائل قدرة الله تبارك وتعالى، وعلائم صنعه الدقيق الحكيم، ولتكون نبراسا يهدى الناس لمعرفة الله[2].

(١) المرجع السابق: ص ٣٢٩.

(٢) حسن البنا: حديث الثلاثاء، القاهرة، مكتبة القرآن، سجلها وأعدها للنشر أحمد عيسى عاشور، بدون تاريخ، ص ٣٤ - ٤٥.

وهذا الكون جميل المظاهر، جميل المشاعر، صديق للإنسان وليس عدوا له، كما يقول بعض العلماء الطبعيين الذين يعدون كل كشف لقانون من قوانين الله فى الكون، وكل تسخير لطاقة من طاقات الكون المذخورة فيه «انتصارا على الطبيعة وقهرا لها! أو هكذا يعبر ورثة الوثنية الإغريقية والرومانية فى أوروبا وأمريكا!».

«ثم إنه كون صديق للحياة والأحياء.. إن الحياة لم تنشأ فى الأرض فلتة عابرة ليس لها من سند فى نظام الكون! وإلا فكيف نشأت فى كون معاد، والكون أكبر منها وأقوى.. وبخاصة أنهم يفترضون أن ليس وراء الكون ووراء الحياة إله.. ولا إرادة إلهية أنشأت الكون وأنشأت الحياة! لأن نشأة الحياة فى هذا الكون تكذب هذا الزعم، كما تكذب أن الكون عدو للحياة»(1).

وهذا ما تقرره النصوص الكثيرة والمتنوعة فى القرآن الكريم:

﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾ [الرعد].

﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾ [فصلت].

---

(1) المرجع السابق: ص ٣٤٣.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف].

﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يس].

وهكذا نرى أن القرآن لم يتناول الكون المشهود من الناحية الفنية؛ لأن القرآن كتاب للتوجيه، يصل الإنسان بالله، ولو تعرض لهذه النواحى لما انتهى أمره.. ومن ناحية أخرى يدرك القرآن ضرورة ترك الحرية للعقل الإنسانى كى ينمو ويتقدم حتى يدرك مكونات الكون، ويدرك صورها بسبب تدرجه فى قوته واكتماله.. فكلما ارتقى العقل الإنسانى اكتشف ناحية من نواحى الدقة، وجانبا من جوانب القدرة، التى يصعب أن تتجلى للإنسان فى طور واحد من أطوار حياته.

وواجب برامج التربية والتعليم أن تتناول هذا الجانب من الكون بالدراسة والتفكر والتدبر واكتشاف قوانين الله فيه عن طريق الملاحظة والتجربة، كما أن هذا الجانب من الكون لا يمكن قهره ـ كما يقال ـ وإنما يمكن التلطف معه واستثمار خيراته لخير الناس جميعا.

الكون المغيب:

أما القسم الآخر من الكون، فهو الكون المغيب، أو غير المحسوس، وهو الذى يسمى «عالم الغيب»، فهو عالم لا يدخل فى حدود الكون المادى، الذى يمكن أن تدرك مكوناته بالحواس، ومن هذا العالم: الروح، والملائكة، والجن والملأ الأعلى، والتخاطر عن بعد، وتأويل الأحلام.. إلخ[1].

فهناك شىء اسمه الروح، وهو مكون من مكونات الإنسان، وهو من الله تبارك وتعالى:

---

(١) المرجع السابق، ص ٣٢.

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً (٨٥) ﴾ [الإسراء].

﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ (٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٧٢) ﴾ [ص].

ومن الكون غير المرئى الملائكة:

﴿ ... جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلاثَ وَرُبَاعَ ... (١) ﴾ [فاطر].

وهم يقومون بأعمـال، فهم يسبحون ويستغـفرون، ثم إنهم مكلفون ببعض أعمال الجزاء:

﴿ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلاَّ مَلائِكَةً ... (٣١) ﴾ [المدثر].

ثم إنهم يحيُّون أهل الجنة:

﴿ ... وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ (٢٤) ﴾ [الرعد].

ثم إنهم يقومون ببعض المهام الروحية، مثل تسلم الأرواح:

﴿ ... وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ (٩٣) ﴾ [الأنعام].

ثم إنهم يستخدمهم ربهم فى تأييد عباده المؤمنين:

﴿ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلاثَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُنزَلِينَ (١٢٤) ﴾ [آل عمران].

وهناك من عالم الغيب، الجن وقد وصفوا بأنهم كانوا يسترقون السمع، وأن فيهم القدرة على تصريف الأمور أكثر من قدرة البشر:

﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (٣٩) ﴾ [النمل].

ومن الجن صنف من الشياطين، وأنهم الذين يزينون لـلناس الأعمال الضارة والمعاصى المهلكة، وعـلاقة الجن بإبليس قوية، فـإنه كبيرهم، إنهم كـانوا يعلمون الكتب المقدسة، وكانوا يوازنون بينها موازنة دقيقة:

﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾ وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾ وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ ﴾ [الجن].

ومن الكون المغيـب الملأ الأعلى، ومن عوالم الملأ الأعلى: سـدرة المنتهى، والعرش، والكرسى، واللوح المحفوظ، والبيت المعمور.... وغيرها مما لا يعلمه إلا الله.

﴿ مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [ص].

﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴿١١﴾ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ ﴾ [النجم].

«وأخيرا فهو كون مـسلم طائع لربه، مؤمن عابد لمولاه.. إنه كون ذو روح تعرف ربها الحق، فتستسلم له طائعة، وتسجد له خاشعة، وتسبح له عابدة، وتغار على جلاله، وتنتفض لمهابته، وتغضب للشرك به من بعض البشر الجهال..»[1].

---

(١) سيد قطب: مقومات التصور الإسلامى، مرجع سابق، ص ٣٤٨ ـ ٣٤٩.

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ ﴿١٥﴾﴾ [الرعد].

﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾ [الإسراء].

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾ [مريم].

واجب المنهج

وهكذا تناول القرآن الكريم هـذا الكون غير المرئى بإيجاز بليغ دون تعرض لحقائقه، وإن كـان قد تعرض لبعض خواصه، فلم يذكـر - مثلا - كيف خلق الله الملائكة، ولم يذكر شيئا عن أصل الروح، ولا عن هياكل الملأ الأعلى.

وواجب الباحثين أن يتأدبوا بأدب القرآن، وأن يقفوا عند حد ما جاء به، ولا يتركوا العقل يسبح فيها:

﴿وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء].

إن القرآن لم يتناول هذا الجانب المغيب من الكون بالتفصيل؛ لأن القرآن جاء للفائدة، ولا فـائدة تعود على البـشر من الخـوض فى هذا العالم، وإننا نتـخاطب بلغتنا، وبحسـب ما نعرف، وما نفهم، واللغـة عندنا لا تناول إلا ما يقع فى دائرة المتكلمين بها حسـا ومعنى، فكيف تصور جوانب هذا العالم المغيـب وتفصيلاته؟! إن الخوض فى هذه النواحي لن يوصل إلى شيء سوى الفرقة والجدل!

وعلى برامج التربية والتعليم أن توطد كل صـلات الوحدة وعلاقات الترابط بين الكبـار وبين مفـردات الكون والحياة مـن حولهم. فالـله الواحد الأحـد الفرد الصمد، خلق الكون والإنسـان والحياة فى انسجام كامل، فـالكون صديق الإنسان



إذا عرف نواميسه عن طريق التعلم والمعرفة. وفى عناصر الكون ما يناسب استمرار الحياة ما شاء الله لها أن تستمر. إذا عرف الإنسان ذلك وتعلم كيف يكيف بيئته لتناسب هذه الحياة، فبين الكون والإنسان والحياة صداقة طبيعية وانسجام أصيل، وليس عراك مستمر، وصراع مخيف[1].

والخلاصة أن على مناهج التربية أن تأخذ فى الاعتبار ما يلى:

١ ـ التأكيد على أن الكون كتاب الله المفتوح وأنه هو المصدر الثانى من مصادر العلم والمعرفة بعد الوحى.

٢ ـ التأكيد على أن الكون فى التصور الإسلامى مخلوق حادث، وليس أزليا، وأنه لم ينشأ من ذات نفسه، بل أنشأه الله بعد أن لم يكن.

٣ ـ بيان أن الطبيعة مخلوقة لله، وأنه ـ سبحانه ـ نظمها وخلق فيها قوانينها التى ينبغى أن يكتشفها الإنسان، ويستغلها فى عمارة الأرض وترقية الحياة.

٤ ـ التأكيد على أن الكون غيب وشهود، وأن الإيمان بالغيب هو أول صفات المتقين، وأن مكان عالم الغيب يعلمه عالم الغيب وحده.

٥ ـ التأكيد على أن الإنسان يتعامل مع مفردات عالم الغيب كما أمر الله، ويتعامل مع مفردات عالم الشهادة بالدراسة والبحث والاكتشاف وقوانين الله فيها وتسخيرها لإعمار الحياة.

٦ ـ التأكيد على أن «النظريات العلمية» وما تعارف الناس على أنه «حقائق علمية» كلاهما ليس قطعى الدلالة، ولا مطلق الدلالة، بل هى احتمالات راجحة فى أحسن الأحوال.

٧ ـ التأكيد على أن النصوص القرآنية قطعية الدلالة، ومطلقة الدلالة، ونهائية فى تقرير الحقيقة التى تقررها، ومن ثم لا يجوز أن يستشهد على صدقها بالقوانين والنظريات العلمية المتصلة بالدراسات الكونية.

---

(١) انظر: فصل «حقيقة الكون» فى كتاب «مقومات التصور الإسلامى»، والمرجع السابق.

٨ ـ التأكيد على أن الكون مقدر ومسخر، ومخلوق بحكمة، ومخلوق لغاية، وأن كل شيء فيه محسوب بحساب دقيق ليؤدى وظيفته، ويحقق الغاية من خلقه.

٩ ـ التأكيد على أن عنصر الجمال مقصود قصدا فى بناء الكون وفى ظواهره، وفى الحياة المبثوثة فيه، وأن إيقاظ حاسة الجمال فى البشر مقصود قصدا فى المنهج القرآنى، وفى الثقافة الإسلامية، وفى التربية الإسلامية.

١٠ ـ التأكيد على أن الكون بمفرداته المختلفة صديق للحياة والأحياء، وليس عدوا لها، فقد أعده خالقه لاستقبال الحياة وحضانتها وكفالتها.

١١ ـ التأكيد على أن أقوات الأرض مقدرة فيها منذ خلقها الله، وأن فيها الكفاية، إذا تم استثمار ما فيها بالعلم والعدل وفق منهج الله.

١٢ ـ التأكيد على أن الكون مسلم طائع لربه، مؤمن عابد لمولاه وخالقه، وأنه كون ذو روح تعرف ربها الحق، فتستسلم له طائعة، وتسجد له خاشعة، وتسبح له عابدة، وتغار على جلاله، وتنتفض لمهابته، وتغضب للشرك به من البشر الجهال![١].

---

(١) انظر: المرجع السابق.

الأساس الثالث
حقيقة الإنسان في التصور الإسلامي
قصة البشرية الأولى

الحديث عن الطبيعة الإنسانية لا بد أن يمر بمرحلتين:

المرحلة الأولى: أصل نشأة الجنس الإنساني حتى صار «آدم».

المرحلة الثانية: تكرار أفراده بعد ذلك وتكاثرهم.

قال تعالى:

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ (١٦) ﴾ [المؤمنون].

أصل نشأة الجنس الإنساني:

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ... (١٢) ﴾... هذا النص يشير إلى أطوار النشأة الإنسانية ولا يحددها فيفيد أن الإنسان مر بأطوار مسلسلة من الطين.. إلى الإنسان فالطين هو الطور الأول، وهناك طور أو أطوار لا نعرفها... والإنسان هو الطور الأخير.. هذه حقيقة نعرفها من القرآن، ولا نطلب لها مصداقا من النظريات العلمية التى تبحث عن نشأة الإنسان، أو نشأة الأحياء[1].

(١) انظر: سيد قطب: فى ظلال القرآن، القاهرة، دار الشروق، الطبعة الشرعية العاشرة ١٤٠٢ هـ ـ ١٩٨٢ ص ١٢٧٠ ـ ١٢٧٦، ٢١٣٨ ـ ٢١٣٩، ٢١٤٢ ـ ٢١٤٣، ٢٤٥٧ ـ ٢٤٦٠.

كيف ارتقى «الطين» إلى «الإنسان»؟

كيف ارتقى الطين من طبيعته العنصرية المعروفة إلى أفق الحياة العضوية أولا، وإلى أفق الحياة الإنسانية أخيرا؟ هذا هو السر الذى يعجز البشر عن تعليله حتى الآن.

ويفيد تعبير «من سلالة» أن النقلة من «الطين» إلى «الإنسان» كان متسلسلا. لكن القرآن لا يتعرض لتفضيل هذا التسلسل؛ لأنه لا يعنيه فى أهدافه الكبرى.

أما النظريات العلمية فتحاول إثبات سلم معين النشوء والارتقاء لوصل حلقات السلسلة بين الطين والإنسان، وهى تخطئ وتصيب فى هذه المحاولة ـ التى سكت القرآن عن تفصيلها ـ وليس لنا أن نخلط بين الحقيقة الثابتة التى يقررها القرآن.. حقيقة التسلسل.. وبين المحاولات العلمية فى البحث عن حلقات هذا التسلسل، وهى المحاولات التى تخطئ وتصيب، وتثبت اليوم وتنقضى غدا، كلما تقدمت وسائل البحث وطرائقه فى يد الإنسان[١].

والنظريات العلمية لا تملك حتى الآن إنكار تفرد الإنسان بخصائصه منذ نشأته من الطين.. ولا تملك أن تثبت الصلة المباشرة بينه وبين أى كائن قبله، مما يزعم بعضها أن الإنسان «تطور» عنه. كما أنها لا تملك نفى الاحتمال الآخر، وهو أن الأجناس نشأت منفصلة عن بعضها من البداية، وأن بعضها أرقى من بعض فى نشأته وتطوره، وأن الإنسان قد نشأ متفردا من البداية.

ويفسر لنا القرآن الكريم هذا التفرد بوضوح فى قوله تعالى:

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٢٩) ﴾ [الحجر].

فكلمة «سويته» تفيد التفرد فى الخلق منذ البداية، كما تفيد العناية الإلهية «حسن التكوين» ثم هى روح الله التى تنقل هذا التكوين العضوى المادى إلى ذلك الأفق الإنسانى الكريم، بعد بدء التكوين، وتجعله ذلك المخلوق المتفرد الذى توكل إليه الخلافة فى الأرض بحكم تفرد خصائصه منذ بدء التكوين.

---

(١) المرجع السابق ص ٢٤٥٨.



هذه النفخة التى تصله بالملأ الأعلى، وتجعله أهلا للاتصال بالله، قادرا على تجاوز الإدراك بالحواس، إلى أفق الإدراك بالقلوب والعقـول للأسرار الخفية لما وراء الزمان والمكان، وإلى ألوان من المدركـات وألوان من التصورات غيـر محدودة فى بعض الأحيان.

فالإنسان «مركب» إذن من الطين، ومن النفـخة العلوية التى جعلت منه هذا المخلوق الفريد التـكوين. إنه ليس «مخلوطا» ولا «ممزوجا» من هـذين العنصرين؛ حـيث لا يمكن الفصل بين هـذين العنصرين فى تـكوينه ولا تصرف لأحـد هذين العنصرين بدون الآخـر فى حالة واحدة من حالاته. إنه لا يكون طينا خـالصا فى لحظة، ولا يكون روحا خـالصة فى لحظة، ولا يتـصرف تصرفـا واحدا إلا بحكم تركيبه الذى لا يقع فيه الانفصال.

والكمـال البـشـرى المقـدر للإنسـان بلوغـه هو التـوازن بين مطالب هذين العنصـرين؛ فهو لـيس مطالبا بأن يكون ملكا أو أن يكـون حيوانا؛ فلـيس واحدا منهما هو الكمال المنشود للإنسان.

والذى يحاول أن يعطل طاقـاته الجسدية الحيوية هو كـالذى يحاول أن يعطل طاقاته الروحية الطليقة. . كلاهمـا يخرج على سواء فطرته؛ ويريد من نفسه ما لم يرده الخالق له، وكلاهما يدمر نفسه، وهو محاسب أمام الله على هذا التدمير.

وقد أقام الإسلام شـريعته للإنسان على أساس تكوينه ذاك، وأقـام له عليها نظاما بشريا لا تـدمر فيه طاقة واحـدة من طاقات البشر، لتعـمل جميعـا فى غير ضعف، والإنسان حفيظ على خصائص فطرته، ومسؤول عنها أمام الله.

والذى يريد قتل الـنوازع الفطرية الروحية فى الإنسـان من الاعتـقاد فى الله والإيمان بالغيب، كالذى يسلـب الناس طعامهم وشرابهم ومطالبهم الحـيوية سواء، كلاهما عدو للإنسان[1].

---

(١) المرجع السابق: ص ١٢٣٨ ـ ١٢٤٠.

طور التكليف والتعليم:

إذن لقد نشأ الجنس الإنسانى من سلالة من طين... ثم نفخ الله فيه من روحه، تلك النفخة التى جعلت من سلالة من الطين إنسانا، ومنحته الخصائص التى افترق بها عن الحيوان.. فكان آدم ـ عليه السلام ـ.

ثم يضيف الله مزيدا من التكريم للإنسان فيجعله خليفة فى الأرض:

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً ... (٣٠) ﴾ [البقرة].

وتقتضى الخلافة أن يتعلم الإنسان: ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ... (٣١) ﴾ [البقرة].

ويختار آدم أن يقوم على تنفيذ منهج الله فى الأرض باختياره هو، وبإرادته هو، وهنا يختلف آدم مرة أخرى عن الملائكة الذين سبق خلقهم على خلق آدم، ويفعلون ما يؤمرون، ويختلف آدم عن المخلوقات الأخرى التى تعبد الله بلا إرادة.

وتتضح إرادة آدم فى أمر الله له بأن يدخل الجنة هو وزوجه، ويأكلا منها كما يشاءان، ولا يقربا شجرة معينة:

﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (٣٥) ﴾ [البقرة].

فوسوس لهما الشيطان وعصيا الله:

﴿ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ... (٣٦) ﴾ [البقرة].

واستغفر آدم ربه، وتلقى من ربه كلمات، فتاب الله عليه:

﴿ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٣٧) ﴾ [البقرة].

ثم هبط آدم وزوجه إلى الأرض ليقوما وذريتهما بأمر الخلافة فيها وفق منهج الله:

﴿ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٣٩) ﴾ [البقرة].

ومن آدم وحواء تكاثر أفراد الإنسان.. فكيف يتم ذلك؟

طور التكاثر:

قال تعالى:

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [المؤمنون].

لقد نشأ الجنس الإنساني من سلالة من طين. أما تكرار أفراده بعد ذلك وتكاثرهم، فقد جرت سنة الله أن يكون عن طريق نقطة مائية تخرج من صلب الرجل، فتستقر فى رحم المرأة.. تستقر فى «قرار مكين».. ثابتة فى الرحم الغائرة بين عظام الحوض، المحمية بها من التأثر باهتزازات الجسم وحركاته.

ومن النطفة إلى العلقة: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً﴾.. حينما تمتزج خلية الذكر ببيضة الأنثى، وتعلق هذه بجدار الرحم نقطة صغيرة فى أول الأمر، تتغذى بدم الأم...

ثم تحول العلقة بالتدريج إلى المضغة، حينما تكبر تلك النقطة العالقة وتتحول إلى قطعة من دم غليظ مختلط.. ﴿فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً﴾...

ثم تحول تلك المضغة إلى عظام: ﴿فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا﴾. أى أن خلايا العظام تتكون قبل خلايا اللحم، وهذه حقيقة علمية لم يكشف عنها العلم الحديث إلا أخيرا.

ثم تأتى مرحلة كسوة العظام باللحم: ﴿فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا﴾.

لقد كشف علم الأجنة التشريحى أن خلايا العظام تختلف عن خلايا اللحم، وأن خلايا العظام هى التى تتكون أولا فى الجنين، وأن خلايا اللحم لا تظهر إلا بعد ظهور خلايا العظام، وبعد تمام الهيكل العظمى للجنين، وهذه حقيقة

يسجلها القرآن قبل ألف وثلاثمائة عام من الكشف العلمى لها . . فسبحان الخالق، العليم الخبير .

ثم يأتى الطور الإنسانى : ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ عن طريق النفخة الإلهية التى صارت بها سلالة الطين إنسانا . فإنسانية الإنسان لا تبدأ إلا بعد أن ينفخ الله فيه من روحه، وقيل إن ذلك يحدث فى نهاية الأربعين يوما الثالثة من الحمل

وجدير بالذكر هنا أن جنين الحيوان كجنين الإنسان فى أطواره الجسدية : نطفة، فعلقة، فمضغة، فعظام، فلحم يكسو العظام . وهنا ينشأ جنين الإنسان خلقا آخر بالنفخة العلوية، ويتحول إلى تلك الخليقة المتميزة المستعدة للارتقاء . ويبقى جنين الحيوان فى مرتبة الحيوان، مجرد من خصائص الارتقاء والكمال، التى يمتاز بها جنين الإنسان . فالإنسان والحيوان يتشابهان فى التكوين الحيوانى؛ ثم يبقى الحيوان عند هذه الدرجة لا يتعداها . بينما يتحول الإنسان خلقا آخر، قابلا لما هو مهيأ له من الكمال، بواسطة خصائص مميزة وهبها له الله عن تدبير مقصود، لا عن طريق تطور آلى من نوع الحيوان إلى نوع الإنسان .

وهنا يفترق التصور الإسلامى عن نظرية دارون التى تقوم على أساس مناقض .

إذ تفترض أن الإنسان ليس إلا طورا من أطوار الترقى الحيوانية . ويفترض أن الحيوان يحمل خصائص التطور إلى مرتبة الإنسان . . والواقع المشهور يكذب هذا الفرض، ويقرر أن الحيوان لا يحمل الخصائص الإنسانية، فيقف دائما عند حدود جنسه الحيوانى لا يتعداه، ويبقى النوع الإنسانى متميزا بأنه يحمل خصائص معينة تجعل منه إنسانا ليست نتيجة تطور آلى، إنما هى هبة مقصودة من قوة خارجية، أى من الله .

﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ الذى أودع فطرة الإنسان تلك القدرة على السير فى هذه الأطوار، وفق السنة التى لا تتبدل ولا تتخلف، حتى تبلغ بالإنسان ما هو مقدر له من مراتب الكمال الإنسانى، على أدق ما يكون النظام، رغم ما بين كل مرحلة وأخرى من فوارق هائلة فى طبيعتها، وتحولات كاملة فى ماهيتها!

إن مجرد التفكير فى هذه الحقيقة التى تتكرر كل لحظة فى كل إنسان، لكاف وحده أن يفتح مغاليق القلوب على ذلك التدبر المحكم العجيب.

﴿ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ فالموت نهاية الحياة الأرضية، وبرزخ ما بين الدنيا والآخرة، وهو إذن طور من أطوار النشأة الإنسانية، وليس نهاية الأطوار.

ثم يأتى البعث الذى يبدأ الطور الأخير من أطوار النشأة الإنسانية، وبعده تبدأ الحياة الأخرى، فمن سلك طريق الكمال، طريق المؤمنين فى الدنيا، فإلى الجنة ونعيمها، فأما من هبط فى مرحلة الحياة الدنيا إلى درك الحيوان، فهو صائر فى الحياة الآخرة إلى الهبوط فى قاع جهنم، حيث تهدر إنسانيته، ويصير وقوداً للنار التى وقودها الناس والحجارة، فالناس من هذا الصنف هم والحجارة سواء[1].

الإنسان والفطرة الإنسانية:

فالإنسان إذن عبد الله، وسيد فى الكون، وهو مخلوق من طين الأرض، وفيه نفخة علوية من روح الله، فالإنسان هو هذان العنصران المختلفان، مترابطان ممتزجان فى كيان كلى واحد.

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الحجر].

وقد عقدت له الخلافة فى الأرض ليعمرها ويرقيها وفق منهج الله:

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً ... ﴿٣٠﴾ ﴾ [البقرة].

وهو كائن من كائنات الملأ الأعلى، لأن إنسانيته لم تتكون ولم تتشكل إلا بعد أن نفخ الله فيه من روحه، فقد نشأ فى الملأ الأعلى، ثم هبط على الأرض اختيارا:

(١) المرجع السابق، ص ٢٤٦٠.

﴿ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ ﴾ [طه].

وهو معان من الله على القيام بحق الخلافة، فالكون كله مسخر له:

﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ... ﴿١٣﴾ ﴾ [الجاثية].

﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدًى وَلا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ ﴾ [لقمان].

وهو أكرم خلق الله على الله:

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴿٧٠﴾ ﴾ [الإسراء].

ولأن الإنسان كريم على الله، ومعقودة له خلافة الأرض، فهو محسوب حسابه في تصميم الكون قبل أن يكون:

﴿ وَأَلْقَىٰ فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [النحل].

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ ﴾ [الحج].

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾ [البقرة].

﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [الأنعام].

والإنسان ـ كما أسلفنا ـ يكون فى أرفع مقاماته، وفى خير حالاته، حين يحقق مقام العبودية لله، إذ إنه ـ فى هذه الحالة ـ يكون فى أقوم حالات فطرته، وأحسن حالات كماله، وأصدق حالات وجوده.

والبشر جميعا من أصل واحد: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً ... ① ﴾ [النساء].

ولقد خلق الله البشر أمما، وقبائل، وشعوبا؛ ليتعارفوا، ويتعاونوا، لا ليتنافروا ويتناحروا:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ⑬ ﴾ [الحجرات].

والعقل الإنسانى هو مناط التكليف، وهو شرف الإنسان وامتيازه، وقدرة الإنسان على التفكير والاختيار، هى التى أهلته لهذا الاستخلاف، ولحمل مسؤولية تنفيذ منهج الله فى الأرض، فالعقل هو مناط التكليف والمسؤولية.

الحرية فطرة:

والعقيدة هى رابطة التجمع الإنسانى الرئيسية فى نظر الإسلام، وليس الجنس ولا القوم، ولا اللغة، ولا الأرض، ولا اللون، ولا الطبقة الاجتماعية أو المصالح السياسية أو الاقتصادية؛ وذلك لأن العقيدة مرتبطة بحرية الإنسان واختياره وإرادته، أما روابط القوم، والأرض أو اللحم، والدم، والطين فلا إرادة للإنسان فيها. فالإنسان ليس حرا فى اختيار بلده أو أهله وقومه. ولكنه حر تماما فى اختيار عقيدته وفكرته ومنهجه.

والإنسان حر لأنه مسؤول، فالحرية والمسؤولية وجهان لعملة واحدة. فالحرية تستلزم المسؤولية، والمسؤولية تتطلب الحرية.

وحرية الإنسان ليست حقا من حقوقه، يمكن أن يمنح له أو يمنع عنه، وإنما هى فطرة فى طبيعته، وجزء من إنسانيته، بها يصير إنسانا مسؤولا، وبدونها يهبط إلى درجات أدنى بكثير من الحيوان، فهو حر حتى فى العقيدة التى يؤمن بها:



﴿ ... فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ... ﴿٢٩﴾ ﴾ [الكهف].

﴿ ... كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ ﴾ [الطور].

﴿وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ... ﴿١٨﴾ ﴾ [فاطر].

وقد عبر سيدنا عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ عن فطرة الحرية فى الطبيعة الإنسانية، عندما قال: «متى استعبدتم الناس، وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا؟!».

إن الحرية هى من أثمن ما جاء به الإسلام، فالتوحيد قرين التحرير، وشهادة «لا إله إلا الله»، هى إعلان عن ميلاد الإنسان الحر فى هذا الكون الذى يسجد لله وحده، ويخشى الله وحده، ومن هذا المنطلق فإن الاستبداد يصبح قرين الشرك، لأنه يحيل الناس عبيدا لآلهة من البشر ويدفعهم إلى السجود لغير الله!.

الشعور بألوهية الله شعور فطرى:

وشعور الإنسان بألوهية الله، وبوجود الله الواحد الأحد هو شعور فطرى مستقر فى أساس تكوينه، فالإنسان فى تكوينه نفخة من روح الله، وعلاقته بخالقه، هى علاقة المخلوق بخالقه الرحمن الرحيم. وهى علاقة لا يستطيع أى مخلوق دفعها، أو الحياد عنها(1).

فشعور الإنسان بوجود الله خالقه، هو قانون من قوانين وجوده الروحى، وضرورة من ضروراته التى لا يستطيع أن يتخلى عنها، فحاجة الإنسان إلى الإيمان بالله كحاجته إلى التنفس، وإلى الطعام والشراب، والراحة، فإذا كانت حاجاته هذه قانونا من قوانين وجوده المادى، فإن إيمانه بالله الخالق، الرحمن، الرحيم، هو قانون من قوانين وجوده الروحى، وضرورة من ضروراته.

إذن، فشعور الإنسان بوجود الله فطرة، فى الطبيعة الإنسانية:

---

(1) حسن البنا: مرجع سابق ص ٤٨.

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الروم].

فالإيمان بالله، والشعور بوجود الله، فطرة مستكنة فى الطبيعة الإنسانية، أصلها الروح التى هى جزء فى كل تكوينه، وهى شىء من روح الله.

ولذلك لا غرابة أن نجد الإنسان يلجأ إلى الله حين ييأس من كل الأسباب الظاهرة، حين يمسه الضر، وحين ييأس من حوله وقوته، ومن حول الناس وقوتهم، فهذا اللجوء هو هتاف تهتف به الفطرة الإنسانية من جوانب نفسه... أن يلجأ إلى الله:

﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ... ﴿٦٧﴾ ﴾ [الإسراء].

﴿ ... حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [يونس].

ضرورة دراسة الفطرة الإنسانية:

إن التقدم العلمى الهائل فى علوم الطبيعة والكيمياء والفلك وعلوم الجماد عموما يتسم بعدة أمور أهمها ما يلى:

أنه لا يتبع أية خطة معينة، إنه يتطور دون إدراك للنتائج المترتبة عليه إنسانيا.

أنه لا يتحرك تبعا لرغبة فى تحسين أحوال البشر.

أنه لا تحكمه قيم من خارجه.

إن هذا التقدم العلمى الهائل فى علوم الجماد قد تزامن مع تقدم علمى بطىء، لم يكد يتعدى كثيرا حد الجهل فى دراسة علوم الإنسان والطبيعة الإنسانية، أو العلوم الحيوية عموما. وقد تمخض هذا عن حضارة إنسانية معاصرة، زودت الناس بكل وسائل الحياة الحديثة، لكنها أهدرت - فى نفس الوقت - القيم الخلقية، وأخفقت فى النهوض، بالمستويات الروحية والأدبية والعقلية لعامة الناس وخاصتهم.



فكيف أمكن الحصول على هذه النتيجة المتناقضة؟

إن الإجابة البسيطة على هذا السؤال تجيء على لسان أحد علماء هذه الحضارة والمشاركين فى صنعها، هو «أليكسس كاريل»، حيث يقول: «إن الحضارة الحديثة تجد نفسها فى موقف صعب؛ لأنها لا تلائمنا، فقد أنشئت دون أية معرفة بطبيعتنا الحقيقية؛ إذ إنها تولدت من خيالات الاكتشافات العلمية، وشهوات الناس وأوهامهم، ونظرياتهم، ورغباتهم. وعلى الرغم من أنها أنشئت بمجهوداتنا إلا أنها غير صالحة بالنسبة لحجمنا وشكلنا»[١].

لقد أدى تطبيق الاكتشافات العلمية على تغير العوالم المادية والعقلية بصورة هائلة، لكن التأثير التعس لهذه التغيرات إنما هو نتيجة لأنها نمت وتطورت دون أدنى تفكير فى فطرتنا.

«لقد أهمل تأثير المصنع على الحياة الفسيولوچية والعقلية إهمالا تاما عند تنظيم الحياة الصناعية، إذ إن الصناعة العصرية تنهض على مبدأ: «الحد الأقصى من الإنتاج بأقل التكاليف» ـ حتى يستطيع فرد أو مجموعة من الأفراد أن يحصلوا على أكبر مبلغ مستطاع من المال. وقد اتسع نطاقها دون أى تفكير فى طبيعة البشر الذين يديرون الآلات، ودون أى اعتبار للتأثيرات التى تحدثها طريقة الحياة الصناعية التى يفرضها المصنع على الأفراد وأحفادهم. . .»[٢].

إن الإنسان يجب أن تعلو قيمته على كل شىء، كما يجب أن يكون مقياسا لكل شىء، لكن الواقع عكس ذلك، فهو غريب فى العالم الذى ابتدعه؛ لأنه لم يستطع تنظيم العالم وفقا لطبيعته؛ لأنه لا يملك معرفة علمية دقيقة بفطرته التى فطره الله عليها.

---

(١) اليكسيس كاريل: الإنسان ذلك المجهول، تعريب شفيق أسعد فريد، بيروت، مكتبة المعارف ١٤٠٧ هـ/ ١٩٨٦ م، ص ٣٧.

(٢) المرجع السابق: ص ٣٨.

وصفوة القول: إن التقدم الهائل الذى أحرزته علوم الجماد على علوم الحياة هو إحدى الكوارث الذى تعانى منه الإنسانية، إذ ليس هناك ما يحميها من الظروف العدائية التى شيدها العلم حولها.

وإن العلاج الوحيد لهذا الشر المستطير هو معرفة أكثر عمقا بأنفسنا وبفطرتنا الإنسانية، وبذلك نتعلم كيف نكيف أنفسنا للمتغيرات المناسبة، وكيف نغير الظروف المحيطة بحيث تصبح الحياة حولنا ملائمة لفطرتنا الإنسانية، وعلى هذا فإن هذا الجزء هو رحلة عبر هذا الإنسان، ومحاولة لفهم فطرته الإنسانية من خلال التصور الإسلامى له.

الفطرة الإنسانية:

التربية عملية تهدف إلى إيصال المربى إلى درجة الكمال التى هيأه الله لها. والإنسان هو محور العملية التربوية، فالعملية التربوية بكل ما تشتمل عليه من أصول تربوية، ونظريات، ومناهج، وممارسات، ومربين، كلها تعمل وتتفاعل من أجل تهيئة الجو المناسب للمتعلم كى ينمو إلى درجة كماله الإنسانى.

لكن المنهج التربوى يتأثر إلى حد بعيد بنظرة المخططين له والقائمين على تنفيذه إلى الفطرة الإنسانية، أو الطبيعة الإنسانية، والفطرة الإنسانية فى الإسلام تختلف فى مفهومها، وفى مصدرها، وفى غايتها عن الطبيعة الإنسانية فى الفلسفات ومدارس علم النفس المختلفة.

يختلف مفهوم الفطرة الإنسانية فى الإسلام عن مفهوم الطبيعة الإنسانية لدى الفلسفات ومدارس علم النفس المختلفة، ففى القاموس: فطر ناب البعير، أى شق اللحم وطلع، وفطر النبات، أى شق الأرض ونبت منها، وفطر الأمر، أى ابتدأه واخترعه، وفطر الله العالم، أى أوجده ابتداء، وفى القرآن يقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ على لسان سيدنا إبراهيم:

﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأنعام].

والفطرة هى الخلقة التى يكون عليها كل موجود أول خلقه، والفطرة هى الخلقة السليمة لم تشب بعيب، وفى التنزيل العزيز:

﴿... فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ... ﴿٣٠﴾﴾ [الروم].

والفطرة فى المفهوم الإسلامى هى خلق الله الإنسان على الإسلام، أى شاهدا بعبوديته لله، ومقرا بربوبيته، ومزودا بالاستعدادات والطاقات الظاهرة والكامنة التى تمكنه من إصابة الحكم، والتمييز بين الحق والباطل وفقا لمعايير منهج الله.

أما مفهوم الطبيعة، ففى القاموس: طبع الشىء طبعا، وطباعة، أى صاغه فى صورة ما، ويقال: طبع الله الخلق[1]، أى أنشأه. والطبيعة الإنسانية، أى السجية، ومزاج الإنسان المركب من الأخلاط، والقوة السارية فى الأجسام التى يصل بها الجسم إلى كماله الطبعى الذى هيأه الله له. فالطبيعة الإنسانية بهذا المعنى هى مجموعة الخصال والسجايا التى خلق الله الناس وفطرهم عليها. وسواء كان ذلك من خلق الله للإنسان فى البداية، أم بتهيئة الإنسان كى يقوم بذلك فى نفسه، أو من خلال البيئة والأشياء المحيطة به.

أما الطبيعة فى المصطلح الغربى الذى قامت عليه مدارس علم النفس هناك، فهى الأشياء المادية المحسوسة حولنا من جماد وحيوان ونبات، ففى الاصطلاح اليونانى: «الفيزيقا» هى الطبيعة. و«الميتافيزيقا» ما وراء الطبيعة، أى الأمور الغيبية وغير المحسوسة.

وكما يقول الدكتور محمد رشاد خليل: فقد أخذت الطبيعة معان فلسفية لدى فلاسفة الإغريق، وأصبحت هى الأساس فى الفكر الغربى الحديث.

فالطبيعة هى الجوهر المادى الأول الذى تصنع منه الأشياء، وهذا الجوهر المادى هو أصل الوجود، والعلة الأولى فى وجود هذا الكون. وهى عند أفلاطون

---

(١) المرجع السابق، مادة «طبع»، ج ٢، ص ٥٤٩.

المثال، وعلة الوجـود، والنفس الكلية. وعند أرسطو هى أصل الأشيـاء، ومصدر الحركة والمادة التى تصنع منها الأشياء.

وقد اسـتخدمت الفلسـفات الغربيـة الحديثـة مفهوم الـطبيعـة، بهذا المعنى الإغريقى القديم، فالطبـعيون والمثاليون والواقعيون والدارونيـون يرون «الطبيعة هى الأشيـاء، وهى القـانون الطبيـعى الذى يعمل فى الأشـياء، والطبـعيـة هى أصل الأشياء»[1].

إذن فالطبيعة فى الفلسفات الغربية ومدارس علم النفس القائمة عليها ليست من خلق الله، بل هى خالقة الكون وسبب وجوده الأول. وبذلـك يتصادم مفهوم الطبعية فى هذه المدارس مع مفهوم الطبيعة فى الإسلام.

مكونات الإنسان:

لقـد بين القـرآن أن الله خلق الإنسـان من طين الأرض، ثم نفخ فـيـه من روحه. ومن الطين تكون جسد الإنسان:

﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [ص].

وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن سعـيد، حدثنا عوف، حدثنا أسامة بن زهير عن أبى موسى، عن النبى ﷺ قال: **«إن الله خلق آدم من قبضة قـبضها من جـميع الأرض فـجاء بنو آدم على قـدر الأرض، جاء منهم الأحـمـر والأبيض والأسود وبين ذلك، والخبيث والطيب وبين ذلك»** [رواه أبو داود والترمذى][2].

كان هذا بالنسـبة لآدم ـ عليه السلام ـ أمـا بالنسبة لذريتـه فإن الروح تخلق لكل جنين بعد أن يتم تخليق النطفة فى الرحم:

---

(١) محمد رشاد خليل: علم النفس الإسلامى العام والتربوى، دراسة مقارنة، الكويت، دار القلم، ١٤٠٧ هـ/ ١٩٨٧ م، ص ١٠٣.

(٢) تفسير ابن كثير، ج ٣، ص ٢٤٠.

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [المؤمنون].

قال ابن كثير فى تفسير قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ أى ثم نفخنا فيه الروح فتحرك، وصار خلقا آخر ذا سمع وبصر وإدراك وحركة واضطراب ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾. ويقال: إن نفخ الروح فى النطفة إنما يكون بعد أربعة أشهر.

قال الإمام أحمد فى مسنده، إنه روى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إن أحدكم ليجمع خلقه (نطفة) فى بطن أمه أربعين يوما، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح....**» إلى آخر الحديث الذى أخرجه الشيخان.

ففى الإسلام إذن، الإنسان كائن مخلوق لله خلقا مستقلا متميزا متفردا. وهو أكرم خلق الله على الله، وقد نوه الله بذلك، حين جعل الإنسان خليفته فى الأرض:

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً ... ﴿٣٠﴾ ﴾ [البقرة].

لكن الإنسان فى معظم الدراسات النفسية فى الغرب ليس هو الإنسان المخلوق من الله، بل هو الحيوان المتطور عن الطبيعة التى هى أصل الأشياء وسبب وجودها، وهذا ما تدعيه نظرية التطور التى لا تعدو - كما يقول الدكتور محمد رشاد خليل - «أن تكون أسطورة يونانية قديمة قال بها الطبعيون اليونان، وأحياها ملاحدة التطوريين الطبعيين حديثا، وزيفوا لها الأدلة، أو لووا أعناق بعض النتائج التى أسفرت عنها البحوث الطبعية والحيوية»[1].

إذن فالإنسان هنا ليس مخلوقا لله، مكونا من جسد وروح كما هو الشأن فى الإسلام، وإنما مرده إلى وحدة الأصل الحيوانى للإنسان، فوحدة الإنسان فى

---

(١) محمد رشاد خليل، مرجع سابق، ص ٦٨.

علم النفس الحديث ترجع إلى كون الإنسان قد جاء نتيجة تطور الأحياء من الطبيعة. وهنا يتصادم الإسلام مرة أخرى مع الفلسفات التى تقوم عليها مدارس علم النفس الحديث فيما يتصل بمفهوم الإنسان.

مكونات النفس:

والنفس فى الإسلام هى جماع شخصية الإنسان. «والروح هى أصل النفس ومادتها، فالنفس مركبة منها ومن اتصالها بالبدن»[1].

والنفس الإنسانية واحدة لا ثلاث،كما يقول ابن القيم. فقد قسم بعض العلماء النفس إلى: نفس مطمئنة، ونفس لوامة،ونفس أمارة بالسوء. «والتحقيق أنها نفس واحدة لها صفات فتسمى باعتبار كل صفة باسم معين. فتسمى مطمئنة باعتبار طمأنينتها إلى ربها بعبوديته ومحبته والإنابة إليه. والنفس اللوامة كثيرة التقلب والتردد وهى من أعظم آيات الله، فهى تتلون وتتقلب بأشكال مختلفة، فتذكر وتغفل، وتقبل وتعرض، وتحب وتبغض، وتفرح وتحزن، وترضى وتغضب، وتتقى وتفجر، وهى على هذا طوال العمر. أما فى النفس الأمارة بالسوء، فإنها تأمر بكل سوء، وهذا من طبيعتها.إلا ما وفقها الله وأعانها، فما تخلص أحد من شر هذه النفس إلا بتوفيق من الله»؛ قال تعالى على لسان امرأة العزيز:

﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾ [يوسف].

وتمتد وحدة النفس فى الإسلام لتشمل الإنسان كله، بما فيه جسمه وروحه. فالنفس فى الإسلام هى الإنسان كله، وبما أن الروح فى الإسلام لا تعمل مستقلة عن الجسم ـ رغم أن لها وجودا مستقلا عنه، فهو ليس سجنا لها ـ فكذلك النفس لا تعمل مستقلة خارج مركب الروح والجسد.

---

(١) تفسير ابن كثير، ج ٢، ص ٦١.

أمـا فى علم النفس الحديـث فليس للإنسان نفـس مخلوقـة، وإنما له نفس طبيعية، تصنعها الظروف والمؤثرات الخارجية، فالسلوكيون يرون أن النفس تصنعها التـربية والمؤثرات الخـارجيـة. والتحليليـون وعلى رأسهم فـرويد يرون أن النفس بأجزائها الثلاثة عنده وهى: الـ «هى» والـ «أنا» و الـ«أنا الأعلى»، يصنعها الكبت. «فالكبت هو الـنفس بمختلف أجزائهـا، وعليه فنحن لسنا أمـام علم النفس، وإنما نحن أمام فلسفة طبعية إلحادية فـى النفس تقابل الفلسفة المثالية الإلحادية فى النفس عند أفـلاطون وأرسطو، وهى أسـوأ منهـا، إذ لا تعتـرف بمصـدر للنفس خـارج العالم. فليس هناك فى هذه الفلسفة إذن روح ولا عقل مخلوق، ولا نفس تكونت من الروح والجسد، وحصلت على صفاتهـا وأحوالها بالخلق والفطر كما هو الشأن فى الإسلام»[1].

علم النفس الإسلامى وعلم النفس الغربى:

بناء على ما سبق فإن علم النفس الإسـلامى يتصادم مع علم النفس الغربى لاختـلافهمـا فى المصدر وفى الغاية. حـيث إن علم النفس الإسلامى يتـعامل مع الإنسان المخلوق الذى هو مـن خلق الله. فى حين يتعامل علم الـنفس الغربى مع الإنسان الطبعى الذى جاء نتيجـة تطور الأحياء. وعلم النفس الإسلامى يتعامل مع النفس المخلوقـة من مركب الروح والجـسد متـفاعلين، لكن علم النـفس الحديث يتعامل مع النفس الطبعية التى تصنعها الظروف والمؤثرات الخارجية. أو النفس التى صنعها الكبت.

وإذا كان علم النفس العام والتربوى قد جـاءا متلازمين من مصدر واحد هو كتـاب الله وسنة رسوله، فـإنهمـا قد جاءا وبينهـما فـاصل زمنى فى علم النفس الغـربى بسبب اعـتمـادها على تطور الفكر فى مـصـادر ونظريات شتى مـختلفـة ومتناقضة. وإذا كان علم النفس الإسلامى العام والتربوى قد صدرا من علم شامل محيط بالنفس الإنسانيـة من الأبد إلى الأزل؛ لأنه صادر من الخالق الذى يعلم من

(١) محمد رشاد خليل، مرجع سابق، ص ١٣٠.

خلق وما تكون عليه أحواله فى كل زمـان ومكان؛ فإنه فى علم النفس الغربى قد اعتـمد على آراء ونظريات شتى. وهو وإن اسـتعان بالتـجريب فإن التـجريب فى العلوم الإنسانية مختلف تماما عن التجـريب فى العلوم الطبعية، كاختلاف الإنسان عن الجماد والحيوان.

والخلاصة أنه لما كانت التربية هى تطبيق لمفاهيم علم النفس، فإن التربية فى الإسلام تختلف عن التـربية فى الغرب بقدر الاختـلاف بين علم النفس الإسلامى وعلم النفس الغربى فى حقيقة النفس.

«وبمعنى آخـر فـإن علم النـفس التـربوى هو تطبـيق لنظريات الـتـحليليين والسلوكـيين والجشـتلطيين وغيـرهم من المؤمنين بالمذهب الطبـيعى على اخـتلاف أشكالهم.. وهذه المدارس كلها لا تعرف الإنـسان المخلوق، وإنما تتكلم عن إنسان طبعى لا روح له»[1].

وهذا كله سوف ينعـكس على نظريات التعلم والممـارسات التربوية التـابعة لها. كما سينعكس على دوافع السلوك وغاياتها وما يترتب عليها من نتائج وآثار.

قواعد الفطرة فى التصور الإسلامى:

يقوم التصور الإسلامى للفطرة الإنسانية على مجموعة من القواعد أهمها ما يلى:

١ ـ أن الإنسان مفطور على الإيمان بربوبية الله ووحدانيته.

٢ ـ أن الفطرة الإنسانية ذات تكوين مزدوج.

٣ ـ أن الإنسان مخلوق باستعدادات متساوية للخير والشر.

٤ ـ أن الإنسان مزود بقدرة واعية كامنة فيه، قادرة على الاختيار الحر للخير والشر سواء.

٥ ـ أن الإنسان حر؛ لذلك فتبعة أعماله ومسؤولياته تقع عليه وحده.

---

(١) المرجع السابق، ص ١١٤.

٦ ـ أن النفس الإنسانية هى جماع شخصية الإنسان.

الذى لا شك فيه، أن الإنسان خلق مفطورا على الإيمان، وحب الخير، فالله ـ سبحانه ـ أحسن كل شيء خلقه:

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٥﴾ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾ ﴾ [التين].

فالحقيقة الرئيسية فى هذه الآيات، هى حقيقة الفطرة القويمة التى فطر الله الإنسان عليها، واستقامة طبيعتها مع طبيعة الإيمان، والوصول بها إلى كمالها المقدور لها، وهبوط الإنسان وسفوله حين ينحرف عن سواء الفطرة واستقامة الإيمان.

وتتضح نفس هذه الحقيقة فى قوله تعالى:

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ ﴾ [الأعراف].

فحقيقة التوحيد مركوزة فى الفطرة الإنسانية، يخرج بها كل مولود إلى الوجود، فلا يميل عنها إلا أن يفسد فطرته عامل خارجى عنها. عامل يستغل الاستعداد البشرى للهدى والضلال، وهو استعداد كامن تخرجه إلى حيز الوجود الملابسات والظروف التى ينشأ فيها الإنسان. كما يوضح هذا صراحة قول الرسول ﷺ: «**كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه، كما تولد بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء؟**» [رواه البخارى ومسلم].

والفطرة الإنسانية فى الإسلام ذات تكوين مزدوج:

﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [ص].

فالإنسان مخلوق من طين الأرض، ومن عناصرها تكوّن، لكن النفخة العلوية هى التى جعلت منه إنسانا، وصنفته ضمن مخلوقات الملأ الأعلى.

فـالإنسان ـ إذن ـ مكون من جـسم ومن روح. والجـسم مكون من جمـيع الأجهزة والأعضاء، بما فى ذلك السمع، والبـصر والعقل... نعم العقل، فالعقل ما هو إلا جهاز من الأجهزة التى خلقها الله فى الجسم؛ لتقوم بوظيفة من وظائف الجسم. مثله فى ذلك مثل جـهاز السمع، وجهاز البصر، وجـهاز النطق، وجهاز الهضم.. إلى آخره. إلا أن هذا الجـهاز مسيطر ومنظم لأجهـزة الجسم الأخرى، ومع ذلك فأداؤه لوظيفته يتأثر بمدى صحة الأجهزة الأخرى وكفاءتها فى العمل.

ولقد نفخ الله فـيه من روحه، لأن إرادته اقـتضت أن يكون خليـفة لله فى الأرض، وأن يتسلم مقاليد هذا الكوكب فى الحـدود التى قدرها الله له، وتتطلبها مقتضيات العمارة من قوى وطاقات.

والإنسان يرتقى فى معرفته وفى عـمارته للكون، كلما اتصل بمصدر النفخة العلوية فيه، واهتدى به فى استقامة، أما حين ينحرف عن ذلك المصدر فإن تيارات المعرفـة فى كيانه وفـى حياته لا تتناسق، بل وتصبح خطرا على سلامـة اتجاهه، وتقوده إلى نكسـة فى خصائصـه الإنسانيـة، مهمـا تضخمت علومـه وتجاربه فى الحياة.

ولقد خلق الله الإنسان مزودا باستعدادات متـساوية للخير والشر، كما خلقه مزودا بقدرات كامنة فيه قادرة على توجيهه إلى الخير وإلى الشر سواء، وجعل تبعة أعمالـه ومسؤولياته تقع عليـه وحده. ولقد أكد القـرآن هذه القواعد فى كثـير من الآيات:

﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾ [البلد].

﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾ [الإنسان].

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴿١٠﴾﴾ [الشمس].

من خلال الآيات السابقة يتضح لنا ما يأتى:

- أن الإنسان كائن مخلوق مزدوج الفطرة، مزدوج الاستعداد، مزدوج الاتجاه.

- أنه بطبيعة تكوينه المزدوجة (من طين الأرض، ومن نفخة الله فيه من روحه) مزود باستعدادات متساوية للخير والشر، والهدى والضلال.

- أنه قادر على التمييز بين ما هو خير وما هو شر، كما أنه قادر على توجيه نفسه إلى الخير والشر سواء، وأن هذه القدرة على التمييز والتوجيه كامنة فى كيانه، يعبر عنها تارة بالإلهام: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝٨﴾. ويعبر عنها تارة أخرى بالهداية: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾. وما الرسالات والعوامل الخارجية إلا إيقاظ وشحذ وتوجيه لهذه القدرة الكامنة.

إن هذه القدرة الواعية الكامنة فى كيان الإنسان وفى صميمه، والقادرة على التمييز والتوجيه الحر، هى التى يناط بها التبعة والمسؤولية، فمن استخدمها فى تزكية نفسه، فقد أفلح، ومن خبأها وأضعفها فقد خاب، فهى حرية تقابلها تبعة، وقدرة يقابلها تكليف، ومنحة يقابلها واجب[1].

الحاجات النفسية:

والحاجات الإنسانية مزدوجة بازدواج الطبيعة الإنسانية، فهناك مجموعة الحاجات العضوية كالحاجة للطعام والشراب والإخراج، والجنس، والراحة ... إلخ. وهناك مجموعة الحاجات المعنوية.

فحاجة الإنسان إلى الأمن والاستقرار والحب، وتقدير الآخرين، وتحقيق الذات.. إلخ. وكل هذه الحاجات إنما تعتمد على حاجة النفس الفطرية، وهى حاجتها إلى الإيمان بالله، والاعتماد عليه، والاستنجاد به، والطمع فى عفوه ورحمته، فهذه الحاجة فطرة مستكنة فى الطبيعة الإنسانية، أصلها الروح التى هى جزء فى كل تكوين النفس:

---

(١) سيد قطب: فى ظلال القرآن، ط ١٠، بيروت، دار الشروق، ١٤٠٣ هـ/ ١٩٨٣م. ص ٣٩١٧ ـ ٣٩١٨.

﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ ... ﴿٦٧﴾ ﴾ [الإسراء: ٦٧].

وهذان النوعان من الحاجات ضروريان لقوة النفس وأمنها واستقرارها:

﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ﴿٣﴾ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴿٤﴾ ﴾ [قريش].

والحرمان منهما لون من ألوان العقاب المؤلم للنفس الإنسانية:

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ [النحل].

ويقصد بالنفس فى التصور الإسلامى جماع الشخصية الإنسانية: أى أن الإنسان كله، بجميع مكوناته الروحية والجسمية، وبما فى ذلك العقل والوجدان، والدوافع الفطرية، والانفعالات، والحاجات، يسمى نفسا، والاتصال وثيق، والتفاعل مشترك بين النفس (الكل)، وجميع مكوناتها، فنحن لا نستطيع أن نتكلم عن نشاط جسمى واحد لا يدخل فى نطاق النفس، فالسمع والبصر والعقل والذوق واللمس والحاجات والانفعالات كلها حواس وطاقات لها غاية، وذات أثر نفسى معين يتحقق عن طريق استخدامها.. فالعين ذاتها بلا وعى، والأذن ذاتها بلا تدبر، والعقل بلا فهم... وكذلك الذوق والشم والانفعالات كلها لا قيمة لها فى حياة الإنسان إذا لم يكن لها انعكاسات فى محيط النفس[1]:

﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾ [الأعراف].

فالغافلون هنا لهم حواس وأجهزة سليمة وصحيحة من حيث تركيبها العضوى، وبالرغم من هذا فهم «غافلون» ـ كما يقول القرآن؛ لأن حواسهم لا

---

(١) محمد قطب: منهج التربية الإسلامية، الجزء الأول، بيروت، دار الشروق، ١٤٠٢ هـ/ ١٩٨٢ م، ص ١٠٤ ـ ١٠٥.

تؤدى وظيفتها النفسية فى الاتجاه الصحيح، وبذلك فهى لا تعينهم على أداء وظيفتهم التى خلقهم الله من أجلها، ألا وهى عمارة الأرض وترقية الحياة على ظهرها وفق منهج الله.

إن الإنسان فى التصور الإسلامى محكوم بفطرته، وهو أنه مخلوق حادث، ليس كليا ومطلقا، وليس أزليا، ولا أبديا، ثم إنه مخلوق ضعيف تغلبه الشهوة أحيانا، ويلازمه جهله بنفسه، وبكثير من الأحوال من حوله فى كل حين، سخر الله له ما فى السموات وما فى الأرض، ولكن أمورا كثيرة صغيرة غير مسخرة له، وعير مذللة له، هى آية ضعفه وعجزه وحاجته الدائمة إلى الله. ثم هو مخلوق مدرك، لكنه إدراك محدود بما تمده به طبيعته، ومحدود بحدود وظيفته، وهى القيام بحق الخلافة فى الأرض، بلا زيادة ولا نقصان؛ ولهذا فإن هناك أمورا لا يحتاج إليها فى وظيفته، ومن ثم لم يوهب القدرة على إدراكها أو إدراك ماهيتها.

وبناء على ما سبق، فإن هذا الإنسان لايستطيع أن يضع منهجا لنفسه، ولا أن يشرع لحياته؛ لأنه ليست لديه القدرات والإمكانات التى تمكنه من ذلك، فهو يجهل كثيرا من حقائق الكون من حوله، وهو يجهل نفسه، ويجهل نتائج تصرفاته، ويخضع لشهواته ونزواته، وهذه كلها عوامل تجعل من الخطر على وجوده، وعلى الأرض التى جاء لعمارتها، أن يتولى هو وضع شريعته ومنهج حياته، فهو معفى من هذا، فالذى خلقه وكل الكائنات من حوله، من حقه أن يشرع لهم منهج حياتهم الذى به يحققون غاية وجودهم ومقصد خلقهم:

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الجاثية].

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ...﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام].

هذا هو الأساس الأول من أسس بناء مناهج التربية للصغار والكبار على السواء فى التصور الإسلامى. والجهل بهذا الأساس، أو الاقتداء بغيره يخرج هذه المناهج عن أن تكون إسلامية بغير جدال.

سمات الكبار النفسية:

ومع ذلك فالكبير له مجموعة من السمات النفسية قد اكتسبها خلال حياته وهى سمات تؤثر دون شك فى تخطيط منهجه، وتحديد أهداف تعلمه، وفى نوعية المحتوى والخبرات التى تقدم له، وفى طريقة تقديمها وتقويمها، ومن أهم هذه السمات ما يلى:

أولا: من الناحية الاجتماعية، يختلف الكبار عن الصغار، حيث إن الكبار يبدأون الدراسة ولديهم خبرات طويلة فى الحياة، كما أن لديهم دائرة واسعة من الاتصالات والعلاقات، والمسؤوليات والأدوار الاجتماعية المختلفة، فهم من العاملين فى مجالات الحياة المختلفة، ولهم مسؤوليات واهتمامات بالقضايا العامة المحلية والعالمية.

ثانيا: من الناحية المعرفية، فإنه يجب أن يكون مفهوما أن السن فى حد ذاته لا يعوق أو يعطل قدرة المتعلم الكبير على التعلم، فإذا لم يكن بالمتعلم ضعف فى حواسه نتيجة كبر السن، فإن الأمور قد تتحول لصالحه نظرا لما لديه من الخبرات الواسعة والمتنوعة، كما أن حصيلته اللغوية الواسعة نسبيا قد تجعل تعلمه أكثر ترابطا وتحركا، وتفاعلا، واتساعا، كما أن ذلك قد يجعل قدرته على الاستعداد للتعلم كبيرة إلى حد بعيد.

ومع ذلك فإن خبرات المتعلم الكبير ومفاهيمه قد تكون خاطئة، وبذلك تقف حجر عثرة أمام تعلمه، فقد تصيبه بالجمود والتصلب ما يؤدى إلى عدم تقبله بسهولة للحقائق والمعايير والقيم والخبرات. ولا بد للمنهج هنا من أن يعالج هذا الوضع ويخطط له عند اختيار المحتوى والخبرات التعليمية.

ثالثا: من الناحية الانفعالية، يجب أن يؤخذ فى الاعتبار أن الحياة الانفعالية للمتعلم الكبير شديدة العمق والتعقيد والحدة، فما يقدم إليه يجب أن يكون مقبولا حتى يمكن دمجه فى الحياة الانفعالية للكبار. ومن المشاعر والاتجاهات المهمة عند الراشد، تلك التى تتصل بذاته، ومدى قدرته ودوافعه نحو التعلم، ومستوى

طمـوحه، واسـتعداده لقبـول الخبرات الجديـدة، فالخوف من الفشل ـ على سـبيل المثال ـ وإن كان يؤدى إلى زيادة الحرص، والإتقان فى الأداء أحيانا، إلا أن المبالغة فى هذا الشعور قد تؤدى إلى تدنى الأداء عند الكبير.

والخلاصـة أن العمليات الـعقلية عند المتـعلم الصغيـر أو الكبيـر، لا تعمل منفصلة عن سـائر جوانب شخـصيتـه. كما أنها تـتأثر بمسؤولياتـه الاجتماعـية، واهتماماته، وارتباطاته، وبمشاعره واتجاهاته الانفعالية نحو ذاته، وأسرته، وعمله، ومجتمعه، ونحو الكون والحياة بوجه عام.

واجب المنهج نحو حقيقة الإنسان:

وفى كل الأحوال فإنه يجب علـى مناهج التربية ـ فى هذا السياق ـ التـأكيد على حقائق التصور الإسلامى الآتية[1]:

١ ـ التأكيد على عرض النفس البشرية على أنها حـقيقة كونية وليست مذهبا فلسفيا أو تصورا تختلف فيـه المذاهب، وأن النفس هى جماع شخصية الإنسان، وأنها كل مكون من الروح والجسم معا متكاملين.

٢ ـ التـأكيـد على أن النفس الإنسـانية واحـدة، ولها أحـوال؛ فقـد تكون مطمئنة، وقد تكون أمارة بالسوء، وقد تكون لوامة.

٣ ـ التأكـيد على أنه لا يمكن إدراك حـقيقـة الإنسان إدراكا واضـحا إلا إذا أدركنا مصدره، ووظيفته الأساسـية، ومركزه فى الكون، وغاية وجوده الإنسانى.

٤ ـ النظر على الإنسان أنه مخلوق خـاص، ذو كيان متميز، مـستخلف فى الأرض، ومجهز للنهوض بوظيفة الخلافة على عهد الله وشرطه.

٥ ـ التـأكيـد على أن الإنسان كـائن كريم عـلى الله، ذو مركـز عظيم فى تصميم الوجود، وهو أكرم مـن كل ما هو مادى؛ لأن كل ما هو مادى مخلوق له.

---

(١) انظر: سيد قطب، مقومات التصور الإسلامى، مرجع سابق، فصل «حقيقة الإنسان».

٦ ـ التأكـيد على أن الإنسان كائن يتـعامل مع الكون كله؛ فهو يتـعامل مع ربه، ومع الملأ الأعلى من الملائكة، ومع الجن والشياطين، ومع نفسه، ومع سائر الأحياء الكونية، وهو مجهز بوسائل التعامل مع كل هذا.

٧ ـ التأكيد على أن الإنسان مـستعد ـ حسب تكوينه الذاتى ـ لأن يرتفع إلى أرقى من آفاق الملائكة المقربين، كما أنه مستعد لأن ينحط إلى أدنى من دركات الحيوان البهيم.

٨ ـ النظر إلى الإنسان على أنه مصمم على قاعدة الزوجية التى هى خاصية كونيـة وحيوية، وعلى قـاعدة التكامل بين الزوجين لا التـماثل، وهى أيضا خاصية كونية وحيوية.

٩ ـ التـأكيـد على أن آصـرة التجـمع الرئيـسيـة بين أفـراد هذا الكائن هى «العقيدة». ذلك أنها العنصر المتعلق بالعنصر الفريد فى الإنسان، والذى صار به إنسانا صاحب إرادة واختيار.

١٠ ـ التأكـيد على الأخوة الإنسـانية فى حس المسلم وشعـوره فيمـا يتعلق بالمشاعر والمعاملة الشخصية، والعدل والقسط والبر ببنى آدم جميعا، بل بالأحياء جميعا.

١١ ـ التأكيد على العلاقة بين نشـاط الإنسان فى الدنيا ومصيره فى الآخرة؛ فالثـواب فى الآخرة موقـوف على إحسان القيـام بواجبات الخـلافة فى الدنيا.

١٢ ـ التأكيد على أن تنمية الحياة الدنيـا وترقيتها عن طريق كشف النواميس والأرزاق والمدخرات فى الأرض وتوزيعـها بالعـدل الذى قرره الله هى العبادة، وهى جواز المرور إلى رضوان الله والجنة.

١٣ ـ التأكيد على أن الله قد كرم الإنسان بجعله مخيرا فى شطر من حياته، وجعله مسيرا فى شطر آخر. وأن الإنسـان لا يحسن القيام بالخلافة فى الأرض إلا حين يتناسـق شطره الاخـتـيـارى مع شـطره الإجبـارى، فيخضعان معا لمنهج الله الذى يحكم الكون والحياة.

١٤ ـ التأكيد على أن الفطرة الإنسانية مؤمنة، وأن الإيمان حاجة فطرية، كما أنه حاجة عقلية لا يملك الإنسان أن يستغنى عنها؛ لأنها مركوزة فى كينونته، وهو مفطور عليها.

١٥ ـ التأكيد على أن أفراد الجنس الإنسانى متساوون ابتداء فى عبادتهم لله. والمؤمنون بالله منهم هم الذين يرضاهم الله بين عباده، وأقربهم إليه وأعلاهم مكانا أتقاهم.

١٦ ـ التأكيد على أن الإنسان ذو فاعلية إيجابية فى مصيره كله ـ فى إطار المشيئة الإلهية ـ فاعلية فى نفسه، وفيما حوله ومن حوله، وفاعلية فى حاضره ومستقبله.

١٧ ـ التأكيد على أن المؤمن يستطيع أن يرتقى فى الحياة الدنيا حتى يصبح قدرا من قدر الله، يحقق مشيئة الله ـ من خلال حركته الذاتية ـ فى نفسه وفيمن حوله وفيما حوله.

١٨ ـ التأكيد على أن الإنسان يكون فى خير حالاته وأقومها حين يكون فى سلام مع الله، ويكون فى أسوأ حالاته حين ينحرف عن محوره الفطرى ومداره الكونى، حيث يفسد، وتفسد حياته، وينشر الفساد فى كل ما يحيط به.

١٩ ـ التأكيد على أن بشرية الرسل تكريم للجنس الإنسانى كله وأنهم جميعا جاءوا برسالة الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، والقدر خيره وشره.

٢٠ ـ التأكيد على أن سنة الله التى لا تتخلف هى التمكين فى الأرض لأوليائه المستقيمين على منهجه، والتدمير على أعدائه المخالفين عن سنته، وتعتبر هذه السنة قاعدة أساسية من قواعد التفسير الإسلامى للتاريخ.

٢١ ـ التأكيد على أنه إذا كانت المبـادئ والأسس الثابتة، فإن الإسلام يسمح باختلاف النمـاذج والأنماط للطبائع الإنسانية فى إطـاره، كذلك يسمح باختلاف الوسـائل وأنماط الحركة فى خط سيـره، وفى أشكال الأوضاع الاجتماعية للحياة فى إطار المبادئ والثوابت.

٢٢ ـ التأكيد على أنه لا توجد فى الإسلام خـطيئة موروثة، وإنما هناك تبعة فردية، ومعصية، وتوبة بابها مفتوح على الدوام.

الأساس الرابع
طبيعة المجتمع والحياة فى التصور الإسلامى

فى هذا الجزء نتناول الأساس الرابع من الأسس التى يقوم عليها بناء المنهج فى التصور الإسلامى. وفى هذا الأساس نتناول أهم المفاهيم التى يقوم عليها بناء المجتمع الإسلامى، ونبدأ ببيان مفهوم الدين فى التصور الإسلامى:

مفهوم الدين فى التصور الإسلامى:

الدين فى التصور الإسلامى هو المنهج أو النظام الذى يوجه كل شؤون الحياة. فالإسلام - مثلا - عقيدة وشريعة؛ أى أنه تصور اعتقادى ينبثق عنه نظام أو منهج يحكم كل نشاط الإنسان فى الحياة الدنيا. وعلى هذا فكل «دين» هو منهج لحكم الحياة بما أنه تصور اعتقادى، وكل منهج لحكم الحياة هو «دين». فدين جماعة من البشر هو المنهج الذى يصرف حياة هذه الجماعة[1]. مع شمول المفهوم للإيمان والاعتقاد فى القلب، والسلوك فى الواقع وفقا لذلك».

غير أنه إذا كان المنهج الذى يصرف حياة هذه الجماعة من صنع الله ـ أى منبثقا من تصور اعتقادى ربانى ـ فهذه الجماعة فى «دين الله». وإن كان المنهج الذى يصرف حياة هذه الجماعة من صنع الملك ـ أو الأمير أو القبيلة، أو الشعب ـ أى منبثقا من مذهب أو تصور أو فلسفة بشرية ـ فهذه الجماعة فى «دين الملك» أو «دين الأمير» أو «دين القبيلة» أو «دين الشعب» وليست فى «دين الله»؛ لأنها لا تتبع منهج الله المنبثق ابتداء من دين الله، دون سواه»[2].

والمحدثون من أصحاب النظريات والمذاهب والفلسفات الاجتماعية لم يعودوا ينكرون أو يتحرجون من التصريح بهذه الحقيقة: وهى أنهم إنما يقررون «عقائد» ويريدون أخذ الناس بها فى واقع الحياة، وأنهم يريدون إحلال هذه العقائد الاجتماعية أو الوطنية أو القومية محل العقيدة الربانية!

---

(١) سيد قطب: المستقبل لهذا الدين، الطبعة التاسعة، بيروت، دار الشروق ١٤٠٨ هـ/ ١٩٨٨م، ص ١٣.

(٢) المرجع السابق ص ١٤.



فالديمقراطية - على سبيل المثال - ليست مجرد نظام سياسى، وإنما هى تصور اعتقادى، يقوم على أساس علمانى قومى وطنى، يفصل الدين عن الدولة وعن الحياة، على اعتبار أن ما لقيصر لقيصر، وما لله لله! وأن لله ملكوت السماء، وللإنسان ملكوت الأرض يتصرف فيها كيف يشاء بعيدا عن دين الله!.

«والشيوعية ليست مجرد نظام اجتماعى.. إنما هى كذلك تصور اعتقادى. تصور يقوم على أساس مادية هذا الكون، ووجود المتناقضات فى هذه المادية، هذه المتناقضات المؤدية إلى كل التطورات والانقلابات فيه، وهو ما يعبر عنه بالمادية الجدلية، كما يقوم على التفسير الاقتصادى للتاريخ، ورد التطورات فى الحياة البشرية إلى تطور أداة الإنتاج.... إلخ.. ومن ثم فهى ليست مجرد نظام اجتماعى، وإنما هى تصور اعتقادى يقوم عليه - أو يدعى أنه يقوم عليه - نظام اجتماعى... وذلك بغض النظر عما بين أصل التصور وحقيقة النظام الذى يقوم الآن من فجوات ضخام!»[1].

«كذلك سائر مناهج الحياة وأنظمتها الواقعية يسميها أصحابها «عقائد» ويقولون «عقيدتنا الاجتماعية» أو «عقيدتنا الوطنية» أو «عقيدتنا القومية».... وكلها تعبيرات صادقة فى تصوير حقيقة الأمر. وهو أن كل منهج للحياة أو كل نظام للحياة هو «دين» هذه الحياة. ومن ثم فالذين يعيشون فى ظل هذا المنهج أو فى ظل ذلك النظام.. دينهم هو هذا المنهج، أو دينهم هو هذا النظام.. فإن كانوا فى منهج الله ونظامه، فهم فى «دين الله».. وإن كانوا فى منهج غيره أو نظامه، فهم فى «دين غير الله»[2].

---

(١) المرجع السابق ص ١٤.

(٢) يراجع بتوسع معنى كلمة «دين» فى كتاب المصطلحات الأربعة للأستاذ أبو الأعلى المودودى.

مفهوم الحياة:

الحياة - في التصور الإسلامي - ليست هي هذه الفترة القصيرة التي تمثل عمر الفرد؛ وليست هي هذه الفترة المحدودة التي تمثل عمر الأمة من الناس؛ كما أنها ليست هي هذه الفترة المشهودة التي تمثل عمر البشرية في هذه الحياة الدنيا[1].

إن الحياة - في التصور الإسلامي - تمتد طولا في الزمان، وتمتد عرضا في الآفاق، وتمتد تنوعا في الحقيقة لتشمل الحياة الدنيا بكل أبعادها، والحياة الآخرة اللانهائية في آفاقها.

إن الحياة في التصور الإسلامي - تمتد في **الزمان** فتشمل فترة الحياة الدنيا المحدودة، وفترة الحياة الأخرى التي لا يعلم مداها إلا الله.

وتمتد في **المكان** فتضيف إلى هذه الأرض التي يعيش عليها البشر، داراً أخرى: جنة عرضها كعرض السموات والأرض؛ وناراً تسع الكثرة من جميع الأجيال التي عمرت وجه الأرض ملايين الملايين من السنين! قال تعالى:

﴿ ... وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٦٤) ﴾ [العنكبوت].

وتمتد في **العوالم**، فتشمل هذا الوجود المشهود إلى وجود مغيب لا يعلم حقيقته كلها إلا الله، ولا نعلم نحن عنه إلا ما أخبرنا به الله. وجود يبدأ من لحظة الموت، وينتهي في الدار الآخرة. وعالم الموت وعالم الآخرة كلاهما من غيب الله. وكلاهما يمتد فيه الوجود الإنساني في صور لا يعلمها إلا الله.

وتمتد الحياة في حقيقتها؛ فتشمل هذا المستوى المعهود في الحياة الدنيا، إلى تلك المستويات الجديدة في الحياة الأخرى... في الجنة وفي النار سواء... وهي ألوان من الحياة ذات مذاقات ليست من مذاقات هذه الحياة الدنيا... ولا تساوي الحياة الدنيا - بالقياس إليها - جناح بعوضة!

قال رسول الله ﷺ: **«لو كانت الدنيا تساوي عند الله جناح بعوضة ما سقى الكافر منها شربة ماء»** (أخرجه النسائي).

---

(١) سيد قطب: في ظلال القرآن، مرجع سابق، ص ١٠٦٨ - ١٠٧٠.

الاختلاف فى التصورات:

والإنسان المؤمن بالحياة الآخرة يمتد وجوده فى أبعاد الزمان والمكان والآفاق، ويتسع تصوره للوجود الإنسانى، ويتعمق تذوقه للحياة، وتكبر قيمه واهتماماته وطموحاته بقدر ذلك الامتداد فى الأبعاد والآفاق والأعماق. بينما الذين لا يؤمنون بالآخرة يتضاءل تصورهم للوجود الكونى، وتصورهم للوجود الإنسانى فى ذلك الحجر الصغير الضئيل من هذه الحياة الدنيا!

الاختلاف فى القيم والنظم:

ومن هذا الاختلاف فى التصور يبدأ الاختلاف فى القيم، ويبدأ الاختلاف فى النظم، ويبدأ الاختلاف فى العلم والمعرفة، ويبدأ الاختلاف فى الأخلاق والسلوك، ويبدأ الاختلاف فى الأهداف والطموحات. . . إلخ.

إن إنسانًا يعيش فى هذا المدى المتطاول من الزمان والمكان والعوالم والمذاقات، غير إنسان يعيش فى ذلك الحجر الضيق، ويصارع الآخرين عليه، بلا انتظار لعوض عما يفوته، ولا لجزاء عما يفعله وما يفعل به. . إلا فى هذه الأرض، ومن هؤلاء الناس!

قال تعالى:

﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾ [المؤمنون].

صلاح الأرض وفسادها:

إن الذين لا يؤمنون بالآخرة تفسد سلوكياتهم فى الدنيا، ويسعون فى الأرض فسادًا.

أما الذين يؤمنون باليوم الآخر تستعد نفوسهم للبذل والعطاء فى سبيل الحق والخير والإصلاح؛ لأنهم يرجون من الله العوض والجزاء.

إنهم لا يتركون الأوضاع تسوء وتنحرف؛ لأنهم يعلمون أن سكوتهم على فسادها يحرمهم خيراتها فى الدنيا، ويحرمهم العوض فى الآخرة، فيخسرون الدنيا والآخرة معا!



إن الذين يعيشون سلبيين، ويدَعون الفساد والشر والظلم والطغيان والتخلف والجهالة تغمر حياتهم، هم الذين انحرف تصورهم للإسلام، وضعف وتزعزع يقينهم فى الآخرة.

قال تعالى:

﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ ﴾ [المؤمنون].

الدنيا والآخرة ليسا بديلين ولا نقيضين:

إن الدنيا - فى التصور الإسلامى - ليست بديلا للآخرة، ولا الآخرة بديلة للدنيا. فالدنيا - فى التصور الإسلامى - هى مزرعة الآخرة. والجهاد فى الحياة الدنيا لإصلاح هذه الحياة، ورفع الشر والفساد عنها، ورد الاعتداء عن سلطان الله فيها، ودفع الطواغيت، وتحقيق العدل والخير للناس جميعا... كل أولئك هو زاد الآخرة؛ وهو الذى يفتح للمجاهدين أبواب الجنة، ويعوضهم عما فقدوا فى صراع الباطل، وفى دفع أذى الطغيان.

قال تعالى:

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾ ﴾ [الزلزلة].

إن المسلم الحق يعيش هذه الحياة الدنيا، وهو يشعر أنه أكبر منها وأعلى...

ويستمتع بطيباتها، أو يزهد فيها، وهو يعلم أنها حلال فى الدنيا خالصة له يوم القيامة...

ويجاهد لترقية هذه الحياة وتسخير طاقاتها وقواها وهو يعرف أن هذا واجب الخلافة عن الله فيها.

ويكافح الفساد والشر والظلم محتملا الأذى والتضحية حتى الشهادة وهو إنما يقدم لنفسه فى الآخرة...

قال تعالى:

﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ [الحجر].

إنه يعلم أن ليس هناك طريق للآخرة لا يمر بالدنيا؛ وأن الدنيا صغيرة زهيدة ولكنها من نعمة الله التى يجتاز منها إلى نعمة الله الكبرى. . .

قال تعالى:

﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ (٣٩) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ (٤٠) ﴾ [النجم].

من أجل ذلك كله لا تستقيم الحياة الإسلامية بدون يقين فى الآخرة. ومن أجل ذلك كله كان هذا التوكيد فى القرآن الكريم على حقيقة الآخرة[1].

قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤٧) ﴾ [الأعراف].

وكل شأن من شؤون الحياة ينبغى أن يسير وفق منهج الله. فسياسة الاقتصاد والمال، ونظام السياسة، ونظام الأسرة، وجميع ألوان التشريعات المدنية والإدارية، يجب أن تسير وفق هذا المنهج حتى تكون الحياة إسلامية حقا. إن الضابط الوحيد للحركة البشرية، والتطورات الحيوية، حتى لا تمضى شاردة على غير هدى، هو أن تسير كل هذه الأوضاع وفق الحقائق والمعايير والقيم الإلهية الثابتة. ومع اعتبار الخبرات الإنسانية المتغيرة تبعا لمقتضيات الزمان والمكان والناس:

﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ... (١٥٣) ﴾ [الأنعام].

تربية الإنسان وعمارة الأرض:

لا شك أن هناك علاقة ضرورية بين إعداد الإنسان وتربيته وفق منهج الله وبين عمارة الأرض وترقية الحياة على ظهرها[2].. ويمكن تأصيل هذه العلاقة من عدة جوانب:

---

(١) مستخلص من كتاب «فى ظلال القرآن» للأستاذ سيد قطب، جـ٢، ص١٠٦٨ - ١٠٧٠.

(٢) هذه العلاقة يشار إليها هذه الأيام عادة بـ«التربية والتنمية» وهى عبارة قاصرة عن إدراك المعانى التى نتحدث عنها هنا.

الجانب الأول:

أن الله قد كرم الإنسان وجعله مفضلا على كثير من مخلوقاته:

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾ [الإسراء].

وسخر له كل ما فى السموات وما فى الأرض لخدمته:

﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ... ﴿١٣﴾﴾ [الجاثية].

الجانب الثانى:

أن الإنسان ليس مستهلكا فقط، بل هو منتج لنفسه ولغيره، فالأمة التى يعمل أبناؤها بجد وإتقان - ولا أقول يحسن أبناؤها العمل، فالإحسان فى العمل أدق وأشمل من مجرد الجد والإتقان فيه - تكفى نفسها وتصدر فائض إنتاجها للآخرين من الجهلة والكسالى والمتواكلين. والأمثلة على ذلك كثيرة: فألمانيا بدأت من الصفر بعد الحرب العالمية الثانية، وهى الآن من أقوى الدول اقتصاديا على الأقل، واليابانيون وصلوا بجدهم وإتقانهم إلى درجة أن حولوا العالم كله إلى سوق لتصريف منتجاتهم، والصين وكوريا وتايوان وغيرهم فى سباق على نفس الطريق.

الجانب الثالث:

هو أن الله قد أودع الإنسان طاقات كثيرة، منها ما هو ظاهر ومنها ما هو خفى، ليستخدمها فى العمارة وترقية الحياة. كما أنه قد أودع الكون من الخيرات ما يكفى حاجة البشر وزيادة، وما الندرة النسبية للموارد الطبيعية إلا نتيجة للفقر فى استخدام الطاقات الإنسانية بكفاءة وفاعلية فى استخراج طاقات الكون، وكنوزه المذخورة فيه.

طبيعة المجتمع الإسلامى:

ويسود الحياة - عموما - نظامان متكاملان: نظام اجتماعى، ونظام معرفى.

وهذا يحتم علينا ضـرورة تحديد طبيـعة المجتمع الإسـلامى، وطبيعة المعـرفة التى يجب أن تسود هذا المجتمع. وفيما يلى نفصل القول فى القضية الأولى.

مكونات المجتمع:

لقد فطر الله الإنسان على الاجتمـاع، فليس بوسع إنسان أن يعيش وحده، أو ينفرد بنفسـه انفرادا تاما. وليس هناك حادثة نفسـية واحدة يمكن أن تتم دون أن تكون لها صلة بأفراد المجتمع الذى يعيش فـيه الإنسان، فكل حادثة نفسية، لا بد لها من مجـال اجـتماعى تتم فيه، والعكس صحيح أيضا، فكل حادثة اجتماعية لا بد لها من أصل نفسى[1].

وعلى هذا الأساس فإن المجتمع الإنسانى يتكون من أربعة عناصر:

الأول: هو الأفراد الذين يكونون الجماعة.

الثانى: هو ما ينشأ بالضرورة من صلات بين أفراد الجماعة، فالجماعة نسيج مكون من صلات اجتماعية.

الثالث: هو النظام، فالصلات الاجتمـاعية تنظم وتنسق وفق نظام غايته أن يضبط سلوك الجماعة ويوجهه الوجهة المنشودة.

الرابع: هو العقـيدة، وهى أعظم العناصر المكونة للمجـتمع على الإطلاق، وأكثرها خطرا، ذلك أنها تحكم فيها كلها، وتوجهها جميعا الوجهة التى ترضاها، فهى التى تحدد الصلات الاجتماعية، وهى التى توجد الشعور بالانتماء، وهى التى ترسم نهج السلوك، وهى التى تضع قـواعد المجتـمع، وتقيم نظمـه، وتهدى إلى مثله.

---

(١) محـمد أمين المصرى: المجتـمع الإسلامى، الكويت، دار الأرقم، ١٤٠٠هـ/ ١٩٠٠م، ص ٨ ـ ٩.

والعقيدة تتمثل فى شريعة الله، كما هو الحال فى الإسلام. كما تتمثل فى الفلسفات الوضعية، والنظريات التى توجه الفكر والسلوك العملى فى كثير من المجتمعات الأخرى.

المجتمع الإسلامى والمجتمعات الأخرى:

المجتمع الإسلامى مجتمع متفرد بنظامه الخاص، الذى لا يتفق فى شىء مع النظم الاجتماعية الأخرى التى عرفتها البشرية، فبينما عرفت البشرية نظم الرق، فالإقطاع، فالرأسمالية، فالاشتراكية، فالشيوعية ـ التى لم تتحقق فى واقع الحياة بعد، ولن تتحقق أبدا، لأنها تتصادم مع مقتضيات الفطرة فى الطبيعة الإنسانية ـ وهى نظم أقامها بعض العباد لبعض، فإن المجتمع الإسلامى هو مجتمع ربانى، يقوم على شريعة محكمة من عند الله، قوامها كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ.

وبالرغم من أن هناك بعض أوجه الشبه بين النظام الإسلامى وبين النظامين الرأسمالى والاشتراكى، كحق الملكية الفردية، وحق الاستثمار الفردى، وحق الإرث فى النظام الأول، وكضرورة ضمان حد أدنى لائق للأفراد فى التربية والعمل والمسكن والصحة، وعدم القضاء المطلق على الملكية الفردية، والتقريب بين طبقات المجتمع.. إلخ. فى النظام الثانى ـ بالرغم من أوجه الشبه هذه، إلا أنها ظواهر جزئية تقوم على أصول مختلفة، بل ومتناقضة. فالربا والاحتكار ـ مثلا ـ قاعدتان أساسيتان من قواعد الملكية الفردية، ومن قواعد الاستثمار الفردى والجماعى فى النظام الرأسمالى. والربا والاحتكار محرمان تحريما قاطعا فى النظام الإسلامى.

والنظام الاجتماعى فى الإسلام قائم على أصول ربانية تضمنتها الشريعة الإسلامية يوم جاءت قبل أكثر من أربعة عشر قرنا. فهو مجتمع قائم على هذه الشريعة، وليس نتيجة للتطورات الاجتماعية أو تابعا لها، كما هو الحال بالنسبة للنظم الأخرى.

فإذا كانت النظم البشرية قد نشأت نشوءا قاصرا، ثم تطورت وفقا لحاجات أرضية واقعية، وثمرة لصراع بين الطبقات والمصالح المتعارضة داخل المجتمعات البشرية، فإن شريعة الله، التى قام على أساسها المجتمع الإسلامى «وجدت كاملة منذ نشأتها غير مدرجة تدرجا تاريخيا»[1].

«ومن ثم كانت جميع الأحكام والقوانين التى تنطبق على نشأة النظم الاجتماعية الغربية وتطورها غير منطبقة على المجتمع الإسلامى، لاختلاف نشأته عن نشأة تلك النظم، ولاختلاف القاعدة التى ترتكز عليها نشأته، ولاختلاف القانون الذى يحكم نموه وتطوره».

وإذا كانت المجتمعات القائمة على تشريعات وضعية تقوم فترة من الزمان ثم تنتهى، فإن المجتمع الإسلامى الذى عاش أربعة عشر قرنا من الزمان، سيعيش، بل سيكون هو المجتمع المستقبل، «لأن سياج الشريعة سيظل يحرس هذا المجتمع، مهما كانت قوة عوامل المقاومة والعداء»[2].

وإذا كانت المجتمعات البشرية القائمة على تشريعات وقوانين وضعية ومؤقتة هى مجتمعات محلية، وقومية، وعنصرية، قائمة على أساس الحدود الجغرافية، فإن المجتمع الإسلامى هو مجتمع عالمى مفتوح لجميع بنى الإنسان دون نظر إلى جنس أو لون أو لغة، «بل دون نظر إلى دين أو عقيدة»، فغير المسلمين يعيشون مع المسلمين فى ظل المجتمع الإسلامى، على أن لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم.

وعالمية الدعوة الإسلامية، وبالتالى النظام الاجتماعى القائم عليها، مقررة بوضوح فى قوله تعالى:

﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ (٢٧)﴾ [التكوير].

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ (١٠٧)﴾ [الأنبياء].

---

(١) سيد قطب: نحو مجتمع إسلامى، ط ٦، بيروت، دار الشروق، ١٤٠٣ هـ/ ١٩٨٣، ص ٦٣.

(٢) المرجع السابق: ص ٦٤.

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً ... ﴿٢٨﴾ ﴾ [سبأ].

وأخيـرا، فإن أهم ما يجب أن يظل ماثلا فـى الذهن هنا حقيقـتان: الأولى هى أن مبـادئ الإسلام العليا «التى تـسبق اليوم آخـر ما وصلت إليه البـشرية فى خلال أربعة عشـر قرنا، كانت قائمة فيه منذ الـيوم الأول. وأنه منذ ذلك اليوم قد أخذ بيد البشرية فى طور التقى إلى الآفاق المرسومة خطوة خطوة فكان التطور، لا فى مـبـادئه وأهدافـه، ولكن فى قـرب البشـرية يومـا بعـد يوم من هذه المبـادئ والأهداف. وهذا ما ينفى فكرة التطور التاريخى من أساسـها، بالقياس إلى الفكرة الإسلامية، وإلى نظام المجتمع الإسلامى»[1].

الحقيقـة الثانية التى يجب أن تظل ماثلة فى الذهن ـ كما يقول الأسـتاذ سيد قطب ـ هى «أن النظام الإسـلامى ليس هو الرق، ولـيس هو الإقطاع، وليس هو الرأسمالية، وليـس هو الاشتراكية، وليس هو الشيوعـية. إن النظام الإسلامى هو فقط، النظام الإسلامى»[2].

مقومات المجتمع الإسلامى:

إذن فالقـاعدة الأساسـية التى يقوم عليـها المجتـمع الإسلامى هى أنه نظام ربانى، عالمى، يقـوم على أساس القـواعد العامة والأصـول الكلية لشـريعة الله، والمنصوص عليـها فى كـتاب الله وسنة رسوله ﷺ. ومن هـذه القاعدة العـريضة للنظام الاجـتماعى الإسـلامى تنبثق أربعـة مقومـات رئيسـية يعتـمد عليـها البناء الاجتماعى كله، وتؤثر فى كل خلاياه وجزئياته الداخلية، وهذه المقومات أو العمد الأربعـة هى: العلم، والعدل، والـعمل، والحـرية المنضبطـة بقواعـد منهج الله، ونتناول كل مقوم من هذه المقومات الأربعة بشىء من التفصيل فيما يلى:

---

(١) المرجع السابق، ص ٧٥.

(٢) المرجع السابق ص ٩١.

أولا - العلم:

العلم شعـار الإسلام وفطرة الله فى الإنسـان. فالإنسان هو خليـفة الله فى الأرض ليعـمرها ويرقيهـا وفق منهج الله. وهى منزلة اشرأبت لها أعناق الملائكة - كما يقول الدكـتور يوسف القرضاوى - وتشوفت إليهـا نفوسهم، فلم يعطوها، ومنحها الله للإنسان[1].

وعمارة الأرض وترقيتها لا تكون إلا بالعلم؛ ولذلك عندما أراد الله أن يعد الإنسان لحمل أمانة تنفيذ منهجه فى الأرض، هيأه له بالعلم:

﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣١) قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢) قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ (٣٣) ﴾ [البقرة].

ولا عجب فى أن العلم هو شعـار الإسلام الأول، فأولى الآيات التى نزلت على رسول الله ﷺ هى:

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥) ﴾ [العلق].

كمـا جعل الإسلام طلب الـعلم فريضة، وطالب العلـم مجاهد فى سـبيل الله، كما أكـد الإسلام هذا الشعار فى كل مـناسبة حتى يذكر الإنـسان، ويحرك أحاسيسـه، ويثير مشاعره كلما تبلد أو ابتـعد عن منهج الله. والآيات والأحاديث فى ذلك أكثر من أن تحصى فى هذا المقام.

أما كون العلم فطرة الله فى الإنـسان، فهذا يمكن فهمـه من القرآن فى قوله تعالى:

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢) ﴾ [الأعراف].

---

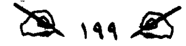
(١) يوسف القرضاوى: الخصائص العامة للإسلام، ط ٣، القاهرة. مكتبة وهبة.

فالآية ترجع مسألة العلم بوحدانية الله، والاعتراف بربوبيته إلى الفطرة التى فطر الله الناس عليهـا، وأخذ بها عليهم الميثاق فـى ذات أنفسهم وذات تكوينهم. ولقد شهد الكيان البشرى على نفسـه بهذه الحقيقة. وذلك بحكم وجوده، فوجوده يعنى هذه الحقيقة.

فإذا كـان العلم بوحدانية الله، والاعتـراف بربوبيته - وهمـا غاية كل علم - فطرة فى الكيـان البشـرى، فإن تعلم كل العلوم القـديمة والحديثـة يجب أن تكون الغـاية منه هى الحـفـاظ على فطرة الله فى الإنسـان، وحـتى الرسـالات والكتب السماوية مـا هى إلا تذكير وتحذير وتقويم لمن ينحرفـون عن فطرتهم الأولى، فقد اقتـضت رحمـة الله ألا يكل الناس إلى أنفسـهم، فقد تنحـرف عن الفطرة، وألا يكلهم إلى عقولهم فقد تضل، وأن يبعث إليهم رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل.

هنا يأتى دور المناهج التـربوية، فالعلم ليس غاية فـى ذاته، وإنما هو وسيلة للحـفاظ على فطرة الله فى الإنسـان حتى لا تنحـرف عن العلم بوحدانيـة الله، والاعتـراف بربوبيته، والمعـرفة ما هى إلا وسـيلة لإقدار الإنسان على القـيام بحق الخلافة فى الأرض بإيجابية وفاعلية، فالتقاعس عن التعليم والتعلم، وانتشار الجهل هما سـير ضد الفطرة التى فطـر الله الناس عليها، وضـد مقتـضيات القـيام بحق الخلافة فى الأرض؛ لأنهـا سبيل الخراب والتخلف لا العـمار والرقى. وهنا ترتبط قضـية العلم، بقضـية الإيمان بالألوهية والوحـدانية، وبقضـية خلافـة الإنسان فى عمارة الأرض وترقيـتها برباط واحد، وأى منهج للتربية لا تظهر فـيه هذه العلاقة الوطيدة فهو منهج منحرف، ولا علاقة له بالإسلام.

والخلاصة أن المجـتمع المسلم يتخذ العلم وسيلة للـحفاظ على فطرة الله فى الإنسان وهى العلم بالألوهية والوحدانية، والاعتـراف بالربوبية، كما يتخذه وسيلة لإقدار أبنائه على المساهمة بإيجابية وفاعليـة فى عمارة الأرض وترقيتها وفق منهج الله.



المعرفة:

المعرفة هى فهم منهج الله ومقتضيات تطبيقه فى واقع الحياة وهى على هذا النحو وسيلة للوصول إلى الحكمة وهى ـ ككل شىء آخر فى الكون ـ من خلق الله، يهبها لمن يأخذ بأسبابها:

﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ... ﴿٢٦٩﴾﴾ [البقرة].

﴿... وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾﴾ [البقرة].

والحكمة هى فهم طبيعة التصور الإسلامى للكون، والإنسان، والحياة، وفهم طبيعة العلاقات والارتباطات بينها، ولذلك فالحكمة قرينة المعرفة، وإحدى نتائجها.

ويتلقى الإنسان معرفته من الوحى والنص، ومن الكون والحياة، فالإسلام يرد كل شىء ابتداء إلى إرادة الله وتدبيره، ويرد الخلق كله بما فى ذلك الكون، والإنسان، والمعرفة إلى إرادة الله الواحد. ومن ثم فلا تناقض فى أن يكون الكون أو «الطبيعة» وأن تكون الحياة بأوضاعها السياسية والاقتصادية والاجتماعية مصدرا آخر للمعرفة بجانب الوحى، وعن طريق العقل، وسائر المدارك والطاقات فيه، باعتبار أن هذا كله من صنع الله.. فهى من عنده، كما أن الوحى من عنده أيضا.

ولكى يقوم الإنسان بحق الخلافة كاملا، لا بد من إعداده وتربيته من خلال مناهج مخططة ومنظمة لهذا الغرض. فوظيفة التربية إذن، إيصال المربى إلى درجة الكمال التى هيأه الله لها. فالتربية هى حيثية إيماننا بألوهية الله. فنحن آمنا بالله معبودا، لأننا آمنا به ربا؛ ولذلك يقول الحق ـ سبحانه ـ حين يطلب منا أن نوجه الحمد لصاحب النعمة: «الحمد لله» وحيثية ذلك أنه «رب العالمين»[1].

---

(١) محمد متولى الشعراوى: منهج التربية فى الإسلام، القاهرة، دار المسلم، بدون تاريخ. ص ١١ ـ ١٢.

مفهوم التربية:

التربية فى التصور الإسلامى هى «عملية متشعبة، ذات نظم وأساليب متكاملة، نابعة من التصور الإسلامى للكون، والإنسان، والحياة، تهدف إلى تربية الإنسان، وإيصاله ـ شيئا فشيئا ـ إلى درجة كماله، التى تمكنه من القيام بواجبات الخلافة فى الأرض، عن طريق إعمارها، وترقية الحياة على ظهرها وفق منهج الله»[1].

ويتم تنفيذ هذا المفهوم عن طريق عملية التعليم والتعلم، فالتعليم وسيلة، والتعلم غاية؛ لأنه تعديل فى السلوك فى الاتجاه المنشود، فكل عمل تعليمى جيد لا بد أن يكون له هدف تربوى فى نفس الاتجاه.

وكما أن التعليم وسيلة للتربية، فالعلم أيضا وسيلة للتربية، فالتربية علم إخبار، حيث إنها إخبار عن الحقائق الكلية والمعايير والقيم الإلهية الثابتة التى يتلقاها الإنسان. فيسلم بها، ويتكيف معها. وهى أيضا علم حيث إنها معرفة بقوانين الله فى الكون التى تم اكتشافها من قبل.

والتربية علم إنشاء، من حيث إنها محاولة للكشف عن «الحقيقة» والبحث عن «الحكمة» والوصول إلى القوانين والسنن التى خلق الله الكون عليها، ولم تكتشف بعد، فالتربية هنا علم من علوم «البحث» و«مناهج البحث» التى تعين الإنسان على الاكتشاف، والاختراع، والإبداع.

ويدخل فيها «العلم» فى العلوم الإنسانية، التى تكتسب فيها المعرفة عن طريق الملاحظة، والتفكير والإلهام. ويدخل فيها «العلم» فى العلوم الطبعية والمادية، والذى يقصد به الوصول إلى قوانين الله، وسننه، ونواميسه فى الكون بالمشاهدة، ثم بالتجربة، ثم بالتطبيق والتعميم.

---

(١) على أحمد مدكور: منهج التربية أسسه وتطبيقاته، مرجع سابق، ص٩٠.

والتربية ليست «علما» فقط، بل هى أيضا «فن» والتربية كفن، تهدف إلى الوصول بالمربى إلى درجة الإتقان أو الإحسان فى الأداء، فقيمة كل إنسان بما يحسن. والوصول بالإنسان إلى درجة أن يكون محسنا، هو أعلى درجات الفن، وأرقى ما يهدف إليه العمل التربوى، حيث إن ذلك يعنى الكفاءة فى الأداء ومراقبة الله فيه فى نفس الوقت.

والتربية «صناعة» كما يقول ابن خلدون، فهى عملية ذات قواعد وأصول، تسير وفق منهج، لتحقيق أهداف معينة. والتربية - بهذا المعنى - مهنة، أو صناعة تهدف إلى إقدار المتعلم على عمل معين، بحيث يتناوله بالتغيير والتعديل والتطوير والمعالجة ليصبح على شكل معين[1].

العلم وتعليم الكبار:

إن بداية الوحى على رسول الله ﷺ بقول الله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1)﴾ [العلق] «هو حادث ضخم بحقيقته، وضخم بدلالته، وضخم بآثاره فى حياة البشرية جميعا... وهذه اللحظة التى تم فيها هذا الحادث تعد - بغير مبالغة - هى أعظم لحظة مرت بهذه الأرض فى تاريخها الطويل»[2]؛ ولهذا فليس من المبالغة القول بأن العلم هو شعار الإسلام الأول.

ولقد رفع الإسلام - من اللحظة الأولى - شعار العلم لتحقيق الفطرة، فالعلم فطرة الله فى الإنسان، وهذا واضح فى قول الحق - تبارك وتعالى:

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ (172)﴾ [الأعراف].

فهذه الآية ترشدنا فى وضوح إلى مجموعة من الأمور أهمها ما يلى:

---

(١) انظر: مقدمة ابن خلدون: الباب السادس (فصل فى أن التعليم للعلم من جملة الصنائع).

(٢) سيد قطب: فى ظلال القرآن: مرجع سابق، مجلد ٦، ج ٣٠، ص ٣٩٣٦.

أولا: أن العلم بالألوهيـة والوحدانيـة ـ وهو غـاية كل علم ـ فطرة الله فى الإنسان، وأن الانحراف عن هذا العـلم هو انحراف عن فطرة الله التى فطر الناس عليها؛ ولهذا يجب مقاومته بجميع الوسائل لرد الإنسان إلى الفطرة.

ثانيا: يترتب على أولا: أن الأخذ بأسباب العلم فريضة لازمة لتأكيد الفطرة والحفـاظ عليها وعدم الانـحراف عنها. لأن الانحراف عنهـا يتبعـه الانحراف عن الإيمان بوحدانية الله، وما يترتب عليـه من انحراف الإنسان عن وظيفته، ألا وهى عمارة الأرض وترقيتها وفق منهج الله.

ثالثا: وبما أن العلم فطرة الله فى الإنسان، وهو سـبيل الإنسان إلى مـعرفة الله وخشيته ﴿ ... إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ... ﴿٢٨﴾ ﴾ [فاطر]، وهو وسيلته إلى عمـارة الأرض وترقيتهـا، فإنه لا سبيـل إلى ذلك إلا بالاستمرار فى عـملية التعليم والتعلم من الصغر إلى الكبر.

إن حاجات الحياة متغيرة متجددة بتـغير الحياة نفسها. وهذا يتطلب ـ بطبيعة الحال ـ استمرار الإنسان فى التعلم لينفض عن نفـسه، وعن مشاعره، ما يكون قد علق بها من صـدأ أو بلادة، نتيجـة الانغماس فى الحـياة تحت وطأة قبـضة الطين ومطالبها.

رابعا: أن عمارة الأرض وترقيـة الحياة على ظهرها، عملية مسـتمرة دائمة. وهى بالتالى تطلب معلومات ومهارات مـتجددة، وهذا كله يتطلب التربية والتعلم والتدريب للكبـار بصفة دائمة ومسـتمرة: إن الإنسان الذى يقـوم بحق الخلافة فى الأرض، هو الذى يأخـذ بكل الأسبـاب التى تساعـده فى أداء هذه الغاية بطريـقة حـسنة. فـالمسلم مطالب بحسـن الأداء، لا بمجـرد الأداء. وهذا يتطلب أن يكون الإنسان متجددا ومـترقيا وملما بكل ما يجد فى ميدان عـمله من معارف وخبرات ومهارات. إذن فـترقية الحيـاة وفق منهج الله تتطلب التربية المستـمرة، بل وحسن التربية.

أصول التربية ومصدرها:

تختلف مصادر منهج التربية فى الإسلام عن مصادر المناهج الأخرى، فمنهج التربية فى الإسلام يستمد أصوله وموجهاته من منهج الله الكلى للكون والإنسان والحياة، والمتمثل فى شريعة الله. أما معظم المناهج الأخرى فتستمد أصولها من الفلسفات والنظريات التابعة لها.

فالشريعة الإسلامية كفت القائمين على بناء منهج التربية فى الإسلام شر اللجوء إلى الفلسفات والنظريات البشرية. فالفلسفات يلجأ إليها غير المسلمين لعدم وجود شريعة عاملة لديهم. وفى ذلك يقول ابن عبد البر فى كتابه «جامع بيان العلم وفضله»: إن أهل الفلسفة قد قسموا العلوم إلى علم أعلى، وعلم أوسط، وعلم أسفل. وجعلوا الفلسفة هى العلم الأعلى؛ لأن هذا العلم عندهم يرتبط بأمور قد أغنت عن الكلام فيها كتب الله الناطقة بالحق، المنزلة بالصدق، وما صح عن الأنبياء صلوات الله عليهم[(١)].

إننا لا يجب أن نحيد عن القرآن والسنة كأصول وموجهات لمنهج التربية، فما ضياعنا إلا نتيجة مباشرة لهذا الحياد عن أصول منهج الله. ولقد كان المسلمون الأول يدركون هذه الحقيقة حتى أن عمر ـ رضى الله عنه ـ كما يقول ابن القيم ـ «كان يمنع الحديث عن رسول الله ﷺ، فكيف لو رأى اشتغال الناس بآرائهم، وزبد أفكارهم، وزبالة أذهانهم عن القرآن والحديث؟»[(٢)].

هذه هى طبيعة هذا المنهج، يجب أن نعرفها، وألا نحاول تغييرها لرغبات معجلة مهزومة أمام أزياء الفلسفات والنظريات البشرية. فهو بهذه الطبيعة صنع الأمة المسلمة أول مرة، وبها يصنع الأمة المسلمة فى كل مرة يراد فيها أن يعاد إخراج الأمة المسلمة للوجود كما أخرجها الله أول مرة:

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام].

---

(١) ابن عبد البر النمرى القرطبى: جامع بيان العلم وفضله، ج ٢، ص ٣٧ ـ ٣٨٧.

(٢) ابن القيم: أعلام الموقعين عن رب العالمين، مرجع سابق، ص ٣٧٦.

وتختلف مصادر العلم فى منهج التربية الإسلامية باختلاف نوع المعلوم، فالكون محسوس وغير محسوس، شهود وغيب، فالغيب مصدر العلم به هو الوحى الصادق من صاحب الغيب - سبحانه وتعالى -. وتحقيق هذا العلم يكون بتحقيق نسبة الخبر إلى الله عز وجل، والمحسوس سبيل العلم به الملاحظة، والتجربة، والخبر أيضا، ويكون تحقيق الخبر والاستقراء والاستنباط والملاحظة والتجربة(١).

فالعلم عن طريق الوحى، والعلم عن طريق العقل يتكاملان ولا يتعارضان، فالعقل الإنسانى قادر على التفاعل مع الكون والتأمل فيه. والتجريب على الأشياء الموجودة فيه، والمعرفة العقلية الصحيحة لا تقع خارج دائرة المعرفة التى تدعو إليها الشريعة، وصريح المعقول لا يتعارض مع صريح المنقول كما يقول ابن تيمية(٢).

والمعرفة الإنسانية فى منهج التربية فى الإسلام، كالعلم وسيلة وليست غاية فى ذاتها، فغاية المعرفة إقدار الإنسان على المساهمة بإيجابية وفاعلية فى عمارة الأرض وترقية الحياة على ظهرها وفق منهج الله. وتستند المعرفة الإنسانية فى منهج التربية فى الإسلام، إلى أصول ربانية، لا إلى فلسفات وضعية.

والفرق بين العلم والمعرفة - كوسائل للتربية - يرجع - كما يقول الراغب الأصفهانى - إلى أن المعرفة تستخدم للدلالة على ما تدرك آثاره وإن لم تدرك ذاته. أما العلم فلا يكاد يطلق إلا على ما تدرك ذاته؛ ولهذا يقال: إن الإنسان يعرف ربه، ولا يقال: إنه يعلم ربه. فكأن المعرفة تأتى من خلال التعامل غير المباشر بالموضوع المدرك، ومن هنا فإنها تكون أقل دقة فى العلم. ولهذا يوصف الحق - تبارك وتعالى - بأنه «عالم» ولا يوصف بأنه «عارف»(٣).

---

(١) محمد رشاد خليل، مرجع سابق، ص ٣٨ - ٣٩.

(٢) ابن تيمية: درء تعارض العقل والنقل، تحقيق محمد رشاد كامل، القاهرة، دار الكتب ١٩٧١ م، ص ١٩٨ - ١٩٩.

(٣) الراغب الأصفهانى: الذريعة إلى مكارم الشريعة، راجعه وقدم له: طه عبد الرؤوف سعد، القاهرة ، مكتبة الكليات الأزهرية، ١٩٧٣ م، ص ٨٣.



والعلم والمعرفة فى منهج التربية فى الإسلام لا بد أن يسيرا على تطبيق عملى. التطبيق العملى هذا لا بد أن يكون فى المربى الأسوة، بحيث لا يفهم المربى أن هناك علما تحشى به الرؤوس، وهناك سلوك آخر ينفصل عن مبدأ ذلك العلم. فإذا انفصل العلم عن أنماط السلوك المتصلة به، انهدرت قيمة العلم، وانهدمت قيمة المعرفة، وحينئذ يكون الفساد المطبق الذى يصعب بل يستحيل علاجه.

مفهوم التعلم:

التعلم هو تغير فى السلوك الإنسانى نتيجة للتعليم بوسائله المختلفة. والتعلم عملية تبدأ بدافع فكرى، أو بحاجة من حاجات النفس الفطرية أو المكتسبة، مادية كانت أو وجدانية، يصاحب ذلك عند الإنسان المسلم إحساس بحاجته إلى الاستعانة بهدى الله وعونه، هذا الإحساس، مع الاستعانة بهدى الله يدفعان الإنسان إلى النشاط، وبذل الجهد المناسب من أجل الوصول إلى إشباع الحاجة أو حل المشكلة، أى من أجل الوصول إلى الفهم، ثم يتعدل السلوك طبقا لهذا الفهم، وهنا نقول: إن الإنسان قد تعلم.

إذن فالتعلم يحدث وفقا للخطوات التالية:

١ ـ الإحساس بالحاجة أو بالمشكلة.

٢ ـ الاستعانة بهدى الله وعونه على قضاء هذه الحاجة أو حل هذه المشكلة.

٣ ـ بذل الجهد والنشاط المناسب للأخذ بالأسباب.

٤ ـ الوصول إلى الفهم الذهنى.

٥ ـ تحويل الفهم الذهنى إلى سلوك علمى.

وإسقاط أية خطوة من هذه الخطوات يخل بالعمل كله، ولا يوصل إلى التعلم. ومع ذلك فهناك شرطان أساسيان لحدوث التعلم فى منهج التربية فى الإسلام: الأول هو الاستعانة بهدى الله وعونه. فإن هذا الشعور والاتجاه لدى الإنسان يدفعه إلى التعرف على موجهات المنهج الإلهى فى العمل والنشاط،

فيسهل العمل، ويتم الفهم. والشرط الثانى لحدوث التعلم هو تطبيق الفرد وممارسته لما وعى وفهم، ويقول الحق - سبحانه - فى وصف المتقين:

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾﴾ [البقرة].

فالمتقون لا يوصفون بهذا الوصف إذا لم يتحول إيمانهم إلى حركة ونشاط فى واقع الأرض.

وسائل التعلم:

أما الوسائل والمناشط التى تؤدى إلى التعلم فهى أربع، وهى من البسيط إلى المعقد على النحو التالى:

الوسيلة الأولى: هى الأخذ بما يدور على ألسنة الناس، والاعتقاد بأنه الحق وهذا هو أسلوب العلوم من البشر.

والوسيلة الثانية: هى الخبرة المباشرة، وتسمى أحيانا بأسلوب التعلم الفطرى. وبها يتعلم الإنسان عن طريق المحاولة والخطأ، والملاحظة، والتجربة، واستخدام الحواس:

﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [النحل].

والوسيلة الثالثة: الخبرة غير المباشرة ويسميها الغزالى «التفكير» ويحدث إذا غلب نور العقل على أوصاف الحس. هنا يستغنى المتعلم بقليل من التفكير عن كثير من إدراكات الحواس.

والوسيلة الرابعة: هى «الإلهام» والإلهام هو تنبيه الله للنفس الإنسانية، وإلهامها بالأفكار والعلاقات على قدر صفاتها وقبولها وقوة استعدادها، ومقدار سعيها، وتعلم الإنسان عن طريق الإلهام واضح لا يحتاج إلى دليل فى قوله تعالى: ﴿... وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾﴾ [البقرة].

فالآية دعوة صريحة إلى المؤمنين بتقوى الله، فهو الذى يعلمهم ويرشدهم، وإن تقواه تفتح قلوبهم للمعرفة، وتهيئ عقولهم للتعلم.

ويؤكد هذا الأسلوب أيضا، قول الحق تبارك وتعالى:

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ ﴾ [الشمس].

فالإلهام إذن وسيلة من وسائل تعلم الإنسان عن طريق القوة الكامنة التى أودعها الله فى النفس لتوجيه استعداداتها وطاقاتها المدركة على طريق الخير أم إلى طريق الشر سواء.

التطبيق غاية العلم والمعرفة:

إن حديث «**من قال لا إله إلا الله دخل الجنة**» حديث صحيح، لكن حقيقة «لا إله إلا الله» التى تدخل الجنة، هى صلتها التى لا تنفصم عن الحكم بما أنزل الله. وتطبيق شريعة الله ومنهجه؛ ولذلك كان من أنواع الشرك التحاكم إلى غير شريعة الله.

وكان الوحى قاطعا فى رده على المنافقين: إن كنتم مؤمنين حقا فآية إيمانكم هى تنفيذ أحكام الله:

﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ [النساء].

وينعى القرآن على فئة من المؤمنين يقولون ما لا يفعلون، ويصف هذا السلوك بأنه ممقوت عند الله:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [الصف].

إن منهج التربية فى الإسلام لا توجد فيه تلك الفجوة المعهودة بين العلم والعمل، أو بين المثال والواقع، أو بين النظرية والتطبيق، فالإسلام منهج واقعى، قابل للتطبيق الكامل فى عالم الواقع، وقد طبق بالفعل على مدى قرون كثيرة فى

عالم الواقع، وأنشأ حضارة زاهرة، عم خيرها على البشر كلهم، فالإسلام نظام لا يفرق بين المثال والواقع، لأن مثله موضوعة بحيث يستطيع البشر تطبيقها:

﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا ... ﴿٢٨٦﴾﴾ [البقرة].

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ... ﴿١٦﴾﴾ [التغابن].

لا بد أن تكون المناهج الدراسية نظرية وعملية معا، لا نظرية فقط، وأن ترتبط مناهج الرجال بالورش والمصانع والمزارع، وأن ترتبط مناهج البنات بإدارة البيوت وتربية الأطفال، ومدارس البنات، ومستشفيات أمراض النساء.. إلخ، وبذلك يتعلم الجميع حيث يعملون، ويعملون حيث يتعلمون.

العلم والمعرفة وقيادة الإنسانية:

إن الإسلام هو النظام أو المنهج الذى يحكم الحياة، وقد أنزله الله سبحانه؛ لتكون له السيادة، وتحكم به الأرض. لكن سنة الله فى الكون تقتضى أن يسود الإسلام ويحكم العالم، حينما يكون المسلمون أقدر من غيرهم على عمارة الأرض وترقية الحياة على ظهرها بالكشف عن سنن الله وقوانينه فى الكون، التى هى العلم، ومعرفة تطبيقاتها فى واقع الحياة، التى نعبر عنها بالتقانة. وحينما يكون المسلم مثلا يحتذى فى الأخلاق والسلوك. عندئذ يكون المسلمون قلب العالم، وقادة القافلة الإنسانية، هذا ما حدث. وما نرجو أن يحدث مرة أخرى.. سنة الله، ولن تجدوا لسنة الله تبديلا.

إذن، فالعلاقة قوية بين استخدام قوى الإدراك الظاهرة والخفية التى أودعها الله فى الإنسان، للكشف عن سنن الله فى الكون وتطبيقاتها فى واقع الحياة - التى نعبر عنها بالعلم والتطبيقات التقانية - وبين قيادة القافلة الإنسانية أو السير تبعا لذيلها!

﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [النحل].



إن هذه العلاقة تكمن ـ كما يقول الأستاذ أبو الأعلى المودودى ـ فى سر هذه الكلمات الثلاث: «السمع» و«البصر» و«الفؤاد»[1]. إن هذه الكلمات لم ينزل بها الوحى فى كتاب الله لتعنى فقط مجرد القدرة على السمع والرؤية والتفكير؛ لأن «السمع» معناه هنا استخدام هذه الطاقة بفاعلية وكفاءة لإحراز العلم والمعرفة التى اكتسبها الآخرون و«البصر» معناه تنميتها بما يضاف إليها من ثمرات الملاحظة والتجربة والبحث، و«الفؤاد» معناه تنقيتها من أدرانها وأوشابها، ثم استخلاص النتائج منها، وتقويمها وترقيتها.

إن هذه القوى الثلاث «السمع، والبصر، والفؤاد» إذا ما تضافرت بعضها إلى بعض، نجم عنها ذلك «العلم» وتلك «المعرفة» اللذان منَّ الله بهما على بنى آدم، وبهما استطاع الإنسان أن يتعامل مع سائر المخلوقات ويسخرها لإرادته.

ولو أردت التعمق فى تأمل هذه الحقيقة لاهتديت فى النهاية إلى أن هؤلاء الذين لا يستخدمون هذه «القوى» أو يستخدمونها فى حدود ضيقة هم الذين كتب عليهم العيش فى حالة من التأخر والانحطاط تحت كنف الآخرين وسلطانهم، أما الذين يوظفون هذه «القوى» بكفاءة وفاعلية، فهم ـ على العكس ـ يظفرون بالسيادة والسيطرة، وهم الذين يصبح لهم حق قيادة البشرية وتوجيهها[2].

ومجمل القول: «إن زعامة الجنس البشرى، والأخذ بقياده إلى الخير أم إلى الشر إلى الجنة أم إلى النار، من نصيب هؤلاء الذين يتفوقون على سواهم فى الانتفاع بنعم «السمع والبصر والفؤاد» تلك سنة الله فى الخلق ﴿... وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً ﴿٦٢﴾﴾ [الأحزاب] ولا تحويلا، وأيما جماعة من البشر ـ بغض النظر عن كونها ربانية مؤمنة، أو كافرة ملحدة ـ تحقق الغاية من هذه المنح الإلهية، فإنها من

---

(١) أبو الأعلى المودودى، المنهج الإسلامى الجديد للتربية والتعليم، جمعه وقدم له، وعلق عليه: محمود مهدى الاستانبولى/ ط٢، بيروت المكتب الإسلامى، ١٤٠٢ هـ/ ١٩٨٢م. ص٧.

(٢) المرجع السابق، ص ٨ ـ ٩.

غير شك تتولى زعامة غيرها من الشعوب، فإن لم تفعل فلا تصبح حينئذ مرغمة على الاتباع فحسب. ولكنها فى الغالب تجبر على الطاعة والإذعان. .

والسؤال الآن هو: «ما حقيقة هذه القوى «السمع، البصر، والفؤاد» وما طبيعتها، وما فائدتها، وكيف يمكن تربيتها وتدريبها وصقلها لدى المسلم المعاصر، صغيرا أو كبيرا، حتى يتمكن من استخدامها بكفاءة وفاعلية فى القيام بحق الخلافة، وعمارة الأرض وترقية الحياة على ظهرها؟»[1].

ثانيا - العدل:

وظيفة العلم - إذن - هى عمارة المجتمع الإنسانى وترقيته، لكن العلم إذا لم يكن مستندا على عدل الله، ينقلب على وسيلة للخراب والدمار للمجتمع البشرى كله! فالعدل - إذن - هو القيمة التى توجه غايات العلم، نحو خير الإنسان والبشرية جميعا.

والعدل كما وضحه بعض الفقهاء والمفسرين هو تنفيذ حكم الله، أى أن يحكم الناس وفقا لما جاءت به الشرائع السماوية، ولما كانت الشريعة الإسلامية هى كمال هذه الشرائع، فإن العمل بها إذن هو تحقيق للعدل الذى أمر الله به، ويندرج تحت هذا المعنى العام للعدل معانيه الخاصة، فهناك العدل فى الحكم، والعدل فى النظام الاجتماعى، والعدل فى القضاء، والعدل الاقتصادى، والعدل بين الرجل والمرأة، والعدل فى الحقوق والواجبات والمعاملة. . إلخ.

فالعدل من الحكام فرض لا يستقيم الحكم إلا به:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ... (58)﴾ [النساء].

---

(1) للإجابة عن هذا السؤال انظر كتاب «المفاهيم الأساسية لمناهج التربية» الرياض، دار أسامة للنشر والتوزيع، ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م، للمؤلف.

والعدل واجب حتى للأعداء:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ [المائدة].

وتقوم العدالة فى السياسة الاقتصادية على ثلاثة أسس مهمة:

الأول، أن المال مال الله، والناس مستخلفون فيه:

﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ... ﴿٧﴾﴾ [الحديد].

والثانى هو أن الإسلام كـره أن يحبس المال فى أيدى فئـة قليلة من الناس، بينما يمنع عن الآخرين:

﴿... كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ ... ﴿٧﴾﴾ [الحشر: ٧].

والثالث: هو الملكية الفردية، فالمال مال الله، والناس مستخلفون فى ملكية التصرف والانتفاع به، الذى لا يصل إلى السفه.

وتقوم العـدالة بين الفرد والمجـتمع على أساس حـركة الفـرد، ونوعيتـها، وعلاقتها بغيرها داخل المجتمع:

﴿... نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ... ﴿٣٢﴾﴾ [الزخرف].

فالفرد فى المجتمع مرفوع فيما يجيد وفيما يحسن، ومرفوع عليه غيره فيما لا يجيده ولا يحسنه. إذن فكل فرد فاضل فى جهـة ومفضول عليه فى جهة أخرى. فالمفضول عليه يسخر الفاضل لخدمته.

كما كـفل الإسلام المساواة للمرأة مع الرجل فى الجنس والحقـوق الإنسانية، ولم يقرر الـتفاضل إلا فى بعـض الملابسات الخاصـة بالاستـعداد والخـبرة والدربة والتبـعة، مما لا يؤثـر على حقـيقة الوضع الإنـسانى للجنسين، فـحيـثمـا تساوى الاستعـداد والدربة والتبعـة تساويا، وحيثـما اختلف شىء من ذلك كان الـتفاوت بحسبه.

فالرجل والمرأة من ناحية العمل والثواب والعقاب يتساويان:

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل].

﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ... ﴿١٩٥﴾﴾ [آل عمران].

وفى أحقية كل منهما وأهليته فى الملك والتصرف الاقتصادى يتساويان:

﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ ... ﴿٧﴾﴾ [النساء].

﴿... لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ... ﴿٣٢﴾﴾ [النساء].

ثالثا - العمل:

الأساس الثالث من أسس بناء المجتمع، وعمارة الحياة وترقيتها فيه ـ بعد العلم والعدل ـ هو العمل. فباستثناء الميراث والهبة، والهدية والصدقة والوقف، جعل الإسلام العمل هو الوسيلة الرئيسية لنيل حق التملك:

﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ... ﴿١٠٥﴾﴾ [التوبة].

«ما أكل أحد طعاما قط خيرا من عمل يده» [رواه البخارى]. وكره أن يلد المال المال، وإنما يلد المال الجهد، وعلى أساس هذه القاعدة حرم الإسلام الربا، لأن المرابى يمتص نتيجة جهد الآخرين وعرقهم بينما هو قاعد، وهذا يورث العداوة والبغضاء ويؤدى إلى هدم الحياة الاجتماعية النظيفة، ومن هنا ـ أيضا ـ جاءت كراهية الإسلام للترف وجعله مصدر النشر والفساد للفرد والجماعة معا:

﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾﴾ [الإسراء].

العمل ومفهوم العبادة:

وليس المراد بالعمل على كل حال الانصراف عن أمور الدنيا وقضاياها والكدح فيها والاشتغال بأمور ثانوية فى الدين، كالخلافات المذهبية والدروشة ـ كما يسميها الأستاذ فهمى هويدى ـ وبحث مدى إخلاص أو عدم إخلاص بعض المفكرين من أعلام المسلمين. وليس من العمل الجاد الذى تعمر به الحياة وترقى أن يترك كل ذى تخصص تخصصه فى الطب والهندسة والعمارة والطبيعة والكيمياء وعلوم الجهاد وعلوم الإدارة وعلوم ارتياد الفضاء، وكل العلوم التى نحن فقراء إلى النابغين فيها ـ إلى الاشتغال بأحكام التلاوة وعلامات الساعة والخلافات المذهبية[1].

إن العمل الجاد الذى تعمر به الحياة وترقى، هو أن ينصر كل منا الإسلام فى ميدان تخصصه بالإنجاز فيه والإنتاج والإبداع. يقول الشيخ محمد الغزالى: «من المستحيل إقامة مجتمع ناجح الرسالة إذا كان أصحابه جهالا بالدنيا عجزة عن الحياة... وإنه لفشل دفعنا ثمنه باهظا عندما خبنا فى ميادين الحياة، وحسبنا أن مثوبة الله فى كلمات تقال، ومظاهر تقام.. إن الله لا يقبل تدينا يشينه هذا الشلل المستغرب ولا أدرى كيف نزعم الإيمان والجهاد، ونحن نعانى من هذه الطفولة التى تجعل غيرنا يداوينا، ويمدنا بالسلاح إذا شاء»![2].

وربما كان من أهم أسباب هذه المشكلة عدم فهم معنى «العبادة» فى الإسلام، فالبعض لا يفهم من معنى العبادة إلا أنها الصلاة والصوم والزكاة والحج والصدقة وبعض الأذكار والأدعية. مع أن هذا جانب واحد فقط من جوانب العبادة، فالعبادة تشمل النشاط الإنسانى كله؛ لأن نشاط الإنسان المسلم كله حركة واحدة متجه نحو تحقيق غاية وجوده، وغاية وجود الإنسان هى العبادة عن طريق القيام بحق الخلافة فى الأرض.. والقيام بحق الخلافة فى الأرض يعنى عمارتها وترقيتها وفق منهج الله.

---

(١) فهمى هويدى/ هؤلاء الدراويش، الأهرام فى ٢٥/ ٨/ ١٩٨٧.

(٢) محمد الغزالى: مشكلات فى طريق الحياة الإسلامية، ص ٣٦.



وبهـذا المعنى الشـامل تصبح العبـادة هى الصلة الدائمـة بين المسلم وربه، وتصبح هى التربية الدائمة للإنسان كله، جسمه وعقله وضميره ووجدانه.

وبهذا المعنى يصـبح من الواجب على منهج التربية الإسلامـية أن يتنازل عن تقسيم النشـاط الإنسانى إلى «عبادات» و«معاملات»، وهو التـقسيم الذى ورد فى التأليف الفقهى فى مرحلة متأخرة ـ كمـا يقول الأستاذ سيد قطب - فهـذا التقسيم ـ مع الأسف ـ قد أنشأ آثارا ضارة فى التصـور الإسلامى، تبعته ـ بعد ذلك ـ آثار ضارة فى الحـياة الإسلامـية كلها، إذ جـعل يترسب فى تصـورات الناس أن معنى «العبادة» إنما هو خـاص بالنوع الأول من النشاط الذى يسمى «فقه العـبادات» بينما أخـذ المعنى ينزوى رويدا رويدا عن النوع الثـانى من النشـاط الذى يتناولـه «فقـه المعاملات»[1] وهو انحراف بالتصور الإسلامى لمفهوم العبادات لا شك فيه.

إن منهج الإسلام فى التـربية يجب أن يتناول كل النشاط الإنسـانى بالدراسة ابتداء من الشعائر التعبدية كالصلاة والصيام والزكاة والحج إلى البرامج الدراسية فى نظام الحكم ونظام الاقتصـاد، والتشريعات الجنائيـة والمدنية، ونظام الأسرة، ونظام الإدارة، إلى المواد المختلفـة فى الرياضيات والطبيـعة والكيمياء، والعلـوم الإنسانية إلى آخـره ـ يجب أن يتناول المنهج كل هذه المـواد والبرامج علـى أساس أنهـا لا تهدف إلا إلى غاية واحدة، هى تحقيق معنى «العبادة» كما سبق إيضاحه.

إن غياب المناهج التربوية التى تقوم على هذا الأساس فى معظم أقطار العالم العربى والإسـلامى هو من أهم أسباب البـلاء والتخلف الذى نعـانى منه، وحتى المناهج التى تحاول على هذا الطـريق يشوب بعضهـا الخلط، ويعوز بعضهـا الآخر الكثيـر من التخطيط الدقيـق.. ففى الأزهر مثـلا، كنا ـ حتى فى الستـينيات من القرن العـشرين ـ نتـخصص مع بداية المرحلة الـثانوية فى أحد المـذاهب الأربعة، حيث يقسم الطلاب على هذه المذاهب، فـالبعض يدرس الحنفى، والبعض يدرس المذهب الشـافعى والبـعض يدرس المذهب المالكى. وهكذا كـان الطلاب فى هذه

---

(١) سيد قطب: خصائص التصور الإسلامى ومقوماته، مرجع سابق، ص ١٠٩.

المرحلة المبكرة من العمر، يتعلمون التعصب للمذاهب، والغوص فى الخلافات والجزئيات والتفصيلات التى لا تجدى، وهم بعد لم يفهموا أصول ومقومات التصور الإسلامى العام!

إن أئمة المذاهب الأربعة لم يختلفوا على أصل من الأصول، ولا فى أية مسألة ورد فيها نص من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وإنما اختلفوا فى الجزئيات والتفصيلات التى لا يضر معها الخلاف. وحتى أبو حنيفة ـ وهو المشهور بالقياس ـ قد بنى مذهبه ـ كما يقول ابن القيم فى «أعلام الموقعين» على أن ضعيف الحديث عنده أولى من القياس والرأى[1].

فمنهج التربية الإسلامية لا يركز على الخلافات، ولا على التفصيلات التى لا قيمة لها، وخاصة فى مراحل التعليم قبل الجامعى، وإنما يهتم بالأصول، وبالمجرى العام لمنهج الله فى حكم الحياة، ويترك هذا الترف العقلى والعلمى، وهو الخوض فى الجزئيات والثانويات والاختلاف حولها، لخاصة المتخصصين فى هذا الميدان.

رابعا - الحرية[2]:

الحرية هى الأساس الرابع الذى عليه يقام بناء المجتمع الإسلامى، لقد فطر الله الإنسان على الحرية، فالحرية فطرة فى الطبيعة الإنسانية، فالله ـ سبحانه ـ خلق الإنسان حرا، لأنه جعله مسؤولا عن تنفيذ منهجه فى الأرض، فالإنسان حر؛ لأنه مسؤول، فالحرية تستتبع المسؤولية، والمسؤولية تستلزم الحرية، فنشاط الإنسان المسلم كله حر، وهو كله عبادة لله، طالما كان هذا النشاط حركة واحدة موجهة نحو هذه الغاية.

---

(١) ضعيف الحديث عند المتقدمين هو ما يسميه المتأخرون بالحديث الحسن، انظر ذلك فى ابن القيم، أعلام الموقعين عن رب العالمين، بيروت، دارالجيل، جـ١، ص ٢٣٠، وما بعدها.

(٢) انظر تفصيل موضوع «الحرية بين الشورى والديمقراطية» فى كتاب «منهج التربية فى التصور الإسلامى» للمؤلف.

ومعنى كـون الحرية فطرة فطر الله الإنسان عليهـا، أنها ليست مجـرد منحة يمنحها النظام الاجتماعى للإنسان، أو يمنعها عنه، وإنما هى قيمة غريزية غرزها الله فى خلق الإنسان حين خلقه، ويعبـر عن هذا المعنى قول عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا؟!».

فالحرية حاجة أساسيـة من حاجات النفس لا بد من إشباعها، وهى حق من حقـوق الإنسان لا بد من ممارستـه. فلا عجب ـ إذن ـ أن ينحـرف سلوك الإنسان ويسوء عمله، وتهـبط أخلاقه، ويتدهور حـال مجتمعـه كله، إذا حوصر ومنع من ممارسة حـريته، أو إذا انفلت فى ممارستهـا دون ضبط أو تنظيم وفق معـايير المنهج الإلهى.

والإسلام يسير فى هذا مع مقتضى فكرته عن فطرة الإنسان على الإيمان بالله وحده، فـالإنسان غـير المسلم الذى تصـل إليه فكرة الإسـلام واضحة جـلية دون ضغوط أو حـصار أو رفض قائم على مقدرات سـابقة، لا بد أن يعود إلى فطرته السليمـة التى فطر الله الناس عليها، لكن الإسـلام يريده أن يعود إلى الله بإرادته الحرة الواعية... فهذا هو الطريق الوحيد الذى يستوجب المسئولية.

التغير الثقافى والحضارى[1]:

تتكون الثقـافة فى التصـور الإسلامى من شقين: شق مـعيارى ويتـمثل فى شريعة الله ونهجه لحكم الحياة، وشق تطبيقى، ويتمثل فى التطبيق العملى الواقعى الصحيح للشق المعيارى.

وعليه يمكن تعريف الثقافة فى التصور الإسلامى بأنها الأسلوب الكلى لحياة الجماعة المسلمة الذى يتسق مع التصور الإسلامى لحقائق الألوهية والكون والإنسان والحياة، وتتمثل مقومات الثقافـة فى شريعة الله الشاملة لأصول الاعتقاد، وأصول

---

(١) انظر تفصيل موضـوع «الثقافة والحضارة فى التصور الإسلامى» فى كـتاب «منهج التربية فى التصور الإسلامى» للمؤلف.

الحكم، وأصـول المعرفة، وأصـول الأخلاق والسلوك، وكل الـتشريعـات والنظم والقوانين التى تخضع لها، وجميع أشكال التطبيق العملى الواقعى، وأنماط السلوك الفردى والجمعى التى تتسق معها نصا وروحا.

وعندما يكون الجانب التطبيقى فى الثقافة الإسلاميـة ترجمة واقعية صحيحة للجانب المعيارى فيها، مع استخدام كل معطيات الإنسان والزمان والمكان.. تكون الحضارة.

والتغـير فى الأنماط الـثـقافيـة والحضارية فى التـصور الإسـلامى إنما يخضع لقاعدة ثابتة تمثلت فى قول الله تعالى:

﴿... إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ... ﴿١١﴾﴾ [الرعد].

وقوله سبحانه:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ... ﴿٥٣﴾﴾ [الأنفال].

فالآيتان السابقتان تدلان دلالة قاطعة عـلى أن التغير الاجتماعى إنما يبدأ من الداخل، أى من داخل النفس، وذلك بتغيـير الأنماط العقائدية والمعيارية والقـيمية والفكرية للإنسان، فإذا ما تغير ذلك، فإنه ينعكس على النظم والمؤسسات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والـتربوية... إلخ، وهذا ما عبر عنه الأستاذ حسن البنا فى إيجاز بليغ، حين قال: «أقيموا الإسلام فى أنفسكم يقم على أرضكم».

الأمية لا تنتشر فى المجتمع المتحضر الإسلامى:

يرفض الإسلام تعريف الأمية بأنها عدم القراءة والكتابة، وتعريف الأمى بأنه من لا يقـرأ ولا يكتب، وبأنه الشـخص العيـى، الجاف، الجـاهل. لأن فى ذلك تضييقا لمفهوم الأمية، بالإضافة إلى الخلط والتلبيس بين الأمية وبين الجهالة.

فالأمى نسـبة إلى الأم، أو الأمـة، وهو من ليست عنده نسـبة أصـلا. أما الجاهل، فهو من عنده نسبة خـاطئة؛ ولذلك وصف القرآن الكريم الناس فى عصر

ما قبل الإسلام بأنهم «جاهلون» وعصـرهم هو عصر «الجاهلية» وذلك لأنهم كانوا يعرفون الله، ولكن بطريقة خاطئة، فهم رغم إقرارهم بوجود الله إلا أنهم يعبدون الأصنام والأوثان:

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ...(٦١)﴾ [العنكبوت]

فالجهل إذن ضد العلم، لأن الجهل أن تدرك نسبة خاطئة، مجزوما بخطئها، ولا دليل على صحتهـا، ويكذبها الواقع. أما العلم فهو أن تدرك نسبة صـحيحة، مجزوما بها، وعليها دليلها، ويصدقها الواقع.

وعلاج الجاهل أقسى وأشق من علاج الأمى، لأن الأمـى يحتاج إلى عملية واحدة وهو تزويده بالنسبة الصحيحة. أما الجاهل فهو يحتاج على عمليتين: انتزاع النسبة الخاطئة من نفسه، ثم تزويده بنسبة أخرى صحيحة.

وللأمية والجهالة مظهران فى حياتنا:

١ ـ مظهـر فى الأفراد ويـتمـثل فى عـدم قدرتهم على الـقراءة، والكتـابة والحساب، وهو ما يسمى بالأمية الهجائية.

٢ ـ مظهر فى المجتمع ويتمـثل فى ضعف الفكرة، والمنهج، والتصور، وقد أدى هذا إلى ضـعف الإنتـاج، وسوء اسـتـخدام أدواته، والـتمـسك بالخـرافات والأوهام، وسـوء الإدارة والنظام. . إلخ، وهذا ما يسـمى بالأمـية الوظيـفيـة. كمـا يتمـثل فى سـوء التفكيـر، وانحراف القـيم والمفاهيم، وسـوء العلاقـات الاجتمـاعيـة وتعقدها ـ وهذا هـو المظهر الحضارى للأمية.

والحقـيقة أن الأميـة ظاهرة مركبـة، ولا يمكن الفصل منهجـيا بين مظاهرها الثلاثة السـابقة، فالأمية الحـضارية هى المناخ الاجتمـاعى لنمو وانتشار واسـتمرار الأمية الهجائية، والأمية الوظيفية.

إن الجهالة قرينة التخلف، فكلما كان المجتمع متخلفا، كانت الجهالة أحد تعبيراته الاجتماعية، فالمجتمع المتخلف لا يستشعر الحاجة إلى ترقية نمط حياته، بل إنه يقاوم عمليات الترقى.

والمجتمع المتحضر الإسلامى لا يقبل الأمية والجهالة، وهو يستخدم التربية فى القضاء على أى مظهر لهما وخاصة بين الكبار، فالقرآن الكريم ينهى على البعض عدم استخدام الحواس والطاقات المدركة فى التفكير والتدبر ويسميهم «الغافلون»:

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف].

فالغافلون هنا لهم حواس وأجهزة سليمة من حيث تركيبها العضوى، وبالرغم من هذا فهم «غافلون» ومأواهم جهنم؛ لأن حواسهم لا تؤدى وظيفتها النفسية، وبذلك فهى لا تعين الإنسان على أداء وظيفته التى خلق من أجلها، وهى عمارة الأرض وترقية الحياة على ظهرها وفق منهج الله.

وهنا يأتى دور منهج التربية الإسلامية فى تربية الحواس عن طريق التفكير والتدبر، وفى إيقاظ المجتمع وإثارة وعيه بضرورة الرقى، ومواجهة المتغيرات، وتوجيه النافع منها فى عمارة الحياة عن طريق ترقية أنماط الاعتقاد والسلوك والعمل.

المجتمع الإسلامى بين التغير والتطور والترقى:

إن عملية التكيف مع بعض المتغيرات، وتكييفها وتوجيه بعضها الآخر، هى عملية حضارية تخضع للمعايير والقيم التى يؤمن بها المجتمع، كما تخضع للتقاليد القديمة العهد، والأعراف المجربة.

والمتأمل فى مجتمعات الأمة الإسلامية هذه الأيام يرى أن المتغيرات الواقعة عليها أكبر من قدرتها على استيعابها. وهى بالتالى غير قادرة على القيام بعمليات

التكيف والتنسيق للمتغيرات، فضلا عن تكيـيفها وتوجيهها. والسبب فى ذلك هو غياب القواعـد الحضارية، والأسس المعيارية للمجتمع المتـحضر الإسلامى، والتى على أساسها يتم القبول، أو الرفض، أو التوجيه للمتغيرات.

إن التغير والتطور على طريق ترقية الحياة الاجـتماعية لن يحدث إلا إذا شعر أبناء المجـتمع بالحـاجة إليه. واسـتطاعوا أن يتـصوروه فى إطاره الأوسـع وضمن تغيرات كثيـرة، وتعرفوا على طبيعة التغـير ومكان حدوثه، والفنون والمهارات التى يتطلبها، واستعدوا لذلك، رغبة فى إحداثه وقيادته، والسيطرة على حركة عناصره المادية والمعنوية معا[1].

إن صراع الأجيال الذى بدأنا نعانى مشاكله سببه الأساسى أننا أصبحنا نجرى وراء النظريات والأفكار الغربيـة التى تضع المجتمع كله عـلى خط التغييـر السريع المتلاحق. فالناس يلهثـون وراء المتغيرات، فلا يكادون يلحقـون بها حتى تظهر له أخرى فـيلهثون وراءها... وهكذا لا يسـتقر لهم قرار، ويـصبح ما كان مـرغوبا بالأمس لا قيمة له اليوم، وما هو محبوب اليوم، يصبح بلا معنى غدا... وهكذا نشأ ما يسمى بـ «صراع الأجيال».

لكن المجتمع المتـحضر الإسلامى يربى الصغـار والكبار على السواء فى ظل الحقائق والمعايير والقيم الإلهية الثابتة، والخبرات الإنسانية المتغيرة التى لا تخرج عن نطاق الثوابت فى منهج الله، وبذلك ينشأ: «اختلاف الأجيال» الناتج عن اختلاف مظاهر الحيـاة ومطالبها بـاختلاف الزمـان والمكان وهذا شيء طبعى... محـبوب ومرغوب..

---

(١) على أحمد مدكور، راشد بن حمد الكثيرى: تقويم برامج محو الأمية وتعليم الكبار فى منطقة الرياض فى ضوء أهدافها، معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامى، مركز البحوث التربوية والنفسية، مكة المكرمة، ١٤٠٩ هـ/ ١٩٨٩ م، ص ٥٧، وما بعدها.

واجب المنهج نحو حقيقة الحياة[1]:

مما سبق يتضح أن على منهج التربية مراعاة ما يلى:

١ ـ التأكيد على أن الحياة ليست إلها! وليست قوة مدبرة فى ذاتها تنشأ وتنشئ وفق إرادتها المستقلة! وأنها ليست تلقائية وجدت مصادفة وتمضى خبط عشواء! إنما هى خلقية أنشأها الله بقدر، وتمضى كذلك وفق قدر، وهى مودعة خصائصها الذاتية التى تفرقها عن الموت.

٢ ـ التأكيد على أن الطبيعة ليست إلها وليست هى التى خلقت الحياة، كما أنها ليست هى التى خلقت نفسها، إنما الله هو الذى خلقها، وجعلها مناسبة لظهور الحياة، وهيأ الأرض لهذا النوع من الحياة التى نشأ فيها، وجعل التناسق بين الطبيعة والحياة، وبين الأحياء بعضها وبعض، هو الأصل والقاعدة. وأودع فى الأرض أقواتها وأرزاقها، وجعل الكون كله مسخرا مساعدا.

٣ ـ التأكيد على أن الحياة ناشئة بإرادة الله من أصل واحد هو الماء.

﴿ ... وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ (٣٠) ﴾ [الأنبياء].

﴿ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ ... (٤٥) ﴾ [النور].

٤ ـ التأكيد على حقيقة أن الحياة مقدرة أقواتها فى بنية الأرض، وفى نظام الكون.. وهى حقيقة واقعة تكذب كل ادعاء آخر، وتسخر من نظريات المتشائمين والداعين إلى تحديد النسل.

٥ ـ التأكيد على أن كل ما يدب على وجه الأرض من أحياء أمم ذات تنظيمات كأمة الإنسان، وعلى أن الله هو الذى أودع هذه الأمم فطرتها وضوابطها، وأن الإنسان هو قمة هذه المخلوقات، وأنها مسخرة له.

---

(١) انظر: سيد قطب: مقومات التصور الإسلامى، مرجع سابق، فصل «حقيقة الحياة».



٦ ـ التأكيد على أن الحياة كما أنها تقوم على قاعدة النشأة من الماء وعلى قاعدة الأمم المنظمة، فهى تقوم كذلك على قاعدة الزوجية، التى تشمل الأحياء والأشياء:

﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [الذاريات].

٧ ـ التأكيد على أن الأحياء مكفولون برزق الله:

﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ... ﴿٦﴾﴾ [هود].

محاطون بعلم الله ورعايته:

﴿... وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ... ﴿٦﴾﴾ [هود].

خاضعون لسلطان الله:

﴿... مَّا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ... ﴿٥٦﴾﴾ [هود].

٨ ـ التأكيد على أن الأحياء كلهم فى عبادة...

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلائِكَةُ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [النحل].

٩ ـ التأكيد على أن هنالك عوالم أخرى من الأحياء غير مرئية، وهى عوالم أخبرنا الله بوجودها وهى من الملائكة والجن. ومن الجن الشياطين. وإبليس على رأس الشياطين. والإنسان يتعامل مع هذه المخلوقات ويتأثر بها فى الدنيا والآخرة.

١٠ ـ التأكيد على بيان مقومات النظام السياسى فى التصور الإسلامى مع الاهتمام بصفة خاصة بالشورى، والعدل، وحرية الاختيار، وإصدار القرار.

١١ ـ التأكيد على مقومات النظام الاقتصادى فى التصور الإسلامى، مع الاهتمام بصفة خاصة بإيضاح أن المال مال الله والناس مستخلفون فيه

والملكية الخاصة، والميراث، والزكاة، والإنفاق فى سبيل الله وحرمة الربا.

١٢ ـ التأكيد على مقومات النظام الاجتماعى فى التصور الإسلامى، مع إبراز أهمية العلاقات بين الفرد والمجتمع. والرجل والمرأة، وعلاقات العمل والإنتاج القائمة على التكامل والإحسان فى العمل.

١٣ ـ التأكيد على بيان مقومات النظام الثقافى والتربوى فى التصور الإسلامى ومقتضياتها فى بناء النظم والمؤسسات الثقافية والتربوية فى المجتمع المسلم.

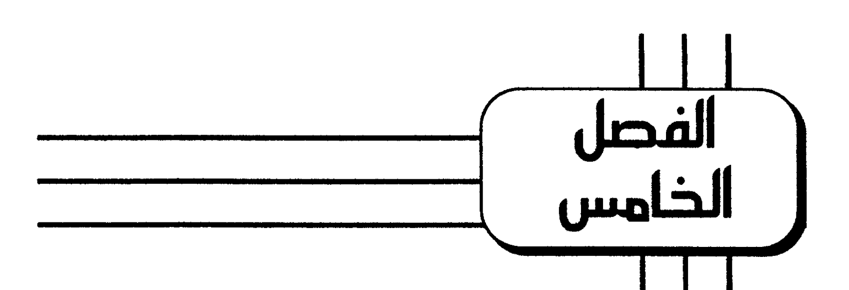
١٤ ـ التأكيد على الموجهات الإسلامية للفنون والآداب ومقتضياتها فى الإنتاج والنشر والفنون والآداب والعلوم عموما.

١٥ ـ التأكيد على القيم والمفاهيم الأساسية للإعلام والإعلان فى التصور الإسلامى، ومتطلباتها فى الإنتاج الإعلامى والإعلانى، فى كل ما يذاع وينشر على الناس.

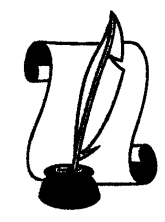
١٦ ـ التأكيد على أهمية وحدة المسلمين على أساس أنها ضرورة لنصرة دين الله وإعلاء كلمة الحق ونصرة المقهورين والمستضعفين حيثما وجدوا.

١٧ ـ التأكيد على أهمية الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والجهاد فى سبيل الله، على أساس أن الجهاد الذى يبدأ بالنفس وبالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ضرورة من أهم ضرورات الحياة الإسلامية القويمة.

١٨ ـ التأكيد على أن الحياة الدنيا والحياة الآخرة ليسا بديلين ولا نقيضين، وأن من حسنت دنياه حسنت آخرته، ومن ساءت دنياه ساءت آخرته.



أهداف منهج التربية
فى التصور الإسلامى





عناصر المنهج

فى الفصول الأربعة السابقة تم استعراض إشكالية التربية العربية مع العلمانية والحداثة وما بعدها فى الفصل الأول، وفى الفصل الثانى أوضحنا العلاقة بين مفهوم الفلسفة ومفهوم النظرية، وفى الفصل الثالث استعرضنا مفهوم منهج التربية فى التصور الإسلامى وخصائصه، وفى الفصل الرابع عرضنا أسس منهج التربية فى التصور الإسلامى والمتمثلة فى حقائق: الألوهية، والكون، والإنسان، والحياة.

وفى الفصول التالية نقدم عناصر المنهج أو مكوناته وهى: الأهداف: والمحتوى: وطرائق وأساليب التدريس؛ وطرائق التقويم. لكننا فى هذا الفصل الخامس نبدأ بالأهداف: فنحدد معنى الهدف، وأنواع الأهداف، ومعايير جودتها. ثم نعرض بعد ذلك للأهداف التى ينبغى أن يعمل منهج التربية بكل برامجه ومقرراته وخبراته على تحقيقها فى المتعلمين على اختلاف أنواعهم ومستوياتهم، حتى يقدروا على المساهمة الفعالة فى إعمار الأرض وفق منهج الله.

أهمية تحديد الأهداف:

إن من أهم عوامل فشل المناهج التربوية فى أى مكان هو عدم تحديد أهدافها تحديدًا يتسق مع الإنسان من حيث مصدر خلقه، ومركزه فى الكون، ووظيفته فى الحياة، وغاية وجوده. إن هذه المناهج لا تجانب الطريق السليم فى إعداد الإنسان فحسب، بل إنها تحدث الخلل والفساد فى فطرته وإنسانيته، ومن ثَمَّ فى عمارة الأرض.

الأهداف بين الثبات والتغير:

لا شك أن تعلم كل الحقائق والمعايير والقيم الإلهية الثابتة، يمثل أهدافًا ثابتة لمنهج التربية الإسلامية، كما أن الدقة والمهارة فى إجراء كل ما تقتضيه صور التطبيق الثقافى والحضارى فى المجتمعات الإسلامية تمثلان أهدافًا متغيرة لهذا المنهج.

وهناك من المفكرين الغـربيـين من لا يروق لهم القـول بوجود أهداف ثابتـة للمنهج .«چون ديوى» على سبيل المثال - يـؤكد بشكل قاطع أن «الفكرة القائلة بأن النمو والتقدم يرميان إلى هدف نهائى لا يتغير ولا يتبدل، هى: آخر أمراض العقل البشرى فى انتقاله من نظرة جامدة إلى نظرة مفعمة بالحركة والتغير»[1].

ولكن هذا القول يجانبه الصواب. فالحقـيقة التى يؤكدها واقع عالمنا المعاصر أن جعل الأهداف التربوية كلها مـتحركة ومتغيرة قد أطاح بكثـير من القيم الخلقية التى تتفق مـع مقتـضيات الفطرة الإنسـانية ومتطلبـاتها. والنتـيجة هى أن الحـياة الإنسانية فى عالمنا المعاصر قد أصبحت كقـشة معلقة فى الهواء تسيرها أهواء التغير كيف شاءت، وحياة كتلك لا يطمئن لها الإنسان، ولا يستمر فيها ولا يعمرها.

تعريف الأهداف وأنواعها:

الهـدف التربوى هو وصف للسـلوك المتوقع من المتـعلم نتـيجـة لاحتكاكـه ببعض الحقـائق والمعايير والقيم الإلهـية الثابتة والخـبرات التربوية المتغـيرة وتفاعله معها.

وللأهداف التربوية تقسـيمات من حيث الشكل، ومن حيث المضـمون. أما من حيث الشكل فهى تنقسم إلى أهداف عامة، وأهداف خاصة، فالهدف العام هو وصف للتغير السلوكى المتـوقع من المتعلم نتيجة لاحتكاكه وتفـاعله مع مضمونات وخبرات منهجية واسعة ومتنوعة. فمن أهم الأهداف العامة لمنهج التربية الإسلامية مثـلاً: «إعداد الإنسان الصالح القـادر على المساهمة بإيجـابية وفاعلية فى عـمارة الأرض وترقيتـها وفق منهج الله». إن هذا هدف عام يمكن تحقيـقه من خلال كل المناهج والدراسـات الإسلامـية. وقـولنا: إن الهدف من تعليم اللغـة العربيـة هو «إكساب المتعلم القـدرة على التعبير الواضح الجميل كلامًـا وكتابة» أو «تربية الملكة

---

(1) چون ديوى: الديمقراطية والتربية، ترجمة متى عقراوى وزكريا ميخائيل، ط٢، القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٥٤م، ص ٥٨.

اللسانية لدى المتعلم» هذا هدف عام أيضًا ويمكن تحقيقه من خلال دراسة مناهج اللغة العربية المختلفة.

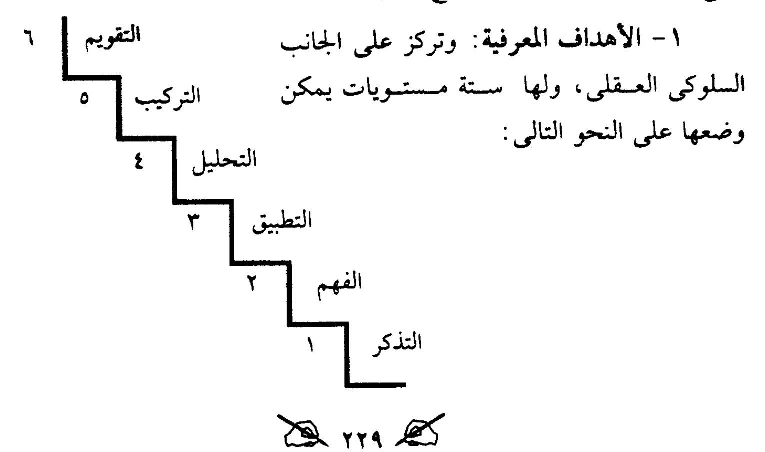
وهكذا، فإن الأهداف العامة إنما توضع للمناهج والبرامج والكتب الدراسية المختلفة. حيث تسهم المحتويات المختلفة والمتنوعة فى تحقيقها. وهذه الأهداف يجب أن تكون فى كل الأحوال واضحة ومحددة.

أما الأهداف الخاصة فهى تلك التى تصاغ فى بداية وحدة دراسية أو فى بداية درس معين أو موضوع من الموضوعات. وهذا النوع من الأهداف هو الذى يمكن وصفه بأنه «هدف إجرائى» ومن أهم صفات الهدف أنه يمكن ملاحظته، ويمكن قياسه.

وهذا النوع من الأهداف يصاغ عادة وفقًا للمعادلة التالية: أن + فعل سلوكى + المتعلم + مصطلح من المادة + الحد الأدنى للأداء. ومثال ذلك قولك: «أن يقرأ التلميذ الفقرة الأولى من الدرس قراءة جهرية بما لا يتجاوز ثلاثة أخطاء نحوية». وقولك: «أن يحفظ التلميذ الربع الأول من سورة البقرة بما لا يتعدى ثلاثة أخطاء من أى نوع» وهكذا نرى أن هذا النوع من الأهداف لا يصاغ إلا لدرس معين أو لوحدة دراسية خاصة.

أما تقسيم الأهداف من حيث المضمون، فلقد صنف «بنجامين بلوم» هذا النوع من الأهداف إلى ثلاثة أنواع، هى:

١- **الأهداف المعرفية**: وتركز على الجانب السلوكى العقلى، ولها ستة مستويات يمكن وضعها على النحو التالى:



فمستويات الجانب المعرفى هى: التذكر، والفهم، والتطبيق، والتحليل، والتركيب - ويسمى أحيانًا بالقياس - والتقويم، وهو أعلى مستويات المجال المعرفى. والمستويات الثلاثة الأولى هى المستويات الدنيا، أما المستويات الثلاثة الأخيرة فهى المستويات العليا، لأهداف الجانب المعرفى. وكل مستوى من هذه المستويات يعتمد على المستوى الأقل منه وليس العكس، فالفهم يعتمد على التذكر، والتطبيق يعتمد على الفهم والتذكر.. وهكذا.

٢ - **أهداف الجانب الوجدانى**: وهذه تتعلق بالجانب العقدى والشعورى، كالإيمان بالله ورسوله، والإيمان بأهمية تنفيذ منهج الله فى الحياة، والاقتناع بالحقائق والمعايير والقيم الإلهية الثابتة، وكل مشاعر الحب والتقدير والميول والاتجاهات، والتذوق الأدبى والجمالى... إلخ.

ويشيع هذا النوع من الأهداف الوجدانية عمومًا فى دراسة القرآن والسنة، وعلوم التشريع، وعلوم الآداب والفنون والإنسانيات عمومًا.

٣ - **الأهداف الحركية**: وتتعلق بكل أنواع السلوك الحركى والمهارى ابتداء من البسيط غير الإرادى كسماع صوت، أو طرفة عين، إلى المهارة الحركية مثل الاستماع، والكلام، والقراءة، والكتابة، إلى قيادة السيارات والطائرات والأقمار الصناعية.

وتشيع هذه الأهداف بصفة عامة فى كل التطبيقات العلمية للفكر الإنسانى، وتشيع بصفة خاصة فى مناهج التربية الرياضية، والاقتصاد المنزلى، وتعليم اللغات، والمواد المهنية عمومًا كمناهج علوم الصناعة والزراعة والتجارب، والتدريب المهنى.. إلخ.

معايير الأهداف:

وسواء كانت عامة أو خاصة فإنها يجب أن تتوافر فيها المعايير التالية:

أولاً - الوضوح:

يجب أن تكون الأهداف العامة والخاصة للمنهج محددة تحديداً واضحاً؛ بحيث لا يكون هناك اختلاف فى تفسيرها؛ ومن ثَمَّ فى اختيار الخبرات أو المحتويات التى تتحقق من خلالها(١).

إن منهج التربية فى الإسلام - كما سبق أن قلنا - لا يعترف بالمعرفة الذهنية، بل يعتبرها معرفة ميتة لا قيمة لها إلاَّ إذا ترجمت إلى سلوك عملى وإيجابى فاعل فى واقع الأرض. وهذا لا يتأتى إلا إذا كانت أهداف المنهج واضحة ومحددة.

والهدف الخاص يكون واضحًا ومحدداً إذا توفرت فيه الشروط التالية:

١ - أن يمكن ملاحظة الهدف التدريسى الخاص فى أثناء تحقيقه وفى نتائجه. وبذلك يمكن تعديل وتطوير العملية التربوية.

٢ - أن يمكن قياس الهدف التدريسى؛ لأن ذلك يساعد على قياس مدى تحقيقه، أو مدى تعلم التلميذ وتعديل سلوكه.

٣ - أن يتضمن الهدف التدريسى الخاص ما يعرف بالحد الأدنى للأداء، حيث إن ذلك يساعد فى قياس مدى تعلم التلميذ ومدى تحقق الهدف فيه.

ثانيا - الشمول:

إن الدين فى المفهوم الإسلامى - كما سبق أن قلنا - هو النظام العام أو المنهج الذى يحكم الحياة. فلا يوجد عمل، أو فكر، أو سلوك؛ ولا توجد

---

(١) محمد عزت عبد الموجود وزملاؤه: أساسيات المنهج وتنظيماته، القاهرة، دار الثقافة للطباعة والنشر، ١٩٨١م، ص٩٦.

صغيرة، ولا كبيرة فى هذا الكون، وفى هذه الحياة إلا وتخضع للأصول، أو الروح المنظمة للكليات والجزئيات فى هذا النظام أو المنهج.

والأهداف التربوية «كلها» والتى تكوِّن جزئية فى النظام أو المنهج هى أهداف دينية، فتدريب التلميذ على تلاوة آية من القرآن الكريم أو حفظها، أو فهمها هو هدف دينى، وقراءة المتعلم لحديث من أحاديث الرسول ﷺ وفهمه هو هدف دينى، وتدريب التلميذ على حل مسألة حسابية هو هدف دينى، وإعانة المتعلم على فهم معادلة رياضية أو إجراء تجربة علمية هو هدف دينى، ومساعدة المتعلم فى عمل تدريبات فى الرياضة البدنية، أو فى إتقان مهارة رياضية هى هدف دينى، وتدريب التلاميذ على القراءة الصامتة مع السرعة، أو على القراءة الجهرية مع الطلاقة هو هدف دينى.. وهكذا.

إنه - باختصار - لا يوجد فى منهج التربية هدف دينى، وهدف غير دينى. إنه ليحلو للكثيرين فى مدارسنا أن يقسموا الأهداف إلى أهداف دينية، وهى تلك التى تتصل بالقرآن والحديث والسيرة النبوية وأمثال ذلك. وإلى أهداف أخرى؛ وهى تلك التى تتصل بأهداف تعليم كل المواد الأخرى كاللغات، والمواد الاجتماعية، والعلوم والرياضيات.. إلى آخره، إن هذه النظرية لا تمت إلى الدين الإسلامى بصلة، ولا علاقة لها به؛ لأنها ببساطة تفصل بين الدين والدنيا. وهذا ليس من الإسلام فى شىء. ذلك لأن نشاط الإنسان كله عبادة لله، ما دام متجهًا به إلى الله.

إن مفهوم العبادة فى الإسلام، كما سبق أن ذكرنا، مفهوم شامل، فكل عمل أو فكر أو سلوك يقوم به الإنسان فى ليل أو نهار، يبتغى به وجه الله، فهو عبادة لله. فالعبادة فى الإسلام تشمل الشعائر والشرائع معًا. أى أنها تشمل ما درج الفقهاء على تسميته - عادة - بالعبادات والمعاملات. إن العبادة فى الإسلام تشمل كل فكر وسلوك الإنسان لأن الإسلام وحدة لا تتجزأ.

وعلى هذا، فكل هدف يقصد من ورائه تدريب التلميذ على تعلم شعيرة أو تشريع، أو مهارة، أو فكرة، أو اتجاه، فهو هدف دينى، ما دام القصد هو إقدار

المتعلم على المساهمة فى عمارة الأرض وترقيتها بإيجابية وفاعلية وفق منهج الله.

إن تقسيمنا للأهداف إلى أهداف دينية، وأهداف أخرى غير دينية، ما هو إلا أثر من آثار اتباعنا لمناهج الغرب التى تفصل بين الدين والدنيا، وبالتالى بين تعليم الأمور الخاصة بالعلوم الشرعية، والأمور التى تتصل بالعلوم الكونية. وهذا التقسيم لا يتفق مع الإسلام جملة وتفصيلاً.

وإذا كان الشمول يعنى كل جوانب النشاط الإنسانى: المعرفى والوجدانى والحركى، فإنه يشمل أيضًا كل جوانب النفس الإنسانية: العقلية، والوجدانية، والجسمية.

ثالثا - التكامل:

إن تكامل أهداف منهج التربية فى التصور الإسلامى، يعتمد على أساسين هما:

١- تكامل جوانب النفس الإنسانية. فالأهداف يجب ألا تركز على العقل دون الجسم أو الشعور والوجدان أو العكس، فإن ذلك يحدث الخلل وعدم التوازن فى النفس.

٢- تكامل جوانب المعرفة الإنسانية، وهذا يتطلب أن تكون أهداف منهج التربية فى الإسلام مشتملة على الجانب المعرفى فى الخبرة الإنسانية، وعلى الجانب الوجدانى، وعلى الجانب الحركى. إن إغفال أى جانب من هذه الجوانب فى أهداف المنهج يؤدى إلى إغفال المحتوى، والخبرات الخاصة به. وهذا يؤدى بدوره إلى تركيز المنهج على جانب من جوانب الطبيعة الإنسانية وإغفال جانب آخر، أو الجانبين الآخرين، مما يؤدى إلى الخلل وعدم التوازن فى طبيعة الفرد، وهو الأمر الذى يؤدى إلى عدم قدرة الإنسان على الإسهام الفعال فى عمارة الأرض وترقيتها وفق منهج الله، وهو الهدف الأسمى للتربية فى هذا المنهج.

وتكامل الأهداف فى منـهج التربـية الإسـلامـيـة لا يقف عند حـد تكامل الجـوانب الثلاثة السـابقة للمـعرفـة الإنسـانية، وهى الجـانب المعرفى، والجـانب الوجدانى، والجـانب الحركى. إنه لا بد من تكامل المستويات المتـضمنة داخل كل جانب من هذه الجـوانب. فالتركيز فى الجـانب المعرفى ليس منصبًا على مستوى التذكر، أو الفهم، أو التطبيق، أو التحليل، أو التركيز، أو التقويم وحده، بل هو منصب على جميـع المستويات، بحيث تتكامل فيـما بينها. والتركـيز على الجانب الحركى ليس منصبًا على التدريب على المهـارة البسيطة وحـدها، ولا على المهارة المركبة وحـدها، ولا على مهارة التناول، بل هو منصب على جـميع هذه المهارات التى تكون الجانب الحركى فى المعرفة الإنسانية بطريقة متكاملة.

أهداف مناهج التربية فى التصور الإسلامى

سبق أن قلـنا إن مناهج التربيـة التى لا تدرك الغاية من وجـود الإنسان، لا تستطيع أن تـسهم فى إعداده لوظيـفته وتحـقيق غاية وجـوده. وهذا يعنى أن هذه المناهج تكون ضـالعـة فى إحداث الخلـل فى فطرة الإنسان، ومـن ثَمَّ فى عمـارة الأرض.

إن الهدف الشامل لمنهج الـتربية فى التصور الإسـلامى هو: إيصال الإنسان المسلم إلى درجـة كمـاله التى هيأه الله لهـا، حتى يكون قـادرًا على القيـام بحق الخلافة فى الأرض عن طريق الإسهـام بإيجابية وفاعلية فى عمارتها وتـرقية الحياة على ظهرها وفق منهج الله.

ولكى يكون الإنسان قادرًا على القيام بهذا الدور فلا بد أن تتحقق فيه - هو بذاته - مجموعة كبيرة من الأهداف أهمها ما يلى:

١- إدراك مفهوم «الدين» ومفهوم «العبادة» والعمل بمقتضاهما:

لا بد أن يدرك الطلاب أن «الدين» فى التصور الإسلامى هو المنهج أو النظام الذى يحكم الحياة. وأن كل «دين» هو تصـور اعتقادى ينبثق منه نظام اجـتماعى.



وبما أن كل «دين» هو منهج حياة، فإن كل منهج للحياة هو «دين»؛ فدين الجماعة من البشر هو المنهج الذى يصرف حياة هذه الجماعة، فإذا كان من صنع الله، فهذه الجماعة فى «دين الله»، وإن كان من صنع غير الله فهذه الجماعة فى دين غير الله.

ولا بد أن يدركوا أيضًا أن «العبادة» فى التصور الإسلامى ليست مقصورة على مناسك التعبد المعروفة من صلاة وصيام وزكاة وحج.. إلخ. بل إن العبادة هى العبودية لله وحده. والتلقى من الله وحده فى كل أمور الدنيا والآخرة، إنها الصلة الدائمة لله فى كل قول أو عمل أو شعور. فالإنسان المسلم عابد لله حيثما توجه إلى الله. ومن ثَمَّ تشمل «العبادة» الحياة، ويصبح الإنسان عابدًا فى كل حين، وقد سبق تفصيل مفهومى الدين والعبادة فى الفصل السابق.

٢- ترسيخ عقيدة الإيمان بالله والأخوة فى الله:

الهدف الأساسى هو الإيمان بالله والأخوة فى الله، وهذا الهدف يشتمل على ركيزتين تقوم عليهما الأمة الإسلامية، وتتحقق بهما وسطيتها وشهادتها على الناس.

الركيزة الأولى: هى الإيمان بالله وتقواه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران]. وإذا كان المعنى المحدد للتقوى هو فعل ما أمر الله به، والانتهاء عما نهى عنه، فإن معناها بلا تحديد كما ورد هنا فى الآية «يدع القلب مجتهدًا فى بلوغها كما يتصورها وكما يطيقها. وكلما أوغل القلب فى هذا الطريق تكشفت له آفاق وجدت له أشواق. وكلما اقترب بتقواه من الله، تيقظ شوقه إلى مكان أرفع مما بلغ، وإلى مرتبة وراء ما اتقى إلى المقام الذى يستيقظ به قلبه فلا ينام»(١).

وعلى أساس هذه الركيزة توجد الجماعة الإسلامية؛ لتؤدى دورها الراشد فى قيادة البشرية، وبدون هذه الركيزة لا يكون هناك منهج لله تجتمع عليه أمة، بل فلسفات ومناهج لا تؤدى إلا إلى الهبوط والخراب.

---

(١) سيد قطب: فى ظلال القرآن، مرجع سابق، ص ٤٤٢ - ٤٤٣.

الركيزة الثانية: هى ركيزة الأخوة. . والأخوة فى الله، ولتحقيق منهج الله: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [آل عمران].

فهى أخوة إذن تنبثق من الإيمان بالله وتقواه. . من الركيزة الأولى التى أساسها الاعتصام بحبل الله - أى عهده ومنهجه - وليست مجرد تجمع على أى تصور آخر، ولا على أى هدف آخر، ولا بواسطة حبل آخر من حبال الجاهلية الكثيرة! فهى أخوة تجمع القلوب فى الله، وتصغر إلى جانبها الأحقاد التاريخية، والثارات القبلية، والأطماع الشخصية والرايات العنصرية، يهودية كانت أو صليبية أو شيوعية. . أخوة يتجمع الصف فيها تحت لواء الله الكبير المتعال.

٣- تحقيق الإيمان والفهم لحقيقة الألوهية:

إن تعميق الإيمان بالله والأخوة فى الله فى نفوس الأجيال يتوقف - بلا شك - على فهمهم لحقيقة الألوهية. وبالرغم من أن الحقيقة الإلهية الكلية المطلقة أكبر من مجال إدراك الكينونة البشرية الجزئية المحدودة.الحادثة الفانية، لكن حسب الإنسان منها ما يصلح به تصوره، وما يستقيم به فكره، وما يصلح به ضميره، وما تنتظم به حياته، وما يعرف به حقيقة مركزه، ودائرة سلطانه، ومقتضيات عبوديته لهذه الألوهية[1].

إن منهج التربية فى التصور الإسلامى يربى «الإنسان». . «والإنسان لا يملك أن يكون شيئًا فى واقع هذه الأرض، ولا يملك أن يكون شيئًا فى حساب هذا الوجود. . سواء فى عالم الغيب أو فى عالم الشهادة. . ولا يستطيع أن يكون قوة فاعلة، وأن يكون له دور إيجابى، وأن يحقق غاية وجوده الإنسانى - كما أرادها الله - إلا أن يمتلئ حسه وضميره، وقلبه وعقله، وكينونته كلها بحقيقة الألوهية، وإلا أن يعرف بالضبط موقفه من هذه الحقيقة، وموقف سائر العبيد منها، وموقفه

(١) سيد قطب: مقومات التصور الإسلامى، مرجع سابق، ص ١٨٧.

كذلك من إخوانه العبيد. «والمسلم» مكلف - بصـفته الإسلامية - بإنشاء واقع فى الأرض غير واقع الجاهلية. وتحقيق ميلاد «للإنسان» جديد غير ميلاده فى الجاهلية! واقع يقوم على عهد الله وشـرطه. ويحكّم منهج الله وشريعته. وميلاد يتـحرر فيه من عبادة العبـاد، وينطلق على سواء سائر العباد.. وهو واجد فى طريقـه عقبات من الواقع الجاهلى كأداء، وملاق فى طريقه تضحيات مريرة وآلاما هائلة ومشقات ضخمة، على طول الطريق.. وما لم يمتلئ حسه وضـميره، وعقله وقلبه، وكيانه كله، بحقـيقة الألوهيـة، ويدرك على وجه اليـقين الواضح، والجزم الحـاسم، ما تتطلبه منه علاقته بهذه الحقيقـة فإنه لن يقوى على الكفاح والصمود، والمضىّ قُدمًا فى الطريق الصـعب، لإنشاء الواقع الجـديد، ويشهد فى نـفسه وفى غـيره مـيلاد الإنسان الجديد!

«إنه مطلوب منه أن يغير وجـه العالم، وأن يقيم عالمًا آخر، يقـر فيه سلطان الله وحده، ويبطل سلطان الطـواغيت. عالما يعبـد فيه الله وحده - بمعنى العـبادة الشامل - ولا يعبـد معه أحد من العبـيد، عالمًا يخرج فـيه الناس.. من شاء الله منهم.. من عبادة العبـادة إلى عباد الله وحده - كما قـال ربعى بن عامر، رسول قائد المسلمين، لرستم قائد الفرس الشهير - ومطلوب منه أن يقف فى وجه الباطل والظلم والفساد، وأن يغير تصورات وأوضاعًا، وقيمًا وموازين، وشرائع وقوانين، وأن يتعرض للغربة والوحـشة، والأذى والابتلاء.. وهو لا يواجه هذا كله إلا إذا امتـلأ كيـانه كله بحقـيقـة الألوهية، بحـيث تَرْجَحُ فى حسـه كلَّ شىء. وإلا إذا امتلأت نفسه «بوجـود» الله سبحانه «حضوره» فى حسه وضـميره، وقلبه وعقله، وفى كيانه كله، وحياته كلها»[1].

إن مناهج التربية عمومًا ومناهج العلوم الشـرعية على وجه الخصوص يجب أن تعتمد على المنهج القـرآنى فى توضيح هذه الحقيقة للأجـيال الناشئة «إن المنهج القرآنى يجلى هذه الحقـيقة بآثارها الفاعلة فى هذا الوجـود.. فى الخلق والتدبير، فى تصريف هذا الكـون وما فيه ومن فـيه. فى تسـخير الليل والنهـار، والشمس

---

(١) المرجع السابق، ص ١٨٨.

والقمـر والنجوم. فى إيلاج الليل فى النهار، وإيلاج النهـار فى الليل. فى إرسال الرياح لواقح، وإنزال الماء من السمـاء، فى انبثاق الحياة من الموت وانبـثاق الصبح من الظلام. فى إخـــراج الحى من الميت وإخـراج الميت من الحـى. فى بدء الخلق وإعادته، فى القبض والبسط. فى البعث والنشـور. فى النعمة والنقمة. فى الجزاء والحساب. فى النعيم والثواب.. فى كل حركـة وكل انبثاقة. وكل تغير وكل تحور فى عالم الغيب أو فى عالم الشهادة فى هذا الوجـود الكبير... ونادراً ما يتحدث المنهج القرآنى عن الذات الإلهية والصفات فى الصـورة التجريدية التى تتحدث بها الفلسفة واللاهوت وعلم الكلام»[1].

إن غياب التصور الإسلامى للكون والإنسـان والحياة - عمومًا - فى مناهج التربية وعدم فهم حقـيقة الألوهية، وعدم التفريق بينها وبين حقـيقة العبودية، قد أحدث كـثيـراً من الجهـالات والانحرافـات. جهـالات وانحرفـات فى العقـيدة، وجهالات وانحرفات فى الفكر والشعـور، وجهالات وانحرافات فى القول والعمل والسلوك، وجهالات وانحرافات فى الثقافة، والفن، والأدب، والتربية!

إن غياب التصور الإسلامى، فى تربية الإنسـان، وعدم فهم حقيقة الألوهية والتفريق بينها وبين حـقيقة العبودية، قد جعل كثـيراً من الفنانين والأدباء يشعرون أنهم فلتة ضائعة فى الكون الوسيع، وفى الحياة المجهولة والمصدر والمصير!

فها هو إيليا أبو ماضى يقول:

جئت لا أعلم من أين أتيت ولكنى أتيت.

ولقد أبصرت قدامى طريقًا فمشيت..

وسأبقى ماشيًا إن شئت هذا أم أبيت.

كيف جئت؟ كيف أبصرت طريقى؟ لست أدرى!

---

(١) راجع نماذج النصوص القرآنية التى سبق عرضها فى الأساس الأول من أسس بناء المناهج «حقيقة الألوهية».

وعلى هذا النمط الضائع المضيِّع.. سار كثير من الشعراء والأدباء والفنانين والعلماء والمثقفين والمربين!

٤- إدراك حقيقة الكون غيبه وشهوده:

الهدف الرابع لمنهج التربية فى التصور الإسلامى عمومًا، ولمنهج العلوم الشرعية بصفة خاصة هو أن تدرك الأجيال الناشئة حقيقة الكون الذى يعيشون فيه، وحقيقة مركز كل منهم فيه كإنسان. وأن يدركوا - أيضًا - طبيعة العلاقة بينهم وبين مفردات هذا الكون غيبه وشهوده.

وإذا كان الحق - سبحانه - قد تكفل للإنسان ببيان أصول عقيدته، ونظام حياته؛ لأن علم الإنسان المحدود لا يكفى فى هذا المجال الأساسى الذى تقوم عليه حياته. فإنه - سبحانه - قد ترك للعقل والإدراك البشرى والضمير الإنسانى أن يبحث وأن ينقب عن سنن الكون وقوانينه، وأن يعرف منها ما هو مقدر له أن يعرف؛ لينتفع به فى تنمية الحياة وترقيتها. لقد ترك الله للإدراك البشرى معرفة الحقائق العلمية عن طريق الكد والكدح، والبحث والتجربة، والمحاولة والخطأ، ولم يتكفل - سبحانه - ببيان تفصيلاتها له، لأنها داخلة فى طوقه بالقدر الذى يلزم له فى أداء وظيفته الأساسية وهى الخلافة فى الأرض.

لكن هذا لا يمنع من التأكيد لدى الناشئة، على أن «الحقائق العلمية» و«النظريات العلمية» كليهما ليس قطعى الدلالة، ولا مطلق الدلالة.. فهى علم ظنى فى أحسن الأحوال.

كما يجب التأكيد على أن النصوص القرآنية قطعية الدلالة، ومطلقة الدلالة، ونهائية فى تقرير الحقيقة التى تقرها، ومن ثم لا يجوز أن يستشهد على صدقها «الحقائق العلمية» ولا «بالنظريات العلمية»، لأنه لا يجوز الاستشهاد على صدقها إلا بما هو من جنسها. لكن هذا لا يمنع من الانتفاع بما يثبت من «الحقائق العلمية» - وليس «النظريات العلمية» فقط - فى توسيع مدى الرؤية البشرية والفهم الإنسانى لدلالات بعض النصوص القرآنية.



وهذا يعنى أننا لا يجب أن نسارع إلى تعليق مدلولات النصوص القرآنية بما وصل إليه علم البشر، أو ما سيصل إليه علمهم فى المستقبل.. إن أقصى ما يمكن أن نتوقعه من علم البشر أن يصلوا إلى بعض الحقائق التى تتفق مع الحقائق القطعية النهائية المطلقة التى حدث بها خالق الكون العليم الخبير[1].

أما شق الكون الآخر، فهو الكون المغيب، ومنه الروح، والملائكة، والجن والشياطين وإبليس، والجنة والنار، والملأ الأعلى.. إلخ. فهذا الجانب من الكون قد استأثر الله بعلمه، ويجب على المناهج التربوية وعلى الدارسين والباحثين عدم الخوض فيه، وقد وصف الله بعض مظاهر هذا الكون بالقدر الذى يمكّن الإنسان من التعامل معه والتفكير فيه، والقرب منه أو الابتعاد عنه، والكون كله: غيبه وشهوده، هو كونه عابد لله، أمره الله فأطاع.

﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾﴾ [فصلت].

وهو كون صديق للحياة والأحياء، مأنوس للإنسان بوجه خاص. أعده الله لاستقبال الحياة وحضانتها وكفالتها وإقاتتها:

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾ [إبراهيم].

وأقوات الأرض مدخرة فى تربتها وفى جوفها منذ أن خلقها الله، وفيها الكفاية. لكننا لطول الألفة ننسى مدى ما فيها من عجب:

﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ

---

(١) سيد قطب: مقومات التصور الإسلامى، مرجع سابق، ص ٣٢٩.

﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ ﴾ [فصلت].

وهو كون صـديق للحياة والأحـياء، وليس عدوا للحـياة كمـا يقول بعض العلماء الطبيعيين، فـهو كون مصمم لخدمة الحياة والأحـياء، ولخدمة الإنسان على وجه الخصوص:

﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ [الجاثية].

«إن عنصر الجمال مقصـود قصدًا فى بناء الكون، وفى ظواهره، وفى الحياة المبثـوثة فيه، وإيقاظ حـاسة الجمـال فى البشر، مقـصود كذلك قـصدًا فى المنهج القرآنى، وفى التربية الإسـلامية بهذا المنهج. . فالله سبحانه وتعـالى جعل الجمال عنصـرًا من عناصر بناء الكون والحـياة. والكمـال فى صنعتـه الباهرة يحـقق هذا الجمال»(١).

والمنهج القرآنى يوجـه أنظار البشر إلى «المنفعـة» الحاصلة لهم من هذا الخلق الجميل للكون، وإلى دلالة هذا الخلق على خالقه.

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ ﴾ [يونس].

﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [الأنعام].

﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ ﴾ [الفرقان].

ويوجه الأذهان إلى تنوع الألوان، وجمال هـذا التنوع، وتوزعه بين الجوامد والأحياء سواء:

---

(١) المرجع سابق، ص ٣٣٨.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾ [فاطر].

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأنعام].

هذا هو الكون الذى خلقه الله لنتعرف عليه، ونتلطف معه، لا لنتصارع معه. فالسلام مع الكون مسألة ذات قيمة شعورية فى حياة الإنسان الواقعية، فذلك يجعل الإنسان يمضى مطمئنًا فى هذا الكون لكشف سنن الله فيه، وجعلها كلها للخير.

إن هذا الهدف يجب أن يوجه مناهج التربية عامة ومناهج علوم الشريعة خاصة إلى نوعية النصوص التى تقرر وتدرّس فى كل مرحلة وفى كل عمر، وإلى نوعية الخبرات المرتبطة بها فى واقع الحياة، وهذا بالإضافة إلى أنه يوجه الناشئة إلى كيفية التعامل مع مفردات الكون، بمعرفتهم لطبيعته، وفهمهم لعلاقتهم به ودورهم فيه.

إن مناهج التربية التى لا تأخذ فى اعتبارها تحقيق هذا الهدف فى الناشئة، سوف تخرج أجيالاً يرددون بلا وعى - إلا من عصم الله - ما قاله عمر الخيام، وتغنت به أم كلثوم:

لبست ثوب العيش لم أستشر	وحرت فيه بين شتى الفكر
وسوف أنضوه برغمى ولم	أدرك لماذا جئت أين المفر!
أفنيت عمرى فى اكتناه القضاء	وكشف ما يحجبه فى الخفاء
فلم أجد أسراره وانقضى عمرى	وأحسست دبيب الفناء
أفق وصب الخمر أنعم بها	واكشف خبايا النفس من حجبها

ورو أوصالى بها قبلما ... يصاغ دن الخمر من تربها

سأنتحى الموت حثيث الورود ... وينمحى اسمى من سجل الوجود

هات اسقنيها يا منى خاطرى ... فغاية الأيام طول الهجود

«لقد تصور الكون مغلقًا لا ينفذ العلم البشرى إلى سطر واحد من سطوره، وغيبًا مجهولاً يقف الإنسان أمام بابه الموصد يدقه بلا جدوى. وفى هذا التيه لا يعلم الإنسان من أين جاء، ولماذا جاء؟ ولا يدرى أين يذهب، ولا يستشار فى الذهاب!»[1].

كما يرى أن هذه الحياة المجهولة المصدر والمصير، فى هذا العماء الذى يعيش فيه الإنسان لا يستحق أن يحفل بها الإنسان أو يكدح من أجلها.. وإذن فلا ضرورة للوعى الذى لا يؤدى إلى شىء!

فهل يقبل المربون والمنهِّجون المسلمون عندنا أن يتخرج على أيديهم أجيال بهذه الرؤية وبهذا التصور؟!

٥- فهم حقيقة الحياة الدنيا والآخرة:

لا بد أن تعمل التربية على تفهم الأجيال الناشئة حقيقة الحياة: غيبها وشهودها، دنياها وأخراها.

ولا بد أن يفهموا أن «الحياة ليست إلهًا! ليست قوة مدبرة فى ذاتها تنشأ وتنشئ وفق إرادتها المستقلة. كذلك هى ليست تلقائية، وجدت مصادفة وتمضى خبط عشواء!

إنما هى خليقة أنشأها الله - سبحانه - بقدر، وتمضى كذلك وفق قدر. وهى مودعة خصائصها الذاتية التى تفرقها من الموت. أعطاها هذه الخصائص الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى، والذى يخرج الحى من الميت، ويخرج الميت من

(١) سيد قطب: فى التاريخ فكرة ومنهاج، الطبعة السابعة، بيروت، دار الشروق، ١٠٤٧هـ ١٩٨٧م، ص ١٢ - ١٣.

الحى، والذى يتوفى الأنفس حين موتها، والذى خلق الموت والحياة. والذى يبدأ الخلق ثم يعيده[(1)].

كذلك لا بد أن تفهم الأجيال أن «الطبيعة ليست إلهًا، ليست هى التى خلقت نفسها، وليست هى التى خلقت الحياة. إنما الله - سبحانه - هو الذى خلق الطبيعة وجعلها مناسبة لظهور الحياة، وهيأ الأرض لنوع الحياة الذى نشأ فيها، وجعل التناسق بين الطبيعة والحياة، وبين الأحياء بعضها وبعض، هو الأصل والقاعدة.

كذلك لا بد أن تفهم الناشئة أنه كما أن الحياة حادثة وصادرة عن إرادة الله وحده وبقدره، فهى ناشئة - بتلك الإرادة وهذا القدر - من أصل واحد وهو الماء: ﴿... وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ... ﴿٣٠﴾﴾ [الأنبياء]... ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ ... ﴿٤٥﴾﴾ [النور]. أما كيف تسلسلت الحياة، وهل تطورت عبر الزمان أم نشأت واحدة هكذا أنواعًا، فهذا مما لم يتعرض له القرآن.. ومجال الدراسة فيه مفتوح.

على أن ذلك لا يجب أن يختلط بنشأة الإنسان الصريحة القاطعة. فالنصوص القرآنية ترينا كيف خلق الله الإنسان، وإن كانت لم تدلنا متى كان ذلك. فخلق الله للإنسان صريح فى قوله - سبحانه - : ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [ص].

وكما تقوم الحياة على قاعدة النشأة من الماء، وكذلك تقوم على قاعدة «الزوجية» التى لا تشمل الأحياء فقط، ولكنها كذلك تشمل الأشياء ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [الذاريات]. وتقدير الزوجية هذا، واشتمال الحياة على الضمانات التى تجددها وتكثرها عن طريق هذه الزوجية. وتوافر الجنسين فى كل نوع بالنسبة الكافية للبقاء والتكاثر دليل على القصد والتدبير،

---

(1) سيد قطب: مقومات التصور الإسلامى، مرجع سابق، ص ٣٥٨.

يكرر القرآن ذكـره، وهو دليل لا يواجهه المنكـرون إلا بالإنكار أو الهروب فى كل حال.

«وهذه الحـياة مـقـدرة أقواتهـا فى بنيـة الأرض، وفى نظام الكون.. وهى حقيقـة واقعة تكذب كل ادعاء آخر، وتسخر من نظريات المتـشائمين والداعين إلى تحديد النسل (نظرية مالتوس).. فهناك موافقات فى كيان الحياة ذاته، وفى الظروف المحيطة بهـا، تجعل حقـيقة تقـدير الأقوات أوسع من مادة الأقـوات ذاتها.. وتمد محيطهـا إلى ما فى بنية الكون من طاقات ومدخرات، ومـا فى تكامل الأحياء من عمليات تعـويض، وما فى ضوابط الحياة من ضمـانات للتناسق بين بعض الأحياء وبعض، وبين الأحياء جميعًا والأقوات المدخرة»[1].

وكما تقوم الحياة على قاعدة النشأة من «الماء» وعلى قاعدة «الزوجية» كذلك تقوم عـلى قاعدة «الأمـة المنظمة» فكـل ما يدب على الأرض من أحـياء أمم ذات تنظيمـات كأمة الإنسـان. فهى كلها من أصل واحـد، وهى كلها تخـضع للخالق العظيم الـذى أودع هذه الأمم فطرتهـا وضـــوابطهـا، والإنسـان هو قـمـة هذه المخلوقات، وهى كلهـا مسخـرة له.. «لكنه إنما يرتفع إلى مقـامه هذا باحتـفاظه بسبب امتيـازه، وهو اتصال روحه بمصدر امتيازه، فـإذا فارق هذا المقام صار أضل من الحيوان»!

والأحـيـــاء مكفـــولون بـرزق الله: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا...﴿٦﴾﴾ [هود]، مـحاطون بعلـم الله ورعايتـه: ﴿... وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ...﴿٦﴾﴾ [هود]، وخاضعون لسلطان الله: ﴿... مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ...﴿٥٦﴾﴾ [هود].

والأحياء كلها فى عبادة الله: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلائِكَةُ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [النحل].

---

(١) المرجع السابق، ص ٣٥٩.

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ ﴿١٥﴾﴾ [الرعد].

﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾ [الإسراء].

«هناك عوالم أخرى من الأحياء - غير دواب الأرض التى تشمل الإنسان - وهى عوالم أخبرنا الله بوجودها. وليس لنا من مصدر آخر للعلم بها إلا ما أخبر الله عنها، هى الملائكة والجن، ومن الجن الشياطين، وإبليس على رأس الشياطين! والإنسان يتعامل مع هذين الخلقين، ويتأثر بهما فى الدنيا والآخرة»[1].

هذه هى حقيقة الحياة التى يتعامل معها «الإنسان» خليفة الله فيها.. ومهمة مناهج التربية هى ترسيخ هذه الحقيقة فى عقول وقلوب الناشئة، حتى يفهموا أن مهمتهم فى الحياة - كخلفاء الله فى الأرض - هى إعمارها وترقية الحياة على ظهرها وفق منهج الله.. وأن وسيلتهم فى ذلك هى تحكيم الله ورسوله فى كل ما شجر بينهم فى أمور حياتهم، مستهدين فى ذلك بمعايير العلم، والعدل، والحرية، والشورى والإحسان فى العمل.

إنه إذا لم تعمل المناهج التربوية جادة على تحقق الهدف، فإننا سنرى الكثيرين يرددون - بوعى وبدون وعى - ما يشدو به المغنون هذه الأيام:

جايين الدنيا ما نعرف ليه.

ولا رايحين فين، ولا عايزين إيه.

مشاوير مرسومة لخطاوينا.

نمشيها فى غربة ليالينا.

يوم تفرحنا، ويوم تجرحنا.

واحنا لا واحنا عارفين ليه... إلى آخر هذا الهراء!

---

(١) المرجع السابق، ص ٣٥٩

٦ - فهم حقيقة الإنسان:

إن من أهم الأهداف التى يجب أن تعمل مناهج التربية فى التصور الإسلامى عموما، ومناهج العلوم الشرعية على وجه الخصوص، على تحقيقها فى المتعلمين هو فهم الحقيقة الإنسانية. ونحن لا نملك أن ندرك حقيقة الإنسان إدراكا واضحا حتى ندرك وظيفته الأساسية، أو غاية جوده الإنسانى. وهى أنه خليفة الله فى الأرض. ومقتضى الخلافة أن يعمل الإنسان على إعمار الأرض ورقية الحياة على ظهرها وفق منهج الله[1].

إذن فخلافة الإنسان فى الأرض مشروعة ومقيدة بعهد الله وميثاقه. وإحسان القيام بالخلافة يبدأ من كشف النواميس والأرزاق والمدخرات التى أودعها الله فى هذا الكوكب يوم خلق الأرض وقدر فيها أقواتها، وينتهى إلى تسخير هذا كله فى تنمية الحياة وترقيتها على أساس من العلم والعدل، وهنا يصبح إعمار الأرض وترقية الحياة هو «العبادة» وهو جواز المرور إلى رضوان الله والجنة.

ولما كانت هذه وظيفة الإنسان، فقد جعله الله بنية حية متحركة، وهو يتحرك لأداء وظيفته، وتحقيق غايته. «فالإنسان مخلوق خاص، ذو كيان متميز، تميزه فى ازدواج عناصر تكوينه، مستخلف فى الأرض، مزود بخصائص الخلافة، وأولى هذه الخصائص: الاستعداد للمعرفة النامية المتجددة، ومجهز لاستقبال المؤثرات الكونية والانفعال بها والاستجابة لها. ومن مجموع انفعالاته واستجاباته يتألف نشاطه الحركى للتعمير والتغيير والتعديل والتحليل والتركيب والتطوير فى مادة هذا الكون وطاقاته للنهوض بوظيفة الخلافة.

«وهو كائن كريم على الله، ذو مركز عظيم فى تصميم الوجود. على الرغم من كل ما فى طبيعته من استعداد للضعف والخطأ، والقصور والتردى - ولكن استعداده للمعرفة الصاعدة، وحَمْل أمانة الاهتداء، والتبعة، يجعله كائنا فريدا، يستحق تكريم الله له واختصاصه بمقام الخلافة فى الأرض عنه - سبحانه - وقبول

(١) المرجع السابق، ص ٣٦١ - ٣٦٢.

توبته. كما يستحق تلك العناية الإلهية به بإرسال رسله ورسالاته لهديه.. وهو أكرم من كل ما هو مادى؛ لأن كل ما هو مادى مخلوق له»[1].

هو كائن يتعامل مع الكون كله، فهو يتعامل مع الله، كما يتعامل مع الملأ الأعلى من الملائكة، ومع الجن والشياطين، ومع نفسه واستعدادته المتنوعة، ومع سائر الأحياء الكونية، وسائر الطاقات فيه، الظاهرة والخفية، وهو مستعد - حسب تكوينه هذا - لأن يرتفع إلى أرقى من آفاق الملائكة المقربين، كما هو مستعد لأن ينحط إلى أدنى من دركات الحيوان البهيم، وذلك حسب ما يبذل من جهد فى تزكية نفسه أو تدنيسها.

والإنسان مخلوق مكون من شطرين، شطر مسيَّر كبقية ما فى الكون من ظواهر وحركات، والشطر الآخر هو الشطر المخيَّر الذى يمثل امتياز الإنسان وشرفه. فالإنسان يجىء إلى الحياة على غير إرادة منه ولا اختيار، وكذلك يولد لقوم، وفى أرض، وفى زمن، بلا إرادة، ولا اختيار، وقلبه ينبض، ودمه يجرى، وكل أجهزة جسمه تعمل وتتبع إرادة غير إرادته، وكذلك كل العمليات الكيماوية والميكانيكية داخل كيانه.

أما شطره المخيَّر، فهو أن الله قد منحه حرية الإرادة وحرية الاختيار. فهو الذى يختار الإيمان أو الكفر، والهدى أو الضلال، والصلاح أو الفساد فى الحياة. وقد منحه الله ذلك للابتلاء والاختبار، ثم الجزاء بالجنة أو النار.

فالله - سبحانه - قد جعل الإنسان مسيَّرًا فيما هو أقل وأدنى، وجعله مخيَّرًا فيما هو أرقى وأرفع. والمؤكد أن الإنسان لا يصلح ولا يسعد، ولا يطمئن ولا يستريح، إلا حين يتناسق شطره الاختيارى مع شطره الإجبارى، فيخضعان معا لقانون واحد يشرعه الله، وهو نفسه القانون الإلهى الذى يحكم الكون والحياة[2].

---

(١) المرجع السابق، ص ٣٥٠ - ٣٥١.

(٢) أبو الأعلى المودودى: الحكومة الإسلامية، جدة، الدار السعودية للنشر والتوزيع، ١٤٠٤هـ، ص ١٦١.

٧- تحقيق وسطية الأمة وشهادتها على الناس:

إن مناهج التربية الإسلامية عمومًا، ومناهج العلوم الشرعية فيها على وجه الخصوص، تستطيع - بعد تحقيق أهداف الإيمان بالله والأخوة في الله، وفهم حقيقة الألوهية، وحقيقة الكون، وحقيقة الحياة، وعن طريقها - إيصال المربَّى إلى درجة كماله التى تقدره على الإسهام بإيجابية وفاعلية فى تحقيق وسطية الأمة وشهادتها على الناس:

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا... (١٤٣)﴾ [البقرة].

والأمة الوسط، هى الأمة الأعلى والأشرف بين الأمم، لأنها تقوم على طريق الحق والعدل، ولها صفة «الوسط»؛ لأن لها صفة «الرئاسة» بين شعوب العالم، وعلاقتها مع الجميع علاقة حق وصدق بدرجة واحدة، وليس بينها وبين غيرها صلة تخالف الحق والصدق والشرعية(١).

فأمة الإسلام «أمة وسطًا».. فى التصور والاعتقاد.. لا تغلو فى التجرد الروحى ولا فى الارتكاس المادى.. تعمل لترقية الحياة ورفعتها، فى الوقت الذى تطلق كل نشاط فى عالم الأشواق وعالم النوازع».

«أمة وسطًا».. فى التفكير والشعور.. لا تجمد على ما عملت وتغلق منافذ التجربة والمعرفة.. ولا تتبع كذلك كل ناعق، وتقلد تقليد القردة المضحك.. إنما تتمسك بما لديها من تصورات ومناهج وأصول، ثم تنظر فى كل نتاج للفكر والتجريب، وشعارها الدائم: الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها أخذها، فى تثبت ويقين.

«أمة وسطا» فى التنظيم والتنسيق.. لا تدع الحياة كلها للمشاعر، والضمائر، ولا تدعها كذلك للتشريع والتأديب، وإنما ترفع ضمائر البشر بالتوجيه

---

(١) انظر: مفهوم الوسطية فى سيد قطب: فى ظلال القرآن، مرجع سابق، المجلد الأول، الجزء الثانى، ص ١٣٠ - ١٣٢.

والتهذيب، وتكفل نظام المجتمع بالـتشريع والتأديب، وتزاوج بين هذه وتلك، فلا تكل الناس إلى سـوط السلطـان، ولا تكلهم كـذلك إلى وحى الوجـدان. ولكن مزاجٌ من هذا وذاك.

«أمة وسطًا» فى الارتباطات والعلاقات. . لا تلغى شخصية الفرد ومقوماته ولا تلاشى شخصيـته فى شخصية الجماعـة أو الدولة، ولا تطلقه كذلك فردا أثِرًا جشعا لا هَمَّ له إلا ذاته. إنما تطلق من النوازع والخصائص ما يحقق شخصية الفرد وكيـانه، ثم تضع من الكوابح مـا يقف دون الغلو، ومن المنشطات ما يثـير رغـبة الفرد فى خدمـة الجماعة، وتقرر من التكـاليف والواجبات ما يجعل الفـرد خادما للجماعة، والجماعة كافلة للفرد فى تناسق واتساق.

«أمة وسطًا» فى المكان. . فى سرة الأرض، وفى أوسط بقاعـها. وما تزال هذه الأمة التى غمر أرضهـا الإسلام إلى هذه اللحظة هى الأمة التى تتوسط أقطار الأرض بين شرق وغـرب وجنوب وشمـال، وما تزال بموقعـها هذا تشـهد الناس جميعا، وتشهد على الناس جـميعا، وتعطى ما عندها لأهل الأرض قاطبة، وعن طريقهـا تعبر ثمار الطبـيعة وثمار الروح والفكـر من هنا وهناك، وتتحكم فى هذه الحركة ماديها ومعنويها على السواء.

«أمة وسطًا» فى الزمان. . تنهى عهد طفولة البشرية من قبلها، وتحرس عهد الرشد العـقلى من بعدها. وتقف فى الوسط تنفض عن الـبشرية مـا عَلَق بها من أوهام وخرافات من عـهد طفولتها، وتصدها عن الفـتنة بالعقل والهوى، وتزاوج بين تراثها الروحى من عهود الرسالات، ورصيدها العقلى المستمر فى النماء وتسير بها على الصراط السوى بين هذا وذاك[1].

إنها - إذن - الأمـة، التى تشهد على الناس جـميعـا، فتقـيم بينهم العدل والقسط وتضع لهم الموازين والـقيم، وتبدى فيـهم رأيا فيكون هو الرأى المعتـمد، وتزن قيمهم وتصوراتهم وتقاليدهم وشـعاراتهم فتفصل فى أمرها، وتقول هذا حق

(١) المرجع السابق، ص ٤٤٦ - ٤٤٧.



منها وهذا باطل، وليست التى تتلقى من الناس تصوراتها وقيمها وموازينها. وهى شهيدة على الناس، وفى مقام الحكم العدل بينهم. وبينما هى تشهد على الناس هكذا فإن الرسول ﷺ هو الذى يشهد عليها فيقرر لها موازينها ويحكم على أعمالها وقيمها وتقاليدها، ويزن ما يصدر منها ويقول فيه الكلمة الأخيرة. وبهذا تتحدد حقيقة هذه الأمة - ووظيفتها - لتعرفها، ولتشعر بضخامتها، ولتقدر دورها حق قدره، وتستعد له استعدادا لائقا.

إن ما يعوق هذه الأمة اليوم عن أن تأخذ مكانها هذا الذى وهبه الله لها، هو أنها قد تخلت فى كثير من أمور حياتها عن منهج الله الذى اختاره لها، واتخذت لها مناهج مختلفة ليست هى التى اختارها الله لها، واصطبغت بصبغات شتى ليست صبغة الله واحدة منها! والله يريد لها أن تصطبغ بصبغته وحدها.

والآن كيف نربى المسلم المعاصر كى يسهم فى تحقيق وسطية الأمة وشهادتها على الناس، وهو مقتضى من أهم مقتضيات الخلافة فى الأرض؟

﴿ رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [آل عمران]. من الضرورى أن يكون من أهداف مناهج التربية بناء الإنسان المؤمن بالله، والتابع لرسوله، الشاهد على ذلك، والشهيد فى سبيل ذلك. لا بد من تربية الإنسان على أنه مطلوب منه أن يؤدى شهادة لهذا الدين، شهادة تؤيد حق هذا الدين فى البقاء، لخير الجماعة ولخير البشرية كلها..

وهو لا يستطيع أن يؤدى هذه الشهادة إلا إذا جعل من نفسه ومن خُلُقه، ومن سلوكه ومن حياته صورة حية لهذا الدين. صورة يراها الناس فيرون فيها مثلاً رفيعًا يشهد لهذا الدين بالأحقية فى الوجود، وبالخيرية والأفضلية على سائر ما فى الأرض من أنظمة وأوضاع ومؤسسات.

لا بد من تربية الإنسان الذى يفهم أنه لا يستطيع أن يؤدى هذه «الشهادة» حتى يجعل من هذا الدين قاعدة حياته، ونظام مجتمعه وشريعة نفسه وقومه، وأن يجاهد فى سبيل ذلك، ويؤثر الموت فى سبيله على الحياة فى ظل مجتمع آخر لا يحقق منهج الله فى حياة الجماعة البشرية.. إن هذا الإيثار، وهذا الجهاد فى سبيل

منهج الدين هو شهادة من المسلم بأن هذا الدين خيـر من الحياة ذاتها، وأنه أعز ما يحرص عليه فى حياته، ومن ثَمَّ يدعى «شهيدًا» إذا عاش مجاهدًا فى سبيل تحقيق ذلك، أو مات مجاهدًا فى سبيل تحقيقه سواء. .

٨- الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر:

الهـدف الثـامن: هو الأمـر بالمعـروف والنهى عن المنكر، وهذا الهـدف هو «صفة» أمة الإسـلام، وهو فى ذات الوقت «وظيفة» هذه الأمة وسبيلـها إلى تحقيق الأهداف السابقة.

فالله - سـبحانه وتعـالى - يصف الأمة المسلمة لنفـسها؛ ليـعرفهـا مكانها وحقيقتها، ويطمئنها من جانب عدوها:

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ (١١٠) لَن يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذًى وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يُنصَرُونَ (١١١) ﴾ [آل عمران].

يقول بعض المفـسرين: «إن التعـبير بكلمـة (أُخرِجَت) المبنى لغيـر الفاعل، تعبير يلفت النظر، وهو يكاد يشى باليد المدبرة اللطيفة، تخرج هذه الأمة إخراجًا، وتدفعها إلى الظهور دفعا من ظلمات الغيب. . إلى مسرح الوجود»[١].

وإذا كان الله - سـبحانه وتعالى - يكرم هذه الأمـة ويرفع مقامهـا ويفردها بمكان خاص لا تبلغ إليه أمة أخرى، فهو يضع على كـاهلها واجبًا ثقيلاً، فهى أمة ذات دور خاص، ولها حساب خاص.

وهذا ما ينبغى أن تدركـه الأمة المسلمة، لتعرف حقيـقتها وقيمـتها، وتعرف أنها أُخرِجَت لتكون طليـعة، ولتكون لها القيـادة بما أنها أمة. والله يريد أن تكون القيادة للخير لا للشـر فى هذه الأرض، ومن ثم لا ينبغى أن تتلقى من غيرها من أمم الجاهلية، إنمـا ينبغى أن تعطى هذه الأمم مما لديها، وأن يكون لديهـا دائما ما

---

(١) المرجع السابق، ص ٤٤٧.

تعطيه، ما تعطيه من الاعـتقاد الصحيح، والتصور الصحـيح. . هذا واجبها الذى يحتمه علـيها مكانها، وتحتمه عليـها غاية وجودها، واجبهـا أن تكون فى الطليعة دائما، وفى مـركز القيادة دائمـة، ولهذا المركز تبـعاته، فهو لا يؤخـذ ادعاء، ولا يسلم لهـا به إلا أن تكون هى أهلا له. . وهى بتـصورها الاعـتقـادى، وبنظامهـا الاجتماعى أهل له. فيبقى عليهـا أن تكون بتقـدمها العلمى، وبعـمارتها للأرض - قياما بحق الخلافة - أهلا له كذلك. . ومن هذا يتبين أن المنهج الذى تقوم عليه هذه الأمة يطالبها بالشىء الكثير، وتلتزم به، وتدرك مقتضياته وتكاليفه.

«فى أول مـقتـضـيات هذا المكان أن تقوم على صـيـانة الحـياة من الشـر والفساد. . . وأن تكون لها القوة التى تمكنها من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، فهى خير أمة أخرجت للناس. . (لتقوم بهـذا) العمل الإيجابى لحفظ الحياة البشرية من المنكر، وإقـامتـها على المعـروف، مع الإيمـان الذى يحدد المعـروف والمنكر: ﴿ . . .تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ . . . ﴿١١٠﴾ ﴾ [آل عمران][1].

وإذا كان الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر هو «صفة» الأمـة الإسلامية -كما سبق أن رأينا - فـهو أيضًا وظيـفتهـا التى عن طريقها تقـيم منهج الله فى الأرض وتغلب الحق على الباطل، والمعروف على المنكر، والخير على الشر. . هذه الوظيفة التى من أجلها أنشئت الجـماعة المسلمة بيد الله وعلى عـينه، ووفق منهجه. . هذه الوظيفة يقـررها الله فى قوله: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [آل عمران].

فلا بد من جماعة تدعو إلى الخير، وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، لا بد من سلطة فى الأرض تدعـو إلى الخيـر وتأمر بالمعـروف وتنهى عن المنكر، والذى يقرر أنه لا بد من سلطة، هو مدلول النص القرآنى ذاتـه فهناك «دعوة» إلى الخير. ولكن هناك كذلك «أمر» بالمعـروف. وهناك «نهى» عن المنكر، وإذا أمكن أن يقوم «بالدعوة» غيـر ذى سلطان، فإن «الأمر والنهى» لا يقوم بـهما إلا ذو سلطان[2].

---

(١) المرجع السابق، ص ٤٤.

(٢) المرجع السابق، ص ١٢٨.

هذا هو تصور الإسلام للمسألة.. إنه لا بد من سلطة تأمر وتنهى.. سلطة تقوم على الدعوة إلى الخير والنهى عن الشر.. سلطة تتجمع وحداتها وترتبط بحبل الله وحبل الأخوة فى الله.. سلطة تقوم على هاتين الركيزتين مجتمعتين لتحقيق منهج الله فى حياة البشر.. وتحقيق هذا المنهج يقتضى «دعوة» إلى الخير يعرف منها الناس حقيقة هذا المنهج. ويقتضى سلطة «تأمر» بالمعروف «وتنهى» عن المنكر.. فتطاع.. والله يقول: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ ... (٦٤)﴾ [النساء].. فمنهج الله فى الأرض ليس مجرد وعظ وإرشاد وبيان. فهذا شطر. أما الشطر الآخر فهو القيام بسلطة الأمر والنهى، على تحقيق المعروف ونفى المنكر من الحياة البشرية، وصيانة تقاليد الجماعة الخيرة من أن يعبث بها كل ذى هوى، وكل ذى مصلحة، وضمانة هذه التقاليد الصالحة من أن يقول فيها كل امرئ برأيه وبتصوره، زاعمًا أن هذا هو الخير والمعروف والصواب.

ومن ثَمَّ فلا بد من جماعة تتلاقى على هاتين: الإيمان بالله، والأخوة فى الله؛ لتقوم على هذا الأمر العسير الشاق بقوة الإيمان والتقوى، ثم بقوة الحب والألفة، وكلتاهما ضرورة من ضرورات هذا الدور الذى ناطه الله بالجماعة المسلمة، وكلفها به هذا التكليف. وجعل القيام به شريطة الفلاح، فقال عن الذين ينهضون به: ﴿... وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٤)﴾ [آل عمران].

٩- استعادة تميز الأمة:

الهدف التاسع: هو استعادة تميز الأمة الإسلامية. إن المسلم المعاصر إذا أراد أن يعيش كريمًا، معززا على هذه الأرض، فلا بد له من أن يعمل على استعادة تميز هذه الأمة فى عقيدتها، وفى اتجاهها.

إن هذه العقيدة منهج حياة كامل. وهذا المنهج الذى يميز الأمة المستخلفة الوارثة لتراث العقيدة، الشهيدة على الناس، المكلفة بأن تقود البشرية كلها إلى الله... وتحقق هذا المنهج فى حياة الأمة المسلمة هو الذى يمنحها ذلك التميز فى الشخصية والكيان، وفى الأهداف والاهتمامات، وفى الراية والعلامة. وهو الذى يمنحها مكان القيادة الذى خلقت له، وأخرجت للناس من أجله. وهى بغير هذا



المنهج ضائعة فى الغمار، مبهمة الملامح، مجهولة السمات، مهما اتخذت من أزياء ودعوات وأعلام!.

إذن فالمسلم المعاصر لا بد أن يستعيد تميز أمته كى يتميز هو ويتخصص هو بعقيدته ومنهجه واتجاهه.. فهذا التميز تلبية للشعور بالامتياز والتفرد، كما أنه بدوره ينشئ شعوراً بالامتياز والتفرد.

«ومن هنا كذلك كان النهى عن التشبه بمن دون المسلمين فى خصائصهم، التى هى تعبير ظاهر عن مشاعر باطنة، كالنهى عن طريقتهم فى الشعور والسلوك سواء. ولم يكن هذا تعصبًا ولا تمسكًا بمجرد شكليات، وإنما كان نظرة أعمق إلى ما وراء الشكليات، كان نظرة إلى البواعث الكامنة وراء الأشكال الظاهرة. وهذه البواعث هى التى تفرق قومًا عن قوم، وعقلية عن عقلية، وتصوراً عن تصور، وضميراً عن ضمير، وخلقًا عن خلق، واتجاهًا فى الحياة كلها عن اتجاه»[1].

عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال: إن رسول الله ﷺ قال: «**إن اليهود والنصارى لا يصبغون، فخالفوهم**» [أخرجه مالك، والشيخان، وأبو داود].

وقال رسول الله ﷺ وقد خرج على جماعة فقاموا له: «**لا تقوموا كما تقوم الأعاجم يعظم بعضها بعضًا**» [رواه أبو داود وابن ماجه].

وقال ﷺ: «**لا تطرونى كما أطرت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله**» [أخرجه البخارى].

نهى عن تشبه فى مظهر أو لباس، ونهى عن تشبه فى حركة أو سلوك، ونهى عن تشبه فى قول أو أدب.. لأن وراء هذا كله ذلك الشعور الباطن الذى يميز تصوراً عن تصور، ومنهجًا فى الحياة عن منهج، وسمة للجماعة عن سمة.

ونهى عن التلقى من غير منهج الله الخاص الذى جاءت هذه الأمة لتحقيقه فى الأرض. يقول الله - سبحانه - عن الهدف النهائى لليهود والنصارى فى شأن المسلمين بصفة عامة:

---

(١) المرجع السابق، ص ١٢٩.



﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾﴾ [البقرة].

﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾﴾ [البقرة].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴿١٠٠﴾﴾ [آل عمران].

ثم «هو نهى عن الهزيمة الداخلية أمام أى قوم آخرين فى الأرض. فالهزيمة الداخلية تجاه مجتمع معين هى التى تدسس فى النفس لتقلد هذا المجتمع المعين. والجماعات المسلمة قامت لتكون فى مكان القيادة للبشرية، فينبغى لها أن تستمد تقاليدها - كما تستمد عقيدتها، من المصدر الذى اختارها للقيادة.. والمسلمون هم الأعلون، وهم الأمة الوسط، وهم خير أمة أخرجت للناس. فمن أين إذن يستمدون تصورهم ومنهجهم؟ ومن أين إذن يستمدون تقاليدهم ونظمهم؟ إن لم يستمدوها من الله فهم يستمدونها من الأدنى الذى جاءوا ليرفعوه!».

ولقد ضمن الإسلام للبشرية أعلى أفق فى التصور، وأقوم منهج فى الحياة. فهو يدعو البشرية كلها أن تفىء إليه. وما كان تعصبا أن يطلب الإسلام وحدة البشرية على أساسه هو، لا على أساس آخر، وعلى منهجه هو، لا على أى منهج؛ وتحت رايته هو، لا على أية راية أخرى. فالذى يدعوك إلى الوحدة فى الله، والوحدة فى الأرفع من التصور، والوحدة فى الأفضل من النظام، ويأبى أن يشترى الوحدة بالحيدة عن منهج الله والتردى فى مهاوى الجاهلية.. ليس متعصبا، أو متصلبا، ولكن للحق والصلاح!.

«والأمة المسلمة - اليوم - بين شتى التصورات الجاهلية التى تعج بها الأرض جميعًا، وبين شتى الاهتمامات الجاهلية التى تشغل بال الناس جميعًا، وبين شتى الرايات الجاهلية التى ترفعها الأقوام جميعًا.. الأمة المسلمة اليوم فى حاجة إلى التميز بشخصية خاصة لا تتلبس بشخصيات الجاهلية السائدة؛ والتميز بتصور



خاص للوجـود والحيـاة لا تلبس بتصورات الجـاهلية السـائدة؛ والتمـيز بأهداف واهتمامات تتفق مع تلك الشخصية وهـذا التصور؛ والتميز براية خاصة تحمل اسم الله وحده، فـتعـرف بأنها الأمة الوسط التى أخـرجهـا الله للناس، لتحـمل أمانة العقيدة وتراثها»(١).

١٠- العمل على تحقيق وحدة الأمة:

الهدف العاشر: هو أن الحفاظ على وسطية الأمة وتميزها وفق قاعدة الإيمان بالله، والأخـوة فى الله، والأمـر بالمعـروف، والنهـى عن المنكر، لا يكتـمل إلا بالعمل على وحدة هذه الأمة، والحفاظ على هذه الوحدة.

إن العقـيدة الإسلامـية، هى عقـيدة التوحـيد التى تشهـد بها سنن الكون، وناموس الـوجود. وفى تصويـر هذا الهدف الشامـل للأمة، يقول الحـق - تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾﴾ [الأنبياء].

«إن أمتكم. أمـة الأنبياء. أمـة واحدة. تدين بعقـيدة واحدة. وتنهج نهـجًا واحدًا، هو الاتجـاه إلى الله دون سـواه. أمة واحدة فى الأرض، ورب واحـد فى السمـاء، لا إله غيره ولا مـعبود إلا إياه. أمـة واحدة، وفق سنة واحدة، تشـهد بالإرادة الواحدة فى الأرض والسماء»(٢).

وكمـا تجتمع أمة الإسـلام حول إله واحد، ومنهج واحد، ورسـول واحد؛ فإنها تجـتمع وتتوجه حول قـبلة واحدة. . قبلة تجمع هذه الأمة وتـوحد بين أبنائها على اخـتلاف مـواطنهم، واختـلاف مواقـعهـم، واختـلاف أجناسهم وألسنتـهم وألوانهم، فيـحسون أنهم جـسم واحد، وكيان واحـد، يتجه نحـو هدف واحد، ولتحقيق منهج واحد.

وهكذا وحد الله هذه الأمة، وحدها فى إلهها، ورسولها، ودينها، وقبلتها. ولم يجعل وحدتها تقوم على قـاعدة من قواعد الوطن أو الجنس أو اللون، ولكن

---

(١) المرجع السابق، ص ٢٣٩٥ - ٢٣٩٦.
(٢) المرجع السابق، ص ١٣٤.

تقوم على عقيدتها وقبلتها، ولو تفرقت فى مواطنها وأجناسها وألوانها ولغاتها. .
إنها الوحدة التى تليق ببنى الإنسان؛ فالإنسان يجتمع على عقيدة القلب، ومنهج الفكر، وقبلة العبادة، إذا تجمع الحيوان على المرعى والكلأ والسياج والحظيرة[1].

ولا بد من تربية الإنسان المعاصر على الإيمان بضرورة التجمع والتكتل حتى تستعيد الأمة ما كان لها من قيادة وريادة للإنسانية. فقد كان الأستاذ حسن البنا يقول: «إن عصر الكيانات الصغيرة قد ولى، وإن الأمم الصغيرة لا تستطيع أن تعيش حياة كريمة فى عصر التجمعات الكبيرة والقارات. وكان يمثل الوحدة بالعدسة التى تجمع الأشعة المتفرقة من أشعة الشمس فتحرق بها الجسم الذى يتعرض لها. . فاجتماع الأشعة فى بؤرة واحدة، قد أكسبها قوة وشدة وبأسًا وتأثيرًا»[2].

والأمة الإسلامية، وهى أغنى الأمم بالروابط - كما سبق أن رأينا - قد دبت الفرقة بين أقطارها، وباتت الماديات فى قلوب أبنائها، واشتدت الخصومة فيهم. . ففقدوا الخير الكثير بفقد هذه الوحدة التى حثهم الله عليها:

﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠٣) ﴾ [آل عمران].

ويقول الرسول ﷺ لأصحابه: «**ألا أدلكم على أفضل من درجة الصلاة والصيام؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: إصلاح ذات البين؛ فإن فساد ذات البين هى الحالقة.. لا أقول تحلق الشعر.. ولكن تحلق الدين**».

نحن إذن فى حاجة إلى منهج لتربية المسلم المعاصر القادر على المساهمة بإيجابية وفاعلية فى تقوية الروابط التى تعيد لهذه الأمة وحدتها، وقيادتها،

---

(١) المرجع السابق.

(٢) حسن البنا: حديث الثلاثاء، سجلها وأعدها للنشر أحمد عيسى عاشور، مكتبة القرآن القاهرة، ص ٣٦٤ - ٣٦٥.

وسيادتهـا، المسلم الذى يعمل تحت شعار «نتعـاون فيما اتفقنا عليـه ويعذر بعضنا بعضًا فيما اختلفنا فيه».

١١- إعانة الطالب على تحقيق ذاته:

لكن حسن أداء الإنسان لرسالته فى الأرض وفق منهج الله، أى تحقيقه لذاته يقتضى إعداد الإنسان إعدادًا جيدًا، وشـحذ كل استعداداته وقواه المدركة، الظاهرة والباطنة، إلى أقصى حد هيأها الله له، فالولد لا بد أن يعد ويهيأ كى يكون رجلاً يقوم بمسئولياته كرجل فى العمل والإنتاج والبناء والتشييد وعمارة الحياة وترقيتها. والبنت لا بد أن تعـد وتهـيـأ كى تكون أنثى، وأمًّـا، ومـربية، ومـدبرة لمنزلهـا وأسرتها، وعاملة أيضًا أو موظفة، فيما يناسبها من الأعمال.

ويتم إعداد الإنسـان كى يحقق ذاته، ويحسن أداء رسـالته وفق منهج الله، عن طريق التربية فـى الأسرة، والمدرسة، والنادى، والمجتمع. فـإذا كان البيت هو أقوى هذه الوسائل الأربع - بحكم التـصاق الناشئة به، وقضائهم فـيه أطول فترة من طفولتـهم وصباهم وشبـابهم - فإنه الآن قد تفكك أو فى طريقـه إلى التفكك بسبب غياب عماد هذا البيت، وهو الأم فى العمل خارج البيت.

هنا تبرز المدرسة، بمناهجها المخططة وفق نظام دقيق؛ لتحقيق أهداف محددة وواضحة، كأبرز مؤسسة تربوية فى عصرنا الحاضر.

إن هذا يلقى على عـاتق المنهج المدرسى عـمومًـا، ومنهج العلوم الإنسانيـة واللغات على وجه الخصوص تبعـة تربية البنت تربية تؤهلها لكى تكون زوجة وأمًّا ومدبرة بيت، ومربية أجيال فى المقام الأول، ثم يأتى شىء آخر بعد ذلك.

فمنهج التربية الإسلامية - فى المجـتمع المسلم الذى يلتزم بتنفيذ شريعة الله - هو ذلك المنهج الذى يساعـد الفتاة على تحقـيق ذاتها وفق الفطرة: ﴿... فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ... ﴿٣٠﴾﴾ [الروم]، وذلك عن طريق إعـدادها فى مرحلة الشباب الباكر لمهمتها العظيمة المرتقبة، فإذا جاء الزواج كانت مهيأة لدورها بطريقة ملائمة.

إن ما أراده الله فطرة لا ينبغـى للبشر أن يحيدوا عنه؛ لأنهم حـين يحيدون عنه يفسدون لا محالة. وبتحقـيق فطرة الله فى الإنسان، تتحقق الذات الإنسانية، وهذه هى المهمة الرئيسية لمنهج التربية فى التصور الإسلامى.

والخلاصة أنه مما يشكل عظمـة أمة الإسلام، وشرفها وامـتيازها هو أن الله جعلهـا «أمة وسطًا».. قـائمة على الإيمـان بالله والأخوة فى الله.. داعـية إلى الخير.. آمرة بـالمعروف وناهية عن المنكر.. أمة موحدة، مـتميزة بالتزامهـا بالقيام بمقتضيات كل هذا، وتبعاته، وتكاليفه.

لكن علاقة الأمة بالـكون لا تستقيم أبدًا ما دامت علاقتـها بخالق الكون لا تسير فى مسارها السليم، فعندما تفقد أمـة حيثيات العظمة والشرف والامتياز التى أنيطت بها من قبل اللـه، فإنها تعزل عن قيادة الدنيـا وزعامتها، كـما حدث لبنى إسرائيل عندما عزلهم الله عن القيادة وأسندها لأمة الإسلام التى توافرت فيها هذه الحيثيات اللازمة لإمامـة الدنيا، وإقامة منهج الله فى الأرض، وهو الهدف النهائى الذى من أجله أنشئت الجماعة المسلمة الأولى بيد الله وعلى عينه.

إن المسلم المعاصر بحاجة إلى أن يكون قادرًا على المسـاهمة بإيجابية وفاعلية فى تحقيق هذه الأهداف التى بها تعلو أمة الإسلام كما كانت، وتقيم منهج الله فى الأرض، إن ذلك هو ما تقتضيه خلافة الأرض.

١٢- إعداد المسلم للجهاد فى سبيل الله:

لا بد من إدراك الأجيال المسلمة لمفهوم الجـهاد فى سبيل الله، هل هو مجرد قتال الكافرين وحـرب المعتدين، ودفاع عن المظلومين؟ أم أنه مفهـوم أكبر وأشمل من كل هذا، إن مـهمة مناهج التـربية الإسـلاميـة هى إيضاح هذا المفهـوم نظريا وإعداد المسلم - عمليًا -؛ لتطبيق مفهوم الجهاد بمعناه السليم، وهذا يعنى ما يلى:

أولاً: أن الإسلام هو رسالة السلام الحقيقية والعدل والطمأنينة. فالإسلام من السلام، وقد وضع للسلام، فـتحية المسلمين ونهاية صلاتهم السـلام، وتحيتهم فى الجنة السلام، فـالإسلام دين السلام: ﴿... قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾

يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ ﴾ [المائدة].

والسلام الذى جاء الإسلام لإقراره فى الأرض إنما جاء ليعالج ناحيتين مهمتين، وبين للناس فيهما وجه الحق. وهاتان الناحيتان - كما يقول الأستاذ حسن البنا - هما: الناحية الأخوية الإسلامية والناحية الأخوية الإنسانية العامة[1].

لقد جاء الإسلام فرأى الناس يتفاضلون ويتمايزون على أساس من اللحم والدم والقوم، والأرض والطين، فقرر أن هذا وهم باطل، وأن الناس جميعًا لآدم، وآدم من تراب:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ ﴾ [النساء].

وبين أن التفاضل والاستعلاء إنما يكون بالتقوى والأعمال الصالحة: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾ [الحجرات]. فبالمعنى الأول انتزع الكبر، وبالمعنى الثانى انتزع الحمية، وورارى عصبية القبيلة، وعصبية الجنس، وعصبية الأرض. تلك العصبيات التى قال رسول الله ﷺ فى شأنها لأصحابه: **«دعوها فإنها منتنة»**.. وقال لهم: **«ليس منا من دعا إلى عصبية، وليس منا من قاتل على عصبية، وليس منا من مات على عصبية»**.

إذن فالجهاد فى الإسلام قد شرع لحماية رسالة الإسلام القائمة على العقل والطمأنينة، والأخوة الإسلامية، والأخوة الإنسانية، التى تسمو بالإنسان ترفعا عن نتن اللحم والدم، ولوثة الأرض والطين.

ثانيًا: أن الإسلام هو خاتم الرسالات الإلهية للإنسان. وقد جاء حينما بلغت البشرية سن الرشد. إن الاعتقاد بأن هذه الرسالة هى الخاتمة قد بث فى الإنسان

---

(١) المرجع سابق، ص ٤٢٦.

روح الثقة ببلوغه سن الرشد، وحفزه على التقدم فى مضمار عمارة الأرض، وترقية الحياة على ظهرها، والاعتماد على العلم والتجربة فى الحياة اليومية. فالإنسان ليس فى حاجة اليوم إلى أن ينتظر وحيا جديدا من السماء فيرفع بصره إليها فى حالة انتظار وترقب، وإنما حاجته اليوم أن يفكر وأن يستخدم مواهبه وطاقاته فى استثمار طاقات الكون وكنوز الأرض لسعادته وترقية حياته. إن الاعتقاد بأن الرسالة المحمدية هى خاتمة الرسالات، يبعث فى الإنسان روح الطموح والتقدم، ويحثه على استخدام مواهبه بكفاءة، ويعين له المجال السليم لكفاحه وكدحه[1].

إنه لولا هذا الاعتقاد لفقد الإنسان ثقته بنفسه، وبقى فى ريب دائم، وظل شاخصًا إلى السماء، بدلا من أن يعمر فى الأرض، وفقد ثقته بمستقبله، وثارت شكوك وشبهات حوله، ووقع فريسة المتنبئين على الدوام!

ووظيفة الجهاد هنا هى الحفاظ على الرسالة الخاتمة. وتثبيت حاكميتها فى الأرض، فهى ما نزلت إلا لتحكم الحياة، وتنظم شئون الناس على أساسها، ويعم خيرها البشرية جميعًا. فالجهاد هنا لحماية الناس من المتنبئين على الدوام الذين يؤكدون «أن الروضة الإنسانية كانت ناقصة، فجاءوا ليبلغوها إلى كمالها» - كما يقول زعيم القديانية! - والجهاد أيضا لحماية الناس من طغاة الأرض الذين نصبوا أنفسهم آلهة يشرعون، والناس عبيدٌ يطيعون. والجهاد حماية للرسالة الخاتمة من أصحاب الفلسفات والنظريات التى تنفى وجود الله أصلاً، أو فى أحسن الأحوال تجعل لله ملكوت السماء، وتتصرف هى فى ملكوت الأرض!

إن الجهاد هنا باختصار هو «انتزاع سلطان الله المغتصب، ورده إلى الله، وطرد المغتصبين له، الذين يحكمون الناس بشرائع من عند أنفسهم، فيقومون منهم

---

(١) أبو الحسن على الحسينى الندوى: النبوة والأنبياء فى ضوء القرآن، الطبعة السادسة، دمشق، دار القلم، ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤م، ص ٢٤٤ - ٢٤٥.

مقام الأرباب، ويقوم الناس منهم مقام العبيد.. إن معناه تحطيم مملكة البشر لإقامة مملكة الله فى الأرض»[1].

أو بالتعبير القرآنى:

﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَهٌ ... ﴿٨٤﴾﴾ [الزخرف].

﴿... إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ... ﴿٤٠﴾﴾ [يوسف].

ثالثا: تمتيع البشرية كلها بخير الإسلام ونعمته وعدله. «لقد جاءت هذه العقيدة فى صورتها الأخيرة التى جاء بها الإسلام، لتكون قاعدة للحياة البشرية فى الأرض من بعدها، ولتكون منهجا عاما للبشرية جميعا، ولتقوم الأمة المسلمة بقيادة البشرية فى طريق الله وفق هذا المنهج، المنبثق من التصور الكامل الشامل لغاية الوجود كله، ولغاية الوجود الإنسانى، كما أوضحها القرآن الكريم، المنزل من عند الله، قيادتها للخير الذى لا خير غيره فى مناهج الجاهلية جميعا، ورفعها إلى هذا المستوى الذى لا تبلغه إلا فى ظل هذا المنهج، وتمتيعها بهذه النعمة التى لا تعدلها نعمة، والتى تفقد البشرية كل نجاح وكل فلاح حين تحرم منها، ولا يعتدى عليها معتد بأكثر من حرمانها من هذا الخير، والحيلولة بينها وبين ما أراده لها خالقها من الرفعة والنظافة والسعادة والكمال»[2].

ولما كان الله قد أرسل محمدًا برسالته الخاتمة إلى البشر كافة فى جميع أقطار الأرض: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ... ﴿٢٨﴾﴾ [سبأ]، ولما كان الإسلام هو السلام للإنسانية جميعًا، ولما كان الله يريد للإنسانية أن تنعم بخيره ورحمته وهدايته، ولا يريد أن يكون ذلك وقفا على قوم دون قوم، أو جنس دون جنس، فقد انبثق من ذلك ثلاثة حقوق تستوجب الجهاد فى سبيل إقرارها:

---

(١) سيد قطب: معالم فى الطريق، مرجع سابق، ص٦٧.

(٢) سيد قطب: فى ظلال القرآن، مرجع سابق، ص ١٨٦.

١ - «من حق البشرية أن تُبلَّغ إليهـا الدعوة إلى هذا المنهج الإلهى الشامل، وألاَّ تقف عقبة أو سلطة فى وجه التبليغ بأى حال من الأحوال» فالأمة المسلمة قد أناط الله بها مهـمة حماية العبادة والاعتقـاد للناس جميعا، ودفع الظلم والقهـر الذى قد يحول دون ذلك، وكفالة الـقسط والعدل للبشـرية كافـة، ومقـاومة الشر والـفساد فى الأرض، بحكـم الوصاية الرشيدة التى ناطها الله بهذه الأمة:

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ... (١١٠) ﴾ [آل عمران].

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ... (١٤٣) ﴾ [البقرة].

٢ - «ومن حق البـشرية كذلـك أن يترك الناس بعـد وصول الدعوة إلـيهم أحرارًا فى اعتناق هذا الدين لا تصدهم عن اعتناقه عقبة أو سلطة، فإذا أبى فريق منهم أن يعـتنقه بعد البيان، لم يكـن له أن يصد الدعوة عن المضى فى طريقها، وكان عليه أن يعطى من العـهود ما يكفل لها الحرية والاطمئنان، وما يضـمن للجماعة المسلمـة المضى فى طريق التبليغ بلا عدوان»[1].

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٩٩) ﴾ [يونس].

﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ... (٢٥٦) ﴾ [البقرة].

٣ - ومن حق هؤلاء الذين هداهم الله فاعتنقوا هذه الدعوة. «من حقهم ألا يفتنوا عنها بأى وسيلة من وسائل الفتنة، لا بالأذى، ولا بالإغراء، ولا بإقـامة أوضـاع من شـأنهـا صد النـاس عن الهدى، وتعـويقـهم عن الاستجابة، وكان من واجب الجـماعة المسلمة أن تدفع عنهم بالقوة من

(١) المرجع السابق.

يتعرض لهم بالأذى والفتنة، ضمانا لحرية العقيدة وكفالة لأمن الذين هداهم الله، وإقرارا لمنهج الله فى الحياة، وحماية للبشرية من الحرمان من ذلك الخير العام»[1].

وينشأ عن هذه الحقوق ثلاثة واجبات على الجماعة المسلمة:

الأول «هو تحطيم كل قوة تعترض طريق الدعوة وإبلاغها للناس فى حرية، أو تهدد حرية اعتناق العقيدة وتفتن الناس عنها وأن تظل تجاهد حتى تصبح الفتنة للمؤمنين غير ممكنة فى الأرض، ويكون الدين لله.. لا بمعنى إكراه الناس على الإيمان.. لكن بمعنى استعلاء دين الله فى الأرض، بحيث لا يخشى أن يدخل فيه من يريد الدخول، ولا يخاف قوة فى الأرض تصده عن دين الله... وبحيث لا يكون فى الأرض وضع أو نظام يحجب نور الله وهداه عن أهله ويضلهم عن سبيل الله، بأية وسيلة وبأية أداة.

والواجب الثانى: أن يعلم المسلمون أنهم لا يُنصرون بعددهم، ولا يُنصرون بعدتهم وعتادهم، إنما هم ينصرون بإيمانهم وطاعتهم وعون الله لهم، فإذا هم تخلوا عن توجيه الله لهم، وتوجيه رسول الله ﷺ فقد تخلوا عن سبب النصر الوحيد الذى يرتكنون إليه.

والواجب الثالث: أن يدرك المسلمون أن الجهاد الوحيد الذى يأمر به الإسلام، ويقره ويثبت عليه، ويعتبر الذين قتلوا فى سبيله شهداء، والذين يحتملون أعباءه أولياء. هو الجهاد فى سبيل الله، أى الجهاد فى سبيل العقيدة لحمايتها من الحصار وحمايتها من الفتنة، وحماية نظامها ومنهجها فى الحياة: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ ... ﴾ [البقرة].

إنه القتال لله لا لأى هدف آخر من الأهداف التى عرفتها البشرية فى حروبها الطويلة، القتال فى سبيل الله، لا فى سبيل الأمجاد والاستعلاء فى الأرض، ولا فى سبيل المغانم والمكاسب. ولا فى سبيل الأسواق والخامات، ولا سبيل تسويد

(١) المرجع السابق، ص ١٨٧.

طبقة على طبقة أو جنس على جنس.. إنما هو القتال لتلك الأهداف المحددة التى من أجلها شرع الجهاد فى الإسلام. القتال لإعلاء كلمة الله فى الأرض، وإقرار منهجه فى الحياة، وحماية للمؤمنين به أن يفتنوا عن دينهم، أو أن يجرفهم الضلال والفساد، وما عدا هذا فهى حرب غير مشروعة فى حكم الإسلام، وليس لمن يخوضها أجر عند الله ولا مقام»[1].

هنا بعد أن عرضنا التصور الإسلامى لدواعى الجهاد وحقوق الإنسانية على الأمة المسلمة، وواجبات الأمة المسلمة نحو عقيدتنا ومنهجنا ونحو الإنسانية جميعًا - أقول: هنا يبرز السؤال التالى: هل الجهاد هو مجرد القتال، أم أن مفهومه أوسع وأشمل من ذلك؟

الحقيقة أن الجهاد فى الميدان ما هو إلا لون من ألوان الجهاد الكثيرة: فطلب العلم النافع الذى تعمر به الحياة وترقى، جهاد سبيل الله؛ لذلك كان رسول الله ﷺ يدعو ويقول: «**اللهم علمنى ما ينفعنى، وانفعنى بما علمتنى**». وكان ﷺ يعتبر طالب العلم مجاهدًا فى سبيل الله: «**من خرج فى طلب العلم فهو فى سبيل الله حتى يرجع**» [رواه الترمذى].

ويربط الحق - سبحانه - التفقه فى الدين - وهو قمة العلم - بالحركة الإيجابية الفاعلة: ﴿**وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (١٢٢)**﴾ [التوبة]. «إن المؤمنين لا ينفرون كافة، ولكن ينفر من كل فرقة منهم طائفة - على التناوب - لتتفقه فى الدين بالنفير والخروج والجهاد والحركة بهذه العقيدة، وتنذر الباقين من قومهم إذا رجعت إليهم بما رأته وما فقهته من هذا الدين فى أثناء الجهاد والحركة».

«إن هذا الدين منهج حركى، لا يفقهه إلا من يتحرك به، فالذين يخرجون للجهاد به هم أولى الناس بفقهه، بما يتكشف لهم من أسراره ومعانيه، وبما يتجلى لهم من آياته وتطبيقاته العملية فى أثناء الحركة له... ولعل هذا عكس ما يتبادر

(١) المرجع السابق.

إلى الذهن، من أن المتخلفين من الغزو والجهاد والحركة هم الذين يتفرغون للتفقه فى الدين! ولكن هذا وَهْم، لا يتفق مع طبيعة هذا الدين.. إن الحركة هى قوام هذا الدين، ومن ثم لا يفقهه إلا الذين يتحركون به، ويجاهدون لتقريره فى واقع الناس وتغليبه على الجاهلية، بالحركة العملية... الحركة التى تستهدف تحرير الناس من العبودية للعباد، وردهم إلى العبودية لله وحده، بتحكيم شريعة الله وحده، وطرد شرائع الطواغيت»[1].

«وجهاد النفس لون من أشق ألوان الجهاد؛ لأنه جهاد ضد النفس الأمارة بالسوء، والهوى الغلاب، والغريزة الطاغية، والشهوة المنحرفة، والمواريث الساقطة، والتقاليد الهابطة، والعادات السيئة، والثقافات المنحرفة الوافدة»... والصبر على الفترات التى يعلو فيها الباطل وينتفش ويبدو كالمنتصر! والصبر على طول الطريق وبُعد المشقة وكثرة العقبات فى طريق محفوف بالمكاره.

إن هذا اللون من الجهاد هو الذى يحدث تفاعلا داخليا وخارجيا يتولد عنه إنسان متميز متبوعًا لا تابعًا، ورأسًا لا ذيلاً، ومغيرًا بإرادته وطاقاته التى منحه الله إياها، وليس مجرد ترس فى عجلة الحتمية التاريخية أو الحتمية المادية أو أية حتمية أخرى!

وحين يفقد الإنسان هذا اللون من جهاد النفس، فإنه يتحول إلى مسخ مشوه للإسلام ولكل الفلسفات والنظريات الأخرى، فتجد المسلم الاشتراكى، والمسلم الشيوعى، والمسلم الرأسمالى، والمسلم الوجودى، وهلم جرا..!

ومن أهم ألوان الجهاد المطلوبة اليوم، الجهاد الاجتماعى. أى الجهاد من أجل تعديل أوضاع المجتمع المسلم التى انحرفت عن طريق الله. ويكون ذلك عن طريق الحكمة والموعظة الحسنة. إنه من الضرورى أن نتعامل بإيجابية وفاعلية من أجل تصحيح الأوضاع الاجتماعية التى لا تستقيم مع منهج الله: **فالاستغلال** ضد التوحيد، والتفاوت الاجتماعى البغيض ضد التوحيد؛ والجوع الكافر قد لا يترك

(١) المرجع السابق، ص ١٧٣٤ - ١٧٣٥.

للمرء لحظة يتـذكر فيهـا الله؛ ولذلك كان التوحـيد النقى دائمًا حـربًا على الجوع والاستغلال.

والاستبداد يتنافى مع منهج الله تمامًا؛ لأن الاستبداد فى جوهره تقزيم للذات البشرية وحصر لدائرة تطلعـاتها، وإنكار لمبدأ المساواة والعدالة بين الناس.. **القهر السياسى** يتصادم بالضرورة مع تكريم الله للإنسان؛ لأنه يحرم الإنسان من اكتشاف حقيقة الوجود، والاستقامة مع مقتضياتها، فالإنسان - حينئذ - يستبدل الخوف من الله بالخوف من البوليس، واستشعار رقابة الله بالاحتياط من رقابة المخابرات![1].

وإذا كان المجـتمع الإنسـانى كله فى كل مكان وزمان هو مـوضع للدعوة، والجهاد فى سبيلها فإن ذلك يستوجب ضـرورة أن يتسع مفهوم الجهاد طبقًا لظروف المجتمع ومتطلبات العصر وحاجـات الناس ومشكلاتهـم، فهو ليس مجرد قتال من أجل الدعوة فى مـيدان القتـال، وإنما هو أيضًا جد فى طلب العلم، وإحـسان فى العمل، وإحسان فى تربية الأجيال، وبذل للنفس، وبذل للمال، وهكذا كل نشاط تستقيم به حياة الإنسان على منهج الله، هو جهاد فى سبيل الله.

إن العمل المخـلص من أجل توحيـد أقطار الأمة حول كلـمة «لا إله إلا الله محمد رسول الله» هو أكبر ألوان الجهاد ضرورة ومشقة هذه الأيام.

إننا لا نستطيع أن نتعامل ونحن مفككون مشـتتون مع غير المسلمين المتحدين الذين قال الله فيهم: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ... (٧٣)﴾ [الأنفال]، إنهم مجتمعـات لا تتحرك كأفراد، إنما ككائن عضوى، تندفع أعضـاؤه، بطبيعة وجوده وتكوينه، للدفـاع الذاتى عن وجوده وكـيـانه، فهم بعـضهم أوليـاء بعض طبعـا وحكما.. ومن ثم لا يملك الإسـلام أن يواجههم إلا فى صـورة مجتـمع آخر له ذات الخصائص.. ولكن بدرجة أعمق وأمتن وأقوى.. ﴿... إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ (٧٣)﴾ [الأنفال].

---

(١) حسن أيوب: الجهاد والفدائية فى الإسلام، بيروت، دار الندوة الجديدة، ط٢، ١٤٠٢هـ -١٩٨٣م، ص٣٢.

١٣- إدراك أهمية العلم وقيمته فى إعمار الحياة:

لا بد أن يؤمن الناشئة بأن العلم هو شعار الإسلام، وهو وسيلة الإنسان فى القيام بواجبات الخلافة فى الأرض. وهذه منزلة اشرأبت لها أعناق الملائكة، وتشوفت إليها نفوسهم فلم يعطوها، ومنحها الله للإنسان(١).

لذلك عندما أراد الله أن يجعل الإنسان خليفة فى الأرض لتنفيذ منهج الله فيها، هيأه بالعلم: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [البقرة].

وتستمر رسالة العلم السابقة من آدم عليه السلام إلى محمد ﷺ، لتكون أولى كلمات الوحى عليه هى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾ [العلق].

وإذا كان طلب العلم - شرعيا كان أو كونيا - فريضة فى التصور الإسلامى، وطالب العلم مجاهد فى سبيل الله، فإن من نافلة القول: «إن التفكير فى خلق الله، والتدبر فى كتاب الكون المفتوح، وتتبع يد الله المبدعة، وهى تحرك هذا الكون، وتقلب صفحات هذا الكتاب.. هو عبادة لله من صميم العبادة، وذكر لله من صميم الذكر، ولو اتصلت العلوم الكونية، التى تبحث فى صميم الكون، وفى نواميسه وسننه، وفى قواه ومدخراته، وفى أسراره وطاقاته... لو اتصلت هذه العلوم بتذكر الخالق لهذا الكون وذكره، والشعور بجلاله، وفضله،

---

(١) يوسف القرضاوى: الخصائص العامة للإسلام، ط٢، القاهرة، مكتبة وهبة، ١٤٠١ هـ - ١٩٨١م، ص ٦٧.

لتحـولت من فورها إلى عبـادة لخالق هذا الكون وصلاة ولاسـتقامت الحيـاة بهذه العلوم واتجهت إلى الله. ولكن الاتجاه المادى الكافر، يقطع ما بين الكون وخالقه، ويقطـع ما بين العلـوم الكونية والحقـيـقة الأزلـية الأبدية، ومن هنا يتحـول العلم - أجمل هبة من الله للإنسان - إلى لعنة تطارد الإنسان، وتحـيل حياته إلى جحيم منكر، وإلى حياة قلقة مهددة، وإلى خواء روحى يطارد الإنسان كالمارد الجبار»[1].

١٤ - تعميق شعور الإيمان بالعدل كقيمة لا تعمر الحياة بدونها:

لا بد أن تدرك الأجيال الناشئة أنه إذا كـانت وظيفة العلم هى إعمار الأرض وترقية الحيـاة، فإن هذا لا يمكن تحقيقه إلا إذا كان مـستندًا إلى عدل الله. فالعلم إذا لم يستند إلى عـدل الله ينقلب إلى وسيلة للخراب والدمـار للمجتمع البشرى كله.

فالـعدل - إذن - هو القـيمـة التى توجه غـايات العلم نحو خـير الإنـسان والإنسانية جميعًا.

والعدل كمـا وضحه بعض الفقـهاء والمفسرين هو تنفـيذ حكم الله، أى أن يحكم الناس وفقًا لما جاءت به الشرائع السماوية. ولما كانت الشريعة الإسلامية هى كمال هذه الشرائع. فإن العمل بها إذن تحقيق للعدل الذى أمر الله به.

وتندرج تحت هذا المعنى العام للعدل معانيه الخاصة:

فهناك العدل فـى الحكم، والعدل فى النظام الاجتماعـى للأمة، والعدل فى القضـاء، والعدل فى سيـاسة الاقتـصاد، والعدل بيـن الرجل والمرأة، والعدل فى الحقوق والواجبـات، والعدل فى التربية والتعليم، والعـدل فى القول، والعدل فى العمل... إلخ.

ولما كان العدل على هذه الـدرجة من الأهمية فى التصـور الإسلامى، جعله الله واجبًا حـتى على الأنبياء : ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ

---

(١) سيد قطب: فى ظلال القرآن، مرجع سابق، ص ٥٤٥.



بالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ ﴾ [ص].

والعدل واجب حتى للأعداء. وهذه من أعظم فضائل الإسلام. وقد ورد النص على ذلك صريحًا في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [المائدة].

١٥ - تأكيد شعور الطلاب بأن الحرية فطرة إنسانية:

من الضرورى أن يدرك الناشئة أن الله قد فطر الإنسانية على الحرية، فالحرية فطرة فى الطبيعة الإنسانية، فالله - سبحانه - خلق الإنسان حرا، لأنه جعله مسئولاً عن تنفيذ منهجه فى الأرض، فالإنسان حر لأنه مسؤول. فالحرية تستتبع المسؤولية، والمسؤولية تستلزم الحرية. فنشاط المسلم كله حر، وهو كله عبادة لله، ما دام هذا النشاط حركة واحدة موجهة نحو هذه الغاية.

ومعنى كون الحرية فطرة فطر الله الإنسان عليها، أنها ليست مجرد منحة يمنحها النظام الاجتماعى للإنسان، أو يمنعها عنه، وإنما هى قيمة غريزية غرزها الله فى خلق الإنسان حين خلقه. ويعبر عن هذا المعنى قول عمر بن الخطاب: «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا».

فالحرية حاجة أساسية من حاجات النفس لا بد من إشباعها، وهى حق من حقوق الإنسان لا بد من ممارسته، فلا عجب - إذن - أن ينحرف سلوك الإنسان ويسوء عمله، وتهبط أخلاقه، ويتدهور حال مجتمعه كله إذا حرم ومنع من ممارسة حريته، أو إذا انفلت فى ممارستها دون ضبط أو تنظيم وفق معايير المنهج الإلهى.

وللحرية مظاهر كثيرة فى التصور الإسلامى:

فهناك حرية النصح والإرشاد، وإبداء الرأى، والنقد وفق معايير سليمة. وهناك حرية التملك والتصرف، وحرية العمل والكسب المشروع. وهناك حرية التفكير والاختيار وهو جوهر الحرية الإنسانية.

والإسلام يسير فـي مفهوم الحرية مع مقـتضى فكرته عن فطرة الإنسان على الإيمان بالله وحـده. فالإنسان غيـر المسلم الذى تصل إليه فكرة الإسلام واضـحة جلية دون ضـغوط أو حصار أو رفض قـائم على مقدرات سابقـة، لا بد أن يعود إلى فطرته السليـمة التى فطر الله الناس عليـها. لكن الإسلام يـريده أن يعود إلى الله بإرادته الحرة الواعية فهذا هو الطريق الوحيد الذى يستوجب المسؤولية.

١٦ - إدراك مفهوم الشورى فى التصور الإسلامى وتطبيقاته:

لا بد أن يدرك الناشئة أن نظام الشورى فى التـصور الإسلامى واجب ابتداء وملزم انتهاء. وأن الشورى تقـوم على أساس أن الحاكمية لله وحـده، فهو المشرع وحده دون البـشر؛ لذلك فـهى ليست كـالديمقراطيـات فى النظم العلمانـية التى تفصل الدين عن المجتمع والدولة.

لا بد أن يدرك شباب الأمـة أن الشورى جزئية فى النظام الإسـلامى العالمى النزعة، الذى يرمى إلى ضم البشـرية تحت لوائه متساوية متآخـية متكاملة. وذلك على أساس وحدة الإنسـانية فى الجنس والطبيعة والنـشأة؛ لذلك فنظام الشورى لا يقوم على أساس قومى أو شعوبى أو عنصرى، يحلل الحرام لأمته، ويحرم الحلال لغيرها.

ونظام الشورى لا يتـبع مبدأ «الأكثـرية» لو كانت على ضلال، لأن شـريعة الله هى المعيـار سواء تبعهـا الأكثرية أو الأقليـة. فالأكثريـة الضالة عن منهج الله ليست حـجة، وأكثر الناس غالبًـا على ضلال: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ... ﴿١١٦﴾﴾ [الأنعام]. . ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يوسف].

لا بد من فهم الناشـئة أن نظام الشورى جـزئية فى النظام الإسلامى الكبـير الذى يجـعل السيـادة لشريـعة الله، ثم للأمـة إذا ارتضت تطبـيق منهج الله، ثم للحاكم إذا نفذ شروط التعـاقد بينه وبين الأمة التى تطبق شرع الله، وبذلك فنظام الشورى حـصَّن الأمة ضد الطغـيان، حين جـعل التشريع الإسـلامى مستـقلا فى

جوهره عن الدولة. ففـصل بذلك بين السلطة التشريعيـة ممثلة فى شرع الله، وبين السلطة التنفيذية بما فـيها السلطة القضائية. وبذلك أبعد الإسـلام السلطة التنفيذية عن أشخاص القائمين عليها، وذلك لخضوعهم فى ممارستهم لها لدستور مسبق هو شرع الله. وبذلك حمى المجتمع من طغيان هذه السلطات.

فعلى منهج التربية أن يوضح للناشـئة أصول الحكم فى الإسلام على أساس الشـورى. ويوضح لهم صـور الحكم التى يمكن أن تقـوم على أساس الشـورى. ويقارن ذلك بالديمقـراطية العنصرية التى تحلل الحرام لأهلها، وتحـرم الحلال لغير أهلها. كما يقارن الشورى أيضًا بنظم الحكم الجماعية التى تقوم على أفكار تناهض الفطرة الإنسانية ومقتضياتها، فتلغى القـيمة الحاسمة لحرية الإنسان واختياره وإرادته فى تغيـير الحياة. فكل هذه النظم لا يمكن أن تنمـو الحياة الإنسانيـة فى ظلها نموا سليما، وترقى ترقيا صحيحا.

١٧ - تأكيد المفهوم الصحيح للعمل فى التصور الإسلامى:

لا بد أن يفهم الناشئة أنه ليس المراد بالعمل فى التصور الإسلامى الانصراف عن أمور الدنيا وقـضاياها والكد والكدح فيها والاشتـغال بأمور ثانوية فى الدين، كالخلافات المذهـبية، والدروشة، ومناقشات مدى إخـلاص أو عدم إخلاص بعض الناس العاديين أو المفكرين. وليس من العمل الجاد الذى تعمر به الحياة وترقى، أن يترك كل ذى تخصص تخصـصه فى الطب والهندسة والعمارة والطبيعـة والكيمياء والرياضـيات وعلوم الحـرب، وعلوم الإدارة وعلوم ارتيـاد الفضـاء، وعلوم نظم المعلومات والمعرفة، وكل العلوم التى نحن فقراء إلى النابغـين فيها، إلى الاشتغال بأحكام التجويد وعلامات الساعة، وإطالة اللحى وتقصير الثياب... إلخ.

لا بد أن نعمق فى شعور الناشئة أن **العمل الذى تعمـر به الحياة وترقى، هو أن ينصر كل منهم الإسلام فى ميدان تخـصصه بالإنجاز فيه والإبداع**. يقول الشيخ الغزالى: «من المستحيل إقامة مجتمع ناجح الرسالة إذا كان أصحابه جهالاً بالدنيا، عجـزة عن الحياة.. وإنه لفـشل دفعنا ثمنه باهظًا عندما خـبنا فى ميادين الحـياة. وحسبنا أن مثوبة الله فى كلمات تقال، ومظاهر تقام.. إن الله لا يقبل تدينا يشينه

هذا الشلل المستغرب. ولا أدرى كيف نزعم الإيمان والجهاد ونحن نعانى من هذه الطفولة التى تجعل غيرنا يداوينا، ويمدنا بالسلاح إذا شاء»[1].

لا بد أن تدرك الناشئة ارتباط العمل بالعبادة فى التصور الإسلامى، فالإنسان المسلم عابد لله ما دام متجهًا بعمله ونشاطه كله لله. قال رسول الله ﷺ: **«الساعى على الأرملة والمسكين كالمجاهد فى سبيل الله، أو القائم الليل، الصائم النهار»**. [رواه الشيخان].

وعن أنس -رضى الله عنه- قال: **«كنا مع النبى ﷺ فى سفر، فمنا الصائم ومنا المفطر. قال: فنزلنا منزلاً فى يوم حار، أكثرنا ظلا صاحب الكساء. فمنا من يتقى الشمس بيده، قال فسقط الصوام وقام المفطرون فضربوا الأبنية وسقوا الركاب، فقال الرسول ﷺ: «ذهب المفطرون اليوم بالأجر كله»** [أخرجه الستة].

إن الأجيال المسلمة لا بد أن تدرك أن المقصود ليس مجرد «العمل» وإنما «الإحسان فى العمل»:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً (٣٠)﴾ [الكهف].

والإحسان فى العمل ذو شقين: الشق الأول هو استخدام أقصى درجة المهارة والإتقان فيه. يؤكد هذا قول الرسول ﷺ: **«إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه»** [رواه الستة]. ولكن هل يكفى الإتقان فى العمل لبناء حضارة إنسانية راقية؟ الإجابة الصحيحة أن ذلك لا يكفى. وهنا نصل إلى الشق الثانى لمعنى «الإحسان فى العمل» وهو أن تتوجه بالعمل لله؛ لأنك ترى الله فى العمل، وتؤمن بأن الله يراك»[2].

---

(١) محمد الغزالى مشكلات فى طريق الحياة الإسلامية، ص٢٦.

(٢) على أحمد مدكور: «الثقافة والحضارة فى التصور الإسلامى ودورهما فى محتوى المناهج التربوية: دراسات تربوية»، المجلد السابع، الجزء (٤١)، ١٩٩٢م، ص ٥٧.

وهكذا. . فإن العامل المحسن لن يسمح باستخدام نتاج عمله ومهارته فى خراب الدنيا؛ لأنه خلق للعمل على إعمارها على عهد الله وشرطه. فهذا هو مقتضى الخلافة فى الأرض وهو مفهوم العبادة.

١٨ - إدراك مفهوم التغير الاجتماعى فى التصور الإسلامى:

لا بد أن يدرك الطلاب أن التغير الذى يحدثه الإنسان فى الأرض أو فى المجتمع، يتم وفق الإرادة المطلقة لله. وهذا التغير إما أن يكون فى اتجاه يهدف إلى تدبير شئون الخلق وفق منهج الله، وإما أن يكون فى أى اتجاه آخر. وفى كل الأحوال فإن التغير الاجتماعى الذى يحدثه الإنسان، إنما يخضع لقاعدة ثابتة تمثلت فى قول الله تعالى: ﴿... إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ... ﴿١١﴾﴾ [الرعد].

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ... ﴿٥٣﴾﴾ [الأنفال].

إن الآيتين السابقتين تدلان دلالة قاطعة على أن التغير الاجتماعى إنما يبدأ من الداخل، أى من داخل النفس، وذلك بتغيير الأنماط العقائدية والمعيارية والقيمية والفكرية للإنسان، فإذا ما تغير ذلك، فإنه ينعكس على السلوك الخارجى للفرد والمجتمع على السواء. أى أنه ينعكس على النظم، والمؤسسات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والتربوية. . إلى آخره. لكن العكس غير صحيح. فتغيير النظم والمؤسسات على غير أسس معيارية واضحة وعميقة فى نفوس الناس، هو تغير سطحى هش، يطير مع أول نسمة هواء.

إن المنهج القرآنى فى التغير الاجتماعى، هو ما طبقه النبى ﷺ حين أقام العقيدة قوية راسخة فى مكة، ثم أقام النظام على أساسها فى المدينة. ومما يؤثر فى هذا المقام عن الأستاذ حسن البنا قوله: «أقيموا الإسلام فى أنفسكم يقم على أرضكم».

ما يستفاد من قاعدة التغير:

مما سبق تتضح لنا مجموعة من الحقائق أهمها ما يلى:

أولاً: أن كل تغـير فى الكون يتم فى إطار الإرادة المطلقـة لله، بما فى ذلك حركة الإنسـان بالطبع، وهذا أصل ثابت بالنص ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ...﴾، ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا...﴾، ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾ [النحل]، وحـول هذه القـاعدة تدور حـركـة الإنسـان فى جمـيع اتجاهاتهـا، فحركة الإنسان - كحركة كل شىء فى الكون - تدور وفق الإرادة المطلقة لله.

ثانيًا: تقرر الآيتان السابقتان «عدل الله فى معـاملة العباد، فلا يسلبهم نعمة وهبهم إياهـا إلا بعد أن يغيـروا نواياهم، ويبدلوا سلوكـهم، ويقلبوا أوضـاعهم، ويستحقوا أن يغير الله ما بهم مما أعطاهم إياه للابتلاء والاختبار من النعمة التى لم يقدروها ولم يشكروها».

ثالثًا: تفيـد الآيات تكريم الإنسان إلى حد بعـيد، إذ جعل الله قـدره ينفذ بالإنسان عن طريق حـركة الإنسان نفسه، وعلمـه هو، وجعل التغيـير القدرى فى حيـاة الناس مبنيـا على التغـيير الواقـعى فى قلوبهم ونواياهم وسلوكهـم العملى وأوضاعهم التى يختارونها لأنفسهم.

رابعًا: أن الله يلقى على الإنسان تبعة عظيـمة، تقابل التكريم العظيم الذى منحه له، فـالإنسان وحـده - دون كل خلق الله - يملك أن يستـبقى نعـمة الله عليه، وأن يزاد له عليها، إذا هو عرف فشكر، كما يملك أن يزيل هذه النعمة عنه إذا هو أنكر وبطر، وانحرفت نواياه، فانحرفت خطاه.

وهنا تظهر إيجابيـة الإنسان فى صياغته لمصـيره - وفق الإرادة المطلقة لله - «وتنتفى عنه تلك الـسلبية الذليلة التى تفـرضها عليـه المذاهب المادية، التى تصوره عنصرا سلبيا إزاء الحـتميات الجبارة: حتميـة الاقتصاد، وحتمية التـاريخ، وحتمية التطور.. إلى آخر الحتميات التى ليس للكائن الإنسانى إزاءها حول ولا قوة. ولا يملك إلا الخضوع المطلق لما تفرضه عليه وهو ضائع خانع مذلول»[1].

(١) سيد قطب: فى ظلال القرآن، مرجع سابق، ص ١٥٣٥ - ١٥٣٦.

خامسًا: أن هناك تلازمًا بين العمل والجزاء فى حياة الإنسان ونشاطه الوجدانى والعملى، فمن عدل الله المطلق أن جعل هذا التلازم سنة وقاعدة يجرى بها قدره وإرادته: ﴿... وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف]

سادسًا: أن الإسلام عقيدة وشريعة، وشريعة الإسلام من عقيدته.. «بل إن شريعته هى عقيدته.. إذ هى الترجمة الواقعية لها» [1]. وهذا يعنى أن إحياء الشريعة لا يمكن أن يحدث بصورة فعالة إلا بإحياء العقيدة أولاً، فالمستوى الاعتقادى يجب أن يسبق فى الإحياء المستوى التشريعى.

والخلاصة: أنه يمكن الخروج من هذه المناقشة بأمرين:

الأمر الأول: إن تطبيق المجتمع لمنهج الله، دون فهم أصول الاعتقاد فهمًا صحيحًا، والاقتناع بأصوله التشريعية فى حكم الحياة، كثيرًا ما يؤدى إلى نكسة للنظام كله، وإلى إلصاق تهم الضعف، والقصور، والبعد عن الحياة به، وهو منها برىء. وكثيرًا ما تأتى هذه النكسات على يد هؤلاء المسلمين غير الفاهمين أو بواسطتهم.

الأمر الثانى: إن عملية بناء العقيدة الإسلامية فى نفوس الناشئة. وتصحيح مفاهيمها نظريا وعمليا فى نفوس الكبار، هى عملية مستمرة لا ينبغى أن تتوقف. وأن هذا لا يمنع أن تقوم المجتمعات المسلمة الحاضرة بتطبيق مبادئ الشريعة فى حياتها العملية بطريقة تدريجية ومتوازنة، ابتداء من المبادئ التى رسخت فى ضمائر الناس وعقولهم.

١٩ - إدراك مصادر المعرفة والعلاقات بينها:

للمعرفة فى منهج التربية مصدران رئيسيان - كما يقول الشيخ محمد الغزالى -: فهناك معرفة مصدرها تفكر الإنسان وتدبره فى كتاب الكون المفتوح وفى علوم الكون والحياة وكل ما يتصل بأحوال الناس المادية، وشئونهم المعيشية،

---

(١) المرجع السابق، ص ١٢١٦.

وهذا اللون من المعرفة لا يقبل منه منهج التربية الإسلامية إلا ما جاء نتيجة للمنطق التجريبى أو الرياضى، أو التفكير العلمى والتجارب العلمية والصحيح من تشريعات الفقهاء واجتهاداتهم فى كل عصر فى ضوء التصور الإسلامى للكون والإنسان والحياة. أما إذا كانت المعارف والمعلومات متصلة بما وراء المادة وبما وراء خبرات الإنسان فى الأمور المادية والمعيشية، فإن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ هما السبيل الفذة التى لا يقبل منهج للتربية سبيلاً غيرها[1]. أما ما تركه الفلاسفة والعلماء الذين بحثوا فيما وراء المادة أو فيما وراء الطبيعة، فهو خليط عجيب من النظريات والأفكار والآراء التى لا تستطيع تمييز الصحيح من السقيم فيها. فهم ينتمون إلى كثير من الشرائع والنِّحل، فجاءت فروضهم خاطئة، وبحوثهم حائرة، وآراؤهم متناقضة، فورَّثوا لأتباعهم الحيرة وعدم الاستقرار فى كل حال.

وبما أن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ: يمثلان المصدر الأول للمعرفة فى منهج التربية الإسلامية، والفقه الإسلامى يمثل رافدا مهما من روافد الكتاب والسنة، فإنه يجب علينا أن نعى أن الكتاب والسنة شىء والفقه الإسلامى - خاصة ما يسمى «بفقه المعاملات» - شىء آخر. «وأنهما ليسا متساويين وأن موقفنا فى استيحاء مقومات المجتمع الإسلامى ونظمه منها ليس واحدا[2]. والسبب فى ذلك هو أن الكتاب والسنة ثابتان لا يتغيران لأنهما يرسمان إطارا واسعا لكل تطور، أما الفقه الإسلامى فمتغير؛ لأنه يتعلق بتطبيقات قانونية لتلك المبادئ العامة فى القضايا والأوضاع المتجددة التى تنشأ من تطور الحياة، وتغير العلاقات، وتجدد الحاجات.

والقرآن والسنة من صنع الله، أما الفقه الإسلامى فهو من صنع البشر، استمدوه من فهمهم وتفسيرهم وتطبيقهم للقرآن والسنة، فى ظروف خاصة، وتلبية لحاجات خاصة، واستيحاء لأوضاع جيلهم الذى عاشوا فيه، وفهمه للأمور، وتقديره للغايات والأهداف، ومصالحه التى تمليها الوقائع والأشياء، وأيا ما كان

---

(١) محمد الغزالى: عقيدة المسلم، ط٤، دمشق، دار القلم ١٤٠٣ هـ ١٩٨٣، ص ١٨٠.

(٢) سيد قطب: نحو مجتمع إسلامى، ط٦، بيروت، دار الشروق، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م، ص٤٧.

بصر هؤلاء الرجال الذين وضعوا الفقه الإسلامى، وأيا ما كان إدراكهم لروح هذه الشريعة ومراميها، وأيا ما كانت سعة آفاقهم ودقة تقديراتهم - وهو الواقع فعلا - فإنه ينبغى أن نضع فى الاعتبار دائما أن تشريعاتهم الفقهية كانت تلبية لحاجات زمانهم الواقعية، وحتى الفروض النظرية التى افترضوها وأجابوا عليها لم تكن إلا من وحى هذه الحاجات، أو من وحى منطق البيئة التى أحاطت بهم، والعصر الذى عاشوا فيه، والعلاقات والارتباطات الاجتماعية التى كانت سائدة فى تلك البيئة، وفى هذا العصر.

إذن فالإسلام هو القرآن والسنة. وما عداهما من الاجتهادات فى ضوئهما هو فقه إسلامى، تسترشد به الأجيال المتعاقبة، فيساعدها على الفهم والاستنتاج والتطبيق.

ومما سبق يمكن استنتاج أمرين:

الأمر الأول: هو أنه لما «كانت الحالات الاجتماعية لا تتكرر أبدًا فى التاريخ، إنما تتشابه مجرد تشابه؛ فإن أى حكم تطبيقى فى حالة مضت - ليس من شرع الله ولا من عمل رسول الله ﷺ إنما يصلح للاسترشاد به والاستشهاد فى الحالات المشابهة التى تعرض للأجيال المتجددة، ولكنه لا يبلغ حد الإلزام المطلق؛ لأنه مجرد رأى بشرى فى شريعة الله، ليس جزءًا من الشريعة الثابتة الصادرة من الله»[1].

الأمر الثانى: هو أن الصُّوَر التاريخية للمجتمع الإسلامى لا تُحدِّد ولا تَسْتَوعِب كل الصور الممكنة للمجتمع الإسلامى، ولكل جيل أن يبدع نظمه الاجتماعية فى حدود المبادئ الإسلامية، وأن يلبى حاجات زمانه باجتهادات فقهية قائمة على الأصول الكلية للشريعة، على شرط اتباع مناهج صحيحة فى الاجتهاد، واتفاق بين جمهرة فقهاء الأمة الإسلامية فى كل جيل، بحيث لا ندع الأمر فوضى لكل من شاء كيف شاء.

---

(١) المرجع السابق، ص ٥١ - ٥٢.

والحادث فى معظم أقطار الأمة الإسلامية أننا تركنا استيحاء مقومات المجتمع الإسلامى ونظمـه السياسية، والاقـتصادية، والاجتـماعية، والتربوية مـن الشريعة والفقه معًا، وارتمينا فى أحضان النظم الوضعية غربية كانت أم شرقية.

إن منهج التربية عندما يلجأ إلى تدريس مذاهب الفـقه المختلفة لأبى حنيفة، ومالك، والشـافعى، وأحمـد بن حنبل، وابن تيميـة، وابن حزم وغيـرهم، **فإنه** يدرسها «على أنهـا وجهات نظر متساويـة القيمة». وأنها تعبـر عن حاجات الناس ومطالب المجتمع فى أزمنة وأمكنة مختلفة، فهى ليست ملزمة للناس بطريقة **مطلقة** فى كل عصـر ولكل مكان، وعلى هذا فهى تُناقش، وتُوزن «بحيـاد علمى وصدر مفتوح، لا مكان فيه للخصومة، والجفاء وتفريق الأمة»[1].

مصادر التلقى فى منهج التربية:

إن الحق - سبحانه وتعالى - يوجـه الخطاب إلى رسول الله ﷺ فيقول له: ﴿**الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ** ﴿١٤٧﴾﴾ [البقرة]. ورسول الـله ﷺ ما امترى يومًا ولا شك. وحينما قال له ربه فى آية أخرى: ﴿**فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ** ... ﴿٩٤﴾﴾ [يونس].. قال «**لا أشك ولا أسأل**».

ولكن توجيه الخطاب هكذا إلى شخصه ﷺ يحمل إيحاء قويا إلى من وراءه من المسلمين، سواء منهم من كان فى ذلك الحين يتأثر بأباطيل اليهود وأحابيلهم، ومن يأتى بعدهم ممن تؤثر فيهم أباطيل اليهود وغير اليهود فى أمر دينهم.

ومـا أجدانا نحن اليـوم أن نسـتمع إلى هذا التـحـذير؛ ونحن - فى بلاهة منقطعة الـنظير - نروح نستـفتى المستـشرقين من الـيهود والنصـارى والشيوعـيين والكفار فى أمر ديـننا. وقد يهون الأمر لو اقتـصر تلقينا عنهم على العلوم البـحتة كالرياضيـات، والعلوم الطبيعية، وعلوم صناعـة، والزراعة وعلوم الحرب وفنون

---

(١) محمد الغزالى: علل وأدوية، دمشق، دار القلم، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م، ص ٤٦.

القتـال. . إلى آخر ذلك من العلوم التى لا تتأثر كـثيرًا بالفلسـفة وتفسـير السلوك الإنسانى.

ولكن الكارثـة هى أننا نتلقى عنـهم - أيضًـا - تاريخنا، وفنـوننا، وآدابنا، وسياستنا، واقتصادنا، واجـتماعنا وتربيتنا. ونأمنهم على القول فى تراثنا، ونسمع لما يدسـونه من شكوك فى دراساتهم لقـرآننا وحديث نبـينا ﷺ، وسيـرة أوائلنا. ونرسل إليـهم بعـثات من طلابنا يتلـقون عنهم علوم الإسـلام، ويتـخرجـون فى جامعاتهم، ثم يعودون إلينا مدخولى العقل والضمير!

إن هـذا القـرآن قرآننا. قـرآن الأمة الإسـلاميـة. وهو كتـابها الخـالد الذى يخاطبها فيه ربها بما تعمله وما تحذره: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ...﴿٩﴾﴾ [الإسراء]. . ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ...﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام].

والخلاصة: منهج التربية يجب أن يعتمد أساسًا على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وهو عندما يتعـرض للاجتهادات الفقـهية القديمة، لا يتـحرج من وزنها على أساس مـوضوعى، فيقـبل ما يراه مناسبًـا للاسترشـاد به، ويدع ما لا يتناسب مع معطيـات الزمان، والمكان، وحاجـات الناس. والتلقى فى هذا المنهج لا يتم فيـما يتصل بعلوم الشـريعة، والفنون والآداب والتربية، وكل العلوم الإنسـانية - لا يتم إلا على يد مسلم يوثق فى علـمه وتقواه. أما فـيما يتصل بالعلوم البـحتة فيـجوز التلقى فيها على يد غير المسلمين عند الضرورة.

٢٠ - إدراك الفوارق بين الإسلام والتراث الإسلامى:

يجب أن تفرق مناهج التربية بين الإسلام من جـانب، وبين التراث عمومًا، والتراث الإسلامى على وجه الخصوص، من جانب آخر.

فالتـراث عمومًـا، بجميع جـوانبه وألوانه - من آداب وفنون وآثار تاريخـية وجغرافـية، اقتصادية وسـياسية واجتـماعية، مادية وفكرية، نـظرية وعلمية - هو صناعة إنسانية، تاريخية ومتحفية.



والتراث الإسلامى هو كل ما تركه المسلمون من اجتهادات فى الآداب، والفنون، والعلوم، والفقه، والتنظيمات والطرائق السياسية والاقتصادية والاجتماعية. . .إلخ. التى تتفق مع الإسلام نصا أو روحا، أو لا تختلف معه على الأقل.

والتراث فى كلتا الحالتين السابقتين هو صناعة إنسانية تاريخية ومتحفية، نامية ومتطورة. والفرق بين التراث الإسلامى وغيره، هو أن التراث الإسلامى اجتهادات وابتكارات فى جميع جوانب الحياة ووسائلها فى ضوء التصور الإسلامى. فهو تراث على درجة عالية من الثبات فى الاتجاه؛ فهو لا ينتقل من النقيض إلى النقيض، بل يرتقى صعوداً بالحياة الإنسانية وفق منهج الله. أما بالنسبة للتراث العام، فتراث كل أمة إنما ينمو ويتطور صعودا أو هبوطا - وقد ينتقل من النقيض إلى النقيض - فى ضوء معتقداتها المتغيرة، وفلسفاتها البشرية، ونظرياتها التى تتبناها لتوجيه حياتها.

أما الإسلام - قرآنًا وسنة - فهو منهج الله لحكم الحياة كلها، فى كل زمان، وفى كل مكان. ومن ثَمَّ فهو ليس صناعة إنسانية، وإنما هو وحى ثابت من الله. وهو لأنه صناعة ربانية، وليس صناعة إنسانية، فهو ليس آثارًا متحفية أو تاريخية، يمكن أن نتعامل معه أو نقتنه كوثائق متحفية يستشهد بها فى المناسبات والمواسم، كما يريد المستشرقون. فالمستشرقون ومن هم على شاكلتهم يريدون أن يصبغوا الإسلام بهذه الصبغة، لتتم زحزحة الحياة رويدًا رويدًا بعيدة عنه؟؟ وبذلك يمكن تحنيطه بعد ذلك، وتحويله إلى تراث متحفى!

والمهم هنا أن نفهم أن التراث عمومًا - بما فى ذلك التراث الإسلامى - هو عملية ثقافية وحضارية نامية ومتطورة بصورة نسبية من مجتمع لآخر. فكل مجتمع يطور تراثه الثقافى والحضارى وينميه كما وكيفا وفقًا لتصوراته الثابتة والمتغيرة.

أما الإسلام - قرآنًا وسنة - فهو منهج إلهى، اكتمل بناؤه فى ثلاث وعشرين سنة، ابتداء من إشراقه على رسول الله ﷺ فى غار حراء، إلى وفاته ﷺ، فالنقطة المركزية هنا هى أن الإسلام ليس ناميا ولا متطورا فى ذاته، وإنما

المسلمون، بل والبشرية كلها هى التى تنمو ويرقى فهمها للإسلام على مر العصور.

مما سبق يتضح لنا أننا يجب أن نصمم مناهجنا ونربى أجيالنا على أساس أن الإسلام - قرآنًا وسنة - هو «أصول» إلهية، تشتمل على منهج إلهى لحكم الحياة، كل الحياة، وعليه فنحن ملزمون بهذه «الأصول» الإلهية إلزامًا مطلقًا فى كل شىء، وفى كل زمان، وفى كل مكان.

أما التراث الإسلامى بكل ما يحتويه من آداب وفنون وعلوم، وفقه، واجتهادات فى السياسة والاقتصاد والاجتماع والتربية، والتاريخ والجغرافيا والفلك.. إلخ، وكل الجوانب النظرية والممارسات العملية المتراكمة على مر العصور، هذه كلها يجب على مناهجنا أن تدرسها دراسة تحليلية تفسيرية تقويمية فى ضوء المعايير والقيم الأصولية الثابتة لمنهج الله.

كما يجب دراسة التراث الإسلامى أيضًا فى ضوء معطيات العلوم الحديثة. فوظيفة معطيات هذه العلوم هى - بالإضافة إلى ترقية فهمنا لنظام الله ومنهجه ونواميسه الكونية - مساعدتنا على دراسة وفهم تراثنا وتقويمه من أجل تطويره وترقيته.

وهنا تبرز نقطة فى غاية الأهمية والخطورة، وهى أننا يجب أن نفرق بين لىِّ ذراع الأصول الإسلامية - كآيات القرآن مثلاً - لتوافق معطيات العلوم الحديثة، وبين الاستفادة من المعطيات المتجددة لهذه العلوم فى ترقية فهمنا لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ. فالموقف الأول خطأ فى المنهج، وانهزام فى المأخذ، لا يصح ولا يتناسب مع جلال كتاب الله وعالميته وشموله. أما الموقف الثانى فهو موقف المجتهدين الذين يتحلون باستعلاء الإيمان اللائق بمنهجهم الربانى، بينما هم يساهمون بإيجابية وفاعلية فى عمارة الأرض وترقية الحياة على ظهرها وفق منهج الله.

إذن فالغرض من دراساتنا لتراثنا هو أن نطور هذا التراث ونرقيه. ونستأنس ونسترشد بما فيه من أفكار حية، وقيم باقية، وطرائق وأساليب صالحة. فنحن قد

نتفق مع بعض موضوعات هذا التراث، وقد نختلف مع بعضها الآخر؛ لذلك لسنا ملزمين به إلزامًا مطلقا، وذلك على العكس مع «الأصول» كما رأينا.

وليس معنى ما سبق أن نهمل دراسة التراث الإنسانى العام. إذ لا بد من دراسة هذا التراث دراسة واعية ناقدة وفقًا لمعايير الإسلام وقيمه الإنسانية الشاملة، بذلك نستطيع أن نأخذ منه ما يتمتع بالمصداقية، ويتسق مع نواميس الله الكونية، وندع منه كل ما يتصل بتفسير السلوك الإنسانى القائم على الولاءات المحدودة والانتماءات العنصرية المتصلة باللحم والدم، أو الأرض والطين.

ونحن إذ نقوم بدراسة التراث الإنسانى، يجب أن نتمسك بعدة اعتبارات: الأول أن ديننا دين ربانى، عالمى، ثابت، شامل، الثانى أن «الوسطية» و«الشهادة على الناس» قد عقدهما الله لهذه الأمة، ما دامت متمسكة بدين الله. وأن تدرك الأمة أن تمكين الله لها فى الأرض، ومن ثَمَّ قيادتها وريادتها فى مسيرة الارتقاء الإنسانى مرهون بهذا التمسك بدين الله. الاعتبار الثالث هو أن تدرك الأمة أنها أمام تراث إنسانى معاد للإسلام، وساع إلى ابتلاعه، فإذا لم تقم مناهج تربية الأجيال بدراسة هذا التراث دراسة علمية موضوعية على أساس من نواميس الله وسننه الكونية، فسوف تجد الأمة نفسها فى حالة دفاع مستمر عن النفس. لا وسطية لها، ولا شهادة على الناس!

والخلاصة: أن مناهج التربية أمامها ثلاثة مستويات للدراسة والفهم:

المستوى الأول: هو مستوى الإسلام، أو «الأصول» الإسلامية غير التراثية، المتمثلة فى القرآن والسنة. وهذا هو المستوى الربانى العالمى الثابت الشامل. ووظيفة مناهج التربية هى الاجتهاد فى تنمية فهمنا له، وتجديد وترقية هذا الفهم دائمًا وأبدًا.

والمستوى الثانى: هو مستوى التراث الإسلامى، الذى هو عبارة عن اجتهادات المسلمين على مر العصور فى كل جوانب الحياة الإنسانية. وواجب مناهج التربية حيال هذا الجانب، هو أن تتناوله بالدراسة والتقويم فى ضوء القيم

والمعايير الأصـولية، وفى ضوء المعطيات المتجددة للـعلوم الحديثة، التى لا تتناقض مع الإسلام.

والمستـوى الثالث: هو مستـوى التراث الإنسانى العام، ودور مناهـج التربية حيـال هذا التراث، هو دراسة أهم مـعالمه، وأبرز مـعطياته فى ضوء قـيم الإسلام ومعاييره الإنسانية، ونواميسه الكونية، والاستفادة من كل ما هو مفيد فيه.

٢١ - إدراك مفهوم الثقافة والحضارة فى التصور الإسلامى:

إن إدراك الطلاب لمفهوم الثقافة والحضارة فى التصور الإسلامى أمر فى غاية الأهمية. وهنا تجدر الإجابة على الأسئلة التالية:

١ - ما مفهوم الثقافة والحضارة فى التصور الإسلامى؟

٢ - ما معايير الحضارة وأصولها الحقيقية فى هذا التصور؟

٣ - ما دور الثقافة والحضارة فى التصور الإسلامى فى المنهاج التربوى؟

الثقافـة فى التصور الإسلامى هى السلـوك الكلى لحياة الجماعـة الذى يتسق مع التصور الإسلامى للألوهيـة، والكون والإنسان، والحياة. وهى بهذا المعنى ذات شقين: **الشق المعيارى** ويتمثل فى كل ما شرعه الله، لتنظيم حياة البشر من أصول الاعتقاد، وأصول الحكم، وأصول الأخلاق والسلوك، وأصول المعرفة. فهذا الشق يقاس عليه كل شيء، لكنه هو لا يقاس على شيء من خارج ذاته.

أما **الشق التطبيقى، فهو التـطبيق العملى الواقعى للشق المعـيارى**. وبمعنى آخر هو كل أنماط الشعور والتفكير والقول والعمل والسلوك التى تأتى تطبيقا عمليا واقعيا صحيحا للشق المعيارى.

وعلى هذا فكل أنماط السلوك والعادات والتقاليد التى تختلف أو تتناقض مع الشق المعيارى نصا أو روحـا لا تعتبر من مكونات الثقافة الإسـلامية، ولا تمت لها بأية صلة، بل إنها من أهم عوامل محاربة هذه الثقافة.

وبناء على ما سبق يمكن تعريف الثقـافة فى التصور الإسلامى **بأنها السلوك الكلى لحـياة الجـماعة، المتسق مع شـريعة الله الشـاملة لأصول الاعـتقـاد، وأصول**

الحكم، وأصول المعرفة، وأصول الأخلاق والسلوك، وكل التشريعات والنظم والقوانين التى تخضع لها، وجميع أشكال التطبيق العملى الواقعى، وأنماط السلوك الفردى والجمعى التى تتسق معها نصا أو روحا.

والثقافة الإسلامية بهذا المفهوم هى ثقافة ربانية، تعتمد على شريعة الله، وهى من هذا المنطلق ثقافة عالمية وإنسانية، لا تحدها الحدود الجغرافية ولا الخرائط السياسية أو تخوم الأرض. وهى من هذا المنطلق - أيضا - ليست قومية ولا محلية ولا إقليمية، وإنما حدودها هى حدود فكرتها. وهى ثقافة عادلة تكره الاستغلال والظلم فى كل زمان وفى أى مكان، وهى ثقافة حرة لأنها تحرر الإنسان من العبودية لغير الله، وتعقد الصلة الدائمة بين الإنسان وربه فى كل قول أو عمل أو شعور.

إن الإسلام يعتبر - فيما عدا العلوم البحتة وتطبيقاتها التقانية - أن هناك نوعين من الثقافة: الثقافة الإسلامية، القائمة على أساس التصور الإسلامى، وهذه تشكل المصدر الرئيسى لمحتوى المنهاج التربوى، بكل ما تشتمل عليه من أصول الاعتقاد وأصول الحكم، وأصول المعرفة، وأصول الأخلاق والسلوك.. إلخ. وهناك الثقافة البشرية القائمة على فلسفات ومناهج شتى، ترجع كلها إلى قاعدة واحدة، ومصدر واحد، هو العقل البشرى الذى قد لا يخضع فى حكمه إلى ميزان الله، وهذه لا بد من الوقوف عندها بالتحليل والتمحيص.

لقد بنى التصور الإسلامى موقفه من هذه الثقافات على أساس أن الناس جميعا من خلق الله، وهم من عباد الله، وأن الله يؤتى الحكمة من يشاء من خلقه. وعلى أساس قول الرسول ﷺ: **«الحكمة ضالة المؤمن حيثما وجدها فهو أحق الناس بها»** حتى لو امتلكها الأعداء. **لكن «الحكمة» التى نحن مأمورون بأن ننشدها ليست مجرد محاكاة الآخرين فى كل شىء، كما تفعل القردة والببغاوات، لكنها «الحكمة» التى تعين على فهم منهج الله وتطبيقه، وهى ثمرة التعلم لكتاب الله** وسنة رسوله ﷺ؛ **حيث تتربى لدى الإنسان ملكة يتأتى معها وضع الأمور فى نصابها، ووزنها بموازينها الصحيحة، وإدراك غايات الأوامر والتوجيهات فى منهج**

الله للكون والإنسان والحياة. وعليه فإن دور محتوى المنهاج التربوى حيال التراث الإنسانى والثقافات الإنسانية هو دراسة أهم معالمها، وأبرز معطياتها فى ضوء قيم الإسلام ومعاييره الإنسانية، ونواميسه الكونية، والاستفادة من كل ما هو مفيد فيه.

عندما يكون السلوك التطبيقى فى الثقافة الإسلامية ترجمة عملية وواقعية صحيحة للجانب المعيارى فيها، مع استخدام كل معطيات الإنسان والزمان والمكان.. تكون الحضارة. «فالحضارة - إذن - هى عمارة الأرض وترقية الحياة على ظهرها إنسانيا وخلقيا وعلميا وفنيا واجتماعيا وفق منهج الله وشريعته».

وبناء على هذا المفهوم فإن «المجتمع الإسلامى» - وهو المجتمع الذى يطبق شريعة الله فى كل جوانب الحياة - هو وحده «المجتمع المتحضر». أما المجتمعات الأخرى التى تنكر وجود الله أصلا، أو تجعل له ملكوت السموات وتعزله - سبحانه - عن ملكوت الأرض، أو لا تحكِّم منهجه فى حياة البشر، فهذه كلها مجتمعات متخلفة مهما علت فى مقوماتها المادية.

والحضارة بهذا المفهوم تقوم على مجموعة من المقومات أو المعايير الثابتة، أهمها على الإطلاق ما يلى:

١ - أن تكون الحاكمية فى المجتمع لله، وبذلك يتحرر الإنسان فيه من العبودية لغير الله. وإن الشعور الحقيقى الكامل بالحرية والكرامة أو «استعلاء الإيمان» لا يتأتى إلا حين تكون العبودية فى المجتمع لله وحده، ومن ثم تكون الحاكمية فيه لله وحده.. عندئذ فقط يكون هذا المجتمع متحضرا. أما المجتمع الذى تكون الحاكمية فيه لغير الله. فهو مجتمع جاهلى متخلف، إذ لا حرية حقيقية، ولا كرامة حقيقية للإنسان فيه لأن بعضه أرباب يشرعون وغالبيته عبيد يطيعون.

٢ - أن تمثل العقيدة رابطة التجمع الأساسية فى المجتمع؛ لأنها تمثل أعلى ما فى إنسانية الإنسان من خصائص. أما روابط الجنس واللون والقوم والأرض فإنها لا تمثل الخصائص العليا للإنسان، وعلى ذلك يبقى الإنسان إنسانا بعد الجنس واللون والقوم والأرض، لكنه لا يبقى إنسانا بعد العقيدة والفكرة وحرية الإرادة،

فالإنسان يملك - بمحض إرادته الحرة - أن يغير عقيدته وتصوره وفكره ومنهج حياته؛ فهذه مزايا شخصية يستطيع من شاء اكتسابها، ولكنه لا يملك أن يغير لونه ولا جنسه كما لا يملك أن يحدد مولده فى قوم ولا فى أرض.

إن هذا يتطلب من المنهاج التربوى بناء العقيدة الصحيحة الخالية من الخرافات والتناقضات فى عقول وقلوب الناشئة. العقيدة التى تُفرِدُ الله - وحده - بالألوهية، ومن ثم تُفرِدُه بالحاكمية، وتنكر على غير الله أن يدعى حق الألوهية بادعاء حق الحاكمية كما يتطلب الأمر من المنهاج التربوى أن يجعل أصول الحكم وأصول الاعتقاد وأصول المعرفة وأصول الأخلاق والسلوك هى الموجهات الأساسية لأهدافه ومحتواه، وطرائق وأساليب تدريسه وتقويمه.

٣ - أن تكون إنسانية الإنسان هى القيمة العليا فى المجتمع، وأن تكون الخصائص الإنسانية فيه هى موضع التكريم والاعتبار.. عندئذ يكون المجتمع متحضرا. أما حين تكون «المادة» فى أية صورة - هى القيمة العليا... سواء فى صورة «النظرية» أو «الحزب» كما فى التفسير الماركسى للتاريخ، أو فى صورة الإنتاج المادى كما فى سائر المجتمعات التى تعتبر الإنتاج المادى قيمة تهدر فى سبيلها القيم والخصائص الإنسانية.. فإن هذا المجتمع يكون متخلفا مهما بلغت درجة تقدمه العلمى والاقتصادى.

٤ - أن تكون «الأسرة» هى قاعدة البناء الاجتماعى، وأن تقوم على أساس التخصص بين الزوجين فى العمل، وأن تكون رعاية الجيل الناشئ هى أهم وظائف الأسرة، فالمجتمع الذى هذا شأنه هو المجتمع المتحضر. ذلك أن الأسرة على هذا النحو تكون هى البيئة الصالحة؛ لإنماء القيم والأخلاق الإنسانية التى تستحيل أن تنمو نموا سليما فى غيرها، أما حين تكون العلاقات الجنسية «الحرة» والنسل «غير الشرعى» هى قاعدة المجتمع، وحين تتخلى المرأة عن وظيفتها الأساسية فى تربية الجيل الناشئ، وحين يؤثر لها المجتمع أن تنفق طاقاتها فى «الإنتاج المادى؛ لأنه أغلى وأعز من «الإنتاج الإنسانى» عندئذ يكون هذا هو «التخلف الحضارى» مهما ارتقى الإنتاج المادى.

إذن فوظيفة المنهاج التربوى أن يغرس فى نفوس الشباب أن التخصص الوظيفى فى الأسرة كى تقوم بصناعة الإنسانية، هو الأساس فى المجتمع المتحضر الإسلامى.

٥ - أن يقوم الإنسان بالخلافة فى الأرض على أساس الإحسان فى العمل. والإحسان فى العمل ذو شقين: الشق الأول هو استخدام أقصى درجات المهارة والإتقان فيه، لكن الإتقان فى العمل والمهارة فيه لا يؤديان إلى بناء حضارة حقيقية، وهنا نصل إلى الشق الثانى لمعنى «الإحسان فى العمل» وهو التوجه بالعمل كله إلى الله. فالإحسان فى العمل مرتبط بمفهوم «الإحسان» فى التصور الإسلامى. وهو «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك، إذن فالإنسان المتحضر والمجتمع المتحضر هو الذى يؤدى العمل بأقصى درجات المهارة والإتقان مع مراعاة الله فى أدائه، فالعامل المتحضر يرى الله فى عمله أو يشعر بأن الله يراه، وهذه هى الضمانة الوحيدة كى لا تنحرف نتائج العلم والعمل، وتستخدم فى خراب الأرض بدلا من عمارتها.

٢٢- إدراك الفرق بين الغزو الثقافى والتفاعل الثقافى:

لا بد أن يدرك الطلاب - على جميع مستوياتهم الفرق بين الغزو الثقافى والتفاعل الثقافى. وذلك يقتضى التفكر فيما يلى:

أولاً: إن الإسلام هو المنهج الوحيد الباقى بلا تحريف ولا تزييف وأنه منهج كامل شامل، لا يحتاج إلى «قطع غيار» من خارجه؛ وذلك لأنه منهج ربانى من خلق الله الذى خلق الكون، والإنسان، والحياة: ﴿ ... وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا (٢) ﴾ [الفرقان]، إذن فلا عجب ألا يهزم الإسلام عقائديا ولاحضاريا، فى الوقت الذى هزمت فيه أمته - المنحرفة عنه - سياسيا واقتصاديا وأخلاقيا!

إن من سنن الله فى الكون أن يقوم بناء النظم والمؤسسات المختلفة كالمصنع والمدرسة والمزرعة إلى آخره على أساس تصور معين للكون، والحياة والإنسان، ومركز الإنسان فى الكون، ووظيفته فى الحياة. والعقيدة والإنسان فى هذا التصور

هما أهم ما فيه. فالنظم والمؤسسات على أهميتها البالغة تظل فاقدة للوعى. قابلة للانهيار. إذا فقدت العقيدة التى توجهها والإنسان الذى يحرسها من الضياع والتلف والانهيار عن طريق حمايته للعقيدة التى تمثل القاعدة التى يقوم عليها بناء هذه المؤسسات.

وعليه فإننا عندما نبنى نظامًا من نظم الحياة فى السياسة أو الاقتصاد أو التربية إلى آخره، فإننا لا يجب أن نخلط بين التصور الإسلامى ومنظومته الحضارية الربانية العالمية الثابتة، وبين غيره من التصورات ذات المنظومات الحضارية البشرية المتغيرة، التى تخضع فى مسيرتها لكثير من نزوات البشر وشهواتهم.

لكن هذا لا يقتضينا أن نتطرف فننظر إلى مناهج الآخرين على أنها شر كلها لا ينبغى الاقتباس منها فى شىء؛ فسنن الله فى خلقه لا تتبدل ولا تتخلف، فمن أخذ بها وصل إلى نتائجها، وهذه السنن لا تجامل مسلمًا لإسلامه، ولا تعادى كافرًا لكفره... كما لا ينبغى الاعتقاد أنه لا نهضة لأمتنا إلا بتقليد الغرب فى كل شىء وقبول دور التابع له، فإن هذا من شأنه أن يذيب شخصية الإنسان المسلم، والأمة الإسلامية!

ثانيًا: مما سبق يمكن القول: إننا نحن المسلمين لا نستطيع أن نعيش فى عالم اليوم، وأن نتعامل مع الآخرين، مع الاحتفاظ فى نفس الوقت بكامل كرامتنا الإنسانية، دون التمسك بالإسلام عقيدة وشريعة، أى تصورا اعتقاديا، وتصورا اجتماعيا. إن هذا هو السبيل الوحيد الذى يجعل الأمة الإسلامية تقف فى مصاف القوى الكبرى بمناهجها المتصارعة. وإلا فالبديل هو الذوبان فى إحدى هذه القوى.

وفى اعتقادى أنه لن يصلح حاضر هذه الأمة ومستقبلها إلا بما صلح به ماضيها، مع الأخذ فى الاعتبار عوامل الزمان والمكان، وحاجات الناس ومطالبهم فى كل زمان ومكان.

وعليه فإن «التصورالاعتقادى» الإسلامى لا يمكن السماح بالخلط والتلبيس فيه، كما لا يمكن اقتباس شىء من خارجه لإدخاله فيه؛ وذلك لأنه تصور ربانى،

عالمى، ثابت، شامل. أمـا مناهج الآخرين الحالية، فأقل ما يمكن أن يقـال فيها، إنها أزياء فصلت وطرزت لتناسب أقوامًا معينين فى زمان ومكان معينين!

أما بالنسبة «للتـصور الاجتماعى» النابع من «التصور الاعـتقادى» الإسلامى فلا بد من النظر فيه: فما هو ثابت قد فصَّله الإسلام، وهذا لا مجال فيه للاقتباس من مناهج أخـرى. وما هو متـغير قـد أجمله الإسـلام، وهذا هو الباب المفـتوح للاقتباس والتعلم من الآخرين.

ثالثًا: إننا يجب أن نستـعين بما يمكن الاستـعانة به فى مجال العلوم التـقنية فقط، ودون التأثر بنمطه الحضارى العام. ويجب فى هذا الإطار أن نفرق بدقة بين الخصـوصيات الحضـارية وبين العموميـات الإنسانية، وإلا فالنتـيجة هى الإمعـية الحضارية والتبعية الذليلة!

ومن العبث فى هذا الصدد أن يقال: وماذا يملك المسلمون من خصوصيات حضارية كى يتعاملوا مع الآخرين من موقف القوة؟! ولنا فى الماضى عبرة فى الرد على هذا العبث المحـبط اليائس: فـماذا كان يملك ربعى بن عـامر غيـر الإيمان، واستعلاء الإيمان، والرغبة فى الموت فى سبيل عقـيدته، حينما دخل بثياب صفيقة وترس وفرس قـصيرة على رسـتم قائد الجيـوش الفارسيـة وأميرهم قـبيل موقـعة القادسيـة، وكان رستم يجلس على سرير من الذهب، وقد زين مـجلسه بالنمارق والزرابى والحرير، واليواقيت واللآلئ الثمينة. وعندما أقبل ربعى على رستم، قالوا له: ضع سـلاحك، فقـال: إنى لم آتكم، وإنما جـئـتكم حـين دعوتمونى، فـإن تركتـمونى هكذا، وإلا رجعت. فـقال له رستم: ما جـاء بكم؟ فقال: الله ابتـعثنا لنخرج من شاء من عبـادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن ضـيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام!

رابعًا: إن الناس جـميعًـا هم خلق الله، وقد جـعلهم الله شـعوبًا وقـبائل ليتعارفوا ويتكاملوا، لا ليتصارعوا ويتباعدوا: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ... (١٣)﴾ [الحجرات]. فـفكرة الإسلام هى أن الوجود واحد، وأن الإنسانية وحدة متكاملة، فالحكمة من وراء الاختلاف والتنوع،

هى التعاون والتكامل وإلا فلو شـاء الله لجعل الناس أمة واحدة: ﴿... وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [المائدة].

لكن الله لم يشأ أن يأخذ الناس قسرًا إلى هذه الغاية، لكنه جعل لكل منهم طريقًا ومنهجًا، وتركـهم يستبقون، وجعل هذا ابتلاء لـهم يقوم عليه جزاؤهم يوم يرجعون إليه، وهم إليه راجعون.

إذن فتواصل الأمة الإسلامية بغيرها من الأمم - حسب التصور الإسلامى - يجب أن يظل قائـمًا، على أن يظل التقـارب الوثيق أو التبـاعد إلى حد القطيـعة محكومًا بنواميس الهدى والضلال التى تمشى بها مشيئة الله فى الناس. وعليه فإنه فى سبيل إقـامة علاقات تفـاهم وتعاون مع الآخرين لحفظ السـلام فى العالم، لا يجب أن نتجاهل المبادئ والسنن الكونيـة فى الحق والعدل فى فلسطين وفى العراق وغيرهما، فمثل هذا التجاهل لا يؤدى إلى التفاهم الدولى ولا إلى السلام العالمى، بل إلى التنـازل عن الحـقوق الإنسانية الضرورية، تنازل المقهور بقوة قاهرة. وهذا - فى النهاية - لن يؤدى إلى إقامة حق ولا عدل ولا سلام.

خامسًا: إن الغرب يقيم تصوره للكون والإنسان والحياة على أساس السيطرة على الأرض واستغـلال ثرواتها، واحتكار طاقات أبنائهـا، وقد تمت هذه السيطرة أولاً عن طريق الاحتلال العسكرى. وتتم هذه السيطرة الآن وتعمق تقنيا عن طريق وسائل السيطرة عن بعـد كالراديو والتلفاز، والفيديو، والبث التليفزيونى الدولى المباشر عن طريق الأقمار الصناعية والقنوات الفضائية وشبكات الإنترنت. كما تتم السـيطرة الثـقـافيـة والفكـرية عن طريق عـرض النظريات العـقـائدية ذات النظم الاجتـماعيـة الناجحة مـاديا واقتصاديـا، وعن طريق الاحتلال الثـقافى والفكرى بالواسطة، عن طريـق من سبـق تسمـيتـهم فى الغـرب «بسلسلة القـيـاد» وهم مجمـوعات الشباب والمثـقفين الذين درسوا فى الغـرب، ثم عادوا إلى بلادهم - وهم ما يزالون يعيشون داخل المنظومة الغربيـة - ليحتلوا مواقع المسؤولية، ويقودوا الحياة الاجتماعية بموجهات غربية!

إننا فى هذا الصدد لابد من أن نفرق بين التفاعل الثقافى والغزو الثقافى. فالتفاعل الثقافى - كما يقول الأستاذ أحمد بهجت - يتم بين طرفين متعادلين، يأخذ كل منهما من الآخر ويعطيه. وهذا التفاعل مرغوب. بل ومطلوب. أما الغزو الثقافى فيتم بين طرفين أحدهما قوى غالب، والآخر ضعيف مغلوب على أمره. وهذا المغلوب - عادة - ما يتحول إلى مبهور، ثم إلى مقهور بقوة قاهرة.. فيؤخذ منه كل شىء.. ما يريد، وما لا يريد.

إنه لا عاصم لنا اليوم من هذه الهجمة العاتية إلا العودة إلى الإسلام عقيدة وشريعة وتنظيما حياتيا كاملاً. وإذا كان الآخرون متقدمين ماديا واقتصاديا، فهم مفلسون إلى حد كبير فى عالم «القيم».. القيم التى يمكن أن تنشأ فى ظلها حياة إنسانية كريمة، وتوظف فى ظلها نتائج العلم فى عمارة الأرض وترقية الحياة الإنسانية، وليس فى السيطرة والاحتكار!

إننا فى هذه الحالة، وفى هذه الحالة فقط، نستطيع أن نتعامل مع الآخرين ليس من موقف الضعيف المغلوب، بل من موقف القوى العادل. إن الآخرين قد يعطوننا المنتجات الصناعية ولكنهم لن يعطونا المصانع، وقد يعطوننا الأجهزة التكنولوچية، ولكنهم لا يعطوننا أسباب التكنولوچيا؛ لأن هذه ببساطة إحدى أهم وسائلهم فى السيطرة. إننى أومن إيمانًا راسخًا أننا لا نحتاج إلى التكنولوچيا أولاً، بل نحتاج أولاً إلى أن نحول الإسلام إلى عقيدة راسخة، وحركة إيجابية فاعلة فى كل جوانب حياتنا، ساعتها، وساعتها فقط، سوف نملك أسباب التقانة فى زمن قصير جدا. وأمامنا الآن نماذج لبلدان كانت خرابا يبابا من عشرين سنة فقط، وقد تحولت فى هذه الفترة القصيرة إلى عملاق اقتصادى وثقافى يهدد كل السابقين عليه!

سادسًا: إذا كان الرسول ﷺ يقول: **«الحكمة ضالة المؤمن حيثما وجدها فهو أحق بها»**؛ فقد يكون من الحكمة أن نرسل أبناءنا الآن إلى الغرب - بعد أن نسلحهم بفهم منهج الله للكون والإنسان والحياة - لدراسة العلوم البحتة والتطبيقية. كالرياضيات والعلوم، وكل علوم الصناعة والزراعة والإدارة، وعلوم

الحرب وفنون القتال، وكل العلوم الأخرى التى ليس لها صبغة فلسفية، ولا علاقة لها بتفسير السلوك الإنسانى.

لكن الأمر المجافى للحكمة تمامًا، ولا يتسامح فيه الإسلام هو أن يتلقى المسلم أصول عقيدته، أو مقومات تصوره، أو تفسير قرآنه وحديثه وسيرة نبيه، أو منهج تاريخه وتربيته، أو تفسير نشاطه، أو مذهب مجتمعه، أو نظام حكمه، أو منهج سياسته، أو موحيات فنه وأدبه وتعبيره من مصادر غير إسلامية، أو يتلقى فى كل هذا من غير مسلم يوثق فى دينه وتقواه.

يقول الله - سبحانه - عن الهدف النهائى لليهود والنصارى فى شأن المسلمين بصفة عامة:

﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾﴾ [البقرة].

مما سبق يمكن تلخيص موقف الأمة فى مستقبل علاقاتها مع الآخرين فيما يلى:

١ - الأمة الإسلامية - بحكم رسالتها، وبحكم وسطيتها وشهادتها على الناس لا بد من أن تتصل بالغرب وتتعامل معه. وهى إذ تقوم بذلك إما أن تكون بكامل إرادتها وسيادتها، فيكون لها التمكين والنصر والريادة، وإما أن يتم ذلك وهى مفككة، مسلوبة الإرادة فيكون مصيرها الانهيار والذوبان فى الآخرين أو فقدان الشخصية الفاعلة على الأقل!

٢ - ولكى تتعامل الأمة مع الغرب بكامل إرادتها، لا بد من أن تتوحد إرادة أبنائها من خلال تجسيد المنهج الإسلامى فى مجتمعاتها، باعتباره المنهج الإنسانى العالمى الأخير لتحرير الإنسان من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده. إن هذا هو طريق العزة الوحيد لهذه الأمة، وقد صور ذلك عمر بن الخطاب رضى الله عنه بقوله: «لقد أعزكم الله بالإسلام، فإن ابتغيتم العزة فى غيره أذلكم الله».

٣ - لا بد أن يكون للأمة الإسلامية بأقطارها المتنوعة إستراتيجية ثابتة فى التعامل مع بعضها البعض، وفى التعامل مع الآخرين. بحيث يكون التعامل فيما



بينها قائمًا على أساس الإيمان بالله، والاعتصام بحبل الله المتين، ويكون تعاملها مع الآخرين على أساس الأخوة فى الإنسانية، والتعاون، والتكامل، والتآزر فى إقامة العدل، ونبذ الاستغلال والاحتكار والربا والظلم فى كل مكان. على أن يكون واضحًا للجميع أن سلوك الأمة هذا نابع من تصورها العقدى، وتصورها الاجتماعى المشتق منه.

٢٣ - ترسيخ مفاهيم العدل والسلام فى عقول الطلاب:

إنه لا بد من ترسيخ مفاهيم العدل والسلام فى عقول الطلاب وضمائرهم وسلوكياتهم. إن إنسان هذا العصر يعانى من الفقر الشديد فى السلام مع نفسه، ومن فقر مماثل فى السلام مع الكون من حوله، ومن أوضح مظاهر الفقر فى السلام مع النفس، وانتشار الأمراض النفسية والعقلية والعصبية نتيجة عدم الإيمان بالله، وعدم وضوح المنهج والهدف، وكثرة الإضلال والتضليل. وما ترتب على ذلك من شيوع الإدمان، والانتحار والاغتصاب - رغم الإباحية الجنسية - والإيدز والمخدرات والتلوث... إلخ.

ومن أوضح مظاهر الفقر فى السلام مع الكون، الاختلال الواضح الآن فى توازن البيئة، بسبب الكم الهائل من مخلفات المصانع والمواد الكيماوية المنطلقة فى الجو، وما أدى إليه من تآكل طبقة «الأوزون» فى الغلاف الجوى المحيط بالأرض مما يعتبر خطرًا داهمًا يهدد البشرية كلها بآثار لا يفوقها فى المخاطر والأهوال سوى النتائج المترتبة على قيام حرب نووية تبيد سكان هذا الكوكب، وتقضى على حضارة الإنسان. ويمكن الإضافة إلى هذا تلاحق الحوادث الخطيرة التى باتت تهدد الإنسان مثل كوارث المفاعلات النووية، ودفن النفايات الكيماوية السامة فى قيعان البحار أو فى بلاد العالم الفقيرة!

والحقيقة أنه إذا كانت كل نذر الفوضى والخراب والدمار تندلع شرارتها من عقول البشر، فإن استحكامات العدل والأمن والسلام ودفاعاتها يمكن أن تبنى أيضًا فى عقول البشر وضمائرهم. ومنهج التربية فى الإسلام هو المنهج الوحيد القادر على بناء قواعد العدل واستحكامات السلام فى عقول البشر وضمائرهم.

فالذى لا شك فيه أنه إذا اكتملت تربية الإنسان واكتمل تأهيله وفق منهج الله، فإن الاستقامة على العدل والسلام تصبح طابعه الحضارى.

إن إرساء قواعد العدل والسلام فى العالم وإيقاف الحروب والصراعات والمؤامرات حفاظًا على الأجيال الحالية من البشر، والحفاظ على البيئة ووقف استنزافها، وتجريم تخريبها حماية لمستقبل الإنسانية - كل هذا لا يمكن أن يتم دون تصحيح تصور الإنسان للكون والإنسان والحياة، وفهم مركز الإنسان فى الكون ووظيفته فى الحياة.

إن بناء قيم العدل والسلام فى عقول البشر وضمائرهم لا يمكن أن يتم من خلال مناهج للتربية تقوم على أساس عدم الإيمان بالله، وإنكار حقيقة الألوهية، واعتبار الطبيعة خالقة، وأنها الجوهر الأول، وأصل كل شىء، ومصدر كل شىء كما يعتقد أنصار المدرسة المادية التى تنكر الغيب ولا تعترف بغير القوى المادية المحسوسة. كما لا يمكن أن يتم هذا من خلال مناهج تقوم على أساس فصل الدين عن الحياة، واعتبار أن للبشر ملكوت الأرض، ولله ملكوت السماء!

إنه لا ضمان لعدل ولا أمل فى سلام عندما يعزل الدين عن الحياة، أو تغتصب الحاكمية والسيادة من شريعة الله لحساب النظام العالمى الجديد، أو لحساب الرغبة فى الهيمنة والاحتكار والقهر كما تفعل ذئاب الكون المعاصرة.

إن شريعة الله التى سنها لتنظيم حياة البشر، هى شريعة كونية متصلة بناموس الكون العام، ومتناسقة معه؛ ومن ثَمَّ فإن الالتزام بها ناشئ عن ضرورة تحقيق التناسق بين حياة الإنسان، وحركة الكون الذى يعيش فيه، وبذلك فإن العمل بهذه الشريعة واجب حتمى لتحقيق هذا التناسق.

إن هذا التناسق يحقق للإنسان السلام مع نفسه، كما يحقق له السلام مع الكون المحيط به. أما السلام مع النفس فينشأ من توافق حركته مع دوافع فطرته الصحيحة، وبذلك تنتظم حركة الإنسان الظاهرة مع فطرته المضمرة.

وأما السلام مع الكون فينشأ من تطابق حركة الإنسان مع حركة الكون المحيط به فى الاتجاه والغاية. بذلك يتحقق الخير للبشرية عن طريق إهدائها

وتعرفها فى يسر إلى أسرار هذا الكون، والطاقات المكنونة فيه والكنوز المذخورة فى أطوائه، واستخدام هذا كله وفق شريعة الله لتحقيق الخير البشرى العام، بلا تعارض ولا اصطدام.

ولهذا فإنه عندما يحيد الإنسان عن هذه الشريعة فإنه يحدث نوعًا من الشقاق الذى يؤدى حتمًا إلى كوارث نفسية وكونية، فالحياد عن شريعة الله يحدث الشقاق بين الإنسان وفطرته السليمة التى فطره الله عليها، فيصاب بأبشع الأمراض النفسية والجسمية.

والحياد عن شريعة الله يحدث الشقاق بين الإنسان من جانب، وبين الكون من حوله الخاضع لله بفطرته من جانب آخر؛ فتحدث الكوارث الطبيعية التى تدمر الإنسان فى كل مكان؛ حيث تنقلب طاقات الكون وذخائره وقواه من وسائل لتعمير الحياة وترقيتها إلى عوامل تدمير وخراب وشقاء للإنسان والبيئة والكون جميعًا.

وعلى هذا فإننا إذا أردنا بناء العدل والسلام فى عقول البشر وضمائرهم، فعلينا ألاَّ نسمح بالحياد عن رابطة العقيدة فى مناهج التربية لحساب الروابط والولاءات الجغرافية والتاريخية، والسياسية والاجتماعية والشعوبية.. وما إلى ذلك من الروابط المتصلة بنواحى العنصرية البغيضة والعصبية المنتنة.

إنه لا يمكن بناء معايير العدل والسلام فى عقول البشر عندما تختفى من مناهج التربية قيمة إعداد «الإنسان» ليكون خليفة لله فى عمارة الأرض وترقية الحياة على ظهرها لحساب إعداد «المواطن» المقطوع الصلة بالله، الذى لا يتسع ولاؤه لأكثر من جماعة من الناس على رقعة ضيقة من الأرض فى زمان ومكان معينين! إن هذا المواطن المقطوع الصلة بالله، مهما أتقن العمل وأقام المصانع والمزارع، ومهما اخترع وابتكر، فسوف تتحول نتائج أعماله وابتكاراته إلى عوامل تخريب وتدمير وشقاء؛ لأنه ابتغى العلم والعمل لغير وجه الله، والعلم يأبى أن يكون إلا لله.

إنه لا يمكن بناء العدل والسلام فى عقول البشر وضمائرهم، عندما تختفى من مناهج التربية فى العالم قيمة بناء الأسرة المتخصصة فى العمل بين الزوجين. الأسرة التى تعتبر أن مهمتها الأساسية تربية الناشئة على أساس قويم من الإيمان بالله، والأخوة فى الله، والأخوة فى الإنسانية. إنه عندما تختفى هذه القيمة لحساب العلاقات الجنسية «الحرة»! واختلاط الأنساب، وفقدان الولاء للأسرة، وإفراغ طاقة المرأة فى الأعمال التى لا تناسب فطرتها.. إنه عندئذ لا ضمان لعدل، ولا أمل فى سلام.

وباختصار إن العالم كله - ونحن فى مقدمته - فى حاجة إلى منهج الإسلام للتربية. فهذا المنهج هو المنهج الوحيد القادر على تربية الأجيال على أساس الإيمان بالله والأخوة فى الله، والأخوة فى الإنسانية. إنه المنهج الوحيد الذى يستطيع بناء عقول البشر وضمائرهم من خلال مفاهيم وقيم وسلوكيات إنسانية عادلة. وما ذلك إلا لأنه المنهج الوحيد الباقى، الذى يبدأ بسلام الإنسان مع الله، وسلامه مع نفسه، ومع المحيطين به.. وصولا للسلام مع البيئة والطبيعة والعالم كله من حوله، والله يقول الحق، وهو يهدى السبيل.

٢٤ - الاهتمام بالسيطرة على مهارات اللغة العربية وفنونها:

يجب أن تهتم المناهج بتعليم اللغة العربية وإعطائها الأولوية فى التعليم قبل أية لغة أخرى، فاللغة العربية هى لغة مقدسة فوق أنها لغة قومية.

إننا عندما كنا ندرس فى بلاد الإنجليز كنا نغبطهم بسبب غيرتهم على لغتهم، فكثيرًا ما كانوا يصححون لنا لغتنا - بطريقة ذكية - ونحن نتحدث معهم. وفى الأعوام الأخيرة حقق وزراء التربية فى أوروبا انتصارا سياسيا بعد أن استجاب المسؤولون عن التربية والتعليم فى المدارس إلى ترك العاميات إلى اللغة السليمة، بحيث يصبح جميع تلاميذ المدارس الابتدائية قادرين على القراءة والكتابة باللغة الإنجليزية الفصيحة.

وعلى العكس من ذلك نتصرف نحن مع لغتنا فى بلادنا. فلا أعتقد أن أمة سوانا تمارس عدوانًا على لغتها مثلما نفعل. وقد يكون مفهومًا أن تجد العربية

خارج حدودها أعداء يكيدون لهـا، لكن المؤلم حقا أن يكون بعض هؤلاء الأعداء من بنيهـا، عن قصد أو عن غير قـصد، لذلك فالعربيـة اليوم تجاهد فى جبـهتين أقربهما أمرهما وأقساهما؛ لأنهـا تقاتل حينئذ قطعًا من نفسها، وظلم ذوى القربى أشد مرارة على النفس، ولو كتب لها النصر فى هذه المعركة فإن ما عداها يهون.

لقد أصبنا «بالإيدز اللـغوى»؛ أى فقدان المناعة اللغـوية، لدرجة أن العدوان على لغتنا لا يستوقف معظمنا!

فهناك قلة من صك الغرب عقـولهم، وطبع على قلوبهم، ثم ابتعد وتركهم يؤدون دورهم، وهم أناس من جلدتنا، ويتكلمـون بلساننا، لكنهم يحتـرمون كل تراث إلا التـراث الإسـلامى، ويؤثرون كل لـغة إلا الـعربـيـة، ويلوون ألسنتـهم برطانات الغرب، ويفـاخرون بها. هؤلاء هم من يؤدى الغـرب عن طريقهم الدور المطلوب، البطىء الخطوات، الأكيد المفعول!

وهؤلاء عادة مـا يصيحـون - كما يقـول الشيخ محـمد الغزالى - مـا للغة العـربية وعلوم الطب والهندسة والصيدلة؟ إن تعـريب هذه العلوم مستحيل! وهم - عادة - لا يعـيرونك آذانًا صاغـية عندما تقـول لهم: إن اللغة العـربية يجب أن تعود لغـة العلم والتأليف العلمى كمـا كانت من قبل. إن اليهـود قد نقلوا العلوم الحديثة إلى العبرية، وهى لغة ميتة؛ استخرجت من المقابر، وحررت من الأكفان، فهل تعـجز العربية - وهـى لغة حية راقـية - لغة الوحى الإلهى - عـما حققـته العبرية؟!

إننا نريد تعريب المـعرفة لا دعم التغـريب وتكريسه. وإذا فـشلنا فى تعريب العلوم وإنشاء مـصطلحات جديدة تناسب الارتقاء العلمى فـى كل المجالات، فإن هذا يعنى أمـرًا واحدًا هو أننا متـسـولون فى ميـادين الطب والهندسة والـكيمـياء والفيزياء.. إلخ. وسنبقى متسولين أبدًا.

إننا نملك ناصية المعـرفة عندما ننقلها إلى لساننا، أمـا عندما ننتقل نحن إلى ألسنة الآخرين، فسنكون عـالة عليهم، وسنبقى أتباعًا ضائعى الهـوية، لا قيمة لنا فى الأرض، ولا وزن لنا فى السماء!



إن وضع اللغـة العربيـة فى أقطار العالم العـربى مؤسف إلى حـد الإبكاء. أقطار كاملـة من أملاك العربيـة لا تكاد تسمع فـيها العـربية على الإطلاق. فـقد أسلمت قيادها للهجة أو عدة لهجات محلية طاغية على كل ما فيها ومن فيها، فى البيت والشارع ووسائل الإعلام والإعلان.. إلخ.

وليت الأمـر يتوقف عند هذا الحـد، بل إنك لتـجد المعلمـين فى المدارس، والأساتذة فى الجـامعـات يدرسون ويحـاضرون باللهـجات العامـية. فـإذا سألت أحدهم: لماذا لا تدرس باللغة العربيـة؟ فإذا كان عربى التخصص فقـد يعتذر بأنها «العادة» التى طغت على تدريسه، وقد يعد بأنه سوف يحاول. وإذا كان معلمًا لمادة غير العربية وآدابها، فربما جاء اعـتذاره أقبح من الذنب قائلاً: وما أهمية ذلك؟ أنا لست «بتاع» عـربى! وهنا يحس المرء حقيـقة أن اللغة العـربية ليست بحـاجة إلى الاهتمام بتعليمها وممارسـتها فقط، بل هى بحاجة إلى الحب أولاً وقبل كل شىء، فهل نستطيع أن نعلم أبناءنا وشبابنا حب لغتهم والاعتزاز بها؟!

وهناك أقطار كاملة أخرى من أملاك العربيـة تحتلها رطانات آسيوية وأوروبية تصـر على أن تملأ آذان الحيـاة بضوضـائها ولغـوها. وقـد تسللت هذه الرطانات والضوضاء إلى داخل البيوت، والمخادع، وتولت تربية الأطفال، وفرضت أصواتها ونبراتهـا ولكنتها علـى الأسرة العربيـة، وروجت أذواقها وأفكارها، كـما روجت بضائعهـا ومنتجاتها.. حـتى ليتذكر المرء وهو ضـائع بين هذه الرطانات والعناصر الثقافية الغربية قول المتنبى فى شعب بوان:

ولكن الفتى العربى فيها غريب الوجه واليد واللسان

إننا نتطلع إلى اليـوم الذى يتـحول فـيه كل العـرب إلى عـشاق مـغرمـين بلسانهم، ذائبين فى حرفه، يحسنون درســه، ويجيدون نطقه، ويلزمون غرزه، فلا ينطقون على أرض العرب إلا بالعربية. وعلى من أراد أن يعيش بين ظهرانيهم من الأجانب أن يتعلم لسانهم، ويعـاملهم بكلامهم. عندئذ سوف تكون لنا مكانة فى الأرض وذكر فى السماء.



٢٥ - إدراك أهمية التفكير العلمي وفهم مناهجه، والتدرب على أساليبه:

إن الإسلام وهو يتـولى تنظيم الحياة الإنسـانية جميـعا، لم يعالج نواحيـها المختلفة جـزافا، ولم يتناولها أجزاء وتفاريق، ذلك أن له تصورا كليـا متكاملا عن الألوهية والكون والحيـاة والإنسان؛ يرد ريه كفة الفروع والتفصـيلات؛ ويربط إليه نظرياته جميعا، وتشريعاته وحدوده، وعبادته ومعاملاته؛ فيصدر فيها كلها عن هذا التـصور الشـامل المتكامل، ولا يرتجل الـرأى لكل حالة؛ ولا يعـالج كل مـشكلة وحدها فى عزلة عن سائر المشكلات.

«ومعرفة هذا التصور الكلى للإسلام تيسر للباحث فيه فهم أصوله وقواعده، وتســهل عليه أن يـرد الجزئيـات إلى الكليـات وأن يتتبع فى لذة وعـمق خطوطه واتجاهاته، ويلحظ أنها متشابكة متكاملة، وأنها كل لا يتجزأ، وأنها لا تعمل عملا مثمرا للحياة إلا وهى متكاملة الأجزاء والاتجاهات».

«وطريق البـاحث فى الإسلام أن يتـبين أولا تصـوره الشامل عن الألوهيـة والكون والحيـاة والإنسان، قبل أن يبـحث عن رأيه فى الحكم أو رأيه فى المال، أو رأيه فى عـلاقات الأمم والأفـراد... فـإنما هذه فـروع تصدر عن ذلـك التصـور الكلى، ولا تفهم بدونه فهما صحيحا عميقا».

«والتصور الإسلامى الصحـيح لا يلتمس عنده الفلاسفة والمفكرين... وإنما يلتمس فى أصـوله الصحيـحة؛ القـرآن والحديث، وفى سيـرة رسوله ﷺ وسننه العملية وهذه الأصـول هى حسب أى باحث متعمق ليـدرك تصور الإسلام الكلى الذى يصدر عنه فى كل تعاليمه وتشريعاته ومعاملاته»[1].

لا بد أن يدرك الطلاب أن المنهج التجـريبى قد نشأ على يد علمـاء المسلمين لخدمة أغراض البحـث العلمى فى العلوم الطبيعية والحيوية، وكانت مـهمة البحث

---

(١) سيـد قطب: العدالة الاجتـماعيـة فى الإسلام، الطبـعة الشرعـية التاسـعة ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م، ص٢٠.

عن طريق هذا المنهج هى اكتشاف قوانين الله فى الكون، ثم استخدام هذه القوانين فى إعمار الأرض وترقية الحياة على ظهرها.

وقد انتقل هذا المنهج إلى أوروبا، ثم انتشر هناك إبان عصر النهضة على يد مجموعة من العلماء وعلى رأسهم «روجرز بيكون». وقد غطى هذا المنهج على المنهج الذى كان سائدًا هناك حتى ذلك الوقت، وهو المنهج القياسى لأرسطو.

لكن الفصام النكد بين الكنيسة والحياة - والذى حدث فى بداية عصر النهضة فى أوروبا كرد فعل للهيمنة والمظالم التى فرضتها الكنيسة هناك بغيًا وعدوًا باسم الله - جعل الباحثين يفصلون بين هذا المنهج وأصله الاعتقادى، ويتحررون من المقولة الدينية وهى أن غاية البحث فهم قوانين الله فى الكون والإنسان والحياة، ويستبدلون بها مقولة أخرى مؤداها أن المعارف تأتى وتنمو عن طريق الملاحظة والتجربة وحدهما، وأن الطريق الصحيح لتكوين المعارف هو طريق التحليل، أى الملاحظة والتجربة، لا التركيب؛ أى الاستقراء والبرهنة، ويستوى فى ذلك العلوم الطبيعية والحيوية، والعلوم المتصلة بتفسير السلوك الإنسانى مثل علوم النفس والسياسة والاقتصاد والاجتماع والتربية، واللغات والفنون والآداب ... إلخ.

وكانت نتيجة إقصاء الدين عن الحياة وإبعاده عن مراكز توجيه العلوم كلها طبيعية وحيوية، أن حدث فراغ فى قواعد انطلاق الفكر الإنسانى وتوجيهه.. وهنا كانت الفرصة مهيأة تماما لأصحاب الفلسفات والنظريات، فبرزت الفلسفيات المادية ذات الأصل اليونانى الوثنى القديم، لتملأ الفراغ الحادث، وخاصة نظرية «ديمقيط» التى تؤمن بمبدأ عدم قابلية المادة للفناء، ومبدأ بقاء القوة، وهما المبدءان اللذان تعبر عنهما الوضعية الحديثة بقولها: لم ينشأ شىء من اللاشىء، ولن ينتهى شىء إلى اللاشىء، فالمادة هى مصدر كل شىء وأصله وجوهره، لا شىء قبلها، ولا شىء بعدها، والإنسان هو إحدى صنائع الحتميات المختلفة: الحتمية المادية، والحتمية الاقتصادية، والحتمية التاريخية.. فهو مغلوب على أمره، ومقهور على الفعل أو عدم الفعل، يتغير هو ذاته، ويتغير كل شىء من حوله، بفعل هذه الحتميات الجبارة!.



وأخذ أنصار هذه المدرسة المحدثون يدعون إلى فهم حركة الكون على أساس أن فى طبيعة الظواهر الطبيعية قوانين حتمية لا تتخلف وأن هناك «جبرية» طبيعية فى خلق الكون وتسيير حركته. فالطبيعة هنا خالقة وليست مخلوقة لله! وغاية البحث فى العلوم الطبيعية والحيوية هى كشف القوانين والنظريات التى تحكم الظواهر الحيوية والطبيعية بغية تفسير الأحداث، والتنبؤ بها والتحكم فيها.

لذلك فإن «المنهج التجريبى» لدى أصحاب النزعة الوضعية فى أوروبا هو المنهج الوحيد القادر على إثمار المعارف اليقينية، والصالح للبحث العلمى، والمستحق لاحترام العلماء والمفكرين. فأصحاب هذه النزعة قد اختزلوا الكون إلى «الكون المشهود»، وأنكروا «الكون المغيب»، واختزلوا عالم الإنسان إلى «عالم الشهادة» وأنكروا الحياة الآخرة؛ واختزلوا مصادر المعرفة الصحيحة إلى الظواهر المادية فقط دون غيرها، ومن ثَمَّ اختزلوا أدوات المعرفة وقصروها على الحواس فقط.

وتتصادم هذه المدرسة بالطبع مع التصور الإسلامى الذى يرى أن من أخص صفات المتقين أنهم يؤمنون بالغيب. ويرى الإنسان خليفة لله فى الأرض، يقوم على إعمارها وترقيتها وفق منهج الله، وأنه - وكل شىء - عائد إلى الله ليحاسبه على ما أدى من واجبات الخلافة، وليعيش فى حياته الآخرة وفق ما أدى. إنها تنكر أن الله قد خلق الإنسان ولم يكله فى المعرفة إلى حواسه وحدها وإلى قدراته وحدها.. فأرسل له الكتب والرسل كمصادر للمعرفة.. لا لتلغى المعرفة الإنسانية المحسوسة، ولا لتقلل من شأنها وشأن أدواتها، وإنما تضيف للمعرفة الإنسانية غير اليقينية، معارف يقينية ثابتة، لا تنتجها المادة، ولا تستقل بإدراكها الحواس.. وبذلك لا يظل الإنسان المخلوق من مادة وروح بمعزل عن غذاء الروح، حبيسا للمعارف المادية دون سواها.

إن ما تعارف البشر على أنه «نظريات علمية» وما تعارفوا كذلك على أنه «حقائق علمية» كلاهما ليس قطعى الدلالة ولا مطلق الدلالة.. فهو علم ظنى فى أحسن الأحوال كما يشهد بذلك العلماء أنفسهم.



فأما «النظريات العلمية» فمعـروف عند العلماء المحدثين أنفسهم أنها «ليست سوى فـروض راجحة». . فروض علـمية لتفـسير ظاهرة - أو ظواهر - كـونية. وتظل النظرية قائمة ومعتبرة إلى أن يوجد فرض علمى آخر، يفسر تلك الظاهرة - أو الظواهر - تفسـيرا أوضح أو أصح. . وهى عرضـة للتبدل والتـغير والتـعديل والإلغاء.

وأما «الحقـائق العلمية» فهى - كمـا يقرر العلماء المحدثون كـذلك - مجرد احتمالات راجحة، وليست قطعية الدلالة، ولا مطلقة الدلالة، إنها حقائق ظنية - بما أنها احتمـالات راجحة - وطبيعة المنهج العلمى التجـريبى لا تسمح بغير هذا، فالإنسـان هو الذى يقوم بالتجـربة، ومن ثم فهـو لا يعتمـد على نتائج إحصـائية (استقرائية)، وإنما يعـتمد على نتائج قياسية. . يجـرى تجاربه على عدد محدود - مهما كثر - من المادة التى هى موضوع التجربة، ثم يقيس ما لم تتناوله تجاربه على ما تناولته هذه التجارب، لأن كل أجزاء المادة - موضوع التجربة - ليست فى يده، ولا تحت سلطانه البـشرى المحـدود. وكذلـك ليست جـميع الظروف والعـوارض خاضعة لسلطانه، ولا داخلة فى علمه، ولأن عمره - لا الفردى ولكن الإنسانى - محـدود كذلك، لا يملك فيـه إجراء التجـربة على جزء من أجزاء المادة مـوضوع التجـربة، والإحاطة بجـميع الظروف والعـوامل، فهـو مضطر اضطرارا أن يتـخذ البرهان القياسى، لا البرهان الإحصائى. ومن المسلَّم به سواء فى المنطق العقلى أو فى العـرف العلمى، أن البـرهان القـياسى هو برهان ظـنى لا قطعى، وهو برهان مقـيد الدلالة لا مطلق الدلالة كـذلك. . وذلك فضلا عن عـامل «النسبـية» الذى يتدخل فى الموقف، ويجعل كل حقيقة يصل إليها البشر حقيقة «نسبية» لا مطلقة، فالحقائق القطعية المطلقة لا يملكها إلا الله - سـبحانه - بحكم ألوهيته المهيمنة على الكون كله، وبحكم علمه المحيط غير المقيد بالزمان والمكان، وبحكم أنه - سبحانه - هو الأول والآخر والظاهر والباطن[1]، وهو على كل شىء قدير.

---

(١) سيد قطب: مقومات التصور الإسلامى، مرجع سابق، ص ٣٢٢ - ٣٢٣.

تلك هى المنطلقات الإيمانية التى جعلت الإسلام متميزا فى مصادره للمعرفة وفى منهجه للبحث عن ذلك الذى ساد لدى المفكرين الوضعيين الغربيين، ولذلك وجدنا التصور الإسلامى لا يقف بمصادر المعرفة عند المنهج التجريبى وحده. . إنه لا يهمله ولا يغض من شأنه، ولا من شأن ثمراته المعرفية - فهو أحد إبداعات الحضارة الإسلامية، فيها تبلور وأعطى ثمراته، قبل أن ينتقل ويتطور لدى الغرب - ولكنه لا يقول بتفرده كسبيل للمعرفة، ولا يرى أنه سبيل للمعرفة القطعية المطلقة، فهناك المعرفة اليقينية المتمثلة فى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وهناك المنهج الاستقرائى الذى يستنبط به الإنسان من الجزئيات المادية معارف تقطع بضرورة وجود غير مادى[1].

وهناك المنهج العلمى للنظر العقلى، ويسميه الغزالى بمنهج «التفكير»، ويحدث إذا غلب نور العقل على أوصاف الحس، وهنا يستغنى الإنسان بقليل من التفكير على كثير من إدراكات الحواس.

ويتطلب المنهج العلمى للنظر العقلى من الباحث المسلم أو المفكر المسلم أن يعمل على تمحيص الحقيقة، وعدم التأثير بمقررات سابقة، ولا مقررات ذاتية لا برهان عليها، ولا بمجرد الظن: ﴿**وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا** ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء]. ﴿**وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا** ﴿٢٨﴾﴾ [النجم]، «**إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث**» [رواه البخارى].

وهو منهج يحث العقل على طلب الدليل فى كل اعتقاد: ﴿**هَٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ** . . . ﴿١٥﴾﴾ [الكهف].

كما يوجه العقل إلى عدم التسرع فى إصدار الأحكام: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ** ﴿٦﴾﴾ [الحجرات].

---

(١) محمد عمارة: «تعدد مصادر المعرفة بين الحضارتين الإسلامية والغربية» فى «المسلمون» العدد ٢٤٣، فى ٢٩ صفر ١٤١٠ هـ - ٢٩ / ١١ / ١٩٨٩م، ص ٧.

وإلى عدم نشـر ما يُسمع قبل دراسـة المختصين له، وإصـدار الحكم عليه:
﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ ... ﴿٨٣﴾﴾ [النساء].

وهناك «الإلهام»، والإلهام هو تنبـيه الله للنفس الإنسانية وإلهـامها بالأفكار والعلاقات على قـدر صفاتها وقبـولها وقوة استـعدادها، ومقدار سعـيها، وتَعَلُّم الإنسـان عن طريق إلهـام الله له يمكن إدراكـه فى قوله تعـالى: ﴿... وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ... ﴿٢٨٢﴾﴾ [البقرة] فالآية دعوة صريحة إلى المؤمنين بتقوى الله، فهو الذى يعلمهم ويرشـدهم، وأن تقوى الله تفتح قلوبهم للمـعرفة، وتهيئ عـقولهم للتعلم. ويؤكـد هذا أيضًا قـوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾﴾ [الشـمس]. فالإلهـام - إذن - وسـيلة من وسـائل تعلم النفس الإنسانية عن طريق القوة الكامنة التى أودعها الله فيها لتـوجيه استعداداتها وطاقاتها المدركة إلى طريق الخير أو إلى طريق الشر.

نتائج إهمال دراسة المنهج العلمى للبحث فى التصور الإسلامى:

لكن الباحثـين والمفكرين المسلمين قد أهملوا فى القـرون الأخيرة - للأسف الشديد - دراسـة مناهج البحث العلمى فى التـصور الإسلامى، وأهمـلوا بالتالى تطبيقـاتها فى حياتهم الفـكرية والاجتماعيـة. وساروا بدلاً من ذلك وراء المدارس الوضعـية الغربيـة التى تنكر الوحى، وتتنكر لفكرة الرسـالات والنبوات، وترفض التعامل مع الغـيب، ولا تؤمن إلا بعالم الشهادة، وبذلك تسـقط كل المعارف التى لا تخضع للتجريب المعملى وملاحظة المحسوسات!

ولقد كان من أهم آثار استـخدام منهج البحث فى العلوم الطبيعـية والحيوية فى العلوم الاجـتـمـاعيـة والتـربوية، أن رسخ فى أذهان الأجـيـال من العلمـاء والباحثيــن: «أن المعـرفة العلـمية المـنضبطة فى المجـالات الاجتماعية والتربوية لا بد وأن تكـون نتـاج التجـريب والتحـليـل، وأن المعارف التى تفرزها عـقول

البشـر وإبداعاتهم عن غـير هذا الطريق ليست مـعارف، وأن ما تركـب منها ليس علمًا»[1]. ولا شك أن هذا يمثل مفهومًا متخلفًا للعلم والمعرفة على سواء.

والذين يشجعون استخدام منهج التجريب والتحليل فى البحوث الاجتماعية والتربوية يبنـون نظريتهم على افتـراضات أساسـية يصعب الدفـاع عنها، كالحـياد العلمى، وموضوعية الحقيقة، وصدق الملاحظة. . . إلخ.

وقد سـبق أن قلنا إن «الحقائق العلمـية» ليست أكثـر من مجرد افتـراضات راجحة، ليست قطعـية الدلالة ولا مطلقة الدلالة، وقد بدأ كثيـر من علماء الغرب يقللون من شأن التجريب ويؤكدون أنـه لا توجد نظرية محايدة، وأن ملاحظة أى باحث تتأثر إلى درجة كبـيرة بنظريته، وفروضه، وإطار عمله، وخلفيـته المعرفية، وأن الحياد العـلمى والملاحظة الموضوعية اللذين كـثر الكلام عنهما أمـران مشكوك فيـهما. وقـد أكد «جون ديوى» أن الإدراك وهو أول ثـمرة الملاحظة الحسـية، لا يمكن أن يكون مـحايدًا، وإنما هو مـتأثـر - دائمًا - بالمعـرفة السـابقة للمـلاحظ وذكائه. وبدون هذا يـكون الإدراك مجرد اسـتثارة حـسيـة يستوى فـيهـا الإنسان والحيوان.

ثم إن الصيغة التجـريبية التحليلية إذا كان من الممكن الاعتمـاد عليها - كما يقول الـدكتور أحـمد المهـدى عبـد الحليم - فى الحصـول على المعارف الخـاصة بالماهيات Know What (S) والكيـفيـات Know how (S)، فإنـها تحمل تحـديد المسارات والأهداف والغـايات، وبذلك تهمل المعـتقدات والقـيم الإنسانيـة والقيم الخلقية النابعة منها.

ولقد أدى تبنى هذا المنهج فى البـحث التربوى إلى مساوئ كثيـرة من أهمها ما يلى[2]:

---

(١) أحمد المهدى عبد الحليم: «نحو صيغة إسـلامية للبحث الاجتماعى التربوى» العدد ٢٣، السنة الثامنة، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧م، ص ٣٧.

(٢) المرجع السابق.

١ - تركيز البحث على اكتشاف العلاقة بين متغيرين أو ثلاثة - غالبًا - فى ظاهرة من الظواهر التربوية، مع أن الظواهر التربوية معقدة، ولا يمكن اختزال المتغيرات فيها إلى عاملين أو ثلاثة.

٢ - إن الإجراءات المفتعلة فى التحديد المسبق لمتغيرات التصميم التجريبى فى العلوم الاجتماعية والتربوية منها على وجه الخصوص، قد أدى إلى تسييد تقنيات البحث وأدواته، وإلى أن تتم مواءمة مشكلات الدراسة لتخدم هذه التقنيات والأدوات، وليس العكس، وهو ما يجب أن يكون. وبذلك أصبحنا نرى بحوثًا تجرى لخدمة صنعة البحث وأدواته وتقنياته، أكثر مما تخدم الإنسان أو المجتمع الذى أجرى البحث من أجله أصلاً. وقد أدى شيوع هذا فى مجال البحث التربوى إلى الفصام النكد الموجود حاليا بين البحوث التربوية والممارسات التربوية.

٣ - لقد أدى استخدام هذا المنهج إلى التأكيد على المغزى الإحصائى للفروق، بدلاً من التركيز على المعنى الاجتماعى والتربوى، ولقد أدى هذا بدوره إلى نماء الاتجاه نحو الاستخدام الإحصائى على حساب التفكير والمناقشة والبرهنة.

٤ - لقد أدى هذا الاتجاه فى البحث التربوى والاجتماعى عمومًا إلى عدم الإيمان بقيمة البحث إلا إذا كان إمبريقيا، وإلى تركيز الجهود والطاقات فى البحث على دراسة الواقع بطريقة مباشرة، والتحديد الإجرائى للمصطلحات، ودراسة العلاقة بين متغيرين أحدهما مستقل والآخر تابع، وتصميم الاستبانات على هيئة تحقيقات جنائية فى معظمها!.

ولقد أدى كل هذا إلى إهمال التنظير، فلا البحوث تبدأ من نظرية معينة، ولا هى تنتهى إلى بلورة نظرية خاصة بنا.. وبمرور الوقت نمت الاتجاهات المعادية للتنظير، على أساس أنه «كلام إنشائى» أو «عبارات خطابية»! «واعتبرت دراسة الماجستير والدكتوراه تدريبًا على استخدام أدوات البحث، كأن التنظير لا يحتاج إلى تدريب، ولهذا اختلطت الأمور، واتجهت البحوث إلى معالجة الأعراض على

أنهـا الأمراض، واهتـمت بالموضوعـات المحدودة الصـغيـرة؛ لأنها أكثـر مناسـبة لاستخدام أدوات البحث[1].

والخلاصـة: أن التـصور **الإسلامى** لمـناهج البحث العلمى لا يقف بمـصادر المعرفة عند المنهج التجريبى وحـده، إنه لا يهمله، ولا يقلل من شأنه ولا من شأن ثمراته المعرفية وإنجازاته التقانية الرائعة، فهو أحد ثمرات الحضارة الإسلامية الرائعة للإنسانية كلها. لكنه لا يقـول بأنه السبيل الوحيد للمعرفة؛ فـهناك المعرفة الربانية اليـقينيـة المتـمثلة فـى كتـاب الله وسنة رسـوله ﷺ، وهناك المنهج الاسـتقـرائى الاستنباطـى، وهناك المنهج العلمى للنظر العقلى، وهو منهج التفكيـر القائم على العلم والخبـرة، وتمحيص الحقائق، وعدم التـأثر بمقررات سابقة لا برهـان عليها، وعدم الاعتماد على الظن، وطلب الدليل فى كل اعتقاد.

٢٦ - إدراك مفهوم الفن والأدب فى التصور الإسلامى:

الفنون تجارب شعورية نقلت إلينا عبر تجارب لـفظية أو عملية بطريقة جميلة موحـية. والتجارب الفنيـة هى تعبير عـن تصور الفنان لحقائق الألوهيـة والإنسان والحياة. فإن كانت التجارب الفنية - أدبية كـانت أو غير ذلك - متسقة مع التصور الإسلامى فهـذه فنون إسلامية، وإن كانت غيـر ذلك فهى بحسب ذلك. والأدب فى ذلك كالفنون الأخرى؛ حسنه حسن، وقبيحه قبيح.

ولقد يكون الأدب أشـد المؤثرات فى تكوين فكرة وجدانية عن الحـياة، وفى طبع النفس الـبـشريـة بطابع خـاص، ومن هنا يجب أن يكـون لنا أدب نابع من التصور الإسلامى.

ومن العبث محاولة تجريد الأدب أو الفنـون عامة من القيم التى تحاول الذود عنهـا، كذلك من العـبث محـاولة فصل تلك القـيم عن التـصـور الكلى للكون

(١) عبد السميع سيد أحمد: «الأيديولوجيا والتربية» فى مجلة دراسات تربوية، الجزء الثانى، مارس ١٩٨٦، القاهرة، عالم الكتب، ص١١٨.

والإنسان والحياة. ولو أفلحنا فى هذا الفصل - وهذا مستحيل - فلن نجد سوى عبارات خاوية، أو جوفاء، أو أصوات غفل، أو أشكال بلا معنى.

والإسلام تصور معين للحياة، تنبثق منه قيم خاصة لها. فمن الطبيعى إذن أن يكون التعبير عن هذه القيم، أو عن وقعها فى نفس الفنان، ذا لون خاص[1].

وأهم خاصية للإسلام أنه عقيدة ضخمة جادة فاعلة خالقة منشئة، تملأ فراغ النفس والحياة، وتستنفد الطاقة البشرية فى الشعور والعمل، وفى الوجدان والحركة، فلا تبقى فيها فراغًا للقلق والحيرة، ولا للتأمل الضائع الذى لا ينشئ سوى الصور والتأملات.

وأبرز ما فيه هو الواقعية العملية حتى فى مجال التأملات والأشواق، فكل تأمل هو إدراك أو محاولة لإدراك طبيعة العلاقات الكونية أو الإنسانية، وتوكيد الصلة بين الخالق والمخلوق، أو بين مفردات هذا الوجود. وكل شوق هو دفعة لإنشاء هدف، أو لتحقيق هدف، مهما علا واستطال.

وقد جاء الإسلام لتطوير الحياة وترقيتها، لا للرضى بواقعها فى زمان ما، أو فى مكان ما، ولا لمجرد تسجيل ما فيها من دوافع وكوابح، ومن نزعات وقيود، سواء فى فترة خاصة، أو فى المدى الطويل.

مهمة الإسلام دائمًا أن يدفع بالحياة إلى التجديد والنمو والترقى، وأن يدفع بالطاقات البشرية إلى الإنشاء والانطلاق والارتفاع والإبداع.

ومن ثَمَّ فالأدب أو الفن المنبثق من التصور الإسلامى للحياة، قد لا يحفل كثيراً بتصوير لحظات الضعف البشرى، ولا يتوسع فى عرضها، وبطبيعة الحال لا يحاول أن يبررها، فضلاً عن أن يزينها بحجة أن هذا الضعف واقع، فلا ضرورة لإنكاره أو إخفائه.

---

(١) انظر: سيد قطب، العدالة الاجتماعية فى الإسلام، مرجع سابق، ص ٢٠٥ - ٢٠٨.

إن الإسلام لا ينكر أن فى البشرية ضعفًا، ولكنه يدرك كذلك أن فى البشرية قوة. ويدرك أن مهمته هى تغليب القوة على الضعف، ومحاولة رفع البشرية وتطويرها وترقيتها، لا تبرير ضعفها أو تزيينه.

والنظرية الإسلامية لا تؤمن بسلبية الإنسان فى هذه الأرض، ولا بضآلة الدور الذى يؤديه فى تجديد الحياة وترقيتها. ومن ثَمَّ فالأدب أو الفن المنبثق من التصور الإسلامى لا يهتف للكائن البشرى بضعفه ونقصه وهبوطه، ولا يملأ فراغ مشاعره وحياته بأطياف اللذائذ الحسية، أو بالتشهى الذى لا يخلق إلا القلق والحيرة والحسد والسلب، إنما يهتف لهذا الكائن بأشواق الاستعلاء والطلاقة، ويملأ فراغ حياته ومشاعره بالأهداف البشرية التى تجدد الحياة وترقيها، سواء فى ضمير الفرد أو فى واقع الجماعة.

كذلك ليست وظيفة هذا الأدب تزوير الشخصية الإنسانية أو الواقع الحيوى، وإبراز الحياة البشرية فى صورة مثالية لا وجود لها، بل الصدق فى تصوير المقدرات الكامنة أو الظاهرة فى الإنسان، والصدق كذلك فى تصوير أهداف الحياة اللائقة بعالم البشر، لا بقطيع من الذئاب.

والأدب أو الفن المنبثق من التصور الإسلامى أدب أو فن موجه باتجاه أن الإسلام حركة تجديد وترقية مستمرة للحياة، فهو لا يرضى بالواقع فى لحظة أو جيل، ولا يبرره أو يزينه لمجرد أنه واقع، فمهمته الرئيسية تطهير هذا الواقع وتحسينه، والإيحاء الدائم بالحركة الخالقة المنشئة لصور متجددة من الحياة.

إنه لمن الأهمية بمكان «أن نقرر هنا أن الأدب أو الفن الإسلامى أدب أو فن موجه، موجه بطبيعة التصور الإسلامى للحياة وارتباطات الكائن البشرى فيها، وموجه بطبيعة المنهج الإسلامى ذاته، وهى طبيعة حركية دافعة للإنشاء والإبداع، وللترقى والارتفاع. ولست أعنى التوجيه الإجبارى على نحو ما يفرضه أصحاب مذهب التفسير المادى للتاريخ، وإنما أعنى أنَّ تَكَيُّفَ النفس البشرية بالتصور الإسلامى للحياة، هو وحده سيلهمها صوراً من الفنون غير التى يلهمها إياها التصور المادى، أو أى تصور آخر، لأن التعبير الفنى لا يخرج عن كونه تعبيراً عن النفس كتعبيرها بالسلوك فى واقع الحياة.



وأخيرًا فـالإسلام لا يحارب الفنون ذاتها، ولكنه يعـارض بعض التصورات والقيم [المنحرفـة] التى تعبر عنها هذه الفنون. ويقيـم مكانها - فى عالم النفس - تصورات وقيمًا أخرى، قادرة على الإيحاء بحـركات جمالية إبداعية، وعلى إبداع صور فنية أكـثر جمالاً وطلاقـة، تنبثق انبثاقا ذاتيـا من طبيعة التـصور الإسلامى، وتتكيف بخصائصه.

ولا ينبغى أن نفـهم من هذا تحريم الآداب الأوروبيـة على الناشئـة المسلمة. فالذى نعنيـه هو مجرد الاخـتيار والانتقـاء. ففى هذه الآداب ما تلتـئم روحه من بعض الجوانب مع الروح الإسلامية، لا لأنه حث علـى الفضائل وتقبيح للرذائل، فـالأدب ليس منبـرًا خطابيا للوعـظ والإرشاد. ولكن لأنه ينظـر إلى الحيـاة نظرة روحية أرفع من المادة، ولأنه يعترف بالقـيم المعنوية للحياة. فهذا اللون من الأدب يتـفق فى روحـه مع المنهج الإسلامـى فى عمـومـه. ويمكن دراسـته مع حـسن الاختيار.

٣٧ - بناء الشخصية القوية الكادحة لا الشخصية المترفة:

يلفت القرآن الكريـم النظر بشدة إلى كراهيـة الإسلام للترف، وحـبه للكد والكدح، فبـالمقارنة بين الكد، والكـدح، والإحسان فى العـمل، والإتقان فـيه، وعمارة الأرض، وترقيـة الحياة، والجهاد فى سبـيل الله، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وكل مـا يؤدى إلى بناء الحيـاة النظيـفة من جـانب، وبين الربا، وقلة الإنتاج، والترف، والكسل، والترهل، والنعومـة؛ وقلة الرجولة، وسقوط الهمة، وسيطرة الشهوات، وشـيوع العداوات.. إلى آخر القائمة البـغيضة التى تؤدى إلى هدم الحياة النظيفة من جانب آخر... بالمقارنة تتضح مفارقات عجيبة:

لقد اتضح أن تنمـية مجـموعة المفـاهيم الأولى فى نفوس الناشـئة بواسطة مناهج التربيـة تعتبـر المهمة الـرئيسيـة لهذه المناهج؛ لأن فى ذلك تحقـيقًا لمقـاصد الشـريعة الإسـلاميـة الخمـسة، وهى: الحـفاظ عـلى الدين، والنفس، والنسل، والعقل، والمال.

كما أن هذه المفاهيم تتسق مع طبيعة مركز الإنسان فى الكون، ومع مقتضيات وظيفته فى الحياة. لقد كرم الله الإنسان، وفضله على سائر خلقه، وآية ذلك أنه - سبحانه - جعل الإنسان خليفته فى الأرض؛ ليقوم على عمارتها، وترقية الحياة على ظهرها وفق منهج الله.

والخلافة فى الأرض تقتضى الحركة الإيجابية، التى تنشئ وتبدع فى عالم المادة ما يتم به قدر الله فى الأرض والحياة والناس.

وعمارة الأرض وترقية الحياة فيها تتطلب العمل والكد بصورة مستمرة: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي كَبَدٍ ﴿٤﴾﴾ [البلد]. . ﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاقِيهِ ﴿٦﴾﴾ [الانشقاق].

والمطلوب فى عمارة الأرض وترقية الحياة على ظهرها ليس مجرد العمل والكد والكدح، بل الإحسان فى العمل؛ أى المهارة والإتقان فيه، والاتجاه به إلى الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً ﴿٣٠﴾﴾ [الكهف]. . ويقول الرسول الكريم ﷺ: **«إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه»**.

«إن الإسلام دين للواقع. دين للحياة، دين للحركة. دين للعمل والإنتاج والنماء، دين تطابق تكاليفه للإنسان فطرة هذا الإنسان، بحيث تعمل جميع الطاقات الإنسانية عملها الذى خلقت من أجله، وفى الوقت ذاته يبلغ الإنسان أقصى كماله الإنسانى المقدر له، عن طريق الحركة والعمل، وتلبية الطاقات والأشواق، لا كبتها أو كفها عن العمل، ولا إهدار قيمتها واستقذار دوافعها. .»[1].

لذلك يقول الرسول ﷺ: **«ما أكل أحدكم طعامًا قط خيرًا من عمل يده»**. [رواه البخارى].

---

(١) سيد قطب: خصائص التصور الإسلامى ومقوماته، مرجع سابق، ص ١٨٠.

والإسلام يقدر العمل وبذل الجهد، ويجعلهما السبب الأساسى للتملك والربح، ويحرم أن يلدَ المالُ المالَ، وإنما يلد المالَ الجهدُ والعملُ. وعلى أساس هذه القاعدة حرم الربا؛ لأن المرابى يمتص نتيجة عرق الآخرين وجهدهم، بينما هو قاعد لم يكد ولم يكدح ولم يبذل جهدًا، مما يورث العداوة والبغضاء، ويؤدى إلى هدم الحياة النظيفة.

وقد روى أن سعد بن معاذ كان يوارى كفيه فى ثوبه كلما تقابل مع رسول الله فقال ﷺ له: «يا سعد، ألا تريد أن تسلم علىَّ؟» قال سعد: والله يا رسول الله، ما هناك شيء أحب إلىَّ من ذلك، ولكنى أخاف أن تؤذى يداى يديك. فقال الرسول ﷺ: «أرنى يديك يا سعد»، فأخرج سعد كفين خشنتين كخفى بعير من كثرة العمل.. فرفعهما الرسول ﷺ إلى فمه، وقبلهما، وقال: «**هذه يد يحبها الله ورسوله ولن تمسها النار أبدًا**».

ولأن الإسلام يقدس العمل وبذل الجهد، والكد والكدح، ويجعل ذلك أساس عمارة الأرض وترقية الحياة على ظهرها، فهو يحاول دائمًا أن يربى الإنسان بحيث يكون قويًا دائمًا. فالمؤمن الذى لم يجاهد ولم يحدث نفسه بجهاد يموت على شعبة من شعب النفاق. وهو دائمًا يقظ، فالمؤمن - كما يقول الرسول ﷺ: «**ممسك بعنان فرسه، كلما سمع هيعة طار إليها**»..

لذلك فإن من الحكمة للإنسان تعريضه للهزات النفسية التى توقظه، وتدريبه على مواجهة المحن والتمرس بأعباء المقاومة. ففى التصور الإسلامى أن الله إذا أحب عبدًا لم يدلله، بل يقذف به إلى ساحة النضال ليستكشف بنفسه مواهب نفسه. وبذلك يعده لرسالته التى لا يطيق تحملها ذوو النفوس الخرعة، والقلوب الهلعة! والجندى الذى لا يستعمل قواه فى العديد من المناورات، لن يكون جديرًا باقتحام الساحات.

ولكى يكون المؤمن قويا، يقظا، قادرًا على العمل وبذل الجهد، فاعلاً إيجابيا فى إعمار الحياة، فإنه يجب أن يبتعد عن الترف والترهل. فالإسلام يكره الإسراف والترف والترهل كراهية شديدة، ويعدها مصدر شر للفرد والجماعة.



فالتـرف منكـر يجـب على الجـماعة نبـذه وتغييـره، وإلا كانت عرضـة للهلاك بسببـه: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾﴾ [الإسراء].

إن هذا يفسر لنا حرص الإسلام على تربية المسلم كى يكون قادرًا دائمًا على العمل والجهـاد، بعيدًا عن الإسراف والتـرف. فالمترف متـرهل، ضعيف الإرادة، ناعم، قليل الرجولة. لم يعتد العمل وبذل الجهد، فسقطت همته، وسيطرت عليه شهواته الحـيوانية الرخيصة؛ لذلك كـان المترفون على مر التاريخ يقفـون فى سبيل الهدى لأنفـسهم ولأتبـاعهم من المستـضعـفين: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [سبأ].

﴿... وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾﴾ [هود].

ولأنهم مترفون فهم كذابون رافضون للهداية: ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾﴾ [الواقعة].

ولأنهم غارقـون فى ترفهم ومتعـهم فى الدنيا، فهم ينكرون لقـاء الآخرة: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [المؤمنون].

وما دام هناك مترفون فـهناك مستضعفون يمالقونهم، ويحـققون شهواتهم، ويفنون فيـهم فناء الحشرات، وإذا كانت الديـانات السماوية ترفع قيم الناس وفـقًا لعمـلهم وتقواهم، وتحـرم المترفـين من متعـهم الرخيـصة، فـلا يكون لهم ذلك السلطان المطلق على المستـضعـفين، فـإن هذا يفسـر لنا لماذا كان الدين والهـدى مرفوضين دائمًا من المترفين.

والترف الطويل الموروث يُنسي الذكر، ويؤدى إلى التفاهة والضحالة: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ من دُون اللَّه فَيَقُولُ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ﴿١٨﴾﴾ [الفرقان].

والتعبير بأنهم «كانوا قومًا بورًا» تعبير مصور عجيب، عميق الدلالة؛ فالأرض البور هى الأرض المجدبة، التى لا تثمر ولا تنتج، وكذلك قلوب المترفين ونفوسهم وحياتهم جدبة، بائرة، صلبة، لا تنبض فيها حياة.

وليس معنى ما تقدم أن نجعل المدارس أماكن كريهة للناشئة، ولا أن نجعل المناهج صعبة ممقوتة، فهذا من شأنه أن يضيع كل شىء. لكن المؤكد هو أن الأمر يحتاج إلى تفكير وتدبير، على أساس أن الهدف الأساسى لمناهج التربية فى التصور الإسلامى، هو إيصال المتعلم إلى درجة كماله التى هيأه الله لها. فوصول كل إنسان إلى درجة كماله الخاصة به هو الذى يهيئه بحق الخلافة فى الأرض وتنفيذ منهج الله فيها.

وإعداد الإنسان للقيام بحق الخلافة فى الأرض يقتضى من مناهج التربية فى التصور الإسلامى أن تعمل على تحقيق أهدافها الكبرى فى شخصية المسلم، وذلك كترسيخ مفهوم الإيمان بالله والأخوة فى الله، وإعداد الإنسان للمساهمة فى تحقيق وسطية الأمة وشهادتها على الناس، والعمل على تحقيق تميز الأمة فى عقيدتها ومنهجها، وإعلاء قيم الجهاد فى سبيل الله، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، والعمل على تحقيق ذات المتعلم وفق فطرة الله فيه، وإقداره على ترقية الحياة من حوله، وقيادتها إلى الحق والعدل والخير.

إن كل هذا لا يتحقق - بالطبع - عن طريق غرس عادات الترف، والترهل، والنعومة، وقلة الرجولة، وسيطرة الشهوات، بل يتم عن طريق إعلاء قيم الكد والكدح، والإحسان فى العمل، والإتقان فيه، والاتجاه به كله إلى الله. والله يقول الحق، وهو يهدى السبيل.

٢٨ - فهم النظرية التاريخية الإسلامية وتطبيقها على الواقع التاريخى:

تقوم النظرية التاريخية الإسلامية على أساس «أن الواقع التاريخى الإسلامى» هو الذى ينشأ وفق أصول الإسلام وتصوراته وشرعته وموازينه. هذا وحده هو الواقع التاريخى «الإسلامى».. أما ما يقع فى المجتمع الذى ينتسب إلى الإسلام، خارجًا عن أصوله وموازينه، فلا يجوز أن يحسب منه؛ لأنه انحراف عنه.

إن للإسلام وجوده المستقل خارج واقع المسلمين فى كل جيل. فالمسلمون لم ينشئوا الإسلام، وإنما الإسلام هو الذى أنشأ المسلمين. الإسلام هو الأصل. والمسلمون فروع منه، ونتاج من نتاجه. ومن ثَمَّ فإن ما يصنعه الناس أو ما يفهمونه ليس هو الذى يحدد أصل النظام الإسلامى أو مفهوم الإسلام الأساسى، إلا أن يكون مطابقًا للأصل الإسلامى الثابت المستقل عن واقع الناس ومفهومهم، والذى يقاس إليه واقع الناس فى كل جيل ومفهومهم، ليعلم كم هو مطابق أو منحرف عن الإسلام.

إن الأمر ليس كذلك فى النظم الأرضية التى تنشأ ابتداء من تصورات البشر، ومن المذاهب التى يضعونها لأنفسهم.. ذلك أن المفهومات المتغيرة للناس حينئذ، والأوضاع المتطورة فى أنظمتهم، هى التى تحدد مفهوم المذاهب التى وضعوها لأنفسهم، وطبقوها على أنفسهم.

فأما فى النظام الإسلامى الذى لم يصنعه الناس لأنفسهم، وإنما صنعه للناس رب الناس وخالقهم ورازقهم ومالكهم.. فأما فى هذا النظام فالناس إما أن يتبعوه ويقيموا أوضاعهم وفقه. فواقعهم إذن هو الواقع التاريخى «الإسلامى» وإما أن ينحرفوا عنه أو يجانبوه كلية، فليس هذا واقعًا تاريخيا للإسلام، وإنما هو انحراف عن الإسلام!

فعلى هذا الاعتبار تقوم النظرية التاريخية الإسلامية، وهى تختلف تمامًا عن سائر النظريات التاريخية الأخرى، التى تعتبر واقع الجماعة الفعلى، هو التفسير العملى للنظرية أو المذهب، وتبحث عن «تطور» النظرية أو المذهب فى هذا الواقع

الفعلى للجماعة التى تعتنقه، وفى المفهومات المتغيرة لهذه النظرية فى فكر الجماعة[1].

على أساس هذه النظرية يجب أن تعاد كتابة التاريخ الإسلامى، وأن يعاد النظر إلى الحياة الإسلامية بكل عناصرها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والحضارية، بحيث تعطى كل أسرارها وإشعاعاتها، وتتكشف بكل خصائصها ومقوماتها.

٢٩ - فهم الطلاب لطبيعة المجتمع الإسلامى:

لقد فطر الله الإنسان على الاجتماع، فليس بوسع إنسان أن يعيش وحده أو ينفرد بنفسه انفرادا تاما. وليس هناك حادثة نفسية واحدة يمكن أن تتم دون أن يكون لها صلة بأفراد المجتمع الذى يعيش فيه الإنسان، فكل حادثة نفسية لا بد لها من مجال اجتماعى تتم فيه. والعكس صحيح أيضًا، فكل حادثة اجتماعية لا بد لها من أصل نفسى[2].

إن الصلة قوية بين علم النفس وعلم الاجتماع. فعلم النفس يدرس خصائص الأفراد من حيث إنهم أفراد لهم سلوك، وهذه الخصائص وذاك السلوك كل منهما لا يمكن أن يتم إلا فى محيط اجتماعى. أما علم الاجتماع فيدرس الصلات بين الأفراد من وجهة النظر الاجتماعية، مع أخذ أسسها النفسية، ومعاييرها العقائدية فى الاعتبار.

مما سبق يمكن القول أن المجتمع يقوم على أربعة عناصر:

العنصر الأول: هو الأفراد الذين يكونون الجماعة.

والعنصر الثانى: هو ما ينشأ بالضرورة عن وجود الجماعة من الصلات بين أفرادها، فالمجتمع نسيج مكون من صلات اجتماعية.

---

(١) سيد قطب: العدالة الاجتماعية فى الإسلام، مرجع سابق، ص ١٠٩.

(٢) سيد قطب: فى ظلال القرآن، مرجع سابق، ص٥٨٣ - ٥٨٤.



والعنصر الثالث: هو النظام، فالصلات الاجتماعية تنظم وتنسق وفق نظام غايته أن يضبط سلوك الجماعة ويوجهه، وتتخذ الجماعة وسائل شتى لاحترام نظامها وتطبيقه. ومهمة هذا النظام أن يطلق نشاط الأفراد فى مجالات ويحبسه فى مجالات أخرى، وأن يضع لهم معايير للسلوك تقَوّم الأمور وفقًا لها، فيُحرم بعض الأمور ويُحِلّ بعضها الآخر.

والعنصر الرابع: هو العقيدة، وهى أعظم العناصر السابقة على الإطلاق وأكبرها خطرًا، ذلك أنها تتحكم فيها كلها، وتوجهها جميعًا الوجهة التى ترضاها، فهى التى تحدد الصلات الاجتماعية، وهى التى توجد الشعور بالانتماء، وهى التى ترسم نهج السلوك، وهى التى تضع قواعد المجتمع وتقيم نظمه وتهدى إلى مثله.

والعقيدة تتمثل فى التصور الإسلامى كما هو الحال فى الإسلام. كما تتمثل فى الفلسفات الوضعية والنظريات السياسية والاقتصادية التى توجه السلوك والعمل فى كثير من المجتمعات الأخرى.

نظام المجتمع الإسلامى والنظم الأخرى:

المجتمع الإسلامى مجتمع متفرد بنظامه الخاص الذى لا يتفق مع شىء من النظم الاجتماعية الأخرى التى عرفتها البشرية، فبينما عرفت البشرية نظم الرق، فالإقطاع فالرأسمالية، فالشيوعية - التى لم تتحقق فى واقع الحياة، ولن تتحقق أبدا - وهى نظم أقامها بعض العباد لبعض، فإن المجتمع الإسلامى هو مجتمع ربانى، يقوم على شريعة محكمة من عند الله، قوامها كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ.



وإذا كان المجتمع الإسلامى فى تطوره منذ عصر الخلافة كان ينحرف عن هذه القاعدة يمينا ويسارا بفعل عوامل غريبة عليه، أو منساقا مع تطورات المجتمعات البشرية هنا وهناك، فإنه فى كل الحالات ظل مشدودا بقوة إلى هذه القاعدة الأساسية، التى تطبعه بطابع خاص، وتحدد طريقة نموه، وتجعل لنموه

وتطوره من الماضى إلى الحاضر إلى المستقبل تاريخا خاصا «لا يندرج تحت تاريخ التطور الاجتماعى فى أوروبا، ولا تصدق عليه القوانين الاجتماعية التى تصدق هناك...»[1].

وإذا كانت المجتمعات القائمة على تشريعات وضعية تقوم فترة من الزمان ثم تنتهى، فإن المجتمع الإسلامى الذى عاش أربعة عشر قرنا من الزمان، سيعيش، بل سيكون هو مجتمع المستقبل، «لأن سياج الشريعة سيظل يحرس هذا المجتمع» مهما كانت قوة عوامل المقاومة والعداء.

وإذا كانت المجتمعات البشرية القائمة على تشريعات وقوانين وضعية ومؤقتة، هى مجتمعات محلية، وقومية، وعنصرية، وقائمة على أساس الحدود الجغرافية، فإن المجتمع الإسلامى هو مجتمع عالمى مفتوح لجميع بنى الإنسان دون نظر إلى جنس أو لون أو لغة. «**بل دون نظر إلى دين أو عقيدة**». فغير المسلمين يعيشون مع المسلمين فى ظل المجتمع الإسلامى، على أن لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم.

وعالمية الدعوة الإسلامية، وبالتالى النظام الاجتماعى القائم عليها، مقررة بوضوح فى قوله تعالى: ﴿**إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ** ﴿٢٧﴾﴾ [التكوير]، ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ** ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء]، ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا** ... ﴿٢٨﴾﴾ [سبأ].

وقد نفى الإسلام كل نعرة عنصرية أو جنسية، أو قومية، أو إقليمية، وما يترتب على ذلك من اختلاف اللغات والألوان، وجعل الأفضلية فى ميزان الله الثابت هى تقوى الله، والعمل الصالح لخير عباده: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ** ... ﴿١٣﴾﴾ [الحجرات]، «**لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى**».

---

(١) محمد أمين المصرى: المجتمع الإسلامى، الكويت، دار الأرقم، ١٤٠٠ هـ، ١٩٨٠م، ص ٨ - ٩.

والشريعة الإسلامية ترد البشرية كلها إلى أصل واحد، ومن ثَمَّ تملك جميع الأجناس البشرية، وجميع الألوان، وجميع اللغات أن تجتمع فى حمى الإسلام وفى ظل نظامه الاجتماعى، وهى تحس آصرة واحدة تربط بينها جميعًا، آصرة الإنسانية، التى لا تفرق بين أسود وأبيض، ولا بين شمالى وجنوبى، ولا بين شرقى وغربى؛ لأنهم يلتقون جميعًا عند الرابطة الإنسانية الكبرى.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً ... ﴿١﴾﴾ [النساء]، ويقول ﷺ: «**ليس منا من دعا إلى عصبية، وليس منا من قاتل على عصبية، وليس منا من مات على عصبية**» [أخرجه أبو داود].

وأخيرًا، فإن أهم ما يجب أن يظل ماثلا فى الذهن هنا حقيقتان:

الحقيقة الأولى هى أن مبادئ الإسلام العليا «التى تسبق اليوم آخر ما وصلت إليه البشرية فى خلال أربعة عشر قرنا، كانت قائمة فيه منذ اليوم الأول، وأنه منذ ذلك اليوم قد أخذ بيد البشرية فى طور الترقى إلى الآفاق المرسومة خطوة خطوة فكان التصور، لا فى مبادئه وأهدافه، ولكن فى قرب البشرية يوما بعد يوم من هذه المبادئ والأهداف، وهذا ما ينفى فكرة التطور التاريخى من أساسها بالقياس إلى الفكرة الإسلامية، وإلى نظام المجتمع الإسلامى»(١).

الحقيقة الثانية التى يجب أن تظل ماثلة فى الذهن هى: «أن النظام الإسلامى ليس هو الرق، وليس هو الإقطاع، وليس هو الرأسمالية، وليس هو الاشتراكية، وليس هو الشيوعية.... إن النظام الإسلامى هو فقط.. النظام الإسلامى»(٢).

ومنهج التربية الإسلامية معنىٌّ بإفهام الأجيال بحقيقة الفلسفات والنظريات الوضعية المعاصرة كالبراجماتية والماركسية والوجودية والواقعية.. إلى آخره، وذلك لبيان حقيقة وزيف هذه الفلسفات وما ترتب عليها من تيارات عالمية فكرية

---

(١) سيد قطب: نحو مجتمع إسلامى، مرجع سابق، ص ٦٥ - ٦٦.

(٢) المرجع السابق، ص ٧٥.

واجتماعية، ولبيان الأوضاع الاجتماعية المتردية نتيجة الأخذ بهذه الفلسفات، فعرض هذه الفلسفات وما ترتب عليها صورة موضوعية وواقعية وفقًا للمعايير الإسلامية هو الضمان الوحيد لفهم حقيقة هذه الفلسفات، وعدم الانبهار ببريقها الزائف.

٣٠ - فهم أساسيات النظام السياسى فى التصور الإسلامى:

إذا كانت وظيفة العلم وهى عمارة المجتمع الإنسانى وترقيته، فإن العلم إذا لم يكن مستندًا إلى عدل الله ينقلب إلى وسيلة للخراب والدمار للمجتمع البشرى كله! فالعدل - إذن - هو القيمة التى توجه غايات العلم، نحو خير الإنسان والبشرية جميعًا.

والعدل كما وضحه بعض الفقهاء والمفسرين هو تنفيذ حكم الله، أى أن يتحكم الناس وفقًا لما جاءت به الشرائع السماوية، ولما كانت الشريعة الإسلامية هى كمال هذه الشرائع، فإن العمل بها إذن هو تحقيق للعدل الذى أمر الله به. ويندرج تحت هذا المعنى العام للعدل معانيه الخاصة، فهناك العدل فى الحكم، والعدل فى النظام الاجتماعى للدولة، والعدل فى القضاء، والعدل الاقتصادى، والعدل بين الرجل والمرأة، والعدل فى الحقوق والواجبات والمعاملة. . إلخ.

أسس النظام:

يقوم نظام الحكم فى التصور الإسلامى على أربعة أسس:

- اختيار المحكومين للحكام.
- العدل من الحكام.
- الطاعة من المحكومين.
- الشورى بين الحكام والمحكومين[١].

(١) سيد قطب: العدالة الاجتماعية فى الإسلام، مرجع سابق، ص ٨٠.

١ - يقوم النظام السياسى الإسلامى على أساس اختيار المحكومين للحكام. فقد تم اختيار أبى بكر فى سقيفة بنى ساعدة. وقال بعد اختيار الناس له: لقد وليت عليكم ولست بخيركم، أطيعونى ما أطعت الله فيكم، فإن عصيته فلا طاعة لى عليكم.. وهكذا تم اختيار عمر وعثمان وعلىٍّ - رضى الله عنهم -.

٢ - العدل من الحكام فرض لا يقوم الحكم الإسلامى إلا به. ولذلك ورد الأمر بالعدل فى القرآن صريحًا، فحثت عليه آيات كثيرة، وجعله الله غاية الحكم: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾ ﴾ [النساء] وقد ورد فى تفسير الرازى لهذه الآية قوله: «أجمعوا على أن من كان حاكمًا وجب عليه أن يحكم بالعدل».

واستشهد بقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ ... ﴿٩٠﴾ ﴾ [النحل]، وقوله: ﴿ ... وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ... ﴿٥٨﴾ ﴾ [النساء]. وقوله: ﴿ ... وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ... ﴿١٥٢﴾ ﴾ [الأنعام]، وقوله: ﴿ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ ﴾ [ص]. وهذه الآية الأخيرة تدل على أن العدل واجب حتى على الأنبياء. والعدل واجب حتى للأعداء، وهذه من أعظم فضائل الإسلام، وقد ورد النص على ذلك صريحًا فى قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [المائدة].

٣ - والطاعة من المحكومين للحكام واجبة إذا سار الحكام وفق منهج الله وشريعته، وحكموا بالعدل المفروض عليهم: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ ... ﴿٥٩﴾ ﴾ [النساء]. فإذا لم يعترف الحكام بأن الحاكمية لله. ولم ينفذوا شريعة الله. سقطت طاعتهم، ولم يجب لأمرهم النفاذ.

٤ - والشورى بين الحكام والمحكومين هى الأساس الرابع لنظام الإسلام فى الحكم قال تعالى: ﴿ ... وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ... ﴿١٥٩﴾ ﴾ [آل عمران].. ﴿ ...وَأَمْرُهُمْ

شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ... ﴿٣٨﴾ ﴾ [الشورى]. فلأن الإسلام دين ودولة، ونظام كامل للحياة، فقد كفل لأتباعه حريتهم السياسية، وهى أن يكون لكل إنسان قادر الحق فى الاشتراك فى توجيه سياسة أمته، ومراقبة السلطة فيها. وقد كفل الإسلام للإنسان هذا الحق حين جعل نظام الحكم قائمًا على الشورى.

٣١ - فهم أساسيات النظام الاقتصادى فى التصور الإسلامى:

وتقوم السياسة الاقتصادية فى الإسلام على ثلاثة أسس:

أولاً: إن المال مال الله، والناس مستخلفون فيه: ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ... ﴿٧﴾ ﴾ [الحديد]. ويقول الله فى شأن المكاتبين من الأرقاء: ﴿ ... وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ ... ﴿٣٣﴾ ﴾ [النور].

ثانيًا: كراهية أن يحبس المال فى أيدى فئة قليلة من الناس يتداول بينهم بينما يمنع عن الآخرين: ﴿ ... كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ ... ﴿٧﴾ ﴾ [الحشر]. حتى أن الإسلام قد أجاز للحاكم بشريعة الله أن يأخذ بعض المال من الأغنياء ويملكه للفقراء، وذلك عندما يرى أن المجتمع قد اختل توازنه بظهور آفة الغنى إلى حد الترف الشديد فى جانب، والفقر المدقع فى جانب آخر، وهذا ما فعله الرسول ﷺ حين أعطى فىء بنى النضير كله للمهاجرين.

ومن أجل منع المال من أن يحبس فى أيدى فئة قليلة، لجأ الإسلام إلى وسائل أهمها الزكاة، والإرث، والصدقات، والمال العام أوالملكية العامة، وتربية الضمير الإنسانى.

ثالثًا: الملكية الفردية. فالمال مال الله، والناس مستخلفون فى ملكية التصرف فيه والانتفاع به. لكنه التصرف والانتفاع الذى لا يصل إلى السفه. والناس يملكون المال بالعمل والكسب: ﴿ ... لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ ... ﴿٣٢﴾ ﴾ [النساء]. وبالإرث: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ ... ﴿٧﴾ ﴾ [النساء].

رابعا: العدالة بين الفرد والمجتمع:

كما أن الفرد كل لـه أجزاء فهو أيضًا جزء من كل هو المجـتمع. وقد حسم الرسول ﷺ العلاقة بين الفرد والجماعة فى حديثه الشريف.

«مثل المـؤمنين فى توادهم وتراحمـهم وتعاطفـهم كمـثل الجسـد الواحد إذا اشتكى عضو منه تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى» [أخرجه الشيخان].

فالعدالة تقتـضى أن يسهم الفرد فى حركة عمارة المجتـمع وترقيته؛ لأنه لن يصلح أمر الفرد إذا ساءت أحوال المجتمع، وحركة العمارة فى حياة المجتمع ليست واحدة، فالمجتمع لا يريد أفراده أطباء أو مهـندسين أو قضاة أو مدرسين أو عمالاً أو مزارعـين، بل يريد كل هؤلاء، ومن رحمـة الله بالناس أن جعل لـهم مواهب وميولاً ومهارات واهتـمامات مختلفة ومتعددة؛ لأن حركـة المجتمع تحتاج إلى هذا التنوع والاختلاف فى الاهتـمامات والمهارات والقدرات حتى تتكامل الحـركة فيه، فحركة الأجزاء فى المجتمع الواحد، كحركة الأعضاء فى الجسد الواحد، فلكل فرد مهمة، كمـا أن لكل عضو مهمة، وبتكامل عمل الأعـضاء يصح الإنسان ويقوى، وكذلك الحال فى المجتمع.

أما فيما يتصل بـحركة كل فرد ونوعيتها، وعلاقتهـا بغيرها داخل المجتمع، فيصورها القرآن تصويرا دقـيقًا فى قوله تعالى: **﴿... نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ... ﴿٣٢﴾﴾** [الزخرف].

وهنا لا يجب أن نفهم -كما يقول الشيخ محمد متولى الشعراوى- أن أساس الرفعة هو المال فقط، فالصحيح أن كل فرد فى المجـتمع مرفوع مرة، ومرفوع عليه مرة أخرى[1]. فالفرد فى المجتمع مـرفوع فيما يجيد وفيمـا يحسن، ومرفوع عليه

---

(١) محمد متولى الشعـراوى: منهج التربية فى الإسلام: القاهرة، دار المسلم، بدون تاريخ، ص٢٦.

غيره فيمـا لا يجيده ولا يحسنه. إذن فكل فرد فاضل فى جهة ومـفضول عليه فى جهـة أخرى، والمفضـول عليه يسـخر الفاضل لخـدمته. إذن فـكل فرد فى الكون مسخر لكل فرد، وعلى هذا فلا يجب تفسير قوله تعالى: ﴿ ... لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ... ﴿٣٢﴾ ﴾ [الزخرف] على أساس أن الطبقة الأعلى تسخر الطبقة الأدنى.

إن المجتمع الإسلامى مجـتمع غير طبقى، والقرآن دقيق فى تعـبيره، فقوله تعالى: ﴿ ... وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ... ﴿٣٢﴾ ﴾ [الزخرف] جـعلك لا تستطـيع أن تحدد البعض المـرفوع، ولا البعض المرفـوع عليه. لأن كلمـة «بعض» مبهمة، فكل بعض مرفوع وكل بعض مـرفوع عليه. والاختلاف والتفاوت إنما هو فى قـدر الدرجـات فى كل زاوية وفى كل عـلم وفى كل فن، وفى كل مـهـارة. فالفاضل مرفوع بقدر مهارته فى العلم ودرجة إتقانه له.

وبذلك ينسجم المجـتمع ولا يتصارع، وإنما يتـعاون ويتعاضـد. فلو تساوى الناس فى علم واحد أو فن واحد أو مهارة واحدة لتـدافعوا وتصارعوا. ولكن كلا منهم يحتاج إلى الآخر، وعجز هذا تكمله قدرة ذاك، وخير الناس أنفعهم للناس. وهذه واحدة من أجمل معانى العدالة.

٣٢ - إدراك الطلاب لأهمية نظام الأسرة فى الإسلام:

الأسرة هى قاعدة البناء الاجتماعى، وهى تقوم على أساس «التخصص» بين الزوجين فى العمل، ورعاية الجيل الناشئ هى أهم وظائف الأسرة. فالمجتمع الذى هذا شأنه هو المجتمع المتحضر.. ذلك أن الأسرة على هذا النحو - فى ظل المنهج الإسلامى - «تكون هى البيئة التى تنشأ وتَنَمَّى فـيها القيم والأخلاق (الإنسانية).. ممثلة فى الجـيل الناشئ، والتى يسـتحـيل أن تنشـأ فى وحـدة أخرى غـير وحـدة الأسرة. فـأما حين تكون العـلاقات الجنسيـة (الحرة كما يسـمونها) والنسل (غـير الشرعى) هو قاعدة المجتمع.. حين تقوم العلاقات بين الجنسين على أساس الهوى والنزوة والانفعـال، لا على أساس الواجب والتـخصص الوظيـفى فى الأسرة.. حيـن تصبح وظيـفة المرأة هى الزينة والغـواية والفـتنة.. وحين تتـخلى المرأة عن وظيفتها الأساسية فى رعاية الجيل الجديد، وتؤثر هى - أو يؤثر لها المجتمع - (أن

تكون عاملة فى أى مكان، بالنهـار أو بالليل)... حين تنفق طاقتـها فى «الإنتاج المادى» و«صناعة الأدوات»، ولا تنفـقها فى «صناعة الإنســان»؛ لأن الإنتاج المادى يومـئذ أغلى وأعـز وأكرم من «الإنتـاج الإنسانى» عندئذ يكون هذا هو «التـخلف الحضارى» بالقياس الإنسانى.. أو تكون هى الجاهلية بالمصطلح الإسلامى»[1].

لقد شـاءت فطرة الله أن يكون ميـدان إنشاء العنصر الإنســانى وتنشئـته هو ميـدان عمل المرأة بالدرجة الأولى. ويقـارن الشيخ محمـد متولى الشـعراوى بين ميدان عمل المرأة هذا وبين ميدان عمل الرجل خارج البيت، ويرى أن ميدان عمل المرأة أهم وأدق من ميدان عمل الرجل؛ لأن الرجل - بحكم عمله خارج البيت - إنما يتعـامل مع «أشياء» هى كلهـا مسخرة لخـدمة الإنسان، الذى هو أكـرم ما فى الوجود كله. أما المرأة فمهمـتها هى التعامل مع هذا المخلوق الراقى، الكريم على الله، وهو الإنسان. تتـعامل معـه كزوج فيـسكن إليها، وتـتعامل مـعه جنينًا فى بطنها، ووليدًا فى حـضنها، ورضيعًا تـغذيه وتحنو عليه، وطفلاً، وصبـيا، وشابًا تربيه وترعاه وتضرب له المثل.

إن ترك المرأة لهذا الميدان الذى هو مجال عملها الرئيسى - والذى خلقها الله وفطرها لتحـسن الأداء فيه - إلى مـيدان آخر، لهـو مأساة بكل المقـاييس. يقول الأستاذ عباس مـحمود العقاد: «إن المجتمع الذى يتزاحم فـيه الرجال والنساء على عمل واحد فى المصانع والأسواق، لن يكون مجتمعـًا صالحًا، مستقيمًا على سواء الفطرة مسـتجمعًا لأسـباب الرضى والاستقـرار بين بناته وبنيه؛ لأنه مجتـمع يبذر جهوده تبذير السرف والخطل، على غيـر طائل، ويختل فيه نظام العمل والسوق، كما يختل فيه نظام الأسرة والبيت»..[2].

فـالمرأة لم تزود بالعطف والحنان والرفق بالطفـولة، والقـدرة على فهـمهـا وإفهامها، والسـهر على رعايتها فى أطوارها الأولى لتهجر البـيت، وتلقى بنفسـها

(١) سيد قطب: معالم فى الطريق، مرجع سابق، ص ١٢٣ - ١٢٤.

(٢) عبـاس محمود العـقاد: المرأة فى القرآن ، القـاهرة، دار الإسلام، ١٩٧٣م، ص ٤٦ - ٤٧.

فى غمـار الأسواق والدكاكـين. . وسياسـة الدولة كلها ليـست بأعظم شأنًا، ولا بأخطر عاقبـة، من سياسة البيت؛ لأنهمـا عالمان متقابلان: عالم الـعراك والجهاد، يقابله عالم السكينة والاطمئنان؛ وتدبير الجيل الحـاضر يقابله تدبير الجيل المقبل. . وكلاهما فى اللزوم وجلالة الخطر سواء.

وإذا كان ميـدان المرأة الحقيقى هو الـبيت بمن فيه ومـا فيه، فإن تركهـا لهذا الميدان وخـروجها للعمل فى المجـتمع الخارجى على اتساعـه يعد تخريبًا للـميدان الحـقيـقى الذى تركتـه، وللميـدان الجديد الـذى لم تعد له بالفطرة والاسـتعـداد والدربة. «ولولا مـركب النقـص، لكان للمـرأة فـخـر بمملكة البـيت، وتنشـئـة (المستـقبل) فيه، لا يقل عن فـخر الرجل بسياسـة (الحاضر)، وحسن القـيام على مشكلات المجتمع التى تحـتاج إلى الجهد والكفاح. وهى لو رجعت إلى سليـقتها، لأحست أن زهوها بالأمومة، أغلى لديهـا، وألصق بطبعها من الزهو بولاية الحكم ورئاسـة الديوان - فليس فى العواطف الإنســانية شـعور يمـلأ المرأة، كمـا يملؤه الشـعـور بالتـوفيـق فى الزواج، والتـوفيق فـى إنماء البنين الصـالحـين، والبنات الصالحات. . »[1].

إذن فقضية الأسـرة والعلاقات بين الجنسين، قضية حاسـمة فى تحديد صفة المجتـمع. . فالمجـتمعـات التى تسود فيـها النزعـات الحيوانيـة لا يمكن أن تكون مجتمعات متحضرة، مهما تبلغ من التفوق الصناعى والاقتصادى والعلمى.

إن هذه المجتمعات متخلفة أو جـاهلية. . من وجهة نظر «الإسلام» وبمقياس خط التقدم «الإنسانى»، مهما كانت درجة تفوقها العلمى أو الاقتصادى.

والخلاصـة: أن الإسلام هـو الحضارة، والمجـتمع الإسـلامى هو المجتـمع المتحضر؛ لأنه يؤمن أن إعـداد جيل يترقى فى خصائص «الإنسانيـة»، ويبتعد عن خصائص «الحـيوانية». لا يمكن أن يتم إلا فى محضن «أسرة» قـائمة على أساس الواجب والتخصص، ومحوطة بضمانات الأمن والاستقرار العاطفى، فهذا ما يوفر

---

(١) المرجع السابق.

للمجتمع مقومات الترقى على خط التقدم الإنسانى. لذلك جعل الله الزوجة شق النفس، ومحضن السكينة والأمن والاستقرار، فهذا هو المحضن «الإنسانى» الوحيد الذى يعد الأجيال التى تسير صعدًا على خط التقدم الإنسانى، قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الروم].

٣٣ - إدراك الطلاب لمهمة الإعلام الحقيقية فى المجتمع المسلم:

بالرغم من أن كل نظام إعلامى مخطط على أساس سليم، يقوم على أساس فلسفة أو نظرية معينة، وأن أجهزة الإعلام فى معظم دول العالم تقوم على خدمة الفلسفات والنظريات والمناهج التى تتبناها تلك الدول، إلا أن الإعلام فى معظم أقطارنا ليس «نظامًا» ولا يتبع خطة مرسومة بعناية، وإنما هو جهود مبعثرة. ومتناقضة فى كثير من الأحيان؛ وأن معظم أنشطته ليست ذات صبغة فنية موحية ومشوقة، بل يغلب عليها الوعظ والتوجيه المباشر؛ وأن أغلبه ليس صادرًا عن عقيدة الإسلام وتشريعاتها ونظمها الإنسانية والخلقية، وأنه بعيد - إلى حد كبير - عن تحقيق غايات الإسلام ومقاصده، بل إنه يقوم - فى معظم الأحيان - بالترويج للفلسفات والنظريات والنماذج الاجتماعية التى سعت جيوش الاحتلال فى الماضى إلى خلعها على الحياة الاجتماعية والثقافية الإسلامية!

وإن وظيفة الإعلام هى المساهمة بجدية وفاعلية فى استعادة «وسطية» الأمه الإسلامية و«شهادتها على الناس»، وفى الحفاظ على «تميز» الأمة الإسلامية بعقيدتها ومنهجها. والإعلام فى هذه الحالة - وفى هذه الحالة فقط - يحافظ على هوية الأمة ويحميها من الذوبان فى أمم أخرى، قد أخْرِجَت هى أصلاً لهديها وقيادتها.

إن المؤسسات الإعلامية هى مؤسسات منهجية وتربوية ملتزمة، وهى تفوق فى تأثيرها - خاصة هذه الأيام - المدرسة والجامعة والمناهج التربوية المقصودة؛ لذلك فإنها إذا لم تكن مخططة ومنظمة على أساس من الحقائق والمعايير والقيم الإلهية الثابتة، والمعارف والمهارات والخبرات الإنسانية المتغيرة بتغير الزمان والمكان

وحاجات الناس، فـإنها تتحول - لا محـالة - إلى كارثة محققـة، وتصبح طريقًا معبدًا إلى الهاوية.

إن مهـمة الإعلام الإسـلامى الآن هى تقويم واقعنا المنحـرف عن منهج الله ونظـامـه للكون والإنسان والحـياة، ورده بالحسنى إلـى الطريق المستـقيم. إن ذلك يتطلب المساهمة فى تحرير الإنسان من عبودية غير الله، والخوف من غير الله، ولن يكون ذلك كذلـك إلا بعودة الإعلام إلى المضـمون الإسلامـى، وتكوين رأى عام إسلامى مستنير.

ولن يسـتطيع الإعلام تكوين رأى عـام إسلامى مـستنيـر إلا إذا تخلص من الضغوط الفلسفية والمنهجية للغرب بصفة عامة ولأمريكا على وجه الخصوص.

إن الحرية الواعـية المسؤولة هى أثمن هدايا الإسـلام إلى الإنسانية. فـالحرية فطرة فى الطبيعة الإنسـانية، يختل نشاط الإنسان، ويسوء عـمله، وتهبط أخلاقه، ويتدهور حال مجتمعه كله، إذا حُوصر الإنسان، أو مُنِع من ممارسة حريته، أو إذا انفلت فى ممارستها دون ضبط أو تنظيم وفق معايير المنهج الإلهى.

إنه عندما يكون المجتمع محكومًا بمنهج الله، وعندما يكون الإسلام - عقيدة وشريعة - هو أساس التـصور الاعتقادى والتصور الاجـتماعى، والمنهج التربوى، والنظام الإعلامى.. عندئذ يتحرر الإنسان من الخوف إلا من الله، ويكون النشاط الاجتـماعى كله حركة واحـدة فى اتجاه واحد لتنفيـذ منهج الله، عندئذ لن يكون هناك «رأى عـام زائف» ولا «رأى عام كـامن» لأنه خائف؛ لأن الإنسـان فى هذه الحالة لن يخاف إلا من الله.

إذن فقيـام نظام إعلامى إسلامى مـخطط ومتكامل أمر مرهون بتنفـيذ منهج الله فى المجتـمع، سياسـة واقتصـادًا واجتمـاعا وتربية. لكـن هذا لا يعنى إيقاف النشاط الإعلامى الجـاد الذى يقوم به الأفراد والجماعات والهـيئات الآن هنا وهناك إلى أن يتغير نظام المجتمع ومنهجه العـام لحكم الحياة فيه، بل يجب أن يستمر هذا النشاط ويتسع وفق خطة فنية واعية.

وفى ضوء الإطار السابق، فإن الإعلام الإسلامى فى حاجة ماسة إلى ما يلى:

١ - الاهتداء إلى مجموعة المبادئ والتوجيهات التى وردت بشأنه فى القرآن والسنة، ثم فى اجتهادات علماء المسلمين ومفكريهم قديمًا وحديثًا، مع الاستعانة بالخبرات الإنسانية والمتجددة فى هذا المقام.

٢ - إعداد الكوادر الإعلامية الإسلامية من خلال مناهج وبرامج نابعة من التصور الإسلامى للكون والإنسان والحياة. إن هؤلاء هم الأمل - بعد الله - فى هداية «المغتربين» الذين ينكرون كل ما هو إسلامى فى السياسة والاقتصاد والاجتماع والتربية والإعلام، ويقبلون كل ما دون ذلك!

٣ - تجسيد المنهج الإسلامى، والروح الإسلامية، والقيم الإسلامية، والسلوك الإسلامى فى كل فقرة من فقرات أجهزة الإعلام بطريقة علمية وفنية غير متكلفة ولا مصطنعة.

٤ - مقاومة التدفق الإعلامى الزاحف عن طريق البث المباشر وغير المباشر، وذلك عن طريق تدعيم الإعلام الإسلامى المضاد، وغربلة ما يذاع وينشر، لاستئصال كل ما يضر بالمنهج الإسلامى وقيمه ومعاييره، ويساعد على نشر الفساد والعنف والجريمة. وفى هذا السياق لا بد من إعادة النظر فى مضمون الإعلان التجارى، وطرقه وأساليبه التى تتعارض مع الإسلام، وتهدر كرامة الأسرة المسلمة، والمرأة المسلمة، عن طريق ابتزاز مشاعر الجنس الرخيصة لدى المشاهدين والقراء.

٥ - العناية بمهارات القراءة الواعية، والاستماع الناقد لدى القراء والمستمعين. إن التطور فى وسائل الاتصال - وخاصة البث التليفزيونى الدولى المباشر الذى يحمل فى طياته غزوا ثقافيا مقصودًا لمن لا منهج لهم ولا هوية - لا يتطلب «كفاية» المستمع أو المشاهد فقط، أى سيطرته على الحد الأدنى المقبول من مهارات الاستماع والفهم، بل يستلزم «كفاءة» المستمع أو المشاهد، أى سيطرته على

الحد الأعلى لمهارات الاستماع والقراءة. من فهم، وتحليل وتفسير، ونقد وتقويم، واستخدامه لهذه المهارات بأكبر قدر من الإيجابية والفاعلية[1].

وعلى هذا فإن إعداد القارئ الكفء، والمستمع الكفء، هو أحد أهم العوامل الحاسمة فى مواجهة الغزو الثقافى الداهم عبر ثورة الاتصالات. وهو أمر يجب أن يعمل حسابه بالتخطيط والتنسيق بين مناهج التربية ونظام الإعلام.

٣٤ - الاهتمام بالمدخل الحضارى فى تعليم الكبار:

لقد بدأ منهج الله للبشرية بالكبار، وبدأ بهم من المستوى الحضارى، لقد بدأ بتأسيس العقيدة فى نفوسهم بعد أن محا كل الخرافات والأوهام والمعتقدات الباطلة السائدة لديهم، وبعد إقامة العقيدة خالصة، صافية فى نفوس المسلمين فى مكة انتقل إلى المدينة ليقيم عليها نظامًا اجتماعيا متحضرا.

وعلى هذا النحو يحتاج منهج تربية الكبار فى زماننا هذا إلى البداية بتصحيح المفاهيم فى نفوس الكبار، وتنقيتها من الشوائب، مثل مفاهيم: لا إله إلا الله، والخلافة فى الأرض، وعلاقة الإنسان بالكون والحياة، ومفاهيم: العبادة والحرية، والشورى، والحضارة، والثقافة... إلخ[2].

ومن خلال هذا العمل، وفى أثنائه يأتى التدريب على المهارات الهجائية، والتقانية المتصلة بالجانب الوظيفى وليس العكس كما هو حادث.

إن مناهج تربية الكبار الواعية هى التى ترسخ فكرة أو تعليم الكبير وتربيته ليست مجرد لون من ألوان الوجاهة الاجتماعية، وليست فقط ضرورة أساسية للتنمية والتحديث، وإنما هى فوق كل هذا فرض فرضه الله على كل إنسان، من

---

(١) انظر: على أحمد مدكور: تدريس فنون اللغة العربية، الرياض، دار الشواف، القاهرة، المطبعة الفنية، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢م، فصل الاستماع.

(٢) انظر: على أحمد مدكور: منهج تعليم الكبار: النظرية والتطبيق، القاهرة، دار الفكر العربى، ١٤١٦ هـ، ١٩٩٦م.

أجل أن يكون قادرًا على ترقيــة نفسه، وترقية الحــياة من حوله؛ فهذا هو مــقتضى العبادة، ومقتضى الخلافة فى الأرض.

ومنهج تربية الــكبار فى الإسلام هو الذى يحــاول المساهمة فى إقــدار الأمة على استعادة وسطيــتها، وشهادتها على الناس، والحفــاظ على تميزها، ووحدتها، ويكون ذلك عن طريق تعديل اتجاهات الدارسين، وتوجيه اهتماماتهم نحو العلم، على أساس أنه فــريضة، وأن طلبه عــبادة، وأنه يهدى النفــس إلى الإيمان بالله، والأخوة فى الله، عن طريــق تزويدها بالحقائق والمعــايير الإلهيــة الثابتة والخــبرات الإنسانية المتغيــرة، التى تزيد من إيجابية الإنسان وفاعليته فى القــيام بدوره كخليفة لله فى الأرض.

بل إن هذا المنهج ينمى لدى الكبار الرغــبة المتزايدة فى الاستــمرار فى طلب العلم، حيث إن ذلك من مــقتضــيات المطالب المتنوعة للحــياة الراقيــة، وحتى لا يصاب الكبير «بالقدم المعنوى» ويصبح من مخلفات الزمن.

إن منهج تربية الكبــار فى التصور الإسلامى هو المنهج الذى يقــدر الدارسين على إحداث التــغيرات المناسبــة لإعمار الحياة، كــما يكسبهم المرونة الإيجــابية فى مواجهة المتغيرات الوافدة بالدراســة والتحليل، وقبول ما يتفق منها مع منهج الله، ورفض المتغيــرات الأخرى التى تتصادم مع الأصول والقــيم الثابتة فى هذا المنهج، وبذلك يرتقى المجــتمع الإسلامــى مع الحفاظ على بنــيته الأســاسيــة والإقلال من عوامل الاضطراب وعدم التوازن بين العناصر المكونة له.

ومنهج تربية الكبار السليم يساعــدهم على تحقيق ذواتهم الإنسانية وفق فطرة الله التى فطر الناس علــيهــا، فهــو يعين الرجــال كمــا يعين النســاء على إشبــاع حاجاتهم، واهتمــاماتهم، وحل مشكلاتهم، كما يساعدهم على تحــقيق أغراضهم الوظيفية فى الحياة كل على حسب ما هو مؤهل له، داخل الأسرة، وخارجها.

إن منهج تربية الكبــار الرشيد هو الذى يرسخ فى نفوس الكبــار أولاً قواعد المجتمع المتــحضر، فهو يبدأ بهــا، ولا يبدأ بألف، باء، تاء... إلخ. إنه يقيم فى

نفوس الكبار معـانى مثل: معنى أن تكون «الحاكميـة» فى المجتمع لله؛ ومعنى أن تكون «آصرة العقيـدة» هى رابطة التجمع الأساسية فى المجـتمع؛ ومعنى أن تكون «قيمة الإنسـان» هى العليا فى هذا المجتمع، وألا تعلو قيمة أى شىء على قـيمته؛ ومعنى أن تكون «الأسرة المتـخصصة» هى الوحدة الأساسيـة فى بناء هذا المجتمع؛ ومـعنـى أن «الإحسـان فى العـمل» هو أسـاس الـعـمـارة والتـرقى فى هذا المجتمع... إلخ.

ومن خلال كل هذا تأتى المهارات الهجائيـة، والمهارات الوظيفية الأخرى.. وليس العكس.

٣٥ - تنمية شعور الطلاب وإدراكهم للمسؤولية الاجتماعية:

إن الهدف الذى ينبغى أن تعمل المـناهج التعليمية على تحقيـقه هنا هو تنمية شعور الناشئة وإدراكهم للمسؤولية الاجتماعية.

لقد اتضح لنا مما سبق أن الحرية والمسؤولية وجـهان لعملة واحدة، فالإنسان حر لأنه مـسؤول. وهو لا يصح أن يكون مـسؤولا إلا إذا كان حـرا. فالمسـؤولية تتطلب الحرية. والحرية تستتبع المسؤولية.

وهناك فرق بين المسؤوليـة الجماعية وبين المسؤوليـة الاجتماعية. فـالمسؤولية الجماعيـة إحساس الجماعة ككل بمسـؤوليتها عن أفكارها. وأفعالـها وأفرادها. أما **المسؤولية الاجتماعية** فهى المسؤولية الذاتية نحو الجمـاعة. فالمسؤولية هنا مسؤولية ذاتية والإنسان مسؤول أمام ذاته عن الجماعة.

وإذا كانت المسؤولية الاجتماعية تكوينا ذاتيا، كما يقول الدكتور سيد عثمان، فإنها فى جانب كبـير من نشأتها ونموها نتاج اجتماعى، أى أنـها اكتساب وتعلم، وهنا يأتى دور الجـماعـة عن طريق مؤسـساتهـا المتنوعة، وفى مـقدمـتهـا الأسرة والمدرسة فى تنمية المسؤولية الاجتماعية.



وتتكون المسؤولية الاجتماعية من عناصر ثلاثة: الاهتمام، والفهم، والمشاركة، وجميعها لا بد من تنميتها وتعميقها لدى الناشئة[1].

والمقصود بالاهتمام الارتباط العاطفى بالجماعة التى ينتمى إليها الفرد، صغيرة كانت أم كبيرة، ذلك الارتباط الذى يخالطه الحرص على استمرار تقدمها وتماسكها وبلوغها أهدافها، والخوف بأن تصاب بأى عامل أو ظرف يؤدى إلى إضعافها أو تفككها.

فالإحساس بالمسؤولية الاجتماعية هنا يتأتى من خلال الانفعال مع الجماعة والانفعال بها، وإدراك الذات من خلالها، والتوحد معها بحيث تصبح الجماعة داخل الفرد عقليا ووجدانيا.

أما الفهم فذو شقين: الأول فهم الفرد لتاريخ الجماعة، الذى بدونه لا يتم فهم حاضرها ومستقبلها. وفهمه لفلسفتها وعقيدتها، ولروابطها وصلاتها، ولنظمها ومؤسساتها، وعاداتها وقيمها ووضعها الثقافى، وللظروف والقوى المؤثرة، وحاضرها الواقع ومستقبلها المحتمل.

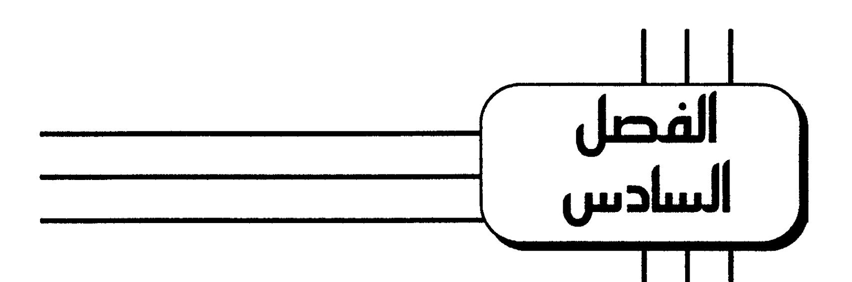
أما الشق الثانى من الفهم، فهو فهم الفرد للمغزى الاجتماعى لأفعاله. وإدراكه لآثار أفعاله وتصرفاته وقراراته على الجماعة. أى فهم القيمة الاجتماعية لأى فعل أو تصرف يصدر عنه.

أما العنصر الثالث فهو المشاركة. والمقصود به اشتراك الفرد مع الآخرين فى الجماعة فى إنجاز الأعمال التى يمليها الاهتمام ويتطلبها الفهم، بما يساعد الجماعة فى إشباع حاجاتها وحل مشكلاتها، الوصول إلى أهدافها، والمحافظة على تقدمها واستمرارها.

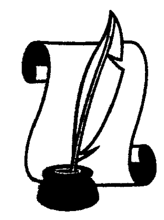
وهذه العناصر الثلاثة: متكاملة، فالاهتمام بالجماعة يحرك الإنسان إلى فهمها. وكلما زاد فهمه زاد اهتمامه. والاهتمام والفهم معًا يؤديان إلى المشاركة الإيجابية الناقدة.

---

(١) سيد أحمد عثمان: المسؤولية الاجتماعية والشخصية المسلمة، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٣٩٩ هـ ١٩٧٩م، ص ٢٦٩ - ٢٧٢.



محتوى منهج التربية في التصور الإسلامي





محتوى منهج التربية

إذا كان الهدف النهائى لمنهج التربية فى التصور الإسلامى هو بناء الإنسان الصالح المؤمن بالله وبالأخوة فى الله، والقادر على المساهمة بإيجابية وفاعلية فى عمارة الأرض وترقية الحياة على ظهرها وفق منهج الله، وبذلك يحقق وسطيتها، وشهادتها على الناس، ويحقق لها وحدتها، وتميزها - أقول: إذا كان هذا هو الهدف، فإنه لا يتم إلا من خلال محتوى يتم اختياره بعناية ودقة لهذا الغرض.

مفهوم المحتوى ومصادره:

والمحتوى هو مجموعة الحقائق والمعايير والقيم الإلهية الثابتة، والمعارف والمهارات والخبرات الإنسانية المتغيرة بتغير الزمان والمكان وحاجات الناس فى كل زمان ومكان، والمنظم بشكل علمى ومهنى، بحيث يحتك المتعلم به، ويتفاعل معه، من أجل تحقيق الأهداف التربوية المنشودة.

ولما كان الكون من حولنا محسوسا، وغير محسوس، أى غيب وشهود، فإن العلم تختلف مصادره فى منهج التربية الإسلامية باختلاف نوع المعلوم.

فالغيب مصدر العلم به هو الوحى الصادق من صاحب الغيب، - سبحانه وتعالى -، أى من القرآن والسنة:

﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ (٢٩) ﴾ [ص].

«لقد تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا أبدًا: كتاب الله، وسنتى»، [متفق عليه].

أما المحسوس أو المشهود فسبيله الملاحظة، والتجربة، والخبر أيضًا، لأن المحسوس الذى غاب عنا لا مصدر للعلم به إلا الخبر عنه، وهذا هو أحد أهداف قراءة التاريخ. وتصحيح العلم عن طريق الخبر يكون بالاحتكام إلى قوانين الله ونواميسه التى تحكم الأشياء. كما يكون تحقيق الخبر عن طريق الاستقراء والاستنباط، والملاحظة والتجربة.. إلخ.

طرائق اختيار المحتوى:

يتم اختيار المحتوى بطرائق ثلاث:

الطريقة الأولى: هى الطريقة التى تعتمد على تحديد حاجات الدارسين ومشكلاتهم، والمعارف والمهارات التى يحتاجون إليها فى حياتهم وأعمالهم وبناء على ذلك يتم اختيار المحتوى الذى يحقق هذه الحاجات للدارسين ويساعدهم على تحقيق ذواتهم وفق فطرة الله فيهم ذكوراً وإناثًا.

الطريقة الثانية: هى التى تهتم بتحديد مطالب المادة التعليمية، كاللغة، أو الرياضيات.. إلخ. أكثر من اهتمامها بحاجات الدارسين، فالترتيب المنطقى للمواد الدراسية وكل المعارف والمعلومات والتطورات التى حدثت للمادة الدراسية يجب أن يكون متضمنًا فى محتوى المنهج، هذه الطريقة غالبًا ما ترفع قيمة المادة الدراسية والمعرفة، والمعلومات على قيمة الإنسان المتعلم، حاجاته ومشكلاته ومطالبه.

الطريقة الثالثة: هى طريقة اختيار محتوى المنهج عن طريق الخبراء فى كل مجال من مجالات المعرفة.

فهؤلاء يستخدمون خبراتهم الطويلة فى اختيار محتوى المنهج كل فى مجال تخصصه.

ومنهج التربية والتعليم فى التصور الإسلامى يركز على الطريقة الأولى التى تهتم بالإنسان المتعلم، وتعتبر أن قيمته تعلو على كل شىء، وأنه سبب المنهج، والمقصد من بنائه، وأن كل شىء يجب أن يسخر لخدمته، فالله سبحانه وتعالى، قد سخر الكون كله لخدمته:

﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ... ﴿١٣﴾﴾ [الجاثية].

إن الإنسان هو الخليفة فى الأرض، وهو المكلف بتنفيذ منهج الله فيها، وهو المخلوق الوحيد الذى يعبد الله بإراداته الحرة، ولذلك فلا يجب أن تعلو قيمة أى شىء على قيمته.. بل ويجب أن يسخر كل شىء لخدمته، فحتى نزول القرآن من رب العالمين، جاء محققًا لهذا المعنى:

﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً ﴿١٠٦﴾ ﴾ [الإسراء].

فقد نزل القرآن، مقسطًا، على مكث.. حلاً لمشكلات الحياة، وتبيانًا لقوانينها، ووضعًا لنظامها، فالناس، وحياة الناس، لا الأشياء، هى مهمة المنهج، لذلك فإن تلبية مطالب وحاجات الإنسان الذى يقوم على تنفيذ منهج الله هى المعيار الأساسى فى اختيار محتوى المنهج.

لكن منهج التعليم الأساسى إذا يركز على الطريقة الأولى التى تهتم بالإنسان المتعلم، فهو يسخر مميزات الطريقتين الأخريين لتحقيق هذا الغرض، فمنهج التربية فى التصور الإسلامى يعتمد على المتخصصين أو «أهل الذكر» فى كل مجال من مجالات المعرفة:

﴿ ... فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [النحل].

وأهل الخبرة:

﴿ ... فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ ﴾ [الفرقان].

﴿ ... وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾ ﴾ [فاطر].

كما أنه يبحث عن كل معرفة مفيدة مهما كان مصدره: «**فالحكمة ضالة المؤمن حيثما وجدها فهو أحق الناس بها**» كما قال الرسول ﷺ.

تنظيم المحتوى:

البدائل المطروحة لتنظيم محتوى المنهج يمكن تصنيفها فيما يلى:

أولاً: هناك تنظيم الذى يخضع لخصائص منهج المواد الدراسية المنفصلة، حيث يتم التركيز على المواد الدراسية، ويتكون المحتوى من عدد من المواد الدراسية المنفصلة، التى خططت ووضعت مقدمًا، ونظمت تنظيمًا منطقيا وفقًا لطبيعة كل مادة، ويغلب على هذا التنظيم الطابع النظرى، ويوضع فى صورة موضوعات بحيث يتم تناول كل موضوع فى حصة، وغالبًا ما يترجم هذا المحتوى فى صورة «كتاب»، يتم تناوله بطريقة تلقينية بمعزل عن نشاط التلاميذ وفاعليتهم، كما يعتمد

هذا التنظيم المعرفى على الامتحانات لتقويم مدى ما حفظه التلاميذ، وهذا هو التنظيم السائد غالبًا عندنا فى مصر، وفى معظم أقطار الأمة.

ثانيًا: هناك التنظيم القائم على أساس، منهج النشاط، وهو تنظيم قام كرد فعل للتنظيم القديم السابق، فجاء على العكس منه، فميول التلاميذ وأغراضهم هى المحور الذى ينظم على أساسه المحتوى، كما أن هذا التنظيم يقوم على أساس إيجابية التلاميذ ونشاطهم، فالتلاميذ يشاركون فى اختيار المحتوى وتخطيطه وتنفيذه، وبذلك فإن المحتوى لا يتم اختياره مقدمًا، ولا يتقيد بالحواجز الفاصلة بين المواد الدراسية، ويعتمد فى تنفيذه على أسلوب حل المشاكل، وتخطيط وتنفيذ المشروعات؛ لذلك فإن التقويم فى هذا التنظيم يقوم على أساس نشاط الطلاب وسلوكياتهم وعلاقاتهم.

ثالثًا: إذا كان منهج النشاط قد نقل الاهتمام فى التربية من المادة إلى ميول التلاميذ وأغراضهم، ورفض تخطيط المنهج مقدمًا، فكلاهما قد أهمل معيار التكامل بين مكونات المحتوى التعليمى، وقد أهمل أيضًا التعامل مع حاجات المجتمع ومطالبه ومشكلاته.

ومن هنا جاء التنظيم المحورى للمناهج مستفيدًا من مزايا التنظيمين السابقين ومتخطيًا عيوبهما؛ لذلك نادى بأن يكون محور الدراسة هو حاجات الدارسين لا مجرد ميولهم؛ على اعتبار أن الحاجة ذات شقين: شق شخصى يتصل بالطالب مباشرة، وشق اجتماعى يتصل بالنظام الاجتماعى ومطالب الحياة الاجتماعية التى يعيشها الطلاب ومشكلاتهم.

وهكذا انبثقت فكرة التنظيم المحورى، فهو تنظيم يدور حول مشكلات الحياة وحاجات الدارسين بقصد إعدادهم للمواطنة ومسئوليات الحياة[1].

---

(١) انظر: الدمرداش عبد المجيد سرحان، المناهج المعاصرة، الكويت، مكتبة الفلاح، ط٣، ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ من ص ١٥٣ - ٢٠١.

إذن فالتنظيم المحورى يدور حول الأمور العامة المشتركة التى ينبغى أن يدرسها جميع الطلاب فى صف معين أو فى مرحلة معينة.

وهناك بالتأكيد أمور أخرى تتصل بالميول والقدرات والاستعدادات الخاصة لكل طالب، وهذه تأتى خارج الدائرة المحورية.

وبذلك فالتنظيم ذو شقين:

- شق إجبارى يلتزم به جميع الطلاب فى صف معين أو مرحلة معينة.

- وشق اختيارى تطرح فيه مجموعة من المواد الاختيارية والمناشط المدرسية، يختار الطلاب من بينها ما يتسق مع حاجاتهم وميولهم وقدراتهم واستعداداتهم الخاصة.

ويتضح من هذا التنظيم المنهجى أنه يقوم على أساس تحديد المشكلات والحاجات بشقيها الشخصى والاجتماعى عن طريق البحث العلمى، وقيام التنظيم المحورى حولها، دون الالتزام بالمنهج التخصصى الذى يفرض طبيعة المادة التعليمية ومنطقها وتسلسلها فى المقام الأول.

وهذا التنظيم المحورى بشقيه الإجبارى والاختيارى يعتبر الإرشاد والتوجيه الطلابى ركنًا أساسيا فيه. حيث إن هذا ضرورى للوقوف على حاجات الطلاب ومشكلاتهم وقدراتهم واستعداداتهم، كما أنه ضرورى أيضًا لمشاركتهم المعلم فى وضع الخطة واقتراح التفاصيل، كما أنه تنظيم يعتمد أسلوب المشكلات وسيلة للتعليم الفعال، كما يمكن تطبيقه بنجاح فى المرحلتين الإعدادية والثانوية.

رابعًا: تنظيم الوحدات، وهو تنظيم قصد به تنظيم المحتوى فى صورة معلومات مترابطة وخبرات متكاملة حول المحاور الأساسية المراد دراستها، وبذلك يتم القضاء على ظاهرة التفتيت والتجزىء الشائعة خاصة فى تنظيم المواد الدراسية

---

(١) على أحمد مدكور: «الإرشاد والتوجيه الطلابى فى الفكر التربوى الإسلامى» فى كتاب «منهج إعداد المعلمين فى التصور الإسلامى» القاهرة، الدار الفنية ١٤١٧ هـ - ١٩٩٦م.

المنفصلة، وتنظيم منهج النشاط والمشروعات الذى لم يكتب له البقاء والاستمرار طويلاً.

ويقوم تنظيم الوحدات على أساس تكامل المعرفة الإنسانية، فالمعرفة الإنسانية متكاملة فى مصدرها؛ فهى من خلق الله، متكاملة فى وظيفتها فى الحياة، ومتكاملة فى غاياتها، كما يقوم هذا التنظيم على أساس التكامل فى شخصية الإنسان، فالإنسان بروحه وعقله وجسمه كل واحد لا يتجزأ، ومصدره واحد وهو الله، ووظيفته هى إعمار الحياة، والمعرفة المتكاملة هى وسيلته فى القيام بوظيفته.

وطريقة الوحدات يمكن استخدامها عن طريق المنهج المحورى، فالتنظيم المحورى يمكن أن يقدم فى صورة وحدات أو محاور أساسية، فمثلاً يمكن أن يقدم محور حول «الماء ووظيفته فى الحياة» ويمكن دراسة هذا المحور من خلال القرآن، والسنة، والفقه، والطبيعة والكيمياء، والأحياء، والتاريخ والجغرافيا، والبيئة المحلية، كما يمكن دراسة موضوع مثل «النظام الاقتصادى» من خلال القرآن والسنة والفقه والتاريخ والجغرافيا، والمعلومات السكانية، والتربية.. وهكذا يمكن دراسة الهواء، والبيئة ونظام الأسرة، والصلاة، والزكاة، والزراعة، والصناعة، والعلاقات الدولية... إلخ.

وهكذا فإن أسلوب الوحدات يقوم على أساس ترابط المعرفة الإنسانية والخبرة الإنسانية، وعلى أساس التكامل بين المدرسة والحياة، والإيجابية والفاعلية بين الطلاب والمعلمين وبقية عناصر المنهج؛ وعلى أساس المشاركة والتعاون والعمل الجماعى.

ويعتمد تنظيم الوحدات أيضًا على أسلوب حل المشكلات والمناقشة وفن إدارة المعلومات المتكاملة للوصول إلى القدرة على الابتكار واستشراف آفاق المستقبل والاستعداد له، من أجل القدرة على التعامل مع معطياته.

وهكذا يتضح أن التنظيم المحورى للمنهج وأسلوب الوحدات يتسقان مع طبيعة التصور الإسلامى للكون والإنسان والحياة.

أنواع المحتوى:

إذن فقد يكون تنظيم المحتوى على أساس منهج المواد الدراسية المنفصلة أو على أساس المنهج المحورى أو الوحدات، فهذا هو التنظيم الخارجى لمحتوى المنهج. . . ولكن كيف تكون العلاقة بين العلوم الشرعية وبين العلوم الكونية فى التصور الإسلامى لمنهج التربية؟

من خلال التصور الإسلامى لمفهوم التربية ومفهوم المنهج ومفهوم الدين ومفهوم العبادة ومفهوم التعلم يرى معظم المفكرين الإسلاميين ضرورة تكامل العلوم الشرعية والعلوم الكونية فى منهج التربية الإسلامية، فهذه العلوم جميعها مظهر للكلمات الإلهية، فإذا كانت العلوم الشرعية هى علوم المقاصد والغايات - كما يقول ابن خلدون - فإن العلوم الكونية أو العقلية هى علوم الوسائل والأدوات.

وقد نعى ابن تيمية على الفلاسفة والمذهبيين عدم فهمهم لوظيفة كل نوع من النوعين السابقين للعلوم، فقد أدى انشقاقهم وتعصبهم إلى إشاعة الجبرية والكسل، وركود العلم والإنتاج، وتفرق الناس فى ميادين العقيدة والشريعة.

وانطلاقًا من فكرة التكامل هذه يمكن القول بأن محتوى منهج التربية فى التصور الإسلامى الذى تتحقق من خلاله الأهداف التى سبق عرضها فى الفصل السابق، يشتمل على أربعة مجالات:

١- **مجال علوم العقيدة والشريعة:** وهو يشتمل على جانب إجبارى وجانب اختيارى، فالجوانب الإجبارية هى ما تتصل بالقدر الضرورى لكل فرد وهى ما تعلقت بالعقيدة، والأصول، والأخلاق والقيم والمعايير الثابتة. والاختيارية ما تعلقت بالتشريعات والتنظيمات التشريعية فى مختلف المجالات.

٢- **مجال العلوم الحربية والعسكرية:** وهذه إجبارية لارتباطها بالجهاد، وهى تتشكل وتتنوع حسب مهارات العصر وأدواته ووسائله.

ويعلل ابن تيمية التكامل بين العلوم العقيدية والشرعية وعلوم الحرب والجهاد فيقول: «ودين الإسلام يكون السيف تابعًا للكتاب، فإذا ظهر العلم بالكتاب والسنة، وكان السيف تابعًا للكتاب، كان أمر الإسلام قائمًا.. أما إذا كان العلم بالكتاب فيه تقصير، وكان السيف تارة يوافق الكتاب وتارة يخالفه، كان دين الله منه كذلك بحسب ذلك»(١).

ويسوى ابن تيمية بين المتخصصين فى العلوم العسكرية والمتخصصين فى علوم القرآن، فيقول: «وتعلم هذه الصناعات من الأعمال الصالحة لمن يبتغى بذلك وجه الله عز وجل، فمن علم غيره ذلك كان شريكه فى كل جهاد يجاهد به، لا ينقص أحدهما من الأجر شيئًا، كالذى يقرأ القرآن ويعلم العلم»(٢).

٣- **مجال العلوم الكونية والعقلية**: مثل العلوم الرياضية، والطب، والفلك، والعلوم الحيوية، والفيزيائية والكيمياوية، والعلوم الاجتماعية والإنسانية عمومًا، وثمرة هذه العلوم الكشف عن آيات الله فى الأنفس وفى الآفاق: ﴿**سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ**... ﴿٥٣﴾﴾ [فصلت].

٤- **مجال المهن والصناعات المختلفة والمتنوعة**: وأفضل الصناعات هى الصناعات الحربية والعسكرية؛ لأنها وسيلة الجهاد وعدته، والجهاد أفضل ما تطوع به الإنسان، ومصداق ذلك قول الرسول ﷺ: «**إن الله يدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة: صانعه يحتسب فى صنعته الخير، والرامى به، والممد له**» [رواه أبو داود].

والمهن والصناعات كالعلوم الكونية والعقلية، إجبارية واختيارية، فما كان مفقودًا فى المجتمع وسببًا فى ضعفه وتدهوره صار إجباريًا وفرض عين، فإذا وجد إلى الحد الذى يكفى حاجة المجتمع صار اختياريا وفرض كفاية.

---

(١) ابن تيمية: الفتاوى: أصول الفقه، مجلد ٢٠، ص ٣٩٣.

(٢) المرجع السابق، أصول الفقه، مجلد ٢٨، ص ١٣.

لكن الأزمة الحقيقية فى المجتمعات الإسلامية الآن هى أن نظم التربية الحديثة فيها قدمت المهم على الأهم، وحولت ما كان إجباريًا وفرض عين، إلى اختيارى وفرض كفاية فتضخمت بذلك مناهج العلوم العقلية والكونية، واحتلت المرتبة الأولى فى المناهج والجداول الدراسية، وأزيحت علوم العقيدة والشريعة إلى المراتب المتأخرة، وأصبحنا لا نرى للقرآن والحديث والفقه إلا حصة واحدة فى الأسبوع، فى حين تحتفظ الرياضيات غالبًا بسبع حصص والفيزياء بأربع والكيمياء بأربع، واللغة الإنجليزية بمثل ذلك، أما العلوم العسكرية والتدريب على فنون الحرب والجهاد فقد رفعت من الجداول المدرسية تمامًا!.

وهذا - فى الغالب - أثر من آثار تحول الأمة عن منهج الله إلى المناهج الدخيلة الأخرى، وتبنى شرائع غير شريعة الله لحكم الحياة، وبذلك تم زحزحة الشريعة الإسلامية من مناهج التربية لتحل محلها دراسة الفلسفات الوضعية التى تأخذ مكانها الحاكم فى توجيه كيان الأمة، فأقسام الفلسفة ومقرراتها تحتل مكانًا مرموقًا فى معظم كليات علوم الإنسان، وخاصة كليات إعداد المعلمين.

ليس فى الإسلام علوم للدين وعلوم للدنيا:

إن كل علم يُصمَّم منهجُه ويُدرَّس على أساس أن يسهم فى بناء الإنسان المسلم القادر على المشاركة بإيجابية وفاعلية فى عمارة الأرض وترقيتها وفق منهج الله، هو علم دينى من وجهة نظر الإسلام، يستوى فى ذلك علوم الشريعة، والعلوم الحديثة كالرياضيات، والطبيعة، الكيمياء، وعلوم التقانة الحديثة.. إلى آخره.

وقد قرر هذه الحقيقة كثير من المفكرين المسلمين الفاهمين لنص الإسلام وروحه، فمثلاً، يقول الأستاذ أبو الأعلى المودودى: «وفى الحقيقة أن تقسيم العلوم إلى (دينية) وأخرى (دنيوية) يقوم على أساس نظرية الفصل بين الدين والحياة، وتعتبر مثل هذه النظرية متعارضة تعارضًا تاما مع الإسلام الحنيف، ذلك أن الدين فى نظر الإسلام ليس شيئًا منفصلاً عن الحياة، وعلى هذا فإن اعتبار العالم ملكا (لله) - تبارك وتعالى -، واعتبار الناس فيه عبادًا لله، يحيون وفق مشيئته،

وحسب تعاليمه، لهو (الدين) بمعناه الصحيح، وهو فى نفس الوقت الأساس الذى تقوم عليه الشريعة الإسلامية، هكذا فإن مثل هذا التصور للحياة البشرية على هذه الأرض يؤدى إلى تحويل جميع العلوم (الدنيوية) إلى علوم (دينية)، أما تقسيم العلوم إلى قسمين: (دينى) يدرس من وجهة النظر الإلهية، وآخر (دنيوى) يدرس من وجهة النظر الأخرى المقابلة فإنه يفضى بأجيالنا إلى الاعتقاد بأن الدين شىء والحياة شىء آخر، وأن كلاً منهما يسير فى مجرى لا صلة له بالآخر، وهكذا يصبح التوفيق بينهما بغية إخراج الجماعة المؤمنة التى يريدها القرآن الكريم إذ يقول: ﴿ ... ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً ... (٢٠٨) ﴾ [البقرة] - أمرا صعبًا للغاية بالنسبة لهذا الأجيال»[1].

إن العلوم الحديثة لا يجب تدريسها بالحالة التى هى عليها كما وردت إلينا من الغرب، وإنما يجب إعادة صياغتها بعد تخليصها من أوشابها وما قد يكون كامنًا فى ثناياها من نظريات وفلسفات عن الكون والإنسان والحياة - بحيث تحقق أهداف منهج التربية الإسلامية.

وأما إذا أضفنا هذه العلم إلى منهج التربية الإسلامية بالحالة التى أتت بها من الخارج فإنها سوف تهدم - دون شك - فى نفوس الناشئة وعقولهم كل ما تبنيه علوم الشريعة من عقائد وقيم، وسوف تعمل ضد كل تفسير إسلامى للكون والحياة والسلوك الإنسانى.

ويلقى الأستاذ أبو الأعلى المودودى مزيدًا من الإيضاح على هذه النقطة فيقول: «إننا بتعليمنا التاريخ، والجغرافيا، وعلوم الطبيعة والفيزياء، وعلوم النبات والحيوان، وعلم طبقات الأرض، والفلك والاقتصاد والعلوم السياسية، وسائر العلوم الحديثة الأخرى بطريقة ليس (لله) فيها أثر أو نصيب فلن نتوقع أن تبدو فى

---

(١) أبو الأعلى المودودى: المنهج الإسلامى الجديد للتربية والتعليم، ط٢، بيروت، المكتب الإسلامى، ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م، ص ٢٣، وانظر أيضًا: إسحاق أحمد فرحان وزملاءه: نحو صيغ إسلامية لمناهج التربية والتعليم، قطر، رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية، ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م، ص ٥٠-٥١.



حياة الناس أية عـلامات تدل على احترامـهم لشرائع الله أو إذعانهم لمشيـئته، إن القوانين التى تـتحكم فى الطبيـعة لا تفسـر فى ظل هذه الطريقة على أسـاس أنها قوانين تنظمها قوة الخالق المبـدع، ولا ينظر إلى الأحداث الكونية الكبرى على أنها مظاهر لإرادة الله سبحانه وتعالى من ملكوته، أما مشاكل الحياة ومعضلاتها فتحل دون السماح للحلول التى قدمـتها الشريعة السماوية أن تؤدى وظيفـتها فى حلها، هكذا لا يصبح ثمـة مجال لرأى الأديان فى بـدء الكون ونهاية العالم أن تجـد لها مكانًا فى كتاب الحياة».

«إن مجموعة العلوم التى تنصب فى عقليـة الطالب الصغير خليقة - والحالة هذه - أن تخلق فى ذهنه تصوراً للحياة خاليًا من كل أثر للقدرة الإلهية فيها؛ لأن كان شىء يقـدم إليه دون الإشارة إلى هذه القدرة الـتى خلقت كل شىء وأحسنت خلقه، فليس من الغـرابة فى شىء بعد ذلك أن يسلك فى حـياته العملية مـسالك ليس للدين فـيها نصـيب.. لكن الطالب ينصت من آن لآخر لـصوت (الله) من ضميره وفى فطرته ويتعلم شيئًا من الكتب السماوية عن بدء الخليقة ونهاية العالم، ولكنه يجد نفسـه فى حيرة أين يضع (الله) من هذه العلوم التى تقـدمها له برامج التعليم اليـوم، وقد يدفـعه الشك الذى تنمى بذوره العلوم الحـديثة إلى أن يطلب إثبات الله ثم يتطرق إلى مناقشة مـسألة (الوحى)، وهل الإيمان به ضرورة أم لا؟ وبعـد أن يكد الذهن فى الاهتداء للحـقيـقة وتقـبلها يظل على حـاله من الحـيرة والقلق، كيف يستطيع التوفيق بين العلوم الحديثة التى تعلمها وبين ما يقدمه الدين من نظريات عن الكون والحيـاة، ومهما يكن إيمانه بالله قـويا، واحتماله بعـقيدته راسخًا لا يتزعـزع، فإن الدين يظل فى معزل عن حياته لا يؤثر فيـها، ولا يهيمن عليها كما ينبغى»[1].

إن الفصل التعسفى بين عـلوم الشريعة، على أنها علوم للدين، وبين العلوم الحديثة على أنها علوم للدنيا، قد أحدث كثيراً من المتاعب التى تعانى منها الأجيال الحديثة، وهذا الفصل لا يقره الإسلام على الإطلاق، لكن الواجب على المسلمين

---

(١) المرجع السابق، ص ٢٣-٢٤.

أن يعيدوا صياغة العلوم الحديثة: كما سبق أن ذكرنا، بحيث تتعاون مع بقية مواد المنهج على تحقيق أهداف منهج التربية الإسلامية «وتحقيق أهداف الحياة السعيدة للمجموعة البشرية وفق تعاليم السماء»[1]. والجهاد من أجل عمارة الأرض وتطبيق منهج الله، ومن هنا ترتبط فى نفوسهم الأرض بالسماء، والدنيا بالآخرة والفكر بالعمل.

محور المحتوى بين الذكور والإناث:

ومنهج التربية الإسلامية - كما سبق أن ذكرنا - يعد الفتاة المسلمة لمهمتها العظيمة المرتقبة، وهى تربية الناشئة وإدارة البيت وتدبير شئونه بطريقة حسنة، حتى إذا جاءت الخطبة، وجاء الزوج، كانت مهيأة لدورها الطبيعى العظيم فى الحياة.

ولا شك أن هناك علومًا مشتركة فى منهج التربية الإسلامية بين البنين والبنات صغيرهم وكبيرهم على السواء، وهذا القدر المشترك من محتوى المنهج هو ما يتصل بالجانب الثابت فى حياة الإنسان، وهو العلم بالدين، ابتداء من قضية الألوهية، وما يتفرع عنها، وما يترتب عليها من مبادئ وقيم، وعلوم الشعائر، وعلوم المعاملات بما تشتمل عليه من نظم وأخلاقيات وسلوك، ولا شك أن هناك قدرًا آخر مشتركًا، وهو ذلك الخاص بتاريخ المسلمين، وجغرافية العالم الإسلامى، واللغة العربية وآدابها، وبعض العلوم العامة.

وإلى جانب هذا القدر المشترك فى المناهج، هناك «التربية النسوية» التى تعد الفتاة لوظيفتها، وتعلمها أصول هذه الوظيفة من إدارة شؤون البيت، وتربية الأطفال، وتحول مشاعر الجنس الفطرية إلى تهيؤ عملى لاستقبال الحياة الزوجية المرتقبة.

ولا شك أن للفتاة بعد ذلك أن تتعلم من العلوم الأخرى ما تميل إليه، ولا قيد عليها فى ذلك إلا قيدًا واحدًا هو ألا يصرفها ذلك عن وظيفتها الرئيسية التى تتفق مع فطرتها التى فطر الله الناس عليها.

---

(١) المرجع السابق، ص ٢٤.

الإعداد للمهن والحرف:

ومحتوى منهج التربية الإسلامية ترتبط فيه النظرية بالتطبيق، والقول بالعمل، وذلك انطلاقًا من - أن الدين الإسلامى لا يفرق بين المثال والواقع؛ لأن مثله موضوعة بحيث يمكن تطبيقها فى الحياة:

﴿ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا ... (٢٨٦) ﴾ [البقرة].

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ... (١٦) ﴾ [التغابن].

وعلى هذا فالإسلام ليست فيه تلك الفجوة المعهودة بين المثال والواقع، أو بين النظرية والتطبيق كما يعبر عنها فى أوروبا.

لا بد إذن أن يكون محتوى المناهج الدراسية - إذا أردنا أن تكون مناهجنا إسلامية فى الشكل والمضمون - نظرية وعملية معًا، لا نظرية فقط، وأن توجد فى مدرسة البنين «ورشة» أو «معمل» أو «مختبر» لتدريب المتعلمين فيها، وربط الأفكار النظرية بتطبيقاتها العلمية، وأن يوجد فى مدرسة البنات «بيت» يدرن شأنه ويدبرون أموره، بالإضافة إلى كل الخبرات التى تعدهن للقيام بأعباء الحياة الزوجية وتربية الأطفال على خير وجه.

ويشتمل محتوى منهج التربية الإسلامية على مواد كسب المهارة، وتعلم الصناعات المختلفة، والإعداد للحياة العملية والعمل الجاد، الذى يعين الإنسان على عمارة الأرض بمقتضى منهج الله، كم يشتمل على مواد ترقية الوجدان، وإبراز دقة الله فى الخلق كالآداب والفنون والموسيقى وزخرف الخط وغير ذلك من الفنون.

لقد وضع الإسلام دستوراً شاملاً للعمل هو جزء من محتوى منهج التربية الإسلامية، فسواء كان العمل يدويا أم عقليا أم فنيا، فالخبرة والمهارة فيه مطلوبة، فالمجتمع يحتاج إلى العامل الماهر كما يحتاج إلى الطبيب الماهر، يقول الرسول ﷺ **«إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه»** [رواه أبو يعلى والعسكرى]. ويقول: **«من أمسى كالا من عمل يده أمسى مغفوراً له»** [أخرجه الطبرانى].

ويقول: «**إن الله يحب المؤمن المحترف**» [أخرجه الطبرانى والبيهقى]، ويقبل الرسول ﷺ يدًا تورمت من كثرة العمل ويقول: «**هذه يد يحبها الله ورسوله**» كما روى أنه ﷺ قال: «**الحرفة أمان من الفقر**».

وقد تعلم نوح صناعة السفن، إذ أمره الله بصنعها فى قوله:

﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [هود].

وكانت النتيجة أن نجا نوح ومن آمن معه فى السفينة التى صنعها، وغرق الباقون.

وقد علم الله نبيه داود مهارة الحدادة وصناعة الدروع الحربية: **﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [الأنبياء]**. ويقول فى شأن داود أيضًا: **﴿... وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ ... ﴿١١﴾﴾** (دروع واسعة سابغة واقية) **﴿وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ﴾** (أى اجعله يناسب المهمة التى عمل من أجلها)، **﴿... وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾﴾** [سبأ] وكان الرسول ﷺ يجيد مهنة التجارة، كما اشتغل بالرعى.

من كل ما سبق يتضح لنا مدى اهتمام محتوى منهج التربية الإسلامية بالعمل يدويا كان أو عقليا او فنيا، وبالإتقان فيه، وبضرورة اشتمال محتوى منهج التربية الإسلامية على مواد كسب المهارة وتعلم الصناعات، وإتقان المهارات على اختلاف أنواعها، وبما يتفق مع قدرات المتعلمين واستعداداتهم.

معايير صلاحية المحتوى:

ومحتوى منهج التربية والتعليم فى التصور الإسلامى ينبغى أن تحكمه مجموعة من المعايير التى يجب أن تتوافر فيه، وأهم هذه المعايير ما يلى:

أولاً: أن يكون متسقًا مع التصور الإسلامى شكلاً ومضمونًا، فلا يكون فيه ما يخالف القرآن والسنة نصا أو روحا.

ثانيًا: أن يكون هذا المحتوى محققًا للأهداف العامة التى سبق ذكرها والأهداف الخاصة المنبثقة عنها.

ثالثًا: أن تتكامل فيه علوم الوحى وعلوم الكون، فكلاهما من آيات الله، فهناك قدر ضرورى من علوم الوحى لكل إنسان، فهو فرض عين، ودراسته إلزامية، وهذا القدر مختلف كما وكيفا باختلاف طبيعة كل مرحلة وأهدافها، أما دراسة علوم الكون فهى ضرورية وإجبارية عندما يحتاجها المجتمع، فإذا اكتفى منها فإنها تتحول إلى اختيارية وفرض كفاية.

وما سبق يعنى ضرورة أن تكون الحقائق والمعايير والقيم الثابتة، وكذلك المعارف والخبرات والمهارات الإنسانية المتغيرة، متكاملة أفقيا: فما يقدم فى كل علم وكل مادة فى مرحلة معينة أو لمستوى معين لابد أن يكون مترابطًا ومتكاملاً، يعضد بعضه بعضًا ويكمل بعضه بعضًا، ولا بد أن يكون مترابطًا رأسيًا أيضًا: بمعنى أن ما يقدم فى المراحل المتتابعة لابد أن يكون شاملاً ومتكاملاً، ومتدرجًا من العموم إلى الخصوص ومن البسيط إلى العميق.

وخاصية الشمول هذه لا تتوافر بشكل صحيح إلا لمنهج مثل منهج الإسلام فى التربية، الذى ينطلق من قاعدة واحدة وتصور واحد، ويهدف إلى غايات ومقاصد متكاملة، مع اختلاف الأساليب والطرائق فى تحقيقها.

رابعًا: أن يكون المحتوى مناسبًا لنوعيات المتعلمين الصغار والكبار، ففى المدرسة الابتدائية، يكون التركيز على تكوين المفاهيم الجوهرية، كمفهوم حقيقة الألوهية ومفهوم الكون، ومفهوم الإنسان والطبيعة، ومفهوم الحياة.

كما يجب أن يركز المحتوى أيضًا على تربية الضمير والوجدان من خلال الحقائق والمعايير والقيم الثابتة، وعن طريق القدوة، والتلقين، والتقليد، ثم التفكير الإسلامى المنظم.

وفى المدرسة الإعدادية، يبدأ تساؤل الطلاب عن مصدرهم ومصيرهم، وعلاقاتهم بالكون من حولهم، ووظيفتهم فى الحياة، وهنا تبرز أهمية تعميق

التصور الإسلامى لحقيقة الألوهية، وحقيقة الكون والإنسان والحياة، وطبيعة موقف الإنسان من الكون وعلاقته بالحياة غيبها، وشهودها. . وهنا يبدو التلاميذ مشتاقين إلى معرفة النظم التى تحكم العالم من حولها، وطبيعة النظام الذى يعيشون فيه.

وهنا تبدو أهمية دراسة الشريعة والقانون، والاقتصاد والسياسة، والتاريخ، والجغرافيا، والطبيعة الإنسانية فى التصور الإسلامى، فى هذه المرحلة العمرية يختل توازن عمليات النمو لدى التلاميذ، ووظيفة المنهج هى محاولة إعادة التوازن، والتقليل من الاضطرابات، وتقبل الأوضاع التى تطرأ، والتعمق فى فهم فطرة الإنسان وطبيعته البشرية التى طبعه الله عليها.

وهنا مرحلة اختيار الأصدقاء والأصحاب، وتنمية الولاءات وتنمية مهارات العمل وقوانينه والإحسان فيه، وهنا تظهر أهمية غرس قيم الحرية والمسؤولية، والعلم، والعدل، والوحدة، والجهاد، والتعاون والتراحم والتكافل. . فى هذه المرحلة تظهر المسألة الجنسية بصورة حادة، ومن الخطأ القيام بأى نشاط يؤدى إلى كبت الدوافع الجنسية أو استقذارها، والمطلوب من المنهج هو تهيئة الفرص أمام الطلاب، لتصريف طاقاتهم بالانشغال فى الأعمال المدرسية، والاجتماعية الإيجابية البناءة، فالبيئة الغنية بالأعمال الصالحة تخفف من حدة الجنس إلى حد كبير، ومن المهم هنا أيضا إحاطة التلاميذ بجو نفسى واجتماعى فاضل وتهيئة الفرص أمامهم لتوجيه قواهم وطاقاتهم فى الدراسات الجادة والأعمال النافعة.

خامسًا: أن يكون المحتوى نظريا وتطبيقا:

إن التطور الإسلامى للمعرفة، هو أن تكون نظرية وعملية معًا، فالمعرفة «الذهنية» التى لا تتحول إلى سلوك عملى هى معرفة ميتة لا يعتد بها.

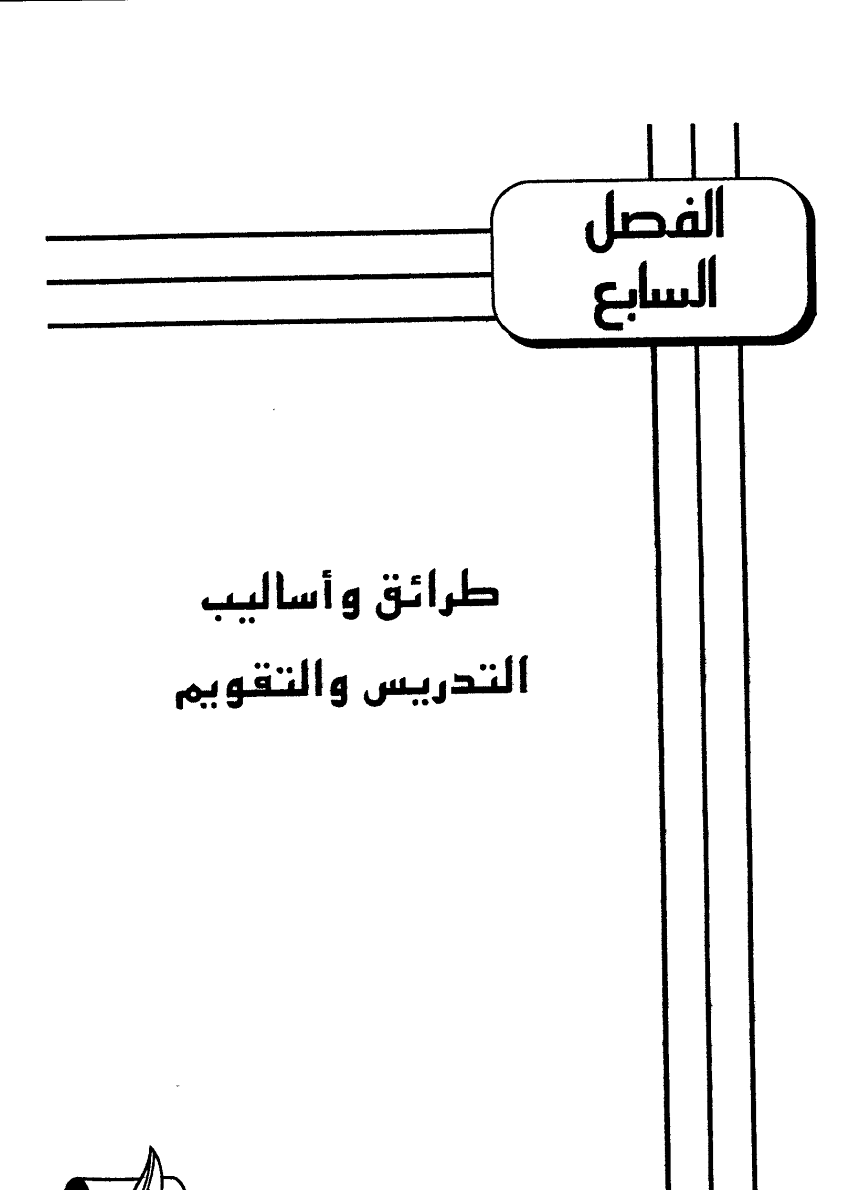
روى ابن سعد فى طبقاته أن أبا عبد الرحمن السلمى قال: «أخذنا هذا القرآن عن قوم أخبرونا أنهم كانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يجاوزهن إلى العشر الأخر، حتى يعلموا ما فيهن، ويعملوا بهن، فكنا نتعلم القرآن والعمل به. . وأنه

سيـرث القـرآن بعدنا قـوم يشربونه شـرب الماء لا يجاوز تراقـيهم، بل لا يـجاوز حلوقهم»!

ودلالة هذا ان المعرفة النظرية المجردة، ليست هى المعرفة التى يعتد بها منهج التربية فى التصور الإسـلامى؛ لأنها معرفة سطحية وميتـة، لا تفعل شيئًا فى واقع الحياة، ولا ترقى سلوك الإنسان، إذن فوجـودها وعدمه سواء، إن هذا يعنى أيضًا أن محـتوى منهج التـربية يجب أن يزود المتـعلمين بالحـقائق والمفاهـيم والمهارات والخبـرات التى تزيد من إيجابيتهم وفـاعليتهم فى القـيام بإعمار الأرض، وترقـية الحياة على ظهرها، وهذا هو مقتضى العبادة، ومقتضى الخلافة فى الأرض.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ ۝٣﴾ [الصف].

إن الإسلام يبتغى الحـركة من وراء المعرفة، ويبتغى أن تستـحيل هذه المعرفة إلى قوة دافعة؛ لتحقيق مدلولها فى عالم الواقع، وبذلك يرتبط الإيمان بالله بتنفيذ منهجه، وترتبط المعرفة بالعمل والسلوك فى واقع الحياة.



الفصل السابع

طرائق وأساليب التدريس والتقويم

طرائق وأساليب التدريس

الكون كله كتاب مفتوح لمنهج التربية فى الإسلام لينهل منه، فجميع الطرق والأساليب والوسائل التى تمكن المربى من تحقيق أهداف منهج التربية الإسلامية. بالحق والعدل، هى طرق سليمة، ويجب عليه اتباعها، سواء ما كان موجوداً منها الآن. أو ما سيوجد فيما بعد.

والأصل الهادى لنا فى هذا المجال قول الرسول ﷺ: **«أنتم أعلم بأمور دنياكم»، وقوله: «الحكمة ضالة المؤمن، حيثما وجدها فهو أحق الناس بها»**.

وعلى هذا الأساس فمنهج التربية فى الإسلام متاح له كثير من الطرق والأساليب ابتداء من طريقة القدوة، وطريقة الوعظ والإرشاد، وطريقة القصة، واستخدام أساليب الثواب والعقاب، وتكوين العادات، والتربية بالأحداث، واستثمار الطاقات الإنسانية من الجهد والوقت إلى طريقة المناقشة، وطريقة حل المشكلات[1].

ولقد استخدم المسلمون معظم هذه الطرق والأساليب فى تعليم الصغار والكبار على مدى القرون. ففى القرن الأول الهجرى، عندما اندفع المسلمون إلى خارج الجزيرة العربية ليضعوا أساس الدولة الإسلامية الكبرى، أقيمت المساجد والمدارس فى كل مكان وصلت إليه الفتوحات. وفى هذه المدارس كان يدرس أصول الفكر الإسلامى، ويبصر الإنسان بحقوقه وواجباته، ويحرر من رق العبودية لغير الله. وكان التعليم فى معظمه يقوم على المناقشة والحوار، والمناظرة، وحل المشكلات[2].

---

(١) على أحمد مدكور: «طريقة المناقشة وأهميتها فى تعليم الكبار» مجلة التربية المستمرة، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، مركز تدريب قيادات تعليم الكبار، يونية ١٩٨٤م، ص ٤٦ -٥٥.

(٢) لمزيد من الضوء على طريقتى «المناقشة، وحل المشكلات» فى التدريس، اقرأ: منهج التربية أسسه ومكوناته، مرجع سابق، الفصل الخاص بطرائق التدريس.

ويجدر القول هنا أن أصول الإسلام الهادية فى هذا الصدد، وممارسة المسلمين لعملية التدريس تعطى انطباعًا مؤكدًا بأن «طريقة المناقشة» التى عبر عنها القرآن بالجدال فى قوله تعالى:

﴿ ... وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ... ﴿١٢٥﴾ ﴾ [النحل].

«وطرق حل المشكلات التى مارسها الرسول ﷺ مع المسلمين، بل ومارسها الله - سبحانه - فى نزول القرآن مع رسوله ومع المؤمنين، هما أفضل طرق التدريس للصغار والكبار، حيث نزل القرآن مجزأ مقسطًا حسب حاجة الناس، وحلاً لمشكلاتهم.

طريقة القدوة:

القدوة هى أفضل وسائل التربية على الإطلاق وأقربها إلى النجاح. فمن السهل تخيل منهج أو تأليف كتاب فى التربية. لكن هذا المنهج يظل حبرًا على ورق ما لم يتحول إلى حقيقة تتحرك فى واقع الأرض، وإلى بشر يترجم بسلوكه وتصرفاته ومشاعره وأفكاره مبادئ هذا المنهج ومعانيه[1]؛ لذلك فعندما أراد الله لمنهجه أن يسود الأرض، ملأ به قلب الإنسان وعقله كى يحوله إلى حقيقة فى واقع الأرض. فكان أن بعث الله محمدا ﷺ ليكون قدوة للناس فى تطبيق هذا المنهج:

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ... ﴿٢١﴾ ﴾ [الأحزاب].

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ ﴾ [الأحزاب].

وهكذا، أرسل الله محمدا ﷺ ليكون قدوة للناس فى تطبيق منهج الله فى واقع الأرض. فكان ﷺ هاديا ومربيًا بسلوكه الشخصى، وليس فقط بالكلام الذى ينطق به قرآنًا أو حديثًا، وعن طريق القدوة بالإضافة إلى القرآن والسنة، أنشأ محمد ﷺ الأمة التى قال الله فيها:

(١) انظر: محمد قطب، مرجع سابق، ص ١٨٠-٢١٥.

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ...﴿١١٠﴾﴾ [آل عمران].

وهكذا، يرى الإسلام أن القدوة هى أعظم طرق التربية، ويقيم منهجه التربوى على هذا الأساس. فلا بد للطفل من قدوة فى والديه ومدرسته كى يتشرب المبادئ الإسلامية ويسير على نهجها، ولابد للكبار من قدوة فى مجتمعهم تطبعهم بطابع الإسلام وتقاليده النظيفة، ولابد للمجتمع من قدوة فى قيادته بحيث يتطلع إليها ويسير على منوالها. ولابد هى أن تكون قدوة الجميع هى شخصية الرسول التى تتمثل فيها كل مبادئ الإسلام وقيمه وتعاليمه.

إن القدوة إذا كانت حسنة فإن الأمل يكون كبيرًا فى إصلاح الطفل، وإذا كانت القدوة سيئة فإن الاحتمال الأرجح هو فساد الطفل. وقدرة الطفل على المحاكاة الواعية وغير الواعية كبيرة جدًا. فهو يلتقط بوعى وبغير وعى كل ما يراه حوله أو يسمعه، فالطفل الذى يرى أباه أو أمه تكذب لا يمكن أن يتعلم الصدق. والطفل الذى يرى أمه تغش أباه أو أخاه أو تغشه هو نفسه لا يمكن أن يتعلم الأمانة. والبنت التى ترى أمها مستهترة لا يمكن أن تتعلم الفضيلة، والطفل الذى يقسو عليه أبواه لا يمكن أن يتعلم الرحمة.

وحين توجد القدوة الحسنة متمثلة فى الأب المسلم، والأم ذات الدين، والمعلم الفاضل، فإن كثيرًا من الجهد المطلوب لتنشئة الطفل على الإسلام يكون ميسورًا وقريب الثمرة فى ذات الوقت، لأن الطفل سيتشرب القيم الإسلامية من الجو المحيط به بطريقة تلقائية. وليس معنى هذا أن الطفل لن يحتاج إلى جهد على الإطلاق فى عملية التربية، أو أنها ستتم تلقائيًّا عن طريق القدوة وحدها، ولكن الذى يمكن قوله هنا، إن القدوة الطيبة هى دائمًا قيمة موجبة، يحذف بإزائها قدر مساو من الجهد الذى يجب بذله.

هذه هى الطريقة التى ربى بها الرسول ﷺ أمة الإسلام الأولى ومن سار على نهجها من التابعين. وقد يكون من المناسب فى هذا الصدد أن نذكر ما كتبه عمرو بن عتبة بن أبى سفيان إلى مؤدب ولده، يقول له: «ليكن أول ما تبدأ به من

إصلاح بنى إصلاح نفسك، فإن أعينهم معقودة بعينك، فالحسن عندهم ما استحسنت والقبح عندهم ما استقبحت، علمهم كتاب الله، ولا تكرههم عليه فيملّوه، ولا تتركهم منه فيهجروه، ثم روّهم من الشعر أعفّه، ومن الحديث أشرفه. ولا تخرجهم من علم إلى علم حتى يحكموه، فإن ازدحام الكلام فى السمع مضلة للفهم. وروِّهم سير الحكماء، وأخلاق الأدباء وجنِّبهم محادثة النساء. وتهدَّدهم بى، وأدبهم دونى. وكن لهم كالطبيب الذى لا يعجل الدواء حتى يعرف الداء، وإياك أن تتكل على عذر منى لك، فقد اتكلت على كفاية منك»[1].

طريقة المناقشة:

إذا نظرنا إلى الموقف التعليمى وجدنا أنه يقوم على أساس الاتصال اللغوى بالدرجة الأولى، وهذا الاتصال يمكن أن يتم فى صور ثلاث: الصورة الأولى: يقوم فيها المعلم بتوجيه الحديث إلى المتعلمين، والصورة الثانية: يقوم المتعلمون بتوجيه الحديث إلى المعلمين، والصورة الثالثة: يتبادل فيها الدارسون والمدرسون الحديث والاستماع إلى بعضهم البعض، وهذه هى المناقشة[2].

وهذه الطريقة من أفضل الطرق وأقربها إلى روح منهج التربية الإسلامية؛ وقد اتبع الرسول الكريم ﷺ هذه الطريقة فى تبليغ رسالته بوحى من الله:

﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ [النحل].

والمناقشة هى أن يشترك المدرس مع المتعلمين فى فهم وتحليل وتفسير وتقويم موضوع أو فكرة أو عمل أو مشكلة ما، وبيان مواطن الاختلاف والاتفاق فيما

---

(١) الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق حسن السندوبى، ج٢، ط٤، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، ١٩٥٦م، ص ٧٥.

(٢) انظر: على أحمد مدكور: طريقة المناقشة وأهميتها فى تعليم الكبار مرجع سابق، ص٤٦ - ٥٥.



بينهم، من أجل الوصول إلى قرار. وعلى هذا فهى من أهم ألوان النشاط التعليمى للكبار والصغار على السواء. وإذا أضفنا إلى ذلك ما تقتضيه الحياة الحديثة من اهتمام بالمناقشة والإقناع، وجدنا أنها يجب أن تحظى بمكانة كبيرة فى المدرسة، فحياتنا بما فيها من تخطيط ومشاورات وانتخابات، ومجالس محلية، أو إقليمية، ونقابات، وما إلى ذلك تقتضى أن يكون كل فرد قادراً على المناقشة كى يستطيع أن يؤدى واجبه كإنسان فى مجتمع كبير أو صغير على أساس من الحرية والعدالة الاجتماعية.

أنواع المناقشة:

تختلف المناقشة تبعًا لاختلاف أهدافها، وعلى هذا فهى نوعان:

١- المناقشة الحرة.

٢- المناقشة الموجهة أو المضبوطة.

فالمناقشة الحرة تهدف إلى الحصول على الأفكار الجديدة والمبتكرة والمفاجئة التى تأتى نتيجة للعصف الذهنى Brainstorming فى قضية ما. وتستخدم هذه الطريقة داخل حجرات الدراسة مع الصغار والكبار على السواء. وهذا النوع من المناقشة فعال فى الوصول إلى التعميمات، والطرق المبتكرة لحل المشكلات.

وتمتاز هذه الطريقة بأنها طريقة الحركة الحرة للعقل، والتى ينتج عنها الكثير من الأفكار والمقترحات حول موضوع أو مشكلة ما، وقد يكون منها العملى جدًا، وقد يكو منها الخيالى بعيد الاحتمال أو الحدوث، فالهدف هنا هو الحصول على كثير من الأفكار دون تدخل من أحد للسيطرة على المناقشة أو توجيهها. ومن عيوب هذه الطريقة أنها تحتاج إلى وقت طويل نسبيًا، وقد تأتى المناقشة إلى نهايتها دون الوصول إلى قرار[١].

وأما المناقشة الموجهة، فهى تهدف إلى الوصول إلى الأفكار والمعلومات أيضًا عن طريق المتعلمين. ولكنها - بالمقابلة إلى المناقشة الحرة - تركز على موضوع

(١) على أحمد مدكور، المرجع السابق، ص ٤٧.

معين، من أجل الوصول فيه إلى قرار. وطبقًا لهذا النوع من المناقشة، فإن المدرس قد يجعل الجماعة كلها تشترك فى النقاش حول الموضوع.

مزايا طريقة المناقشة:

وعلى كل حال، فإن كثيرًا من البحوث التربوية تميل إلى تفضيل طريقة المناقشة فى التدريس للأسباب التالية:

١- «أن طريقة المناقشة تسلم بإيجابية المتعلم وتفرده، وتؤمن بدوره فى العملية التعليمية، وقدرته على التعلم من خلال المناقشة والمشاركة، فالعملية التعليمية هى عملية اتصال تعتمد على المشاركة والتفاعل».

٢- «أن طريقة المناقشة تقتضى أن تكون علاقة المدرس بتلاميذه علاقة قائمة على الاحترام المتبادل، وإيمان المدرس بقدرة الدارسين على المشاركة الإيجابية، وبالطبع فإن المتعلم إذا أحس بذلك زاد نشاطه وزادت فاعليته».

٣- أن طريقة المناقشة أكثر جدوى فى تنمية القيم والاتجاهات العليا فى الجانب المعرفى من طريقة المحاضرة».

٤- «أن طريقة المناقشة تساعد أكثر على اكتساب مهارات الاتصال. وبخاصة مهارات الاستماع والكلام وإدارة الحوار، كما أنها تكسب الدارس أساليب وآداب النقاش القائمة على النظام واحترام الآراء، كما تتيح الفرصة للأفراد من ذوى الاستعدادات القيادية لتنمية هذه الاستعدادات وصقلها».

٥- «أن طريقة المناقشة تتيح للمتعلم الفرصة كى يتحدث فى موضوعات تهمه، ومشاكل تشغله، وبذلك فهو يشعر بقيمة التعلم وأهميته فى حياته فيزداد إقباله عليه وتفاعله مع الأنشطة التعليمية».

٦- «أن المناقشات فى الفصل الدراسى يمكن أن تساعد الطلاب بقوة فى تحليلهم لمشكلاتهم والتعامل معها، واستخلاصهم للنتائج المترتبة على

مناقشاتهم، كما أنها تساعـدهم أيضًا فى اتخاذ القرارات نحو ما يجب عليهـم عمله. هنا يلعب المعلم دور قـائد المناقشـة المساعـد والمعدل لا المستبد المملى على المتعلمين ما يجب عليهم أن يقولوا أو لا يقولوا، أن يفعلوا أو لا يفعلوا».

٧- «أن طريقة المناقشـة تجعل المعلم أكثر إدراكًا لمدى انتبـاه الدارسين ومدى تقبلهم أو عدم تقبلهم لموضوع المناقشـة، فيعمل على تعديله أو العدول عنه، أو التعامل معـه بكيفية أخرى. وقد يساعـد المعلم المتعلمين على تقويم ما يرون آخذين فى الاعتبار موضوع المناقشة الأساسى».

«وجملة القول: إنه طال حـديث المدرس واتجه إلى التأثير المباشـر واستخدام السلطة فى المناقشة، كلما توقفت عملية الاتصال والتفاعل، وأنه كلما اتفق الإطار المرجعى لكل من المدرس والدارس، سـاعد ذلك على نجاح عمليـة الاتصال، وإن الثـقـة المتـبـادلة بين المدرس والدارس تسـاعـد على التـفـاعل وإثراء الخـبـرات التعليمية»[1].

طريقة حل المشكلات:

المشكلة هى: سؤال محـير أو موقف مر بك يجابـه به الشخص، بحيث لا يستطيع الإجـابة عن السـؤال، أو التـصـرف فى الموقـف عن طريق مـا لديه من معلومات أو مفـهومات أو مهارات جاهزة. فالمشكلة توجـد عندما يواجه الشخص بسؤال لم يـواجهه من قـبل، أو عندما يجـابه بموقف غيـر عادى لم يتـعود على مجابهته، وليست لديه معلومات أو مهارات أو طرق وأساليب جاهزة للرد عليه أو التصـرف فيـه بطريقة صحـيحـة. وعليه عندئذ أن يضع كل مـعلوماته ومـهاراته ومفهوماته السابقة فى قالب جديد لم يكن موجودًا لديه من قبل، وعن طريق ذلك قد يستطيع الإجابة عن السؤال أو التصرف فى الموقف، وقد يتطلب الأمر اكتساب

---

(١) المرجع السابق، ص ٤٨ - ٤٩.

معارف ومفهومات ومهـارات جديدة من أجل الوصول إلى الإجابة الصحيحة، أو التصرف السديد فى الموقف الجديد المربك[١].

وعلى هذا فإن الشخص يكون مـواجهًا بسؤال محيـر أو موقف مشكل، إذا توافرت الشروط التالية:

١- أن يكون لدى الشـخص هدف واضح يعيه ويرغب فى تحـقيـقه، وهذا يستلزم ضرورة أن يكون لدى الشخص دافع ورغبة للإجابة على السؤال أو لحل الموقف، وإلا فليست هناك مشكلة.

٢- أن توجد عـوائق وعقـبات فى طريقـة تحقيق الهـدف، وأن تكون أنماط السلوك والاستجابات الاعتيـادية، وكذلك المعلومات والمهارات الجاهزة غير كافية لتخطى هذه العوائق والتخلص من العقبات.

٣- أن يفكر الشخص فى الموقف أو فى السؤال بتروٍّ وتأنٍّ، وأن يستعين فى ذلك بإعادة تنظيم معارفه ومهاراته السابقة، أو بإضافة معارف ومهارات جديدة، حتى يصل إلى فهم أكثر دقة للسؤال أو الموقف.

٤- أن يضع الشخص مجموعة من الحلول أو الفُرضيات المناسبة للموقف أو المشكلة ثم يقوم باختبارها لمعرفة مدى مناسبتها للمشكلة.

وكل ما سبق يعنى أن مـوقفًا ما قد يكون مشكلة لشـخص ما بينما لا يكون كـذلك لشخص آخـر، وذلك حسب رد الفـعل الشـخصى تجـاه الموقف، والذى يتـوقف بالتالـى على خبـرات الشـخص ومعـارفه، ومـهـاراته، وعلى مكونات شخصيته.

طبيعة عملية حل المشكلات:

وعلى كل حـال، فـإن المشكلة تتطلب مـن المتعلـم استـرجـاع المعلومـات والمهارات والمفـهومـات التى تعلمها مـن قبل، واستـخدام كل ذلك فى عـمليات

(١) انظر: عبد الله المغيـرة: طرق تدريس الرياضيات، عمادة شؤون المكتبـات، جامعة الملك سعود ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م، ص ١٢٩ - ١٦٠.

التحليل والتـركيب والاستبـصار، فالمتعلـم يضع نفسه فى قالب جـديد كى يواجه الموقف المشكل الجديد أيضًا.

وتعتبر عملية حل المشكلات من أعقد النشاطات الإنسانية إن لم تكن أعقدها على الإطلاق، فهى عمـلية نشاط عقلى عال؛ لأنهـا تحتوى على عمليـات عقلية كثيـرة ومعقدة، مـثل التذكر، والفهم والتطبـيق والنحليل والتركيب والاستـبصار والتجريد، والتعميم وغير ذلك من العمليات العقلية والمهارية والانفعالية المتداخلة. ولذلك فليس غريبًـا أن يكون التغيـر والتطور السريع والمتلاحق فى العلم والمعـرفة وفى التطبيق التقنى فى العالم ما هو إلا نتيجة لمواجهة المشكلات وحلها.

ويسمى جون ديوى طريقة حل المشكلات - وهى الطريقة العلمية المطبقة فى حل المشكلات الإنسـانية المـمتـدة من المشكلات البسـيطة للحـياة اليـوميـة، إلى المشكلات الاجتماعية المعقدة، إلى المشكلات العقلية المجردة - بأنها طريقة التفكير المنتج.

أهمية طريقة حل المشكلات:

١- وتنبع أهمية طريقة حل المشكلات فى التعليم والتعلم من أنه سلسلة من العمليـات العقليـة والمهارية والوجدانيـة التى نتعلم من خـلالها أفكارًا ومهارات وقـيمًا ومفهـومات جديدة. فالمدرس الواعى يستـخدم طريقة حل المشكلات لا لتطبيق وإيضاح مـفهومات أو تعميمـات سابقة فقط، ولكن أيضًا لاكتشاف مفهومات وتعميمات جديدة.

٢- طريقة حل المشكلات تـزود المتعلم بالفرص المتنوعـة لممارسة مـعلوماته ومهـاراته ومفهـوماته السابقـة. فعن طريق حل المشكلات نتـعلم كيف نحول أو نطور المفهومات والتعميمات السابقة ونستعملها فى مواقف أو مشكلات جـديدة. فممـا لا شك فيه أن انتـقال أثر التـعلم من خلال تطبيـق ما تعلمه الـفرد فى حل المشكلات أيسـر وأعمق من انتـقال أثر التعلم من خلال تعلم معلومات ومفاهيم وتعميمات منفصلة ومجردة.



٣- كما أنها وسيلة لإثارة الفضول العقلى والمتعة، والرغبة لدى المتعلم فى البحث عن الحل، وخاصة إذا كانت المشكلة متصلة بميل أو حاجة لدى المتعلم، أو تثير رغبته فى التحدى.

٤- تنمى الشعور بالثقة والإيجابية، وتجعل المتعلم يثق بقدراته ومهاراته، وتنمى لديه القدرة على المناقشة، والتفكير النقدى وتنمى العلاقة القائمة على الاحترام والثقة بين المدرس والمتعلم.

٥- هى طريقة تقوم على أساس خطوات البحث والتفكير العلمى. ويربط جون ديوى بين طريقة التفكير التام وبين طريقة حل المشكلات على أساس أنها طريقة علمية تعتمد على التفكير التام، ويرى أن هناك خمسة أطوار لإتمام علمية حل المشكلات التى تعتمد على الطريقة العلمية وهى كما يلى:

(أ) تحديد المشكلة.

(ب) التعرف على الحالات والشروط والظروف المحيطة بالمشكلة، عن طريق تحديد العوامل المؤثرة فيها والمتأثرة بها، وجمع كل المعلومات المتصلة بها، مما يؤدى إلى فهم المشكلة وتحديدها بصورة أكثر دقة.

(جـ) وضع فرضيات للحلول الممكنة لهذه المشكلة.

(د) دراسة كل فرضية من هذه الفرضيات على أساس القيمة المحتملة لكل منها، وعلى أساس التنبؤ بالنتائج المحتملة لكل حل.

(هـ) اختبار صحة كل فرضية أو حل، على أساس السؤال الآتى: ماذا يمكن أن يحدث لو فعلنا كذا أو كذا؟، ثم اختيار الفرضية التى تنتج الحل الأمثل وفقًا للإجابة عن هذا السؤال[1].

---

(١) انظر: محمود أحمد شوق: الاتجاهات الحديثة فى تدريس الرياضيات، الرياض، دار المريخ للنشر ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩م، ص ٢٠١ - ٢١٩.

طريقة الملاحظة والتجربة:

المنهج الإسلامى يستوعب كل وسيلة كـريمة من الوسائل المعينة على التعليم والتعلم، قـديمة أو حديثة، طالما أنهـا تسهل عمليـة التعليم، وتساعد على تنـفيذ المنهج:

﴿ ... وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ... ﴿٧٨﴾ ﴾ [الحج].

ولا ريب أن إنشاء جسر بين عالم المعانى والأفكار النظرية وعـالم المدركات الحسيـة من الأمور الأساسيـة فى عملية التـعلم، منهج استخدام الوسـائل قديم، استخدمـه الحق ـ سبحانه ـ فى تعليم أبناء آدم. ويعرض لنا القـرآن الكريم مشهدًا من مشاهد استـخدام الوسائل التعليمية فى تعليم ابنـى آدم: قابيل وهابيل، فعندما قتل قابيل هابيل، أرسل الله له غرابًا ليعلمه كيف يوارى سوأة أخيه:

﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَىٰ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [المائدة].

هذا الحادث وقع فى فـترة الطفـولة الإنسانية، حـيث كان أول حـادث قتل متعمد وكان الفاعل فيه لا يعرف طريقة دفن الموتى.

وفى هذه الحادثة خـسر القاتل نفسـه، فأورده مورد الهلاك، وخـسر أخاه؛ ففقد الناصر والرفـيق، وخسر دنياه، فما تهنأ له حياة، وخسـر آخرته، فباء بإثمه الأول، وإثمه الأخير.

والقصة تـقدم نموذجًا لطبيعـة الشر والعدوان، ونموذجًا كـذلك من العدوان الصارخ الذى لا مـبرر له، وتثـير الشـعور بالحاجـة إلى شريعـة نافذة بالقـصاص العادل.

وفى القصة هنا تمثيل لسوأة الجريمة فى صورتها الحـسية. صورة جثة فارقتها الحياة، وأصبحت لحمًا يسرى فيه العفن، فهى سوأة لا تطيقها النفوس[١].

---

(١) انظر سيد قطب: فى ظلال القرآن، مرجع سابق، جـ ٦، ص ٨٧٧.

وشاءت حكمة الله أن تضع القاتل أمام عجزه، فرغم أنه قاتل جبار، إلا أنه عاجز عن أن يوارى سوأة أخيه، عاجز عن أن يكون كالغراب فى أمة الطير.

﴿ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَىٰ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [المائدة].

ومثال آخر فى إبراز المعانى، وإنشاء التصور الصحيح للمنهج الإسلامى فى ضمير المسلم عن طريق الحقائق الكونية التى تطالع الأنظار والمدارك كل يوم، نرى ذلك فى الحوار الذى دار بين إبراهيم عليه السلام وملك من ملوك أيامه يجادله فى الله:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ ﴾ [البقرة].

فالآية - كما نرى - تمثل مشهدًا لحوار بين إبراهيم عليه السلام وأحد الملوك، والمشهد يعرض على الرسول ﷺ وجماعة المسلمين من خلال التعبير القرآنى العجيب.

وهذا الملك الذى يجادل إبراهيم فى ربه، ليس منكرًا لوجود الله أصلاً، إنما هو منكر لوحدانيته ولتصريفه للكون وتدبيره لما يجرى فيه وحده، كما كان الحال لدى بعض الناس فى الجاهلية؛ يعترفون بوجود الله ولكنهم يجعلون له أندادًا ينسبون إليها فاعلية وعملاً فى حياتهم ﴿ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾.

فالإحياء والإماتة ظاهرتان معروضتان لحس الإنسان وعقله فى كل يوم وكل لحظة. فرد الملك على إبراهيم قائلاً: أنا سيد هؤلاء القوم، وأنا المتصرف فى شأنهم فأنا إذن الرب الذى يجب عليك أن تخضع له، وتسلم بحاكميته:

﴿ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ﴾!

وعندئذ عدل إبراهيم عن طريقة العرض المجرد للسنة الكونية والصفة الإلهية فى قوله: ﴿ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾.. إلى طريقة التحدى، حتى يعرف الملك أن

الرب ليس حاكم قوم ما، فى ركن من أركان الأرض، وإنما هو مصرف هذا الكون كله: قال إبراهيم: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾.. وهذه حقيقة كونية تطالع الأنظار والمدارك كل يوم دون تخلف أو تأخر، وهو تحد يخاطب الفطرة، ويتحدث بلسان الواقع الذى لا يقبل الجدل: ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾..

والمثال القادم هو مشهد حى مرسوم بالكلمات، والمشهد تجسيد لمشاعر رجل مر على قرية محطمة، فجال فى شعوره سؤال حائر: كيف تدب الحياة فى هذا الموات؟

﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٥٩)﴾ [البقرة].

إن المشهد هنا ليرتسم للحس قويًّا واضحًا موحيًا. مشهد الموت والبلى والخواء.. يرتسم بالوصف: ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ محطمة على قواعدها، ويرتسم من خلال مشاعر الرجل الذى مر على القرية، هذه المشاعر المتجسمة فى تعبير: ﴿أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ كيف تدب الحياة فى هذا الموات؟.

﴿فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ﴾.

لم يقل له كيف، إنما أراه فى عالم الواقع كيف. فالمشاعر قوية، وعنيفة لدرجة أنها لا تجب أن تعالج بالبرهان العقلى.. وإنما يكون العلاج بالتجربة الشخصية الذاتية المباشرة، التى يمتلىء بها الحس ويطمئن بها القلب، دون كلام!

﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾. ﴿قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ﴾.

وتبعًا لطبيعة التجربة، وكونها تجربة حسية واقعية، فلابد أن تكون هناك آثار محسوسة تصور مرور مائة عام، هذه الآثار لم تكن فى طعام الرجل ولا شرابه فلم يكونا آسنين متعفنين: ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾.



﴿وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾.

لقد تعرت وتفسخت عظام الحمار، ثم كانت الخارقة هي ضم هذه العظام بعضها إلى بعض، وكسوتها باللحم وردها إلى الحياة، على مرأى من صاحبه الذى لم يمسسه البلى، ولم يصب طعامه ولا شرابه التعفن، ليكون هذا التباين فى المصائر، والجميع فى مكان واحد، معرضون لمؤثرات جوية وبيئية واحدة، آية أخرى على القدرة التى لا يعجزها شىء، والتى تنصرف مطلقة من كل قيد، وليدرك الرجل كيف يحيي هذه الله بعد موتها[1]!

ثم تجيء تجربة إبراهيم مع ربه:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٦٠)﴾ [البقرة].

إن هذا السؤال من إبراهيم لا يتعلق بوجود الإيمان وثباته وكماله فى نفسه، وليس طلبًا للبرهان او تقويه للإيمان، بل هو تشوق إلى ملابسة سر الصنعة الإلهية: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾، إنه الشوق إلى رؤية السر الإلهى أثناء وقوعه العملى، لقد أراد إبراهيم أن يرى يد القدرة وهى تعمل، «ليحصل على مذاق هذه الملابسة فيتروح بها، ويتنفس فى جوها، ويعيش معها»[2]. لم يكن السؤال إذن من أجل تأكيد الإيمان، فقد كان الله يعلم حقيقة الإيمان لدى عبده وخليله إبراهيم، ولقد استجاب الله لهذا الشوق والتطلع من قلب إبراهيم، ومنحه التجربة المباشرة، أو الخبرة المباشرة: قال:

﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

---

(١) المرجع السابق، جـ٣، ص ٣٠٠.

(٢) المرجع السابق، ص ٣٠٢.

لقد أمر الله إبراهيم أن يختار أربعة من الطير، فيقربهن منه وينظر إليهن ليتأكد من أشكالهن وصفاتهن ومميزاتهن بحيث لا يخطئ فى التعرف عليهن بعد ذلك، وأن يذبحهن ويمزق أجسادهن، ويفرق أجزاءهن على الجبال المحيطة، ثم يدعوهن، فتتجمع أجزاؤهن مرة أخرى، وترتد إليهن الحياة، ويعدن إليه ساعيات... ففعل، وقد كان.

لقد رأى إبراهيم السر الإلهى يقع بين يديه.. طيور فارقتها الحياة، وتفرقت أجزاؤها فى أماكن متباعدة، تدب فيها الحياة مرة أخرى، وتعود إليه سعيًا وهو سر نحن نرى آثاره بعد تمامه كل يوم، ولكننا لا ندرك طبيعته، ولا نعرف طريقته، إنه من أمر الله[1].

إن الصور والمشاهد والتجارب المباشرة السابقة تؤكد لنا أن الوسائل قد استخدمت منذ زمن مسرف فى القدم... منذ طفولة الإنسانية.

التصوير الفنى:

القرآن كتاب الله الخالد إلى العالمين، وهو كتاب الله إلى الإنسانية جمعاء، ليهديها، ويرشدها، ويعلمها، فهو كتاب الله إلى الإنسان الفرد ليهديه ويعلمه ويزيح البلادة التى تزحف على عقله وقلبه من آن لآخر، لقد استخدم القرآن الوسيلة فى عملية الهداية والتعلم، وضرب المثل، وقص القصة، وصور الوقائع، واستخدم الصور المجسمة، واللوحات الناطقة، والمشاهد المعبرة، والمواقف الصاخبة، وعبر عن الحالات النفسية، والنماذج الإنسانية، وأخرج المعانى المجردة فى صورة شاخصة متحركة، وعبر عن الفكرة الذهنية فى صورة مرسومة مصورة.. نعم، فعل كل هذا وفعله بالكلمة فقط!

وهنا يحدثنا المرحوم الأستاذ سيد قطب عن «التصوير الفنى فى القرآن» وسنقتبس منه بعض النماذج التى عرضها فى كتابه القيم «التصوير الفنى فى القرآن»[2].

(١) المرجع السابق.

(٢) سيد قطب: التصوير الفنى فى القرآن، مرجع سابق، ص ٣٦ وما بعدها.



يقول: التـصوير هو الأداة المفضلة فى أسلوب القـرآن، فهو يعبـر بالصورة المحسـة المتخـيلة عن المعنى الذهنى، والحالة النـفسيـة، وعن الحادث المحـسوس، والمشهـد المنظور، وعن النموذج الإنسانى، والطبـيعة البشـرية، ثم يرتقى بالصور التى يرسمها فيمنحها الحياة الشاخصة، أو الحركة المتجددة، فإذا المعنى الذهنى هيئة أو حركة، وإذا الحالة النـفسية لوحة أو مشهـد، وإذا النموذج شاخص حى، وإذا الطبيعة البشرية مجسمة مرئية، فأما الحوادث والمشاهد، والقصص والمناظر، فيردها شاخصة حاضرة فيـها الحياة وفيها الحركة، فإذا أضاف إليهـا الحوار فقد استوى لها كل عناصر التخيل. فما يكاد يبث العرض حـتى يحيل المستمعين إلى نظارة، حتى ينقلهم نقلاً إلى مسـرح الحوادث الأول، الذى وقعت فيه أو ستـقع، حيث تتوالى المناظر، تتـجدد الحـركات، وينسى المسـتمع أن هذا كـلام يتلى، ومثل يـضرب، ويتخيل أنه منظر يعرض، وحادث يقع. فهذه شخوص تروح على المسرح وتغدو، وهذه سـمات الانفـعال بشـتى الوجـدانات، المنبعـثـة من الموقف، المتسـاوية مع الحوادث، وهذه كلمات تتحرك بها الألسنة، فتنم عن الأحاسيس المضمرة.

«إنها الحيـاة هنا، وليست حكاية الحياة، فإذا مـا ذكرنا أن الأداة التى تصور المعنى الذهنى والحالة النفسيـة، وتشخص النموذج الإنسانى أو الحادث المروى، إنما هى ألفـاظ جامـدة، لا ألوان تصـور، ولا شخـوص تعـبر، أدركنا بعض أسـرار الإعجاز فى هذا اللون من تعبير القرآن».

إن التصوير هو الأداة المفضلة، فى أسلوب القرآن، فليس هو حلية أسلوب، ولا فلـتـة تقع حيـثمـا اتفق، إنما هو مـذهب مقـرر، وخطة موحدة وخـصيـصة شاملة.

«ويجب أن نتوسع فى مـعنى التصوير، حتى ندرك آفاق التـصوير الفنى فى القرآن، فهو تصوير باللون، وتصوير بالحركـة، وتصوير بالتخييل، كما أنه تصوير بالنغمة تقوم مقام اللون فى التمثـيل، وكثيراً ما يشترك الوصف، والحوار، وجرس الكلمات، ونغم العبارات، وموسيقى السياق، فى إبراز صورة من الصور، تتملاها العين والأذن والحس والخيال، والفكرة والوجدان».

«وهو تصوير حى منتزع من عالم الأحياء، لا ألوان مجردة وخطوط جامدة، تصوير تقاس فيه الأبعاد والمسافات، بالمشاعر والوجدانات، فالمعانى ترسم وهى تتفاعل فى نفوس آدمية حية، أو فى مشاهد من الطبيعة تخلع عليها الحياة»[1].

والآن نختار بعض الأمثلة لتوضيح ما سبق:

إخراج المعانى الذهنية فى صورة حسية:

١- يريد الله أن يبين أن قبول الذين كفروا عند الله، ودخولهم الجنة أمر مستحيل، هذا المعنى الذهنى المجرد يعرضه الله - سبحانه - فى أسلوب تصويرى أخاذ كما يلى:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ... (٤٠) ﴾ [الأعراف].

ويدعك ترسم بخيالك صورة لتفتح أبواب السماء، وصورة أخرى لولوج الحبل الغليظ «الجمل» فى سم الخياط، ويدع للحس أن يتأثر عن طريق الخيال بالصورتين معًا ليستقر فى النهاية استحالة قبول الكفار عند الله، واستحالة دخولهم الجنة، ويستقر هذ المعنى فى أعماق النفس، وقد ورد إليها - تصويرًا - عن طريق العين والحس.

٢- ويريد الله أن يبين للناس أن الصدقة التى تبذل رياء، والتى يتبعها المن والأذى. لا تثمر شيئًا ولا تبقى، فينقل إليهم هذا المعنى المجرد فى صورة حسية متخيلة على النحو التالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا ... (٢٦٤) ﴾ [البقرة].

(١) المرجع السابق، ص٣٦ - ٣٨.

فالمن والأذى يمحق الـصدقة، ولا يبقى لها أثرًا تمامًـا كهيئـة الحجر الصلب المستوى الذى غطته طبقة من التـراب فظن فيه الخصب والنماء، فإذا وابل من المطر يصيبه فيتركه صلدًا. ثم يمضى القرآن فى التصوير لإبراز المعنى المقابل لمعنى الرياء ومعنى الذهاب بالصدقة التى يتبعها المن والأذى:

﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ... ﴿٢٦٥﴾ ﴾ [البقرة].

هنا الوجه الثانى للصورة، فالصدقـات التى تنفق ابتغاء مرضاة الله، هى فى هذه المرة كالجنة، والجنة فوق ربوة عالية، ورغم أن الوابل مشترك بين الحالتين، إلا أنه فى الحالة الأولى مـحا ومحق، وفى الحـالة الثانية أربى وأخـصب، وفى الحالة الأولى يصيب الصفوان فيكشف عن وجه كـالح كالأذى، وفى الحالة الثانية يصيب الجنة، فيمـتزج بتربتها الخـصبة فيخرج الـثمار الوفير، وهى يكفـيها الندى القليل ليبعث فيها الحياة[1].

٣- ومن يشـرك بالله لا منبت له ولا جـذور، ولا أمن له ولا اسـتقـرار، يصور القرآن هذا المعنى بصورة سريعة الخطوات، عنيفة الحركات:

﴿ ... وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ﴾ [الحج].

هكذا فى لحظة، يخر من الســماء من حيث لا يدرى أحد، فلا يسـتقر على الأرض، بل تتخطفـه الطير أو تهـوى به الريح فى مكان سحـيق، حيث لا يدرى أحد كذلك.

٤- ويصور الحالة النفـسية للإنسان المتـزعزع العقيدة، الذى لا يسـتقر على يقين ولا يحتمل ما يصادفه من الشدائد بقلب راسخ، ولا يبتعد بعقيدته عن ميزان الربح والخسارة. يرسم القرآن لهذه الحالة النفسية صورة تهتز وتترنح وتوشك على الانهيار:

---

(١) المرجع السابق، ص٤٠.

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ... ﴿١١﴾ ﴾ [الحج].

التخييل الحسى والتجسيم:

وهكذا نرى أن قليلاً من صور القرآن الذى يعرض صامتًا ساكنًا - لغرض فنى يقتضى الصمت والسكون - أما أغلب الصور ففيه حركة مضمرة أو ظاهرة، حركة يرتفع فيها نبض الحياة، وتعلو بها حرارتها.. هذه الحركة.. حركة حية مما تنبض به الحياة الظاهرة للعيان، أو الحركة المضمرة فى الوجدان، هذه الحركة هى التى تسمى «التخييل الحسى» وهى التى يسير عليها التصوير فى القرآن لبث الحياة فى شتى الصور مع اختلاف الشيات والألوان.

«وظاهرة أخرى تتضح فى تصوير القرآن وهى (التجسيم): تجسيم المعنويات المجردة، وإبرازها أجسامًا أو محسوسات على العموم»(1).

١- ومن التخييل ما يمكن تسميته «التشخيص»، ويتمثل فى خلع الحياة على المواد الجامدة، والظواهر الطبيعية، والانفعالات الوجدانية.

ومن المناظر الطبيعية المتحركة فى الجو، فى خطوات، يمثل كل منها مشهدًا:

﴿ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ﴾ [الروم].

هكذا مشهد بعد مشهد: إرسال الرياح، إثارة السحاب، بسطه فى السماء، جعله متراكمًا، خروج المطر من خلاله، نزول المطر، استبشار من يصيبهم بعد أن كانوا يائسين، إحياء الأرض بعد موتها.

وهذه هى الشمس والقمر والليل والنهار فى سباق دائم لا يفتر ولا يتوقف:

---

(١) المرجع السابق، ص ٧٢ - ٧٣.

﴿ لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ... ﴿٤٠﴾ ﴾ [يس].

وهذه هى الأرض «هامدة» مرة، و«خاشعة» مرة، ينزل عليها الماء فتهتز وتحيا: ﴿ ... وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ﴾ [الحج].

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ... ﴿٣٩﴾ ﴾ [فصلت]. وهكذا تستحيل الأرض الجامدة، كائنًا حيا بلمسة واحدة فى لقطة واحدة.

٢- أما التجسيم فهو لون من ألوان التصوير الفنى فى القرآن، ومنه كل التشبيهات التى جىء بها لإحالة المعانى والحالات صورًا وهيئات، ومن هذا النوع:

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ ﴾ [إبراهيم].

وبعد أن عرضنا أكثر الطرائق والأساليب شيوعًا فى التدريس، ولبعض الطرائق والأساليب المقترحة الأخرى التى نعتقد فى أهميتها وفائدتها، نود أن نؤكد أن فاعلية أية طريقة وتأثيرها يختلف باختلاف أنواع ومستويات الأهداف التى نسعى إلى تحقيقها، وباختلاف طبيعة المادة أو المحتوى الذى نتناوله، وبمدى كفاءة المعلم وحذقه فى استخدام الطريقة، وباختلاف نوعيات وأعداد التلاميذ، وبمدى توافر البيئة المدرسية المناسبة والتجهيزات المناسبة.

ولكل ما سبق، فنحن نعتقد أنه لا توجد طريقة مثلى تصلح فى كل المواقف ولتحقيق كل الأهداف، فطريقة المناقشة - مثلاً - قد تصلح لبعض المواقف التى لا تنفع فيها طريقة المحاضرة، والتعليم المصغر قد يصلح فى مواقف لا يفيد فيه استخدام التعليم بالفريق، ولا بد من اختيار الطريقة المناسبة لنوعية ومستويات الأهداف، ونوعيات ومستويات المتعلمين، ونوعية وطبيعة المادة التعليمية... إلى آخره، ولا بأس من المزج بين أكثر من طريقة حسب متطلبات الموقف التعليمى.

التقويم

يعرف التقويم بأنه عملية جمع بيانات أو معلومات عن ظاهرة، أو عمل، أو موقف، أو سلوك، وتحليلها، وتفسيرها، وتقويمها، فى ضوء معايير معينة، بقصد استخدامها فى إصدار حكم، أو اتخاذ قرار.

والتقويم - بهذا المفهوم - عملية تتم وفق معايير. فهل الإسلام يحكم على عمل الفرد فى ضوء مستويات عمل الجماعة؟ أم أن هناك مستويات للأداء لا بد أن يصل كل فرد فى عمله إليها، بصرف النظر عن مستويات الجماعة كلها؟

إننا نقرأ قول الله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً ﴿٣٠﴾﴾ [الكهف].

ونقرأ قول الرسول ﷺ: **«إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه»** فالجزاء على العمل معيار فى الإسلام ليس مجرد العمل، وإنما الإحسان فيه، والإحسان فى العمل يتطلب توافر شرطين: أقصى درجات المهارة فى العمل، والاتجاه فيه إلى الله. فشرط قبول الله للعمل، أن يكون متقنًا وأن تكون النية فيه خالصة لله. إذن فالإتقان والإخلاص هما المحك الذى يقبل أو يرفض عمل المؤمن فى ضوئه.

نلخص من هذا إلى أن التقويم فى التصور الإسلامى هو عملية تشخيص وعلاج للموقف التربوى. وهو يتم وفق معايير محددة أو مستويات محددة للأداء، وهى ما يمكن التعبير عنها بالأهداف التربوية المحددة للعمل سلفا[١].

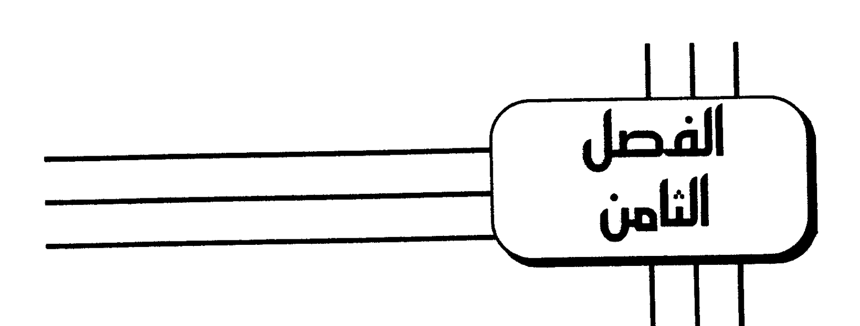
إذن فالإسلام لا يقوم عمل العامل على أساس مقارنته بعمل الجماعة، أو المستوى الذى وصلت إليه أعمال المجموعة؛ لأن هذا قد يعنى الرضا بنجاح

---

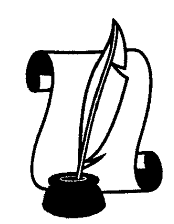
(١) لمزيد من الضوء عن التقويم فى التصور الإسلامى، انظر: «منهج التربية فى التصور الإسلامى» للمؤلف، فصل التقويم.

التلاميذ دون الوصـول إلى مستوى الأداء المتقن، أو مستـوى الإحسان فى العمل. وهذا يؤدى بالضرورة إلى انخفاض مستوى حياة الجماعة وتخلفها.

وتقاس دقة وسائل التـقويم هنا بمدى صدقها فى قيـاس أداء المتعلم، لمعرفة قربه أو بعده عن مستويات الأداء المطلوبة، والتى تمثل الأهداف التعليمية للمنهج أو البـرنامج أو الوحـدة أو الدرس. وفى ضـوء هذه المستـويات أو الأهداف يصـدر الحكم، ويتخذ القرار تجاه العامل أو أدلاء المتعلم، صغيرًا كان أم كبيرًا، وعلى هذا الأساس يتخذ قرار التطوير.



نظريات المناهج العلمانية الغربية





بين يدى النظريات العلمانية

سبق أن قلنا إن «العلمانية» ترجمة للمصطلح الإنجليزى Secularism بمعنى العالمى والدنيوى والواقعى. من العالم، والدنيا، والواقع. وهو يقابل «المقدس» أى الدينى أو الكهنوتى. والعلمانية فى السياق الأوروبى الذى نشأت فيه تعنى النزعة الدنيوية، والمذهب الواقعى فى تدبير العالم من داخله، وليس بشريعة من ورائه.

والعلمانية كمذهب فى المرجعية الدنيوية وكنزعة فى تدبير شؤون العالم، لا يمكن فهمها - كما يقول الدكتور محمد عمارة - بمعزل عن الملابسات الأوروبية لنشأتها فى إطار الحضارة الغربية بجذورها الإغريقية الفلسفية وتراثها المسيحى[1].

لقد أنزل الله الإنجيل على عيسى لهداية الناس إلى خير الدنيا والآخرة، لكن الكنيسة تجاوزت عبر قرون طويلة رسالة السماء، واستولت على السلطة تحت حكم البابوات الأباطرة أو الملوك الذين يوليهم ويباركهم البابوات، وبالغت حتى ثبتت متغيرات الاجتماع الإنسانى، وعرف هذا النظام فى التاريخ الأوروبى بنظام «الحق الإلهى للملوك»، واعتدى الحكام على الناس باسم الله، فكانت النتيجة أن دخلت المجتمعات الأوروبية مرحلة الجمود والانحطاط والعصور المظلمة.

فى مواجهة هذا النظام وما أثمره من انحطاط حضارى، جاءت «الثورة العلمانية» التى فجرتها فلسفة التنوير الأوروبى القائمة على التراث الإغريقى القديم، وعلى عقلانية التنوير الأوروبى الحديث التى أحلت «العقل» و«التجربة» محل «الدين» و«اللاهوت» وأحدثت الفصام النكد بين الكنيسة والحياة.

---

(١) محمد عمارة: الإسلام والعلمانية، جريدة الأخبار فى ٦/ ٢/ ٢٠٠٤م انظر: الدكتور محمد عمارة: نهضتنا الحديثة بين العلمانية والإسلام، القاهرة دار الرشاد، الطبعة الثانية، ١٤١٧ هـ ١٩٩٦م.

وانطلقت العلمانية من فلسفة أن العالم مكتف بذاته، تدبره الأسباب المخلوقة فى ظواهره وقواه الطبيعية، دونما حاجة إلى رعاية إلهية، أو تدبير شرعى نازل مما وراء الطبيعة والعالم. فالمرجعية فى تدبير العالم إنسانية خالصة، ومن داخل العالم، دونما تدخل من شريعة سماوية أو وحى من الله[1].

وهكذا حدثت قطيعة معرفية بين الوحى وبين المعرفة، فلم يعد الإنسان يخضع إلا لعقله، وأصبح حكم الله خاضعا لحكم العقل البشرى، الذى يطلق الأحكام باسم الحرية، وهكذا تم عزل السماء عن الأرض، والدين عن الدنيا، وإحلال الإنسان محل الله فى تدبير العمران البشرى!

والعلمانيون نوعان: نوع مادى ملحد، لا يعترف بوجود الله أصلا، ولا يؤمن بالدين، ولقد انتهى الأمر بأنصار هذا النوع أن صنعوا للناس دينا من عنديات أنفسهم.

والنوع الثانى هو التيار المؤمن بالله. ومن أبرز المفكرين فى هذا التيار هوبز (١٥٨٨-١٦٧٩م)، وجون لوك (١٦٣٢-١٧١٦)، وليبنز (١٦٤٦-١٧١٦)، وروسو (١٧١٢-١٧٧٨)، وليسنج (١٧٢٩-١٨٧١). وقد استطاع المفكرون فى هذا التيار التوفيق بين الإيمان بوجود إله خالق للعالم، وبين الفكرة العلمانية التى ترى أن العالم مكتف بذاته، فتحصر تدبير الاجتماع البشرى فى سلطة البشر المتحررة من شريعة الله.

ولقد كان التوفيق مؤسسًا على التصور الأرسطى لنطاق عمل الذات الإلهية. . فالله - فى التصور الأرسطى - واحد وخالق للعالم. لكنه قد أودع فى العالم والطبيعة الأسباب التى تدبرهما تدبيرًا ذاتيا، دونما حاجة إلى تدخل إلهى أو رعاية إلهية فيما بعد مرحلة الخلق. وعناية الله موقوفة على ذاته، ولا تَدَخُّل له فى الأحداث الجزئية للعالم والطبيعة. فالعالم مكتف بذاته، تدبره الأسباب المودعة فيه، وهو وحده مصدر المعرفة الحقة، القابلة للبرهنة والتعليل، والإنسان بعقله وتجربته هو المرجع فى تدبير شؤون الدنيا، دون رعاية أو تدخل من الله!!

---

(١) محمد عمارة: الشريعة الإسلامية والعلمانية الغربية، القاهرة، دار الشروق، ط١، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م، ص١٧ - ١٨.



فالله - فى التصور العلمانى المؤسس على الفكر الأرسطى - مجرد خلق، فرغ من الخلق، وانحصرت عنايته بذاته، دونما رعاية أو تدبير للمخلوقات. فهو - سبحانه - كصانع الساعة، الذى أودع فيها أسباب عملها، دون حاجة لوجوده معها وهى تدور![1].

ولقد ساعد العلمانية على الانتصار لهذه النزعة، التصور المسيحى المنحرف لعلاقة الدين بالدولة؛ فهو تصور - على خلاف الأصل فيه - يدع ما لقيصر لقيصر، وما لله لله، فهو يقف بالدين عند خلاص الروح ومملكة السماء، دون أن يقدم شريعة للمجتمع والدولة؛ لذلك اعتبرت الحركة التنويرية أن «سجن» الدين فى الكنيسة وفى الضمير الفردى «ثورة تصحيح دينى» وليس عدوانا على الدين!

وساعدها على ذلك أيضا أن التراث الرومانى فى فلسفة التشريع والتقنين قد جعل «المنفعة» غير المحكومة بالدين وشريعته السماوية وأخلاقياته هى المعيار، فكان الطريق إلى القانون الوضعى مفتوحًا أمام العلمانية بتزكية ومباركة من هذا التراث.

على هذ الأساس من الفكر العلمانى قامت نظريات المناهج الغربية: الجوهرية الإنجليزية، والموسوعية الفرنسية، والبراجماتية الأمريكية النفعية، والتطبيقية ذات الأصول الماركسية اللينينية. وسنعرض لهذه النظريات على التوالى فيما يلى.

---

(١) محمد عمارة: الإسلام والعلمانية، جريدة الاخبار، فى ٦/ ٢/ ٢٠٠٤م.



نظريات المناهج الغربية[1]

منهجية التناول:

فى هذا الفصل والفصلين التاليين سوف أتناول تطور نظريات المناهج التربوية العلمانية فى العـالم التى تندرج تحت المدرستين: المدرسة الإنسـانية والمدرسة المادية السلوكيـة، وذلك من خلال تحديد وتحليل وتفسـير نظريات المناهج الرئيسـية التى اقترح فكرتها بريان هولمز B.Holmes فى نشرة المكتب العالمى للتربية التى صدرت فى باريس عام ١٩٧٤م[٢]. لقد اقترح هولمز أن هناك أربع نظريات رئيسية للمناهج تحكم معظم الممارسات التربوية فى العالم. وهذه النظريات المنهجية هى:

١- النظرية الأساسية أو الجوهرية Essentialism.

٢- النظرية الموسوعية Encyclopaedism.

٣- النظرية العملية Pragmatism.

٤- النظرية التطبيقية Polytechnicalisation.

وفى تحديـدنا لنظريات هاتين المدرستـين، سيـتم التركـيز أولاً على تحـقيق الأسس الفلسـفيـة والأيديولوجيـة التى على أساسـها بنـيت كل نظرية من هاتين النظريتـين ومن هذه الأسس الفلسفـية سـوف تشتق المبـادئ النظرية ثم توضع فى صورة أكثر تحديداً ووضوحًا عن طريق عرض أهـدافها العامة، ومحتواها، وطرائق وأساليب تدريسها، وطرائق وأساليب تقويمها.

---

(١) نظريات المناهج الغربية التى سترد فى الفصول التـالية معظمها مترجم عن بحث للمؤلف باللغة الإنجليزية بعنوان: The General Curriculum Theories

(٢) انظر: Holmes. B. Curriculum Innovation at the Second levl of Education, Paris Unesce ,IBE. No, 190,1974.



بين التصور الفلسفى والتصور الإسلامى:

هنا لا بد أن يدرك القارئ أن التصور الإسلامى السابق لمناهج التربية، هو تصور اعتقادى ربانى. أما النظريات التى ستعرض فى الفصول التالية من هذا الكتاب، فهى نظريات تربوية تقوم فى عمومها على تصورات اعتقادية بشرية، أو على تصورات فلسفية من صنع الفكر البشرى. من أجل ذلك يلزم التفريق بين التصور الاعتقادى الإسلامى من جانب، وبين التصور الاعتقادى عمومًا، والتصور الفلسفى على وجه الخصوص من جانب آخر.

«إن التصور الإسلامى هو التصور الاعتقادى الوحيد الباقى بأصله «الربانى» وحقيقته «الربانية» فالتصورات الاعتقادية السماوية التى جاءت بها الديانات قبله، قد دخلها التحريف فى صورة من الصور.. وقد أضيفت إلى أصول الكتب المنزلة، شروح وتصورات وتأويلات وزيادات، ومعلومات بشرية، أدمجت فى صلبها، فبدلت طبيعتها «الربانية» وبقى الإسلام وحده - محفوظ الأصول لم يشب نبعه الأصيل كدر، ولم يلبس فيه الحق بالباطل، وصدق الله وعده فى شأنه:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر].

«ومفرق الطريق بين التصور الفلسفى والتصور الاعتقادى - بصفة عامة - أن التصور الفلسفى ينشأ فى الفكر البشرى - من صنع هذا الفكر - لمحاولة تفسير الوجود وعلاقة الإنسان به. ولكنه يبقى فى حدود المعرفة الفكرية الباردة. فأما التصور الاعتقادى - فى عمومه - فهو تصور ينبثق فى الضمير، ويتفاعل مع المشاعر، ويتلبس بالحياة. فهو وشيجة حية بين الإنسان والوجود - أو بين الإنسان وخالق الوجود.

«ثم يتميز التصور الإسلامى بعد ذلك عن التصور الاعتقادى -فى عمومه- بأنه تصور ربانى، صادر من الله للإنسان، وليس من صنع الإنسان، تتلقاه الكينونة الإنسانية بجملتها من بارئها، وليست الكينونة الإنسانية هى التى تنشئه،

كما تنشىء التصور الوثنى، أو التصور الفلسفى - على اختلاف ما بينهما - وعمل الإنسان فيه هو تلقيه وإدراكه والتكيف به، وتطبيق مقتضياته فى الحياة البشرية»[1].

إن العلمانية - كما سبق أن بينا - تعنى عزل السماء عن الأرض، وإحلال العقل الإنسانى محل الشرع الإلهى، وانتزاع حاكمية الله وإعطائها للإنسان. وهذا يعنى أنها إذا طبقت فى البلاد الإسلامية ستعزل الإنسان المسلم عن هويته الإسلامية، وتبعده عن حاكمية شريعته الإلهية، وتحوّل الأمة عن تراثها التشريعى إلى القوانين الوضعية الغربية، وإلى فلسفتها التشريعية النفعية الدنيوية، وقيمها المناهضة للاعتبارات الشرعية؛ وبذلك تكون العلمانية فى العالم الإسلامى زمن لاستسلام الأمة لخيار التبعية للغرب الاستعمارى، والذوبان فى الحضارة الغربية الوضعية المادية لا قدر الله[2].

إن الفروق الجوهرية السابقة بين التصور الإسلامى من جانب، وبين التصور العلمانى فى عمومه من جانب آخر، يجب أن تكون ماثلة فى الذهن طوال القراءة فى الفصول التالية من هذا الكتاب.

هنا قد يقول قائل: ما دامت النظريات التربوية القادمة تقوم فى عمومها على تصورات اعتقادية زائفة، أو هى - فى أحسن الأحوال - قد اختلط فيها الحق بالباطل، فما قيمة عرضها هنا؟ عندئذ قد تكون الإجابة المختصرة الحاسمة على ذلك قول عمر بن الخطاب - رضى الله عنه -: «لا يعرف الإسلام من لم يعرف الجاهلية». . .

---

(١) سيد قطب: خصائص التصور الإسلامى ومقوماته، مرجع سابق، ص ٤٣ - ٤٤.

(٢) محمد عمارة: الشريعة الإسلامية والعلمانية الغربية، مرجع سابق، ص٨.

النظرية الأساسية Essentialism

ترتكز هذه النظرية على مسلَّمة مؤداها أن إلمام الإنسان بتراثه الثقافى وما فيه من معارف وحقائق واقعية هو خير قائد له فى تصرفاته المستقبلة. وأن المنهج التعليمى ينبغى أن يهدف إلى مساعدة المتعلمين كى يكونوا أسوياء، وذلك عن طريق تحصيل الحكمة والمعرفة والمعلومات والمفهومات التى خلفتها الأجيال السابقة. هذه إذن نظرية تراثية ثقافية فى المقام الأول.

الأسس الفلسفية:

(الألوهية والكون والإنسان والحياة عند أنصار هذه المدرسة)

لقد ساهمت الفلسفة المثالية Idealism، والفلسفة الواقعية الطبعية Naturalistic Realism، والواقعية المدرسية Scholastic، والعقلية الإنسانية Rational Humanism فى تحديد موقف ونظرة أنصار هذه النظرية تجاه كل من طبيعة الفرد، وطبيعة المجتمع، وطبيعة المعرفة، والأخلاق، والدين. وسوف نعرض أهم مبادئ كل فلسفة من هذه الفلسفات موضحين مساهمتها فى بناء نظرية المنهج الأساسية أو الجوهرية.

المثالية:

يعتمد النموذج المثالى الذى يشكل مناهج التربية لدى المثاليين على رؤية أفلاطون من أن الأفكار أبدية وأزلية ونهائية، وهى لذلك فى غاية الأهمية. وليس المقصود بالأفكار هنا - بالطبع - تلك الخواطر العقلية التى يترجمها العقل من الرموز اللفظية، ولكن أفلاطون يقصد بها فى هذا المقام جوهر الأشياء والمثل العليا الموجودة فى العالم العلوى، والتى يقاس بها كل شىء فى هذا العالم المادى[١]. إذا كانت الأشياء فى هذا العالم المادى من وجهة النظر هذه تعرف عن طريق

---

(1) Brubacher, J.S., Modern Philosophies of Education .3rd, Edn. New York. Mc Graw-Hill Book Company, Inc. 1962, P325

الحواس، فـإنها قد صـيغت على مثـال سبق عند خلق الكون ونبـعث فكرتها من خالقه. والعقل وحده هو الذى يستطيع أن يحكم عليها بأنها مطابقة للنماذج المثالية التى وضعت أزلاً أم لا. وبهذا المعنى، فإن الأفكار أزلية لا تقبل التغير أو التطور. ومهما قيل من أن عناصـر هذا العالم مستحدثة ومتغيـرة تبعًا للظروف والملابسات التى تظهر من آن لآخر، فإن الأفكار والأشكال المثالية التى صيغت على مثالها هذه العناصـر الموجودة فى عـالمنا مـوجودة من الأزل وسـتظل إلى الأبد دون تغيـر أو تطور(١).

وربما كان من المناسب هنا أن نلقى بعض الضـوء على تصور أفلاطون الذى عاش فى السنوات الأولى من القرن الثالـث الميلادى، وكذلك تصور أرسطو للإله الخالق. فـالإله فى تصورهما هو كائـن أزلى أبدى، مطلق الكمال، لا أول له ولا آخـر، ولا عمل له ولا إرادة! مـذ كـان العـمل طلبًا لـشىء، والله غنى عن كل طلب.

ويغالى فيمـا يراه تنزيهًا للإله الواحد، حتى يتجاوز كل معـقول، «فإذا كان أرسطو يرى أن من كمال إلهه ألا يشـعر بغير ذاته، وألا يفكر إلا فى ذاته، لأنه لا يفكر إلا فى أشـــرف الموجـودات، وذاته هى أشـرف الموجـــودات، وأنه لا يعلم الموجودات؛ لأنها أقل من أن يعلمهـا. . وإذا كان تنزيه أرسطو لإلهه وقف به عند هذا الحد، فـإن أفلاطون راح يزعم أن من كمـال إلهة «الأحد» أنه لا يشعـر حتى بذاته؛ لأنه يتنزه عن ذلك الشعور! «وبدهى أن هذا المذهب يقتضى وسائط متعددة لربط الصلة بين الإلـه «الأحد» المطلق الصـفـاء، وبين المخلوقـات العلوية، وهذه المخلوقات السفلية، ولا سيما خلائق الحيوان المركب فى الأجساد!

وهكذا لزم أفـلاطون أن يقول: إن الإله «الأحـد» خلق العقل، وإن العـقل خلق الروح، وإن الروح خلقت ما دونها من الموجودات على الترتيب الذى ينحدر

---

(١) انظر: حـسين سـليمـان قورة: الأصـول التـربوية فى بناء المناهج، ط٦، دار المعـارف، ١٩٧٩م، الفصل السادس.

طورًا دون طور، إلى عالم الهيولى، أو عالم المادة والفساد!»[١] وهو عالمنا هذا الواقعى الذى نعيش فيه. ومن ثم ينحصر الإله «الأحد» عند أفلاطون فى خلق العقل.. ثم تنتهى مهمته عند ذاك.

وإذا كانت الأفكار الأزلية والنهائية التى وضعها الخالق سلفًا - عن طريق العقل - هى التى تصور لنا النموذج الحقيقى للعالم الذى نعيش فيه، فإنها بالضرورة يجب أن تكون هى جوهر وأساس التربية الجديرة بالاعتبار، كما ينبغى أن تكون هى صلب المناهج الدراسية، ومن ثم يجب التركيز على الناحية العقلية فى التربية وفى بناء المناهج الدراسية للمراحل المختلفة. وليس معنى هذا إهمال التربية الجسمية، والمهنية، أو إغفال تربية الإحساس بالجمال وتنمية المشاعر فى وضع المناهج، ولكن معناه أن تحتل التربية العقلية أسمى المراتب وأعلاها، ثم تأتى بعد ذلك هذه الأنواع الأخرى[٢].

إن الواقع بما يشتمل عليه من ماديات ومتغيرات ثرية يجب أن يكون كلا فكريا واحدًا، لأن لب الواقع وجوهره من وجهة نظر المثاليين هو العقل، أو السبب فى وجوده، والسبب مطلق، فهو إذًا واحد وغير متعدد، إلا أنه يحتوى على كل شىء فى داخله. وبهذا يمكن القول بأن الكون عملية عقلية عظيمة، أو سببية مطلقة، وهى عقل الله. وكل شىء حدث أو سيحدث هو نتيجة رغبة الإله فى تحقيق علة حدوث هذا الشىء التى كانت أزلاً. ودور الطبيعة هو دور الوسيط الذى يمثل هذه العملية فى نموذج يمكن إدراكه بالعقل الإنسانى ذى القدرة المحدودة. وإذا كان العقل الإنسانى هو الذى يكشف عن هذه العلة بفهمه لها، ليثبت وجوده، ويحقق الغرض منه، فإنه يشارك فى طبيعة العقل المطلق، ويعد جزءًا منه، أو صورة مصغرة له!.

---

(١) عباس محمود العقاد، الله، ص١٨٨.

(2) Brubacher, Ibid., p. 326.

وهكذا يتضح أن المطلق يكون الجـوهر أو الأساس، وهدف المنهج ينبغى ألا يزيد عن كونه محاولة مستمرة ودائمة للوصول إلى إدراك هذا المطلق.

والنظرة الدقيقة الفاحصة لهذه الفلسفـة ترينا أنها تعتمد على خاصة الثبات؛ لأن العقل المطلق الذى ينبغى أن تهدف المناهج إلى إدراكه ومعـرفته يتميز بالشمول والإحاطة، وعـدم التحديد فى زمـان أو مكان. وهذا يعنى ثبوته الأزلى، وكـمال ذاته منذ القدم، كما يعنى عدم خضوعه لعملية التغير أو التطور.

وهذا الاتجاه العقلى للفلسفة المثـالية قد وضع العقل - بلا شك - فى مرتبة ذات أهمية كبـرى، بحيث لا يكون العقل شيئًا آخر غـير الروح ما دام يشارك فى طبيـعة المطلق كمـا سبق أن رأينا. وبالرغم من وجود الجـسم والبيئـة الاجتماعـية والطبيـعة إلا أنهمـا فى النهاية يدخلان فى دائرة العـقل ويذوبان داخله.. ولذلك فالطبيـعة الإنسانية لا ينظر إليـها على أنها جسم مفـصل يستجيب لدوافع بيـئية. ولكنها جـوهر كلى يتأثر بعـامته إذا تأثر جـزؤه. ولهذا تنادى هذه النظرية بتـربية الإنسان من جميع جوانبه حتى يصبح كلاً مستقيمًا، ولكن يبقى العقل هو صاحب الاهتمام الأكبر فى مناهج هذه النظرية.

إن الواقع بالنسبة للمثالى هو عالم العـقل. والواقعية شىء خيالى أو روحى وليس ماديا. ويعتقد المثاليون أن الطبيـعة تعتمد على العقل الشامل لله. ويؤكدون أن الطبيعة لم تكن لتستطيع أن تأتى بنفسها إلى الوجود. وهنا لا بد من الأخذ فى الاعتبار أسـباب الأحداث والأشياء فى الطبيعـة، وبالعودة إلى الوراء مع الأسباب والمسببات يمكن الوصول إلى السبب الأول، وهو الـله. فالله هو الحقيقة الكاملة، وهو أكبر من الكون كله، ولـذلك فإن إدراكه ومعرفتـه يجب أن يكون هو الهدف الأساسى للمنهج.

وهكذا، أيضًـا، نجد أن المثـالية ترى الإنـسان - رغم أنه مظهـر من مظاهر الواقع - يتكون من عقل وجـسم، إلا أن عقله يمكن اعتـباره كائنا روحيـا. ولقد

اعتبر عقل الإنســان أو روحه - فلا فرق بينهما بالنسبة لأصــحاب هذه الفلسفة - وكأنه أكثر جوهرية وأساسية من جسمــه، فجسم الإنسان يعتمد على عقله، وعقل الإنسان صــورة مصغرة من العــقل الأعلى. ولقد اعتبــر جسم الإنسان معــوقًا فى بعض الأحيان لحركة العقل.

وبناء على هذا، فــأفعــال الإنسان مــقدرة ومــقررة بواسطة قــوى أعظم من الإنسان نفسه، فصفة الجبرية عند معظم المثاليين حقيقة مقررة ومعترف بها إلى حد أنهم يعتبرون أن كل فعل للإنسان مــقدر ومراد سلفًا من الله، ولكن بدرجة تتصل بكل إنسان على حدة، وطبــقًا لدوافعه، والظروف الخاصــة المحيطة به. وهذا يعنى أن عقل كل إنسان له قدرة فريدة ومتمايزة فى تحديد الحقيقة لهذا الإنسان[1].

وعلى الرغم من تعدد العقول بتعدد الأفراد، فإن العقل المطلق الشامل يحيط بعقول الأفــراد جميعًــا، ويتشعب من معناه مــعنى العقل الاجتمــاعى، وإذًا فهناك عقول الأفراد، وهناك أيضًا عقل المجتمع السائد الذى يشترك فيه الكل، ويعتبر كلا لما عداه من العــقول. وبهــذا المعنى تنعدم الأنانيــة والتركيــز على الذات؛ لأن كل العقول تستمد من العقل المطلق الكلى.

ولكن ما المعرفة الجديرة بالتعلم؟ وكيف نعرف؟ إن شمول العقل المطلق لكل شىء سواء كان موجودًا بالفعل أو لم يوجد بعد يجعل الحقيقة والخير والجمال كتابًا مفتوحًا على الدوام يقرؤه كل عقل. فالتعلم عملية مطابقة، أى مطابقة الموجود فى عالم الواقــع لما هو موجود فى العــالم المثالى، عــالم الحقــيقة والخــير. والمثــاليون الموضوعــيون - أيضا - يطابقــون العالم الواقعى الكامل مع أفكار عــالم الحقيــقة والخير، أو ما يســمى أحيانًا بعالم العقل. فالفــيلسوف بيركلى Berkeley يرى أنه

(1) Kneller,G.F.,Introduction to the Philosophy of Education, New York ,John willey & Sons, 1965 'p43.

من أجل أن يوجد أى شيء فلا بد أن يكون ذلك الشيء مدركا بالعقل، وليس من الضرورى أن يكون هذا الإدراك بعقولنا نحن، أى العقول الإنسانية[1].

وبناء على هذه النظرة، فالتعلم ليس ابتكارًا وإبداعًا - ولكنه تحقيق الفكرة المطلقة بالنسبة للحقيقة والخير والمثل التى وضعت سلفًا. وليست قيمة الأفكار مبنية على ما لها من أهمية فى حياة التلاميذ أو ضرورة فى إنجاز مشروعاتهم، أو فى ترقية حياتهم، بل إن قيمة الأفكار فى ذاتها، حيث إنها تصور الواقع الممثل للحقائق اللانهائية. ومن أجل ذلك فالأفكار جديرة بالتعلم. وهى تستحق أن يكون تعلمها هدفًا فى حد ذاته!

والمثالية - عمومًا - وثيقة الصلة بالدين. والمثاليون عمومًا يقبلون المعرفة على أساس من العقيدة، فالشخص يؤمن بوجود الله؛ لأن العقيدة - كأداة للمعرفة - أقدرته على معرفة الله. فالدين هو القانون الذى وضعه العقل المطلق وهو الله ليكون الصلة بينه وبين الإنسان بما يهذب طباعه، ويسمو بروحه، ويروضه على معرفة الحقيقة وممارسة الخير، إذًا فتعريف المطلق عند المثاليين يحمل معنى الاعتراف بوجود الله. والهدف التربوى الذى يؤكده المثاليون وهو محاولة تحقيق المطلق والوصول إليه يصبغ التربية بالأهمية الدينية ويتضمن مقومات التربية الخلقية. وحيث إن المطلق الذى أوجد الكون هو الله، وإن السبب الذى نتج عن هذا المطلق تحكمه القوانين والنظم، فلا شك أن من بين هذه القوانين قانونًا أخلاقيًا سائدًا تشيع فيه روح الله وإرادته، وما يرضاه من سلوك ومعاملات. وعلى هذا فالدين والأخلاق يعملان جنبًا إلى جنب، بل إن الخلق الكريم يعتبر نتاجًا لتمسك الإنسان بمبادئ الدين وحرصه على اتباع مثله العليا وقيمه الرفيعة. وتأسيسا على هذا، فإن التهيئة الدينية والخلقية ضرورية وينبغى أن تشكل جزءًا مهما فى محتوى المناهج الدراسية.

---

(1) Johnson J,A.,et al Introduction to the Foundations of American Education, Boston, Allyn &Bacon. Inc.,1969, PP.302-3

وتؤمن هذه النظرية بأهمية الحق والخير والجمال. كما تؤمن بأن الحق والخير يشتقان معناهما من معنى الجمال ويصطبغان بصبغته، فليس هناك حق قبيح أو خير ذميم. وتعتبر المثالية أن الله هو المستوى الأعلى للجمال. كما تعتبر الجمال نتيجة منطقية للأخلاق المثالية. ويصف المثاليون الجمال فى مظاهر الكون بأنه انعكاس للجمال المطلق. والجمال المطلق له دخل كبير فى صفاء النفس، ورقة الشعور، وحسن التقدير، والقدرة على تذوق كل ما هو جميل. ومن ثم ينبغى تدريب العقل على التفرقة بين الغث والثمين، والرفيع والوضيع فى جميع المجالات التعليمية. كما ينبغى تعويد المتعلم على رؤية الجمال، وتذوق القيم فى كل موضوعات المنهج، كما ينبغى تعويده على الاتصال بذوى الأخلاق الكريمة حتى تستهويه الأخلاق الفاضلة والخصال الحسنة.

ويهتم المثاليون بالرياضة البدنية، لا من أجل الجسم، فهم لا يهتمون بالمادة، وإنما من أجل العقل، فالعقل السليم فى الجسم السليم، فخدمة العقل ورعايته والعناية به لا تكتمل إلا إذا نال الجسم حظا من الرعاية والعناية التى تجعله خليقًا بخدمة العقل وازدهاره، وانطلاقه إلى عالم المثل العلوى.

العقلية الإنسانية:

وتستمد المدرسة الإنسانية مبادئها أيضًا من «الفلسفة الدائمة»[1] Perennial philosophy التى وضع مبادئها أرسطو على أساس عقلى صرف. ثم جاء من بعده توماس الإكوينى فعدل فى هذه المبادئ والأسس التى وضعها أرسطو بما يتناسب مع المبادئ المسيحية. وقد عرفت الفلسفة التى وضعها أرسطو قبل أن يدخل عليها توماس الإكوينى التعديلات الدينية والروحية، باسم الفلسفة الإنسانية العقلية[2] Humanism Rational. أما الفلسفة الأرسطوطاليسية التى عدلها

---

(1) Ibid.p45.

(2) See:Beck, RH.: Neo- Thomism and Rational Humanism in Educational Philosophy. Harvard Educational Review. 19:16 Winter,1949.



الإكوينى فتسمى بالفلسفة الواقعية المدرسية Scholastic Realism[1]. وسوف نتناول - فيما يأتى - هاتين الفلسفتين بالترتيب.

تركز الفلسفة العقلية الإنسانية على أساس مفهوم أرسطو للطبيعة الإنسانية، فجوهر الطبيعة الإنسانية عند أرسطو يتمثل فى خاصتى التفكير والمنطق، أما باقى الخواص كالإحساس والنماء وغير ذلك فمشتركة بينه وبين غيره من الأحياء، فإنسان لا يشبهه شيء فى قدرته على التفكير والتمييز بين الأشياء، ومعرفة الأسباب. وهو فى هذه الصفة فريد لا يشبهه شيء آخر من المخلوقات. وإذا كان التفكير هو جوهر الطبيعة الإنسانية وخلاصتها، فهذا يعنى أن هذه الخاصية تلازم الفرد أينما حل وحيثما وجد. ومن أجل هذا فإن هذه الفلسفة تزن السياسة التربوية نظريًا وعمليًا بميزان الإنسان العاقل المنطقى.

أما وقد حبا الله الإنسان دون غيره بخاصة التفكير، فإن عليه أن يستعمل هذه الخاصة فى معرفة العالم الذى يعيش فيه، حيث إن هذا العالم يشتمل على العناصر الجوهرية التى لا تختلف باختلاف الزمان ولا المكان ولا الأفراد، بل يشترك الناس فيها جميعًا، كما يحتوى على العناصر العرضية التى تميز الناس بعضهم عن بعض. وتغير هذه العناصر العرضية هو الذى يجعل الحياة متغيرة ومتطورة. وعلى أى حال فإن الحياة بعناصرها الجوهرية والعرضية يمكن فهمها والوقوف على أسرارها بالتدريب الصحيح على التفكير.

ولكن يجب التأكيد هنا على أن العناصر الجوهرية والحقائق المطلقة التى لا يصيبها التغير والتطور بتغير الزمان والمكان والأشخاص تعلو فى اهميتها فى المناهج الدراسية على العناصر العرضية المتغيرة والمتطورة وبما أن خاصية التفكير هى جوهر الطبيعة الإنسانية فإن الهدف الرئيسى للمنهج يجب أن يتمركز حول تربية العقل وتدريبه على التفكير الصحيح، وإذا كانت الطبيعة الإنسانية لا تختلف باختلاف الزمان والمكان والأشخاص فإن أهداف المنهج يجب أن تكون واحدة لكل الناس فى

---

(1) Brubacher, J.S., OP. Cit, PP.332-3.

كل زمان ومكان. وليس معنى هذا إهمال الفروق الفردية والجنسية والمهنية التى أثبتتها البحوث النفسية، بل المقصود أن هذه الفروق عرضية، فيجب أن تقدم العناصر الجوهرية، والحقائق المطلقة عليها فى المناهج، ثم بعد ذلك ينظر إلى هذه الأعراض[١].

وينظر أصحاب المدرسة الإنسانية العقلية إلى الحرية على أنها النتاج النهائى لعملية التربية! فالبرغم من أنهم ينادون بالحرية فى عملية التعليم والتعلم إلا أنهم يرون ألا يكون للمتعلمين رأى فى اختيار محتوى المنهج وتنظيمه، فذلك عمل المدرسين الذين يختارون المواد الدراسية وينظمونها تنظيمًا منطقيا ويحملون المتعلمين على حراستها، وما دامت المواد ذات صلة وثيقة بالعناصر الجوهرية والحقائق المطلقة فإنها سوف تهدى المتعلمين إلى مطابقة الحقائق، والوصول إليها بدقة، وتحرر عقولهم من الأخطاء، وتأخذهم بيدهم إلى الصواب[٢].

وهكذا اعتمدت الفلسفة الإنسانية «العقلية» الأرسطية الأصل والنبع على العقل والمنطق البحت. ولما جاء توماس الإكوينى (١٢٢٥-١٢٧٤م)، وكان رجل دين مسيحى، فقد حاول التوفيق بين الدين والعقل، وقد تأثر بأفكار أرسطو تأثرًا كبيرًا، كما تأثر بأفكار المفكر المسلم العظيم ابن رشد (١١٢٦-١١٩٨م) الذى حاول التوفيق بين الدين والفلسفة والعقل، على اعتبار أن الفلسفة تهدف فى النهاية - فى رأيه - إلى إثبات وجود الله. وعلى هذا النمط اقترح الإكوينى أنه لا تناقض بين العقيدة والعقل، وأن كلا منهما سبيل إلى الإيمان بالله. وهكذا تكونت الفلسفة الواقعية المدرسية من هذا الخليط الأرسطى والإكوينى والرومان كاثوليكى المسيحى.

---

(1) Bubacher, JS.,OP. Cit.. p.334.

(٢) حسين سليمان قورة، مرجع سابق، ص١٨٤- ١٨٥.

الواقعية المدرسية:

تؤمن الواقـعيـة المدرسيـة - ومعظم أنصـارها من الرومـان الكاثوليك ومن أبرزهم توماس الإكوينى بأهمية العقل، والتفكير المنطقى، ودراسة الطبيعة، وذلك كالفلسفة الإنسانية العقلية، لكنها تضيف إلى ذلك الاهتمام بالوحى والإلهام وعلم اللاهوت. وهذا يعنى أن الفلسفة الـواقعية المدرسية تقـوم على الاعتراف بكل من الطبيعة، والقوة الخالقة للطبـيعة ممثلة فى الإله الذى خلق الوجود كله. فهى فلسفة ذات طبيـعة ثنائيـة. وعلى الرغم من الازدواجيـة بين الإله والطبيـعة إلا أن لكل منهما صفـات خاصة به لا تنسب إلى الآخر، فالزمان والمكان والتـغير والنمو من خصائص الحوادث الطبيعية، فى حين أن الأزليـة وعدم التغير وعدم التقيد بالزمان والمكان من خصائص الإله[١].

والهدف الذى تنشده الفلسـفة الواقعية المدرسيـة من التعليم هو التعلم الذى ينقل المتعلم ويرتفع به إلى الأزليـة التى يتمتع بها الإله! والوصـول إلى هذه الغاية يعتـبر نهاية المطاف الذى لا يـتعداه أى إنسان. وكـلما اتخذ الإنسـان من الوسائل التربوية مـا يزيد قربه من أزلية الإله كـان أكثر تقدمًا فى الناحية التـربوية؛ ولهذا اتصفت الفلســفة الواقعية المدرسـية بالصفة التـقليدية حيث جعلت الغايـة النهائية للتعليم والتعلم إدراك الحقيقـة، والوصول إلى قدسية الإله وأزليته، وذلك شىء لا يعتريه التغير[٢].

ولا شك أن الأزلى الدائم الوجود الذى لا يتبدل ولا يتغير يقف من الأشياء مكان جوهرها. ويستحق إذًا الاهتمام التربوى دون سواه، مما يحتم ثبات الأهداف التربوية، وعـدم تغيرها، ويحتـم بالتالى إجبار المتـعلم على تعلم المنهج الدراسى الموضوع له حتى لا يضل طريق الوصول إلى هذا الجوهر، وخاصة أن هذا الطريق مليء بالصعوبات والعقبات. فإذا لم تجبر المدرسة تلاميذها على دراسة المناهج التى

---

(1) Brubacher. iS., OP. Cit.,PP.335-6.

(٢) انظر أيضا: حسين سليمان قورة، مرجع سابق، ص ١٨٦- ١٩٣.



وضعتها لهم، وتابعت رغباتهم واهتماماتهم - دون ضغوط منهم - لكان من النادر أن تصل عن هذا الطريق غير المباشر إلى تزويدهم بالمعلومات والمعارف التى تؤدى إلى تحقيق الهدف الجوهرى السابق، ويرى أنصار هذه الفلسفة أن واضعى المنهج فى غنى عن أخذ اختيارات المتعلمين واهتماماتهم فى الاعتبار، حيث إن القيم التربوية التى تهدف هذه الفلسفة إلى تحقيقها تتشابه فى الصفات مما يقلل عدد الأساسيات التى ينبغى أن يشتمل عليها محتوى المنهج، وحينئذ فلا داعى إلى اللجوء إلى الاختيار من هذه المواد القليلة وإلا فلن يتبقى شىء للتعليم والتعلم، وبالتالى لن يتحقق الهدف.

ويرى أنصار الفلسفة الواقعية المدرسية أن الحقيقة إن كانت قدسية من طبيعة الإله إلا أن واقعًا خارجيًّا يمكن القياس عليه، وهو يتمثل فى الأشياء والمفهومات والدراسات وغير ذلك من الأمور. والإنسان حين يتعلم الحقيقة لا يتعلمها مباشرة بصفتها العلوية الخالدة؛ لأنها بهذه الصيغة خفية لا تتضح بسهولة، ولكنه يتعلمها من الجانب الواقعى والخارجى. وبهذا يسقط الاعتراض القائل بأن التعلم يقتضى تجريبًا، والتجريب يقتضى تحقيقًا، والتحقيق فيه معنى التغير الذى يضاد فكرة الثبوت والخلود فى الحق الذى تنادى به هذه الفلسفة. فهى أيضًا تنكر مبدأ التجريب والتحقيق كسابقتها، ولكن من منظور آخر[1].

وكما أن هناك ازدواجية فى طبيعة الوجود بين الإله والطبيعة، فهناك أيضًا ازدواجية فى طبيعة الفرد بين العقل والجسم. فطبيعة العقل، من وجهة نظر هذه الفلسفة تختلف عن طبيعة الجسم، فالأول جوهر غير مادى، بينما الثانى مادى، وكل منهما مستقل عن الآخر! وليس معنى هذه الازدواجية بين العقل والجسم أن هناك انفصامًا فى شخصية الفرد، ولكن أنصار هذه الفلسفة يرون أن الشخصية شىء واحد مكون من التفاعل بين العقل والجسم، ولكنهم - فى الواقع - لم يقدموا توضيحًا لكيفية تفاعل الجوهر غير المادى مع الكيان المادى.

(1) Brubacher,JS...P.337.



وهكذا نرى أن دور العقل الأساسى من وجهة نظر هذه الفلسفة هو البحث عن الحقيقة، وأن وظيفة المنهج ليست مجرد نقل الحقائق إلى المتعلم أو عكس صورتها كما يقول أنصار المذهب المثالى، ولكن وظيفته هى العمل على فهمه للواقع فهمًا مباشرًا، وتعمقه فى دراسة الأساسيات العلمية، وذلك بتحصيل العلوم التى يتضمنها المنهج، والتدريب المتكرر عليها ودراستها دراسة شاملة. وبذلك يتسع أفق المتعلم بنفسه فى البحث عن الحقيقة ولا يضل الطريق إليها إلا أن العقل مهما سما بدراسة الأساسيات المعرفية والعلوم الجوهرية، فإن إمكانياته قاصرة عن إدراك الأبديات والأزليات بصورة مباشرة، فهو لا يستطيع الوصول إلى الحقائق الدينية بمفرده؛ لأنها حقائق عميقة وأسرار إلهية. ومن هنا فهو يحتاج فى معرفتها إلى العون الإلهى بالوحى والإلهام.

فالفلسفة الواقعية المدرسية ذات اتجاه روحى، ولهذا فلا غرابة أن نجد أن التربية الدينية والخلقية لهما شأن كبير ومركز مهم فى المناهج الأساسية، وأن تعرف هذه الفلسفة لرجال الدين بحقهم فى التدريس والتعليم، وأن تدعو إلى دراسة الأخلاق متصلة بدراسة الدين، وأن تكون دراستها رسمية؛ لأن دراسة الأخلاق منفصلة عن الدين وبطريقة غير رسمية لا تثمر شيئًا، والعكس صحيح، فإن ارتباط الأخلاق بالدين فى دراسة رسمية يحيى الخير فى النفوس، ويدعم الأخلاق الفاضلة، ويدعو إلى التمسك بها.

ويؤكد أنصار الفلسفة الواقعية المدرسية على ضرورة أخذ اهتمامات المتعلم فى الاعتبار؛ لأن اهتمام المتعلم يؤكد رغبته فى معرفة قيمة ما يتعلمه والفلسفة الواقعية المدرسية بهذا تساير مجالها الفلسفى ولا تبتعد عنه؛ لأن الحقائق والأساسيات التى يقوم عليها المنهج جوهرية وثابتة، أما اهتمامات المتعلم ورغباته فهما عرضان متغيران؛ ولذلك يجب على المنهج أن يهتم أولاً بالجوهر الثابت وأن يقدمه على العرض المتغير.

وليس معنى هذا أنه لا مكان فى هذه الفلسفة للحرية، فالواقعية المدرسية تقرر أن للحرية ميزة اجتماعية، لا تمنح للأفراد إلا بقدر ما حصلوا عليه من

معارف، وامـتازوا بالحكمة والخـبرة نتيجـة التقدم فى العمـر الذى يتيح لهم زيادة التحـصيل فى الأسـاسيـات المبنى على التقـاليد والتـراث الإنسانى. وكلمـا تقدم بالأفراد العمر الاجتماعى زادت حريتهم العلمية. فالحرية غاية التربية، وتظل مقيدة ومحدودة بما حصله الفرد من خير وحكمة![1].

والفرد من وجـهة نظر الفلـسفة الواقـعيـة المدرسية يمـارس حرية التـمييـز والتفصيل، فهـو باستطاعته التمييز بين الصواب والخطأ والحسن والقبيح، وحريته تكمن فى تفـضـيله للصـواب والحسن، لكنه قـد يفضل الصـواب والحـسن ولا يمارسها، وحينئذ فإجباره على ممارستها لا ينقص من حريته.

وغالبًـا ما تنمـو هذه الفلسفة وتزعـزع فى ظل النظام الديمقـراطى والنظام الأرستقراطى، كالنظام الإنجليزى على سبيل المثـال، إذ إن رعايتها للعقل وحرصها على تغذية بالمعارف الأسـاسية والجوهرية، وإفساح المجال أمـامه لينمو ويصل إلى أكمل ما يمكن أن يصل إليه فى أى طبقة اجتماعية يضفى عليها روح الديمقراطية. لكن اعتمادها على طائفة خاصة من المتخـصصين الذين يتميزون عادة بالقدرة على معـرفة الأفضل واسـتخلاص الأحـسن من الآراء والنصوص وغيـر ذلك من مواد التراث يعطيها القوة على العيش فى النظم الأرستقراطية.

ولقد استمرت الازدواجية بين العـقل والجسم فى الفلسفة المثالية، وبين الله والطبيـعة فى الفلسفـة الواقعـية حتى الوقـت الذى عاش فيه تومـاس الإكوينى Thomase Aqunas فى القرن الثالث عـشر الميلادى. ولقد كانت أعـمال الإكوينى خليطًا من الـفكر الأرسطى والفكر المسـيـحى فى ذلك الوقت. فلقـد اقـتـرح أن الباعث العقلى هـو أساس التنظيم الكونى. وأكد أنه لا يوجد تناقض بين العـقيدة والعقل، وأن الإنسان يجب أن يستعـمل كليهما فى الإيمان بالله. وبالرغم من أن الإكوينى قد حقق قليلاً من النجاح فى حل ثنائيـة كل من المثالية والواقعية، إلا أنه وبمساعدة آخـرين نجح فى تقريب الشقة بين هين الشقـين، وإيجاد طرق للاتصال بينهما.

---

(1) Brubacher, IS., OP. Cit ., P. 339.

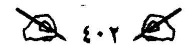
وتكمن طبيعة الحقيقة - كما أدركها توماس الإكوينى - فى الوفاق بين العقيدة Faith والعقل Reason ولقد نظر إلى الوجود على أنه يتمركز بصورة كبيرة فى قوى الإدراك للعقل الإنسانى. فالأفكار حقيقة واقعة فى حد ذاتها. والأشياء المادية موجودة سواء أدركت بواسطة الإنسان أم لم تدرك، فالكون يوجد مستقلاً عن الإنسان. ومع ذلك فأنصار الإكوينى يعتقدون أن الإنسان بكل ما فيه: عقله، وأفكاره، وروحه - شأنه شأن كل الأشياء المادية - مخلوق بواسطة الله. وبالرغم من أن التوماسيين الجدد يعتبرون أن الله والأشياء المادية - حقيقة واقعة، إلا أن الله يعتبر موجودًا كاملاً Perfect Being وأكثر أهمية من غيره. فالتوماسيون الجدد يميلون إلى تعديل التوازن بين الإنسان الذى يستخدم العقل والمنطق وبين الأشياء المادية فى صالح الإنسان.

وتنشد التوماسية الجديدة المعرفة من خلال العقيدة والعقل. فالعقيدة طريق للمعرفة النامية من خلال التاريخ والكتب المقدسة وكلام الله. ويتم الحصول على المعرفة أيضا عن طريق العقل والخبرة، ويخدم التجريب أيضًا كأداة للمعرفة؛ بينما تعتبر الخبرة واسطة للحصول على المعرفة، وعلى أساس ما حصل عليه الإنسان من معرفة فإنه يتجه نحو الصدق.

وعلى غرار المعرفة فإن القيم شيء ثابت. فالتوماسية الجديدة تعتبر أن القيم والقوانين الأخلاقية مدركة ومميزة بالعقل. فالأفعال العقلية للإنسان، وعلاقاته بالآخرين، وأنماط سلوكه الخلقى تكون أخلاقياته. وعلى الإنسان أن يعيش بهذه المستويات الخلقية والعقلية.

ويمكن أن نرى هنا العلاقة بين الفلسفة الواقعية والمدرسية وأفكار توماس الإكوينى الذى تأثر بدوره بالفكر الأرسطى رغم تعديله للأسس التى قام عليها بما اقتضاه ظهور المسيحية وانتشارها(1).

(1) Beck. R.H. Neo-Thomism and Rationa' Humanism. In Educationa Philosopy Harvard Educational Review I9 :I6 Winter,1949.



تصور جون لوك:

ويميز جون لوك John Locke - مثل توماس الإكويني وديكارت - بين أسلوبين لوجود أي شيء: أولاً، كونه مادة للطبيعة، ثانيًا، كونه مادة للفكر. وعلى هذا فأى شيء له وجود مبدئي في العالم الخارجي، وله وجود أيضًا كمادة للفكر في عقول هؤلاء الذين يدركونه(١).

ويرى لوك أن الأنشطة العقلية تهتم بالدرجة الأولى بموضوعات ومواد العالم الخارجي، أو بعمليات العقل. فأما معرفة العقل لمواد العالم الخارجي فهي تتم عن طريق الحواس، أما إدراك العقل لعملياته الخاصة الداخلية، كالإدراك، والتفكير، والشك، والاعتقاد، والاستدلال، والاستنتاج، والمعرفة، والإدارة، فهي تتم عن طريق الاستبطان. «فالإحساس» Sensation هو مصدر إدراك الأشياء الخارجية «والانعكاس Reflection هو مصدر معرفة العقل لعملياته الخاصة(٢).

والانعكاس - في رأى لوك - يعني الاستبطان Introspection،» وهو عملية استدارة العقل إلى الداخل، ومعاودته النظر والتأمل داخليًا في آرائه وأفعاله»(٣).

وبمعنى آخر، فإن جون لوك يميز بين الأفكار البسيطة، والأفكار المركبة، أما الأفكار البسيطة فهي تنتقل إلى العقل عن طريق الأعضاء الحسية، عندما يتأثر الإنسان بالمادة أو بالأشياء الخارجية. وأما الأفكار المركبة فإننا ندركها عندما تعكف عقولنا عليها بالتفكير والتأمل داخليًا.

فالأفكار التي تأتي من الإحساس تكون هي الأولى في خبرة الطفل وعندما يكبر، فإنه يبدأ في تأمل عملياته. يقول جون لوك: «إن العقل سلبي في استقبال الأفكار البسيطة ولكنه عندما يدركها، فإنه يعكف عليها بطرق مختلفة، إما

---

1) Curtis. S. J. and Boultwood, M. FA., A Short History of Educational Ideas, London Uuiversity Tutorial Press. 4th ed.. 1969 .PP.29-30.

(2) Mabboitt. J D.. John Locke Great Britain. the Bowermg Press, 1949 Ch . I..

(3) Ibid .P.5I.

بتجـميـعهـا وربطها فى فكرة واحـدة، وإما بوضع هذه الأفكار بجـانب بعضـها البعض، وإدراك العلاقـات بينها، وإما بفصلها عن الأفكار المصـاحبة، وذلك عن طريق التجريد Abstraction وبهذا الأسلوب تتكون الأفكار المركبة[1].

ويمكن تقـسـيم الأفكـار المركـبـة - فى رأى لوك - إلى أسـاليب Modes ومضامين Substances، وعلاقات Relations[2]. ولكن يجب الأخذ فى الاعتبار أن كل الأفكار المركبـة قد تطورت من الأفكار البـسيطة التى خرجت من الخـبرة. ومع ذلك فإن فكرة لوك عـن الخبرة لم تكن واضـحة، وكان الفـضل فى توضيح الطبيعة المزدوجـة للخبرة لجون ديون الذى أوضح أن كل خبرة لهـا مظهران مظهر إيجابى، ومظهر سلبى[3].

وهكذا نرى أن معالجة لوك لمعرفتنا بالوجود تأخذ ثلاثة طرق: «فنحن نتعرف على وجودنا عن طريق البديهة أو الحدس Intuition ونتعرف على وجود الله عن طريق البيان والعرض والإظهار Demonstration ونتعرف على الأشياء الأخرى عن طريق الإحساس Sensation»[4].

ويمكن تلخيص وجهة نظر لوك كالآتى:

(أ) إن هناك شيئا موجودا من الأزل إلى الأبد، هذا وإلا فإنه لا شىء يسبب شيئا. وهذا خطأ.

(ب) يمكن تقسيم الأشياء الموجودة إلى أشياء واعية.

(جـ) الكائنات غير الواعية لا يمكن أن تنتج كائنات واعية.

(د) مما سـبق يمكن اسـتنتـاج أن هناك عـقـلا أبديا واعـيا مـوجـودا طول الوقت[5].

---

(1) Curtis. S J.& Boultwood . MEA. OP.Cit ,P .228.

(2) O'Connor .D.J. john Lock . New Yrok Dover Publications ,inc., 1967, p.5I.

(3) Curtis & Rou ,OP Cit. p. 229..

(4) O. Connor. OP. Cit., p. 179.

(5) Ibid., P .181 .

ويرى لوك أن الإنسان مكون من جسم وعقل. وإسهامه الحقيقى فى التربية هو مبدأ «التشديد» Hardining، أى تشديد الجسم والعقل. فهو يرى ضرورة أن يعوّد الطفل على التعب والكد، وعلى الملابس البسيطة وعلى البساطة فى الطعام والشراب. ولقد أكد لوك أيضا، أن الناس ولدوا بطاقات وقدرات مختلفة. وقد اتفق لوك مع فرانسيس بيكون F. Bacon فى حثه على البحث عن الصدق من خلال الاستعمال الأفضل للعقل الفردى. كما اتفق مع سلفه أيضا فى الدفاع عن دراسة الفروق بين الناس وضرورة دراسة العوامل المشتركة فى عملية الفهم[١].

إن الإنسان يحتاج - بالإضافة إلى الخبرة الواسعة - إلى التمرين على الاستعمال الصحيح لقواه العقلية، حيث «إننا نولد باستعدادات وقوى قادرة غالبا على عمل أى شيء»[٢]. والممارسة واكتساب العادات الجيدة هو الذى يجعل هذه الهبات أو الاستعدادات تؤتى أكلها، سواء أكانت النتيجة مهارة بدنية أم إنجازا فنيا أم نشاطا عقليا. ويوضح چون لوك أنه يجب اختبار مبادئ كل إنسان، حيث إنه ليس كافيا أن تؤمن برأى دون أن يكون هناك سبب معقول للإيمان به. فهؤلاء الذين يتشبثون بحماس المبادئ المزيفة يفضُلون على الأقل - هؤلاء المترددين غير الواثقين. وكلتا الجماعتين ليس لديهم الممارسة فى نوعية معينة من المجالات؛ ولهذا فهم ضعاف فى هذه المهارة، ويدركون عدم قدرتهم. وبهذا الأسلوب يطرح چون لوك علاجه الرئيسى لهذا الضعف فى التدريب على التفكير، ويتمثل هذا العلاج فى دراسة الرياضيات[٣]. فهو يؤكد أن دراسة الرياضيات سوف تجعل الإنسان مدركا لحدود قدراته على التفكير والفهم.

ويعتبر چون لوك أبا لما يسمى بمذهب نظام الحكم العلمانى الحر. ذلك النظام الذى يتكون من وحدات كل وحدة لها طاقتان: الأولى هى القدرة على الفهم، والثانية هى القدرة على معرفة الاهتمام الذاتى. وهذا النموذج يأخذ فى الاعتبار مجموعة من المبادئ الأساسية والمحددة. فيفترض لوك-على سبيل المثال-

---

(1) Curtis & Boultwood , OP. Cit., P.232 .

(2) Ibid .. P.233 .

(3) Ibid .,P. 234 .

أن الغايات النهائية للقيادة سوف يتم التعبير عنها مبدئيا فى مبادئ الدين. وعلى هذا فهو يقترح أنه بدون الدين لا يوجد تعاقد اجتماعى. وهذا الأخير من وجهة نظر لوك - يعتبر الأساس فى بناء الدساتير. وبدون دستورية لا يوجد أساس سياسى للعدالة. أما من وجهة التكوين، فإن هذا النظام لا بد أن يسمح بأقصى فرصة للتمرين على المنطقية والعقلانية Rationality، ومتابعة الاهتمام الذاتى(١).

ويبدو الطعم «الأرسطوطاليسى» المتميز فى مبادئ لوك للتربية، وخاصة فيما يتصل بمبدئه أن الكائن الإنسانى غير الناضج سوف لا يكون محميا من المخاطر البدنية والعقلية والروحية فى بيئته ومجتمعه، ولكن يجب تقديمه إلى هذه المخاطر بحذر، كما يجب إقناعه بفهم هذه الأشياء بمهارة، وبهذا الشكل يستطيع اكتساب التوازن والسيطرة على النفس فى كل مظاهر السلوك والتفكير، فالتربية الحقيقية هى التى تكسب الفرد السيطرة على النفس. وهذا يوضح لنا أسباب رفض لوك لتدخل الحكومة فى التربية، ومساندته لعدم مركزية التعليم(٢).

يؤكد لوك أن التربية الجيدة هى التى توفر للمتعلم الفرص الكافية لتنمية الفهم؛ ولهذا يجب أن توجه العناية الكافية من أجل إكساب الطالب وإفهامه سمات الفهم الخاطئ ونتائجه. إن وظيفة التربية -.من وجهة نظر لوك - هى مساعدة التلميذ على استخدام عقله بكفاءة فى صنع القرارات. وعلى هذا فمن غير المعقول أن يبقى التلميذ مستسلمًا ومعزولا؛ لأن الشجاعة والإقدام نوع من السلوك الذى يجب تشجيعه.

ويؤكد لوك أيضا على ضرورة غرس السيطرة على النفس Self-control فى نفوس التلاميذ عن طريق الخبرة والممارسة؛ ولهذا فإنه من المرغوب فيه أن يتاح أكبر قدر من الفرص للصغار من أجل الممارسة فى ميادين مختلفة، حيث إن الممارسة التربوية فيما بعد سوف لا تتاح كثيرا. إن العقل يحتاج إلى رؤية كلية

(1) Apter. D.E., the Politics of Modernization. Chicago the University of Chicago press. 1965 ,O.28

(2) Hans, N., The Philosophy of Englightenment and Basedow's Philanthropian" Year hook of Education, London .Evans Brothers, Ltd .. 1957. P .376

لعـالم مناسبـة المنطق والعقـلانية. وهذا يمكن أن يكون جـزءا من التربيـة. وهذه الوظيفة للتـربية ليست للوصول بالتـلاميذ إلى درجة الكمال فى مـوضوع أو مادة واحدة. ولكن لفتح وتعـريض عقولهم لأى معرفـة قد تقدرهم على التفكير فـيها وتطبيقها إذا عرضت لهم فيما بعد.

نظرية المنهج:

مما سبق يتضح لنا أن النظرية الأساسية للمنهج تشتمل على أفكار رئيسية من الفلسفات المثـالية، والواقعية الطبـيعية، والعقليـة الإنسانية والواقعيـة المدرسية[1]، فلقد أخذت هذه النظرية من الفلسفة المثالية جعلهـا للعقل مركزا للحقيقة والواقع. كما أنهـا جعلت الهدف الأساسى للمنهج هو الارتفاع المتـدرج نحو الوصول إلى إثبـات المطلق ومعـرفـته، والسـبيل إلـى تحقـيق هذا يكون بالعناية بكمـال الذات الإنسانية لتكون أهلا للوصول إلى الحقيقة المطلقة والعناصر الجوهرية بما تتضمن من قيم روحية خالدة كالحق والخير والجمال. وبتـأكيد المثالية على أهمية القيم الروحية الخالدة، فهى تؤكـد أيضا أهمية الغرض الاجتـماعى نظرا لعمومية القـيم واشتراك جميع الأفراد فيها. وتؤكـد هذه النظرية أيضا على المادة الدراسية، حيث إن العقل هو العامل الحاسم فى تحصيل محتوى المواد الدراسية.

ولقد ساهمـت الفلسفة الواقعيـة الطبيعيـة فى هذه النظرية المنهجيـة برؤيتها للواقع على أنه الأشياء أو الموضـوعات الطبيعية، أى الموجودة فى الطبـيعة. ولقد ظهر أثر هذا فى تأكيد هذه النظرية على المظاهر الكميـة للنتائج التربوية. فالسيطرة على محتوى المادة وعلى تنظيماتها المنطقية أمر ضرورى، إذا أريد التعلم من خلال ملاحظة الطبيـعة والتعامل معـها. ومن فلسفة أرسطو العقليـة الإنسانية يأتى النظر إلى العقل وإلى التفكير على أنه الأساس للتنظيم الشامل.

---

(1) Braineld .T. Philosophies of Education in Cultral Perspective, New York, Holt, Rinehart and Winston, Inc., 1955, PP2S1-4

فالعـــقل كمركز للحــقــيقة يعــتبر عـــاملا حاسمــا فى تحديد «الأساسيات» Essentials التى يجب أن يتضمنها المنهج. ولذلك تنادى النظرية الأساسية بالعودة إلى أساسيات التعلم Fundamentals of Learning[1].

والفلسفة المثـالية تصور المتعلم على أنه عقل مصــغر للعقل الإلهى الكامل. ويصل المتـعلم إلى المعرفـة عن طريق المطابقة، أى مطابقـة العناصر المـوجودة فى العالــم الخارجى هذا بمثـيلاتها أو أصــولها وجــواهرها الموجودة فى عــالم المثل. وتؤكد الفلسفة الواقعــية الطبيعية على أهمية القيــاس العلمى فى مناهجها التربوية؛ لأن عملية التطابق التى يتحدث عنها المثاليون والواقــعيون تتطلب مستوى رفيعا من دقة القــياس، فــالعقل لا بد وأن يكون نشطــا فى عمليــة التعلم؛ لأنه مــركز هذه العملية كلهــا. وأى نشاط يؤدى إلى تدريب العقل فهو مــؤيد من قبل أنصار هذه النظرية. وعلى هذا فتنمية القدرة على التذكر والإدراك والفهم عملية أساسية.

والتعلم يحــدث عن طريق العقل والبــديهة والحس **Intuition**، كما يحدث عن طريق الإلهام والوحى **Revelation** كمــا قال بذلــك أنصار المدرســة الواقعــية المدرسيــة؛ لأن العقل مــهما ســما وارتقى بدراسة العلــوم الجوهرية والأساســيات المعرفــية، فــإن إمكاناته المحدودة القــاصرة لن تمكنه - وحده - مــن الوصول إلى الحقائــق الجوهرية والعناصر المطلقة؛ لأنهــا عناصر وحقائــق عميقة، وتــعد أسرارا إلهية.

والنظرية الأساسية - باعتمادها على الفلسفات المثالية، والواقعية، والإنسانية العقليــة - تعتبر المادة الدراسيــة هى مركز الاهتمــام. تتمركز المواد الدراســية حول الفنون الحرة Liberal Arts، والعلوم الإنسانية Humanities، بالإضافة إلى علوم الدين والأخــلاق التى يجب أن يكون لــها مكــان مهم فــى صلب المنهج، وبما أن الهدف التربوى الذى يــتمثل فى الوصول إلى الحقــيقة ثابت لا يتغــير، فإن المنهج

---

(1) Holmes, B., Curiculum Innovation at the Second level of Education, Paris Unesco, IBE, No., 190, 1974,p.23.

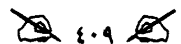
الدراسى يجب أن يقوم على الأسـاسيات العلية والثـقافية المتـصلة بالتقاليـد. كما يجب أن يفرض هذا المنهج على التلاميذ ولا ينظر إلى رغباتهم واهتماماتهم إلا إذا اتصلت بهذا المنهج الذى يجب أن يدرس. أمـا إذا تعارضت اهتمامـاتهم وميولهم ورغباتهم مع حقـائق المنهج، فإنه يجب إهمال هذه الرغبات والاهتمـامات وإجبار المتعلمين على دراسة المواد المقررة.

وفى هذا المضمـار يعتبـر بوهل هيرست Paul Hirst فى إنجلترا من المثاليين الذين يؤيدون النظرية الأسـاسية فى المناهج هناك فـى الوقت الحاضر. كـما أن له تأثيرا كبـيرا فى بناء نموذج منهجى قائم على أساس الأشكال المعـرفية The Forms of Knowledge. كما ساعـد أيضا فى بناء مناهج متخصـصة فى المدارس الثانوية والمتوسطة والعليا فى إنجلترا[1].

وتتطلب طريقة التدريس - طبقًـا لهذه النظرية - الالتزام بالنظام الشكلى فى التـدريس الذى يتطلب بالإضافـة إلى القدوة إعطاء المحـاضرات، والقـراءات من الكتب، والحفظ، والتسميع، والامـتحانات. ولكن التعليم -على أى حال- لا بد أن يبدأ من حيث انتهى المتعلم، بمعنى أن المدرس لابد أن يلتزم بحاضر الطفل وما يخصه ويـعنيه، ويهتدى فى ذلك باهتـمامات إدراكه، لكنه لا يقف مـعه عند هذا الحد، بـل يتدرج مـعه فى التـعمق حـتى يصل إلى العناصر الجـوهرية والحقـائق الأساسية للمادة التى يقوم بتدريسها.

وتؤمن هذه النظرية ببعض الاكـتشافات فى علم النفس الحـديث؛ فهى ترى ضرورة العناية بالفروق الفردية بين المتعلمـين، وإن كانت هذه العناية ثانوية بالنسبة للعناية بالعـقل والمواد الأساسـية. كـمـا ترى أن العقل يملك القـدرة على إدراك العلاقات بين الجزئيات، وتحويل هذه الجزئيات إلى مفهومات ذات معنى شامل كما يقول الجشتالت.

(1) See: Hirst, P.H., knowledge In The Curriculum ,London ,Routledge & Kega Paul, 1974.



ولقد اهتم علـم النفس التعليـمى بآراء أنصار الفلسـفة الواقعـية فى عـملية التعلم أكثر من اهتـمامه بمثيلاتها فى الفلسـفة المثالية. فالواقعيـون يهتمون بتكيف المتعلم مع بيـئته، ومعرفـة العلاقة والصلة بينه وبين العالـم المادى الموجود حوله. فالمعرفة تحدث للإنسان عن طريق ملاحظة الحقائق فى عالم الطبيعة. ويعتبر المتعلم «كحاسـة آلية» تدرك الحقائق والقـوانين العلمية للطبيـعة على أنها وسيلة للمـعرفة الجوهرية الكاملة.

وتعتبر العلوم الطبيعيـة - كما تعلم فى الغرب- أمثلة للمواد التى تسهم فى معرفة المتعلم بقـوانين الطبيعية الخالقة التى ليس لله نصيب فـيها! أما المواد الأدبية واللغوية وغيـرها من المجردات فقيمتهـا ثانوية عند أنصار الواقعية الطبـيعية. ومع تحديد الواقعيين للـصدق على أنه حقيقة يمكن ملاحظتهـا، فإن الرحلات الميدانية Field Ttips ودراسة الإنسان بطريقة مباشرة على الطبيعة، كل هذه تعتبر مدخلات مهمة فى التدريس لكن دون تجريب.

وطبقًا للنظرية الأساسية، فإن عادات التنظيم المنطقى العقلى تعتبر غايات فى حد ذاتـها[1]. وعلى هذا ينبـغى أن يوضع المنهج قبل بدء الـدراسة، إذ لا داعى لتأخير ذلك، حيث إن مضمونه ثابت ومعروف، والهدف الذى يرجى إليه لا يتغير ولا يتطور.

بعد هذا العـرض للأسس الفلسفية والتـربوية لنظرية المناهج الأساسيـة، قد يكون من الضرورى تحـقيق هذه النظرية بصورة أكـثر تحديدًا ووضـوحًا عن طريق عرض أهدافـها العامـة، والخطوط العريضـة لمحتوى المنهج الـذى يتبعـها، وطرق وأساليب التدريس والتنظيم والتقويم التى تقرها، وذلك ما سنحاوله فى الصفحات القادمة.

(1) Brameld, Op. Cit., PP. 281-4.

الأهداف:

وطبقًا لما سبق فإنه يمكن استخلاص الأهداف الآتية للنظرية الأساسية:

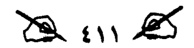
أولاً: إن الهدف من التربية هو الارتفاع المتدرج بالمتعلم نحو الوصول إلى معرفة المطلق وإثباته. والسبيل إلى ذلك يكون بالعناية بكمال الذات الإنسانية والرقى بها إلى أقصى درجات الكمال الروحى لتكون أهلاً للوصول إلى العناصر الجوهرية والحقائق المطلقة.

ثانيًا: ينبغى أن يهدف إلى تنمية العقل وتدريبه على الفهم دون تفاوت بين الناس، ودون اعتبار للزمان أو المكان. فالعقل هو مركز الواقع؛ ولذلك يجب على المنهج أن ينمى قدراته الأولية كالتذكر والفهم والاستنتاج أو التأمل، كما يجب أن تهدف دراسة الأساسيات إلى تحرير العقول من الأخطاء.

ثالثًا: يجب أن تراعى المناهج حاجات المجتمع الفنية والمهنية ولكن على أساس من الدراسة النظرية البحتة، وبدون تجريب، فالدراسات الفنية والمهنية - من وجهة نظر هذه النظرية - لا يوثق بها إذا قامت على التجريب.

رابعًا: يجب أن يهدف المنهج إلى تطبيع الفرد اجتماعياً. لكن مفهوم التطبيع الاجتماعى هنا يتماشى مع المسار الفلسفى لهذه النظرية. فالفلسفة المثالية تؤكد خلود القيم الروحية والحقائق الجوهرية وعموميتها، واشتراك جميع الناس فيها. وعمومية القيم والحقائق على هذا النحو تستوجب على المجتمع - لكى يصل الفرد فيه إلى كماله ذاته - أن يشتمل على قيم وحقائق يشترك الناس جميعًا فيها.

خامسًا: تعتبر العقلانية والسيطرة على النفس من الأهداف المهمة التى يجب تعلمها والتدرب عليها فيجب إتاحة الفرصة للمتعلمين للتفكير والتأمل فى ميادين مختلفة، وخاصة تلك التى توصلهم إلى معرفة جواهر الأشياء وأساسياتها.



سادسًا: يعتبر أنصار هذه النظرية أن النجاح الأكاديمى هو أهم معايير النجاح[1].. ولذلك فهم يهتمون بأساسيات التعلم، ويؤكدون أهمية مهارات الاتصال الشفوية والكتابة والمهارات الحسابية، والفنون والآداب، والموسيقى. ويؤكدون أيضًا على أهمية تنمية المهارات النقدية لدى المتعلمين، ومساعدتهم على تنمية البيئة الطبيعية التى يعيشون فيها، وفهم المشاكل الدينية والخلقية والاجتماعية للحياة اليومية[2].

سابعًا: يجب الاهتمام بدراسة الدين والأخلاق دراسة متصلة، وأن تحتل هذه الدراسة مكانة مهمة فى صلب المنهج المدرسى.

المحتوى:

مما سبق يتضح لنا أن محتوى المنهج الذى ترتضيه النظرية الأساسية يعنى كل العناية بالأساسيات، وهى العموميات التى يشترك فيها الجميع. وبما أن المنهج المدرسى لا يتسع لكل هذه العموميات، إذًا فلا مناص من تقديم الأهم على المهم، والبدء بذى القيمة الكبرى، والصلة المباشرة بالنواحى العقلية والمنطقية. وهذه المواد هى الفنون الحرة، كالمنطق والحساب والهندسة والفلك والموسيقى واللغة والأدب. وتفضل كذلك العلوم الإنسانية كالتاريخ والجغرافيا وعلم الاجتماع إلى آخره.

وتهتم النظرية الأساسية بوضع علم النفس والمنطق والدين والأخلاق، والعلوم الإنسانية، بصفة عامة، فى صلب محتوى المنهج. لأن هذه المواد تخدم الأهداف التربوية لهذه النظرية بأمانة وصدق. فالدراسات النفسية ترشد المتعلم إلى مواطن الخطر فى السلوك. كما أن دراسة المنطق وعلوم الدين والأخلاق كلها

---

(1) Dent, H.C.,The Educational System of England and Wales, London, Universit of LondonPress,ltd., 1971,P.113.

(2) Walton, J.,.ed., The Secondary School Timetable, London , Ward Loc Educational, 1972, P.92

بالنسبة للمتـعلم بمثابة الأرض الصلبة التى يقف عليها فى تفكيـره وتأمله ومحاولته الوصول إلى أصول الأشياء وجواهرها.

وتقترح النظرية الأساسية - فى نمطها الإنجليزى - أن التعليم العام يجب أن يشتـمل على عدد من المواد الدراسـية المختـارة بعناية. ولقد وجـد هذا صدى فى الفنون الحرة السبع The seven Liberal arts. وما زالت عملية تطوير المناهج فى إنجلترا تناقش داخل هذا الإطار[1]. وكمـا يقول هولمز، فإنه مـا زال هناك جدال حول تحديد المواد التى يجب اعتبارها أساسية أو ضرورية The Essential Subjects والتى يجب أن يحتويها المنهج. ففى القرن التاسع عـشر وقفت العلوم الطبيعية ندًا للغات القـديمة (الإغريقيـة واللاتينية) وفى القرن العـشرين أصبـحت المواد الفنية تتسابق مع العلوم على المركـز الرئيسى فى محتوى المنهج المتـخصص الذى تمارسه المدرسة الأكاديمية التى تسمى Grammar School.

إن التخصص فى عدد قليل من المواد - كشكل المنهج الأساسى - قد مورس فى إنجلترا منذ زمن بعيـد. ومع ذلك فهناك تساؤلات وجدل حول أهميـة التركيز على عدد قليل من المواد الدراسية المختارة بحرية فى سنوات ما قبل الجامعة. فهناك اقـتـراحات بزيادة عـدد المواد التى تـدرس فى نهايـة المرحلة الثـانوية، ولكن هذه الاقتراحات لم تجد آذانا صاغية حتى وقت قريب[2].

إن الوظيفة التاريخية لمدرسة «الجرامر» Grammar School فى إنجلترا هى أن تعد تلامـيذها إعدادا أكـاديميا يؤهلهم للجـامعة والدراسات الـعليا. وهى فى هذا المضمار تشبـه - إلى حد ما - المدرسة الثانوية العامـة فى مصر، والمدارس الثانوية العامة (غـير الفنية) فى معظم أقطـار العالم العربى. غير أن الـفارق الجوهرى بين هذه المدرسة والمدرسـة الثانوية العامـة فى مصر - مـثلا - هو أن الطالب فى هذه المدرسة وفى سنوات مـا قبل الجامعة قـد يقصر دراسته علـى مادتين أو ثلاث فقط

---

(1) Holmes , B., OP., Cit.,p.23

(2) Ibid., P.24 . .

على أساس أن يتخصص فى هذه المواد فى المرحلة الجامعية فى حين أن محتوى منهج المدرسة الثانوية العامة فى مصر، وفى معظم أقطار العالم العربى يضم ما بين ثمانى إلى إحدى عشرة مادة دراسية.

ومنذ نشأة النظام القانونى للتعليم الثانوى فى إنجلترا عام ١٩٠٢م وهو يزود التلاميذ بمحتوى تعليمى عام لمدة خمسة أعوام. هذا المحتوى يضم مجموعات من المواد، نذكر منها بصفة خاصة، مجموعة اللغات (القديم منها والحديث)، والرياضيات، والعلوم، ويتبع فى تدريس كل هذه المواد التطور المنطقى للمادة. أما فى الصف السادس الثانوى Sixth Form، فيتم تزويد التلاميذ بمحتوى مركز يغطى عددا قليلا من المواد التى تؤدى بطريقة طبيعية إلى الدراسة على المستوى الجامعى(١).

إن السمة البارزة لهذا المنهج تظهر - ليس فقط فى طول المحتوى(٢)، بل أيضا فى المعالجة المدرسية لهذا المحتوى والتنظيم العقلانى الجاف فى تقديمه(٣).

أما بالنسبة للمدرسة الثانوية الفنية Technical School فى إنجلترا فقد كان هناك شك فى أن هذه المدرسة كانت تؤدى الأغراض التى جاءت لتحقيقها. وربما كان السبب الرئيسى فى ذلك هو أن جزءا كبيرا من أصحاب الرأى المهنى ظلوا غير مقتنعين بالحاجة إلى وجود مثل هذه المدرسة. وكان ناقدو هذه المدرسة يدعون أن المدارس الأكاديمية Grammar School والمدارس الحديثة Modern School باستطاعتها أن تؤدى مهمة المدرسة الفنية بطريقة أفضل؛ ولذلك لجأت هذه المدرسة إلى تطوير نفسها، ففى خلال الستينيات من القرن العشرين بدأت فى تقديم

---

(1) Ibid.

(٢) ليس المراد بالطول هنا، الطول الأفقى أى كثرة عدد المواد التى تدرس، وإنما المراد الطول الرأسى، أى دراسة المواد القليلة المقررة بالعمق الكافى الذى يؤهل الطالب للدراسة الجامعية.

(3) Ministry of Education, The New Secondary Education, Pamphlet No, 9, London HMSO, 1947,P.25



مقــررات مماثلة لما كانت تقدمــه المدرسة الأكاديمــية، ولكن مع مزيد من الاهتــمام بأشغــال الخشب Wood Work وأشغــال المعادن Metal Work والرسم الهندسى وأعمال الــورض، ومنذ ذلك الحين بدأت هذه المدرسة فى إعداد تلاميــذها لدخول الامتحان General Certficate of Education (GCE)، وهو الامتحــان الذى كان يؤهل تلاميذ المدرسة الأكاديمية لدخول الجامــعة. وقد أدى هذا التماثل والتشابه فى المقررات بين المدارس الأكاديمية والمدارس الفنيــة إلى أن توصف المدارس الفنية بأنها ذات وجهين: وجه أكاديمى، ووجه فنى. وقــد أثار هذا مزيدا من التساؤلات حول أهمية وجودها أساسا.

أما المدرســة الحديثة، فقــد اتجهت إلى تنميــة ميول التلامــيذ، لا عن طريق التركيز بصورة أساسية على المواد التقليدية فى المنهج، ولكن عن طريق تقديم مواد ذات طبيعة فنية وعملية[1].

إن نظام التعــليم على المستوى الــثانوى فى إنجلترا كــان وما زال واقــعا تحت تأثير العوامل السياســة والاقتصادية والاجتماعية والطبقية هناك. فــقد كان امتحان نهاية المرحلة الابتدائية الذى يسمى (١١+) امتحانا انتقائيا Selective وعلى أساس نتائجــه كان التــلاميذ يوزعــون على المدارس الثلاث. فأصــحاب الدرجــات العليا يدخلون المدارس الأكــاديمية التى تعــدهم للدراسة الجــامعــية، لتــولى المناصب فى الدولة. وغالبا ما كان هؤلاء التلاميذ من الطبــقة العالية فى المجتمع. أما أصحاب الدرجات القليلة، فهم عــادة يوجهون إلى المدرسة الفنية التى تخرج الــعمال المهرة والحرفــيين والفنيين. وأما أصحــاب الدرجات الأقل، فهم غــالبا ما يوجــهون إلى المدارس الحديثة.

وظل هذا النظام السائد منذ بداية القــرن العشرين حتى نهاية الحــرب العالمية الثانية، وظهــور حزب العمال بقوة على مســرح السياسة الإنجليزية وتبنيه لــسياسة تعليــمية جــديدة، وهى سيــاسة نظام المدرسة الــشاملة Comprehensive School

(1) Dent., OP. Cit., P.119.

فالعمال هناك يؤمنون بأهمية العدالة فى توزيع الفرص التعليمية، لا على أساس طبقى، وإنما على أساس ميول وقدرات التلاميذ مهما كانت طبقاتهم الاجتماعية. ونمت المدرسة الثانوية الشاملة فى ظل حكومات العمال المتعاقبة حتى أصبحت تماثل غالبية المدارس الثانوية الإنجليزية.

لكن التنظيم الشامل للمدرسة الثانوية الإنجليزية، لم يتخلص تماما من تأثير التقسيم الثلاثى السابق لها، فما زالت المدرسة الثانوية الشاملة تقدم - فى رأى البعض - ثلاثة أنماط من المناهج لثلاث نوعيات من التلاميذ، وإن كانوا جميعا تحت سقف مدرسة واحدة.

تنظيم المحتوى وطريقة التدريس:

من الأسس الفلسفية التى قامت عليها النظرية الأساسية، نرى فى هذا المجال ما يأتى:

أولا: أن المادة الدراسية فى جوهرها وصفية ومنطقية التنظيم. والتعليم يكشف هذه الحقيقة ويهدف إليها. ولذا يجب على المدرسين أن ينظموا مناهجهم ودروسهم تنظيما وصفيا ومنطقيا حتى يطابقوا فى تدريسهم حقيقة التنظيم الجوهرى للمادة.

ثانيا: يجب أن يبدأ التدريس بالواقع المحسوس، ثم يسير رويدا رويدا إلى المجرد، ويستمر التدرج فى التعمق حتى يصل المعلم بالتلميذ إلى جواهر المادة وحقائقها الكلية.

ثالثا: ليس للمتعلم الحرية فى اختيار المواد الدراسية، بل على المدرسين أن يختاروا من بين الأساسيات ما يؤدى إلى تحرير عقول المتعلمين من الوقوع فى الأخطاء. وهكذا، فإن وظيفة المدرسين هى أن ينقلوا إلى المتعلمين ما اتفق عليه المربون ورأوه مهما ويؤدى إلى الوصول بالمتعلمين إلى العناصر الجوهرية من الخير والحق والمال، حتى وإن تعارضت هذه المواد مع رغبات المتعلمين واهتماماتهم.

رابعا: يجب الاهتمام بالفروق الفردية بشرط أن لا يؤدى هذا إلى عرقلة وصول المتعلمين إلى الحقيقة.

خامسا: بما أن الهدف الذى يرمى إليه المنهج معروف، ومضمون المنهج ثابت لا يتغير، إذن ينبغى أن يوضع المنهج قبل الدراسة.

وهكذا نرى أن النظرية الأساسية تتبع التنظيم المنهجى المتمركز حول المادة The Subject - Centered Approach، كما أنها تعتمد بصورة أساسية على التفكير، والتعليل العقلى، والتأمل، ودراسة الطبيعة فى اكتساب المعرفة. ونرى فى إنجلترا التى تتبع هذه النظرية فى مناهجها أن المتعلمين هم الذين يختارون محتوى المنهج دون استشارة المتعلمين بالطبع. فالمحتوى يبنى بأحكام، وينظم منطقيا، وقد يتمركز حول التنظيم المعرفى الواحد كالرياضيات، أو الاجتماعيات، أو اللغويات مثلا.

ولقد ارتبطت هذه الطريقة التقليدية فى تنظيم محتوى المنهج وتركيزه حول المادة فى إنجلترا بعملية التخصص Specialisation، والتخصص كما سبق أن رأينا شكل من أشكال النظرية الأساسية. ويتم التدريس بواسطة مدرس متخصص متعلم ومدرب بشكل جيد. وهناك بعض المواد الاختيارية التى تقدم للتلاميذ ليختاروا من بينها ما يرغبون فى دراسته. والمدرس هو الذى يحدد محتوى المنهج ويقوم بتنظيمه وتدريسه وتقويمه فى فصل دراسى مستقل Self - Contained Class-room. ولكن عملية التخصص فى دراسة المواد وخاصة فى نهاية المرحلة الثانوية قد حالت دون إتمام عملية التكامل بين المواد التى يدرسها الطلاب. فالتكامل بين المواد التى يدرسونها، وإيجاد العلاقات بينها ما زالت هى مشكلة المناهج الإنجليزية حتى الآن.

يقول هولمز: «لقد دارت مناقشات فى هذه المسألة بعد الحرب العالمية الثانية كان الهدف منها تحديد تنظيمات معرفية كل منها له تركيبه ونطقه الداخلى الخاص. وكان ذلك هو التبرير المقبول لاشتمال هذه التنظيمات فى المنهج. وبالرغم من ذلك فقد كان هناك تربويون آخرون يصرون على ضرورة إيجاد التكامل بين المواد

الدراسية حتى تكون مناسبة وذات معنى للطلاب فى هذه المرحلة»[١]. وقد عمدت بعض التعديلات التى حدثت فى المناهج الإنجليزية إلى ربط المواد المتجانسة ببعضها كربط المواد الاجتماعية ببعضها، وكذلك الرياضيات، والعلوم الطبيعية. . .إلى آخره.

ولقد سبب التدفق المعرفى المتزايد، وإعادة تنظيم المدرسة الثانوية فى كثير من بلدان العالم مشاكل كثيرة لعملية تطوير المناهج حتى أصبح السؤال الرئيسى هو: كيف نضع خطة لمنهج يستطيع أن يحقق الأهداف الكثيرة والمتنوعة للتربية، وللحاجات الكثيرة للشباب، وأن يخدم فى نفس الوقت المطالب الاقتصادية والسياسية للمجتمع، وكيف يتم اختيار أو انتقاء المحتوى المناسب للمنهج من هذا الكم الكبير والمتزايد للمعرفة الإنسانية؟[٢].

إن التقليد المتبع فى إنجلترا هو أن المدرسين فى مدارسهم يجب أن يقرروا بأنفسهم ماذا يدرسون؟ وكيف يدرسون؟ ولقد حدثت تطورات أخيرة تهدف إلى التخفيف من حدة عملية التخصص، وزيادة عدد المواد المقررة التى تدرس فى السنوات الثلاث الأخيرة من المرحلة الثانوية[٣]. ولكن التركيز كان وما زال دائرا حول الحاجات الأكاديمية والفردية وليست الاجتماعية. ولذلك فهناك كثير من المربين يرون أن المدرسة - رغم إعادة تنظيمها - ما زالت بعيدة عن تلبية الحاجات الاجتماعية.

ولقد سبب التقدم العلمى وتطبيقاته التقانية مشاكل أخرى، وأهم هذه المشاكل، هى مشكلة العلاقة بين التربية الأكاديمية والتربية المهنية[٤]. وأصبح السؤال هو: كيف نكيف العلاقة بين المدرسة والعمل، بحيث تلبى المدرسة الحاجات الاجتماعية الضرورية. ولقد عمدت المدرسة الثانوية فى الولايات المتحدة

---

(1) Holmes, B.op. cit., P.24 .

(2) Ibid.. P.2.

(3) See Schools Council Report 1972-75, London, Evans Menthuen Educational, No.4.

(4) Holmes, OP. Cit.. P.31

إلى إدخال بعض المواد العملية والفنية فى مناهجها كما عمدت إلى زيادة عدد المنتظمين من الطلاب فى البرامج المهنية. لكن الاستجابة كانت ضعيفة وواهية فى إنجلترا. ومع ذلك فقد تم وضع برامج جديدة فى الرياضيات الحديثة، وفى الطبيعة والكيمياء والأحياء. وقد كان الهدف من هذه البرامج والمشروعات هو تقديم المفاهيم العلمية بطريقة تساعد التلاميذ على توسيع المعلومات التفصيلية الخاصة بالعمل ابتداء من المبادئ الأولية[1]. وهكذا بدأت أفكار هذه المدرسة تسير ببطء لكن بثبات نحو أفكار المدرسة المادية السلوكية.

وطرق التدريس المقترحة هنا والمشتقة من فلسفات التربية التى اعتمدت عليها النظرية الأساسية، هى الطرق التى تعتمد على الحفظ والاستظهار والفهم والملاحظة، وذلك عن طريق المحاضرة والمناقشة. وقد تم الأخذ بنظام الزيارات الميدانية، والمعامل العلمية فى عملية التدريس، إلا أن الصورة الإنجليزية للنظرية الأساسية لا يمكن مقارنتها بالصورة التى عليها المدرسة السلوكية الأمريكية السوفيتية فى هذا المضمار.

التقويم:

إن التطبيق العملى للنظرية الأساسية يقترح أن الاختبارات التى تعقد ما هى إلا محاولة للوقوف على مدى التقدم فى الدراسة أو التنبؤ بالنجاح وليست للتشخيص والعلاج، وإعادة تخطيط وتطوير المنهج بناء على نتائج التقويم. وعلى هذا فعملية التقويم هى غالبا عملية ختامية Summative وليست عملية بنائية Formative. وفى ضوء هذا يتم تقويم التلميذ بمقارنته بأعضاء جماعته.

وطبقا لهذا فإن الأنماط التقليدية للامتحانات، كاختبارات المقال والاختبارات الشفوية هى أكثر الأشكال شيوعا لتقدير مدى التقدم فى استيعاب المواد الأساسية. كما تشمل وسائل التقويم أيضا، أنماط الاختبارات العملية التى تقيس مدى التقدم فى المواد العملية والفنية.

---

(1) Ibid.

وقد انتـقد المربون عملية التـقويم على أساس أنها يجب أن تـعتبر كـحوافز إضافيـة لمزيد من العمل الجاد. كمـا يجب ألا تكون شخصيـة، وأن تكون طريقة عادلة لتقدير مدى التقدم. ويجب أن تصمم بحيث تشجع التلاميذ على تغطية كل الموضوعات المقـررة أو معظمها على الأقل. فـالامتحانات يجب أن تكون اخـتبارا جيـدا للكشف عن السمات الشـخصيـة، ولإبراز القدرة على الحوار والمناقـشة فى الكتابة والكلام، ولإبراز القدرة على تلخيص المواد المعقدة. . .إلخ[١].

---

(1) Lawton, D.,Social Change, Educational Theoiy and Curriculum Planning London,U.L.P. 1973, P.69

النظرية الموسوعية Encyclopaedism

الأسس الفلسفية:

تمتد جذور المدرسة الإنسانية إلى النظرية الموسوعية للمنهج Encyclopaedic Curriclum Theory التى تستند إلى فكرة الحكمة الشاملة Pansophism عند كومينيوس Comenius وإلى العقلانية العميقة عند ديكارت Descartes وتصوراته الديكارتية، بالإضافة إلى اتجاهات أخرى لدى الفرنسيين، هيأت الباحثين لرؤية حقيقة المعرفة، والإنسان، والمجتمع لدى أنصار هذه المدرسة، وربطت بين احترام التقاليد وتحقيق الجديد[1]. ورغم البصمات الواضحة لكومينيوس وديكارت هذه النظرية إلا أننا لن نعدم اللمحات المثالية لأفلاطون، والعقلية لأرسطو والواقعية المدرسية - المعدلة عن أرسطو - لتوماس الإكوينى. وقد سبقت الإشارة إلى ذلك.

ولقد اشتقت كلمة الحكمة «Pansophia» من الكلمة اليونانية «Pan» ومعناها «كل» و«Sophia» ومعناها «الحكمة». وموجز فكرة الحكمة يشتمل على ثلاث دوائر أساسية للدراسة وهى: الإله - والطبيعة - والفن. ويرى كومينيوس أن أول الثلاثة متضمن فى الاثنين الآخرين. وأن الطبيعة هى المرآة البسيطة والسلبية للخالق، بينما الفن الذى ابتدعه الإنسان هو المحاكاة الإيجابية له.

وتكشف الحكمة عند كومينيوس عن حقيقة وجود أصول المعرفة لدى كل إنسان وهى المسماة بالأفكار العامة، والرغبات المسماة بالغرائز، وأعضاء العمل التى قد تسمى بالطاقات. وعلى هذه الأسس العامة الموجودة لدى الجميع يجب أن نبنى تربية الإنسان وتعليمه.

ولقد كتب كومينيوس يقول: «نود أن تكون لدينا مدرسة للحكمة العامة الشاملة، بحيث تكون هى المؤسسة التى يتدرب فيها الجميع على كل ما هو ضرورى فى الحياة بطريقة شاملة ويقينية بطريقة شاملة ويقينية، بحيث إن من

---

(1) The yearbook of Education , and Philosophy , Londone , Evens Brothers Ltd., 1957, P.19.

يتدرب فيها لا يلام على معرفته بشيء ناقص، أو فهمه فهما جزئيا، أو عدم تطبيقه بطريقة سليمة، أو عدم التعبير عنه بمهارة[1]. ومن خلال هذا الاتجاه، فإن الحكمة هي الحقيقة التي تشتمل إدراك وتناول الأشياء، والقاعدة العامة التي ترشد إلى التطبيق العلمي لمعرفة الإنسان وأفكاره النظرية. وهي بذلك تشمل كل الضروريات اللازمة لكل من يرغب أن يكون حكيما، ولكون كومينيوس واقعيا، فقد تعرف على جدارة العقل البشري وقوته، كما تعرف على أهمية الملاحظة والارتباط بالواقع والحقيقة.

وتختلف العقلانية والتجريبية عند كومينيوس عن تلك التي رآها ديكارت Descsartes وبيكون Becon، لأنهما نظرا إلى العالم كوحدة متكاملة، وزعما تأليف برنامج عام ومفيد للإصلاح. ولكن لأن الحكمة عند كومينيوس دراية ومعرفة كاملة للعالم، فهي بالتالي دراية بالإنسان باعتباره انعكاسا للكون، ومكملا للحياة[2].

والتعليم يجب أن يكون عملا جادا أكثر من كونه نقلا للمعلومات وتدريبا على المهارات. وقد اعتبره كومينيوس «الخالق» الحقيقي للإنسان، لأنه يساعد على إعادة تطبيع وتطوير إمكاناته. وكانت نقطة البداية هي أن الإنسان يصبح إنسانا بجهوده الإنسانية.

ولقد وصف وضع الإنسان في الحياة - بناء على الحكمة Pansophia عند كومينيوس - بأنه وضع كائن خلاق ومبدع. ومن المفروض ان يستمر الإنسان في عملية الإبداع، وذلك عن طريق الوصول بنفسه وبيئته إلى مرحلة الكمال.

وأفعال الإنسان ليست محاكاة بسيطة للطبيعة، وليست لمجرد تحسين أحوال الحياة اليومية، بل لتصل بالطبيعة إلى درجة الكمال. كما أن إمكاناتها المستقرة فيها

(1) Suchodolski , B., "Comenius and Teaching Methods" in Dobinson, C.,H.ed Comenius and Contemporay Education, Hamburg, Unesco, Instiute of Education 1970, P.41.

(2) See Ibid ., Index .

ستظل كامنة فيها حتى يظهرها الإنسان باختراعاته وأفعاله. فالأفعال البشرية - من وجهة نظر كومينيوس - تعتبر تطويرا خلاقا للحياة وامتدادا مستمرا للإبداع الإلهى(١).

ويجب أن تؤلف مكونات الكون كلا متناسقا. وأهم مكونات الكون هى: الطبيعة، والإنسان، والإله. ويعتبر الإنسان فى مرحلة المتطورة أهم مرحلة فى تطور الحياة، لأنه عالم صغير فى حد ذاته، مرتبط بالطبيعة ومكون من مكوناتها، ولكنه يمتلك طاقات وقدرات بشرية مثل المهارات اليدوية -، ومهارات الحديث، والعقل، والإرادة، والعاطفة، ومهمة التربية هى تدريس وتنمية هذه الطاقات منذ الصغر.

والإنسان هو المخلوق الوحيد الذى يستطيع السيطرة على الطبيعة، وباستطاعته أيضا إحراز السيطرة على نفسه عن طريق عمله وسلوكه وورعه، وهكذا يقترب من مرحلة الكمال الإلهى(٢).

ويعتقد كومينيوس أن التربية هى مفتاح التغيير والتحديث. كما يؤمن بفكرة أن المجتمع يمكن إصلاحه إذا توافر النظام الحكيم الواعى للتربية، والذى بمقتضاه «يصبح سباب الأمة كلهم متعلمين»(٣). وقد كان ذلك تنبؤا منه بالنظام القومى الشامل للتعليم الذى يضم الأطفال من كل الطبقات ويجعلهم يحبون ثقافتهم القومية والعالمية عن طريق اللغة اللاتينية. ولقد وضع كومينيوس خطة للتربية تفيد الجميع كما تفيد كل إنسان على حدة، وأخذ الكون كله ووضعه فى الكتب الدراسية، ونشد فهم الوحدة وإدراك العلاقة بين الأشياء فى هذا الكون.

واطلع كومينيوس على الأفكار الثورية للمفكر الإنجليزى فرانسيس بيكون (١٥٦١ - ١٦٢٦م)، وأدرك أهمية الأسلوب العلمى لحل المشكلات الإنسانية.

---

(1) Ibid ., P.43.

(2) Sadler, J.E.,"Comenius as a Man" in Dabinson, Ibid, P.12.

(3) Capkona, D., "The Recmmendation of Comenius Regrading The Education of Young Children" , in Ddobinson, op., Cit., p.22.

واتبع آراء جون هس John Hus فى اعتـقاده أن الإنسان قـد صنع فى صورة إله! وقد ألقى هذا على عاتق التربية عنده تبعة تعليم الناس، وتنمية مواهبهم الطبيعية. كما ألقى على عاتق الناس تبعة الاستـمرار فى الكفاح طوال حياتهم للوصول إلى الكمال؛ ولذا فـقد ارتأى كومينيـوس أن العملية التـعليمية عـملية مستـمرة طوال الحياة[1]، وتلك هى النظرية الإسلاميـة للتربية التى نقلها علماء النهـضة الأوروبية إلى النظم الحـديثة للتربيـة التى لم تنفذ إلا فى بلدان قـليلة فى العالم حـتى وقتنا الحاضر.

ورغم كل هذه المثالية، فقد كان كومينيوس أيضا واقعيا، وتوصل إلى أنه لن يكون هناك تقدم تجـاه رؤيته ما لم تحـدث تغيرات بعـيدة المدى فى طبيـعة مناهج النظام التعليـمى، وأدرك أن التعارض بين عـالم الإنسان المتغيـر تحت تأثير العلم، وعالم التعليم المعتمد على التذكـر والحفظ من جانب، وعلى عدم الاتصال بالحياة الحقيقية قد سيطر على الرؤية كلها وطالب أن يكون تعليم الأطفال من خلال البيئة المحيطة بهم من جانب، والعالم المعاصر لهم من جانب آخر. ورأى عدم الاعتماد على التـجريد فـى تعليم الأطفال «فـلا يجب تعليم الـكلمات دون الإشـارة إلى الأشياء أو الموضوعات المتصلة بها»[2].

وقد سـاهم رينيـه ديكارت (١٥٩٦ - ١٦٥٠) بدور فعـال فى تطور الفكر التعليمى الموسوعى فى فـرنسا. فقد طور وسيلة لتجاوب العقـل البشرى لأمور ما وراء الطبيـعة. وخلاصـة هذه الوسيلة المعروفـة «بالديكارتية»[3]، وقد عبـر عنها بقوله: «للوصول إلـى الحقيقة لا بد من تفـريغ العقل من كل الآراء والأفكار التى تلقاها، وإعادة بناء نظام جديد قائم على أسـاس النظام المعرفى للإنسان نفسه»[4].

---

(1) Capkona, Op., Cit., P.20.

(2) Ibid., P.21.

(3) The Philosohical works of Descartes, rendered into Englisth by Elizabet S.Haldane and G.R.T Rose Vols. Cambridge University Press, England, 1912.

(4) Kenny, A., Descartes A Study of His Philosophy, New Yourk , Random House Ine., 1968, P.4.

ومن بين كل دروسه التى تلقـاها عندما كان صغـيرا، كانت الرياضيـات فقط هى التى أقنعته بسبب اليقين والوضوح فى منطقيتها ومعقوليتها.

ولقد بين ديكارت أن العلم الكونى يجب إحرازه بتطبـيق الأساليب الرياضية فى كل مجال من مـجالات المعرفة. فكتب يقول: «إن الفلسـفة مثل شجرة كـبيرة جذورها الرياضيات وجذوعها الفيزياء، وفروعها العلوم الأخرى»[1].

وقد امـتدت شكوك ديكارت إلى كل شىء يعـتوره قدر بسـيط من الشك، واعتقـد أن ما يبدو فى الظاهر صلبا من مـعتقداتنا هو من نسـيج حواسنا، ولكن الحواس أحيـانا تخدعنا، وغالبا مـا ننمو ونحن مقتنعـون باعتقادات كثـيرة زائفة. ولمعالجة ذلك لا بد أن نضع - من آونة لأخرى - علامات استفهام أمام معتقداتنا، وعلينا أن نعلو فوق المناقشة لنرى ما تحمل من صدق. والشك - (عند ديكارت) - بالإضـافة إلى ذلك - أسلوب وسـيط، ونمط من أنماط التفكيـر يشفى العـقل من الاعتماد الزائد على الحواس»[2].

إن اليقين فى المعرفـة محال حتى يتوصل العقل إلى معرفـة ماهيته. والعقل باعـتباره شـيئـا كليا هو طاقـة لتناول الأفكار من كل نوع بما فى ذلك العـواطف والإدراكات الحسية. والفهم هو القدرة على الإدراك الواضح المتمايز. والإدراك هو القدرة على القبول أو الرفض. وعلى وجه الخـصوص، هى القدرة على الاعتراف أو الإنكار، وإصدار الأحكام بالسلب أو الإيجاب. وعلى ذلك، فبالفهم وحده لا يقر الإنسان أو يـنكر أى شىء، بل يستطيع فقط أن يستـوعب الأفكار التى يتمكن بها من تكوين رأى أو حكم، وهكذا فـإن العقل وعاء الفكر. الذى يشـمل الفهم والإرادة، وهما قدرتان تملك كل منهما نمطا خاصا من أنماط التفكير.

وبخصـوص التمييـز بين الجسم والعقـل، رأى ديكارت أن هناك نوعين من التمييـز أحدهما جسدى، والآخر عقلى. واعتـقد أن الإنسان لا يعرف الأصل فى

---

(1) Ibid.

(2) Ibid,P.15.

اتحادهما فهل هو ميتافيزيقى أم غير ذلك؟ وسعى ديكارت لإيجاد تمييز بين الحدس Intuition، وما يسميه هو بالخبرة Experince، وأثار تساؤلات عن سبب خلو الرياضيات والهندسة من وصمة الشك وعدم اليقين، وأجاب بأن ذلك يعود إلى اعتمادهما العام على الحدس، فى حين أن غيرهما من الأنظمة المعرفية لا يستغنى عن اللجوء إلى الخبرة الحسية، ونتيجة لذلك فهى عرضة لتأثير الأحكام المتنوعة التى يفترض أن تؤكدها وتبرزها الخبرة.

وبمعنى آخر، فقد رأى ديكارت أن هناك وسيلتين لمعرفة الأشياء هما: الخبرة Experince، والاستنتاج والاستدلال deduction. فبينما تكون خبرتنا بالأشياء خادعة وزائفة، فإن الاستنتاج لا يؤدى إلى الخطأ لأنه يكون أكثر معقولية ومنطقية[1].

وقد رأى ديكارت أن الكائن البشرى لا يمكن اعتباره آلة بسبب قدرته العقلية على التكيف والأداء. وأن أى نشاط بشرى لا يعتمد على الفكر فإنه آلى مثل النشاط الحيوانى، وأن ما يراه الإنسان فإنه يحدد عرضا نتيجة حالة المخ حين الرؤية[2].

وفى برهان ديكارت على وجود الإله. يقرر أن فكرته عن الإله تعنى أن الخالق الأعظم الأكمل، والخالد، واللانهائى، والعالم، والقادر. ويوافق الإكوينى المتأثر بابن رشد فى أنه يمكن إثبات وجود الله عن طريق مخلوقاته. فهل يمكن لنا معرفة الله، ومعرفة العالم الموجود مستقلا عنه؟ ولو كان ذلك كذلك، فكيف؟ ليست هناك معرفة مباشرة بالله، بل يمكن معرفة الله فقط بطريقة غير مباشرة، وكذلك يجب - كما يقول ديكارت - أن تكون معرفتنا بالأشياء الروحية الأخرى الموجودة[3].

---

(1) Smith N .K New Studies in the philosphy of Descartes London, Macmillan & Co.Ltd 1952. PP.224-5.

(2) Kenny , OP Cit., P 218 .

(3) Smith, Op Cit., .227-8.

نظرية المنهج:

تأسست المفـهومات الأساسـية للثقافـة والتعليم فى فرنسـا من خلال النظرة الكونية، والموسـوعية الإنسانيـة والطبيعيـة لكل من كومينيـوس وديكارت ورابليه وروسو. ولقد فرق رابليه بين الجسد والعقل فى الإنسان. وأكد أن الطفل لا بد أن يكرس حياته كلها لمعـرفة الطبيعة، وأن يخصص جـزءا من وقته لزيارة رجال المهن ودراسة أساليبهم، وعلى كل فـرد أن يسهم فى الأنشطة التى تطور كيانه فى نطاق طبيعة الجسدية والروحية»[1].

وقد ظهرت نفس الاتجاهات لدى ديكارت ولكن بصورة أكثر وضوحا وأكثر نظاما، فـقد بين القول والعـمل قيمة الفـعل الشخصى والفـعل الطبيعى. فـفعل الأشياء هو هدف فلسفـته؛ لذا فقد جعل «للتكنولوچيا» مكانا مهـما، واقتنع تماما بضرورة الخبرة والتجـربة «التى تعتبر أكثر ضرورة لدى الفرد كلـما تقدم فى مجال المعرفة». وسيطرة الإنسان على الطبـيعة فى رأيه يجب أن تكون بلا حدود. وساق لذلك مثالا هو إطالة حياة الإنسان «التى تعتبر طموحا قانونيا مرغوبا من طموحات العلم».

وبناء على رأى كومينـيوس وديكارت فإن دراسة العالم المادى أصـبحت أمرا ممكنا بسبب قـدرة الإنسان على التفكير والاستنتـاج: «فالعقل هو خاصـية الإنسان وهو عامل مشترك بين كل الأفـراد؛ ولذلك يمكن تنميته وصقله لدى كل الناس، ويجب على التـعليم أن يتمـركز حـول هذه الغـاية، ويمتـد بالتالى إلى الإنسـان ويشمله كله، طالما أن العقل والفكر شيء كونى فيه»[2].

وهكذا، فإن فلسـفة كـومينيوس وديكارت والآخـرين وجهت العـقول إلى دراسة العلوم «والتكنولوچيا».

---

(1) Wallon, H., "The Philosophy of Education in France" in Faber, M. ed Philosophic Thought in France and the United State. New York , States Universit of New Yourk Press 1968, P. 325.

(2) Ibid.,P.326.

وقد وضع ديكارت، مثل كومينيوس، فكرة الكونية فى المقدمة. كما أن الإنسانية بنيت على العقل، فلا سلطة سواه، ولا مقياس للحقيقة إلا بالمبادئ والأسس التى يضعها وبهذا تبدو الإنسانية والعلم شيئا واحدا، وما زال هذا التفكير سائدا فى التراث الفرنسى حتى الآن.

أما مونتاين Mantaigne، فقد رأى أن «الرأس الجيد ليس هو الرأس المحشو بالمعلومات. وأدان رابليه Rabelais وديكارت التعليم المدرسى الذى كان موجودا، من حيث إنه كان يهدف إلى حشو الذاكرة والإثقال عليها بما لا فائدة فيه. ورأيا ضرورة إتاحة الفرصة للذكاء الإنسانى كى يدرس الطبيعة بحرية فى ضوء مبادئ العقل»[1].

إن كل المناشط الكونية مهمة إذا كانت لا تناقض العقيدة، وكانت تسهم فى تكوين حرية الضمير الأساسية، وتهدف إلى إيجاد ضمير حر قادر على تقرير ذاته، كما تهدف إلى إثارة جهود العقل لدى كل فرد، والأمر الذى نادى كل من كومينيوس وديكارت بالاقتناع به، كما وجها العقول نحو الإدراك التام للإنسانية داخل كل فرد دون قيود أو استثناءات مبنية على الفروق العرقية أو الطبقية.

والإنسان السوى هو الذى يظهر فى شكله الكونى، لأن الإنسان بوصفه إنسانا يجب أن ينسب إلى نفسه قوة الفهم والتفكير والاختيار[2].

وكل أنشطة الإنسان لها فروع ثقافية، وكل تعليم يمكن، بل يجب أن يكون ذا نتائج ثقافية. فالتعليم الإنسانى الجيد يجب أن يهتم بالأساليب الفنية والعلوم والأنشطة الإبداعية، كالفن والإيقاع والتصوير وغير ذلك من المحاولات التى تؤدى إلى تكوين الإنسان السوى. فالمهم هو أن تقدم المدرسة كل ما يساعد الطفل على تطوير مواهبه الطبيعية وميوله[3].

---

(1) Ibid.,PP. 3278.

(2) Ibid.

(3) Ibid., P.334.

وبناء على ما ورد فى حكمة كومينيوس، فإن أحد أهم أهداف التعليم هو أن يأخذ بيد الإنسان من مرحلة الطفولة إلى المراحل الأعلى حتى يحقق الحكمة الكونية للحياة، وهذا معناه أنه لا بد أن يعرف كل الأشياء المهمة التى تمت للطبيعة بصلة، أو للمجتمع الإنسانى، أو للإله أيضا. فالإنسان هو الكائن الذى يتعلم ويتكلم ويتصرف، والتعليم يكون ثلاثى الأبعاد تماما مثل عملية المعرفة.

والمدرسة هى «الورشة الكبرى» التى فيها يشكل الإنسان، وفيها «يصاغ الناس» أى تطور عقولهم وتفكيرهم، وتجعلهم يتقنون لغتهم، وتنمى مواهبهم، وإدارتهم ومهارتهم»[١].

ولتدريب قوى التفكير فإنه لا بد من تحقيق ثلاثة أهداف مهمة: الأول، يجب أن يتحقق العقل مما هو مستوى المعرفة. الثانى: يجب أن يكون العقل قادرا على إجابة السؤال: لماذا تتصرف الموجودات هكذا؟ وهذا هو مستوى الفهم. والثالث: يجب أن يكون العقل قادرا على التطبيق العملى لما تعلم. وهذا هو مستوى المنفعة أو الفائدة[٢].

إن مجالات العمل والحياة فى كل مدرسة يجب أن تتيح للطلاب أفضل الفرص لكى يكونوا رجالا حقيقيين، يدركون الإمكانيات العظيمة للطبيعة البشرية. وطبقا لفكرة أن العالم كل متناسق خلقه الإله الكامل، وفقا للهدف النهائى للحياة فإن عملية اكتساب الإنسان للمعرفة لا بد أن يكون لها هدف أخلاقى. وحتى عملية اختيار المواد الدراسية يجب توجيهها لتدريب القلب والإرادة، بالإضافة إلى العقل والفكر.

ولقد جاء التأكيد على ضرورة تذوق التطور فى جمال الطبيعة، وأفعال البشر فى جميع أنواع العلاقات الإنسانية. فهذا التطور الفنى فى الموسيقى والغناء والتدريب اللغوى والتعليم الدينى لا بد أن يؤدى دوره أيضا فى تدريب القلب والإدارة والفكر والعقل[٣].

---

(1) Suchodolski, Op. Cit.,P.40.

(2) Capkona,Op.Cit.,P.30.

(3) Suchodobski,Op.Cit., P.36.

لقد اتفق كومينيوس مع سقراط Socrates على أن الإنسان خير بطبيعته ووافق فرانسيس بيكون على أن «المعرفة قوة» وانتفاء المعرفة ليس فقط للبحث فى الطبيعة واستقصاء قوانينها، ولكن لتحسين حياة الإنسان نفسه بصفة خاصة، والشئون الإنسانية بصفة عامة، ولقد انتفت المعارف والمهارات والعموميات والمفهومات التى تجعل الإنسان سعيدا وحكيما وتقوده إلى الحقيقة.

وطبقا لوجهة نظره الفلسفية فإن «العالم المرئى قد خلق مزرعة لتربية الإنسان وتنميته، إنه عالم المدرسة»[1]. ولقد كرس كومينيوس اهتماما خاصا لتعليم اللغات الأجنبية، واللغة الأم، كما كرس نصيبا كبيرا من اهتمامه بالعلوم الطبيعية التى اضطلعت بدور مهم فى المنهج المدرسى. وأكد مرارا على أن تعليم الدنيا والعالم الذى حولنا يجب أن يكون أساسا ضروريا لتعليم المواد الأخرى من المجردات.

ووفقا لهذه الفلسفة فإن هناك ثلاثة عناصر إنسانية خاضعة للتغيير فى أى موقف تعليمى صحيح، وهى: العقل، والإرادة، والقدرة على العمل، فالعقل هو العين الداخلية للنفس، والإرادة هى يد النفس التى تسعى لاكتساب المعرفة والسيطرة على الأشياء، والقدرة على العمل تستفيد مما تعلمه العقل وما قدرته الإرادة.

وهناك أيضا ثلاث أدوات لتعليمنا وهى: الحواس، التى تمثل نوافذ النفس، ومن خلالها ندرك الحياة والعالم من حولنا، والتفكير - المتوقف على إدراك الحواس - هو مرآة النفس الذى تعكس ما تأتى به الحواس، وأخيرا الاستنتاج المبدع الذى هو منظار النفس الذى يسمح للإنسان بتعليم أبعد مدى مما تدركه حواسه[2].

والتتابع الصحيح للتعليم يبدأ من الملاحظة، إلى تكوين المبادئ، ثم إلى التعميم فالتطبيق... وهكذا فإن الإدراك الحسى هو الخطوة الأولى فى تعليم

---

(1) Ibid.,P.36.

(2) Ibid.,P.38.

الإنسان، والتأثيرات الحسية يجب أن تتصل بنشــاط التلميذ التعليمى «كما يجب أن تتبع الرؤية الاستماع، وأن يتبع عمل اليد عمل اللسان»[١]. وهكذا يجب أن يكون وحدة بين التأثيرات الحـسية والكلام والفعل فى عملية المعرفـة. ومع ذلك فالمعرفة ليست محدودة بالمرحلة الحسية، فهى تمتد أيضا إلى مجال العقل الإنسانى، والعقل الإنسانى يدرب على التعلم من الأشياء.

والمعارف التى تعلم يجب أن تكون مـتكاملة، فهذا يفيد فـى تعليم الشباب كما يفيد فى البـحث العلمى. والتكامل الواجب هنا هو التكامل فى مناطق المعرفة المختلفة، بحيث يبقى جوهر المادة الدراسية كما هو، ولكن تختلف طرق التدريس حسب نوعية المادة التى تدرس.

ويجب تخصـيص فترة الدراسة الصـباحية لتنمـية الذكاء والذاكرة، والـفترة المسائية لتنمية الأعمال اليدوية والمنزلية، والتدريبات الجسمية.

هذه هى معظم الأفكار الخاصة بنظرية المنهج الموسوعى التى أسهمت بها فى فكر المدرسة الإنسانـية، وسوف نقوم الآن بتوضـيح هذه النظرية عن طريق: تحديد أهدافـها، ومـحتـواها، وطرق وأسـاليب تدبيرها وتنـظيمـها، وطرق وأسـاليب تقويمها.

الأهداف:

تسود هنا حكمـة كومينيوس الموسـوعية وديكارتية ديكارت «التى تـؤكد قوة التفكيـر المنطقى، والاستنتاج، والعقـلانية، والنظام الفعال الذى ينتـقل من المبادئ العامة إلى خصوصيات التفاصيل»[٢]. وهكذا فإن النظرية الأكاديمية تؤكد على نمو عقل التلميذ، ولذا فإن التدريب العقلى هو الهدف الرئيسى للمنهج، كما أن المنهج يجب أن يوجـه العقـول نحو الإدراك الكامل للنـواحى الإنسانيـة الكامنة لدى كل تلميـذ، ويساعده على تنميـة قوى الفهم والعقل، والاخـتيار، كما يسـاعده على تنمية ميوله ومواهبه الطبيعية فيعرف كل ما هو مهم عن الطبيعة والمجتمع والإله.

(1) Ibid.,P.37.

(2) Editor,s Introduction, in The Yearbook of Education,1957,Op.Cit.,P18.

إن عملية اكتساب المعرفـة يجب أن يكون لها هدف أخلاقى، لذا فإن انتقاء المواد والخبرات التعليميـة يجب أن يوجه نحو تدريب القلب والإرادة بالإضافة إلى التفكير والعقل. كما أن انتقاء الخبرات التعليمية يجب أن يوجه إلى النضج العقلى والتحكم فى النفس، واحترام العلاقات الاجتماعية.

كمـا يهدف المنهج أيضا إلى تعليم الـتلميذ احتـرام وطاعة الخيـر والصدق، وطاعة ممثليها، كما يتم التأكد على تعلم الحـقائق والمعلومات واكتساب المعرفة من أجل المعرفة فى حد ذاتها، ومن أجل الانتفاع بها مستقبلا.

إن القراءة والكتابـة والحساب، والحفظ والاستظهـار من أهم وسائل تدريب العـقل. بالرغم من ذلك فإن المنهج يـجب أن يهدف على تدريب التـلاميـذ على التفكيـر التحليلى الواضح، والتحـدى للمعتـقدات المفروضة والأنظمـة السائدة. «فالتلاميذ قادرون على تقرير أفكارهم بوضوح حينما يرغبون»[١].

إن محتوى المنهج لا يبنى على أساس من خبرات التلميذ، وإنما يبنى بحيث يوصله إلى إدراك حكمـة العصر التى تسـاعده فى فهم حـياته المسـتقبلة. «فـهذه النظرية تقـوم على أسس فلسـفـية مـخـتلفـة، ولذلك فهى تحـتـوى على بعض المتناقضات التى منها عدم اسـتجابة المناهج للضغوط الاجتماعـية النابعة من التقدم الصناعى»[٢].

إن كثيرا مما يعلم يركز على الماضى أكثـر من تركيزه على الحاضر والمسقبل، وتلك الأهداف كانت تمثل المعايير التعليمية فى أوروبا الغربية، لأن المنهج التقليدى كان يهـدف إلى تخليد النظام الطبـقى الذى كان ومـازال سائدا إلى حد مـا حتى الآن. «ولذلك فقد انحاز المنهج لكى يـلائم احتياجات الطبقة الثرية، واحـتياجات أولئك الذين قـدر لهم أن يصـبـحـوا زعـمـاء وقـادة للقطاعـات المخـتلفـة من المجتمع»[٣]. وذلك على خلاف المدرسة المادية السلوكية.

---

(1) Chapman B., The Prefects and the Provinical France,London, G.Allen.1955,224.

(2) Ibid.

(3) Holmes, B., "Social Change and The Curriculum", in The Yearbook of Educatio 1958, London, Evans, Brothers, 1958,P. 379.

«إن مناهج المدرسة الثانوية فى معظم بلاد أوروبا تحمل نفس الطابع، ومن الصعوبة بمكان إحلال قواعد أو أسس غير تلك التى ترتبط بنظريات المعرفة والمجتمع، وقيمة الفرد. وحتى حينما عدل النمط المعيارى لكى يتضمن المنهج أهدافا أخرى جديدة، فإنه اتخذ موقفا متصلبا حيال ذلك التعديل»[1]. وباختصار، فقد ثبت أن الابتكار فى أهداف المنهج أمر بالغ الصعوبة. ويضاف إلى ذلك صعوبات تنظيمية أخرى من أهمها مشكلة تعديل المنهج كى يواكب التغيير الاجتماعى.

ومهما يكن من أمر، فإن التطور الحديث فى فرنسا يسير فى نفس الخط مع وجهة نظر كومينيوس التى تؤكد أن التعليم يجب أن يتيح للطلاب أحسن الفرص لكى يكونوا رجالا حقيقيين مدركين للإمكانات العظيمة للطبيعة البشرية. ومقدرين عمليا ما تعلموه[٢].

وقد أكدت التطورات الحديثة أهمية التطوير على المدى الطويل، كما أكدت أهمية الحاجة إلى التطوير الكمى والنوعى للديمقراطية[٣]، وهذا معناه التأكيد على المضمون الإنسانى للمنهج، وتحسين العلاقات بين المدرسة والمجتمع، وتحسين عملية إعداد الطلاب مهنيا وفنيا.

(1) Idib., P.377.

(2) Beraday, G., Comparative Method in Education, New York, York, Holt, Rinehalt Winston, NC., P. 127.

(3) King,E., Other Schools and Ours., London,Holt, Rinehart & Winston, 4th ed. 1973,P. 166.



وتؤكد النظرية الموسوعية «على أن كل معارف العالم الحقيقى مفيدة، ويجب أن تكون متضمنة فى المنهج. وأما من الناحية التطبيقية، فقد أكد الموسوعيون أهمية اللغات الأجنبية والعلوم والمواد التطبيقية، أكثر من اللغات الكلاسيكية الدائمة والمواد الأدبية»[1]. وبالرغم من ذلك فما زالت هناك جهود تبذل حتى الآن فى فرنسا لإقصاء سيطرة اللغات الكلاسيكية. «وربما تكون قوة اللغات الكلاسيكية الدائمة مرتبطة بالإصرار على نظام المرحلة الثانوية المنوعة إلى أكاديمية، وفنية، وابتدائية ممتدة»[2] وحتى فى المدارس الأكاديمية غير الكلاسيكية، فشلت مواد اللغات الحديثة والعلوم والرياضيات فى هدم الوضع المتميز للغات الكلاسيكية.

وقد أظهرت الممارسة «أن التفجر المعرفى بالإضافة إلى الحاجة إلى البحث المتخصص، قد سبب مشاكل خطيرة فى البلاد التى ما زالت مناهجها تسير وفق النظرية الموسوعية، وأن شعورا قويا قد ظهر بالحاجات إلى الدراسات العميقة فى السنوات التى تسبق المرحلة الجامعية مباشرة، وخاصة فى تلك المواد التى يرغب الطلاب فى دراستها بالجامعة والمعاهد العليا. واليوم هناك الكثير من المقترحات التى تقدم من أجل إحراز التوازن بين المطالب المتضاربة لمؤيدى الاتساع الأفقى القائم الآن فى السنوات الأخيرة من التعليم الثانوى وبين مؤيدى الاتساع الرأسى الذين يرون ضرورة الاقتصار فى هذه السنوات على مجموعة المواد التى يرغب الطالب فى استمرار دراستها فى المرحلة الجامعية»[3].

إن مناهج المدرسة الثانوية الأكاديمية فى البلاد التى تأثرت بالنظام الموسوعى الفرنسى تضم عشر مواد أو أكثر، وذلك مثل مصر والجزائر بصفة خاصة. وبلاد شمال أفريقيا بصفة عامة. «إن رجال التعليم فى البلاد التى تبعث النظرية الموسوعية يجاهدون الآن لاستبقاء التعليم القائم على قاعدة معرفية عريضة، بينما

---

(1) Holmes, B., IBE, Op, Cit., P.23.

(2) Ibid.,P24.

(3) Ibid.,P.25.

يحاولون من جانب آخر أن يقللوا عدد المواد، وبخاصة التى تدرس فى سنوات ما قبل الجامعة»[1].

إن مناهج هذه البلاد التى تتبع النظرية الموسوعية تهتم بدراسة الرياضيات والعلوم الطبيعية واللغات الحديثة، والعلوم الاجتماعية. وأى تأكيد على أى جانب من جوانب المحتوى ينعكس على نظام التقويم لهذه المناهج، كما ينعكس على اختيار الطلاب للمواد الحرة أو الاختيارية[2].

وقد سببت الثورة العلمية وتطبيقاتها التكنولوچية نوعا آخر من أنواع المشاكل للمنهج، وذلك مثل العلاقة بين التعليم الأكاديمى والتعليم المهنى، وبين المدرسة والعمل. وقد بذلت جهود كبيرة فى البلاد التى تتبع المنهج الموسوعى كمصر لتغيير محتوى العلوم الطبيعية، كما «صممت برامج جديدة للرياضيات الحديثة لتقدم أفكارا علمية تمكن الطلاب من توسيع معارفهم التفصيلية». أما فى فرنسا فقد أدخل فى المنهج بعض المقررات الفنية والعملية للطلاب من سن ١٦ إلى ١٨ فى الكليات العملية، كما قدمت بعض المقررات المهنية اللازمة للالتحاق بالمصانع للتلاميذ فى سن ١٥ سنة[3].

ومن العرض السابق لمحتوى منهج المدارس الثانوية، أو سنوات ما قبل الجامعة تتضح مدى أهمية أن تكون مناهج المدارس الثانوية المتوسطة فى النظام الفرنسى، والمدارس الإعدادية (فى النظام المصرى والعربى بصفة عامة) متكاملة. وهذا هو الحاصل بالفعل، حيث يدرس التلاميذ جميعا مقررات اختيارية فى المدارس الثانوية والمتوسطة فى فرنسا، وعدم وجود هذه المقررات الاختيارية فى نظيرتها المصرية والعربية عموما.

---

(1) Ibid.

(2) Ibid.,P.34.

(3) Ibid.

تنظيم المحتوى وطرق التدريس:

يقوم بتحديد المضمون مجموعة من الخبراء الذين يعطون قيمة كبيرة للعقل والترتيب المنطقى للمواد الدراسية. أما مشاكل التلاميذ واهتماماتهم فتجىء فى المرتبة الثانية من الأهمية.

وطبقا لهذه النظرية فإن التنظيمات المعرفية مختلفة التدريس كل بمعزل عن الآخر. كما أن الطريقة المتمركزة حول المادة الدراسية تتبع أسلوب الخطوة خطوة فى اكتساب التلاميذ للأفكار والحقائق. ونادرا ما يتوقع أن يشجع المدرسون التلاميذ على الاستنتاج والاكتشاف بطريقتهم الخاصة. كما تتضمن طريقة التدريس استخدام الأنشطة الشفهية المكثفة التى تعتمد على كثير من المحاضرات والتلقين وعلى قليل من المناقشات والأنشطة.

وإعداد المدرس الأكاديمى يأتى بالدرجة الأولى عن طريق الدراسة الموسوعية لعدد كبير من المواد. وإعداده المهنى أقل بكثير من إعداده الأكاديمى؛ ولذلك فهو مدرب على المواد التى يدرسها أكثر من تدريبه على كيفية تدريسها. فما عليه إلا أن ينقل المضمون المفروض عليه عادة إلى الطلاب، ويساعدهم على استيعابه. والتدريس فن إلا أنه فن نقل مهارات العقل والمنطق إلى الآخرين، وعلى الدارس أن يستوعب المضمون دون معارضة أو تمحيص للمضامين. والنتيجة هى سيادة المدرس فى الفصل الدراسى.

وإذا كانت مصر ومن حذا حذوها من البلاد العربية ما زالت تمارس هذا التنظيم غير المتكامل لمحتوى المنهج، وهذه الطريقة التقليدية فى التدريس فى معظم الأحوال، فإن فرنسا قد تخلصت بالتدريج من بعض هذه التقاليد، وخاصة بعد ثورة الجامعات عام ١٩٦٨. فبدأت المناهج تتحول تدريجيا من النظر إلى الماضى والالتفات والتمركز حوله إلى الاهتمام بالحاضر والمستقبل. كما تم التحول إلى أساليب التدريس التى تعتمد على المناقشة واستخدام الوسائل العلمية الحديثة. وازداد الاهتمام بتدريس المواد العلمية والتقنية. وتكاملت المواد الاجتماعية كلها من

التاريخ والجغرافيا والمواد القومية والإنسانية كلها تحت ما يسمى «بالعلوم الإنسانية».

التقويم:

إن أساليب التقويم قد لا تكون واضحة في الفلسفة لهذه النظرية. وبدهي أن يكون الاختيار واسعا، ولكنه لن يغطي المادة المدروسة. وبدهي أيضا أن يكون الاختبار عملية تقويم للتفكير وللمعرفة خاصة ذات المعلومات الحقيقية. وأن يركز على التفكير التحليلي، ونضج العقل. كما يكون انعكاسا للأهمية المعاطاة لكل مادة من المواد.

وتبنى معايير الاختبارات على أسس عقلية. وتدفع المنافسة في الاختبارات الطلاب لأن يجدوا في تباريهم معتمدين في ذلك على أساليب الامتحانات التقليدية.

وبدهي أيضا أن تكون عمليات الاختبار عموما ختامية، يقصد بها معرفة النتائج والانتقال إلى الصفوف الأعلى.



النظرية الموسوعية والازدواجية فى الثقافة
وفى الشخصية المصرية والعربية
أثر النظرية الموسوعية على المناهج المصرية

تتبع المناهج المصرية بصفة عامة، ومناهج التعليم العام بصفة خاصة المدرسة الإنسانية الموسوعية فى التفكير. فهناك قناعة عميقة لدى معظم المسئولين عن المناهج فى مصر بأن كل معارف العالم الواقعى مفيدة، ويجب أن تكون متضمنة فى محتوى المنهج، وأن كل جديد أو مستحدث يجب أن يضم إلى ما يدرسه الطلاب بالفعل. وعلى ذلك نجد أن محتوى المنهج يؤكد - فى وقت واحد - على أهمية دراسة اللغة الأم وآدابها، واللغات الأجنبية، والرياضيات، والعلوم الطبيعية، والعلوم الاجتماعية. وقد أضيف أخيرًا دراسات تتصل بعلوم البيئة والسياحة والكمبيوتر لأهميتها فى الحياة المعاصرة. وبهذا يتكون محتوى المنهج من حوالى عشر مواد على الأقل.

وقد أصبح هذا الموضوع مثيرًا للتساؤلات والجدل والتناقضات بين أنصار التوسع الأفقى فى المحتوى، وهم الكثرة الغالبة، وأنصار التوسع الرأسى وهم قلة. إلا أنه فى السنوات العشر الأخيرة ظهرت الحاجة الملحة إلى الدراسات المتعمقة وخاصة فى المواد التى ينوى الطلاب أن يتخصصوا فيها فى المرحلة الجامعية؛ ولذلك فقد عمدت وزارة التربية إلى تشعيب السنتين الأخيرتين منها إلى ثلاث شعب: أدبى، وعلمى، ورياضيات، وبالرغم من ذلك فما زال الطلاب يئنون تحت وطأة المواد الكثيرة التى يدرسونها. وهناك دراسات كثيرة ترى ضرورة إلغاء التشعيب فى التعليم الثانوى، لأن التخصص المبكر يؤدى إلى ضيق الأفق والفقر فى المرونة العقلية والنفسية.

وعلى هذا فنحن نرى - عكس ما هو شائع فى مصر - أن مناهجنا وممارستنا التربوية فى مصر ليست متأثرة بالأفكار والأنظمة التربوية الإنجليزية، بل

بالمدرسة الموسوعية الفرنسية، والأنظمة التربوية الفرنسية، وأن أفكار كرومر الإنجليزى ودانلوب الأسكتلندى لم تتجاوز بعض الشكليات فى نظام ومناهج التعليم المصرى. وهى شكليات كانوا يحتاجونها لإحكام القبضة على زمام الأمور فى مصر.

ازدواجية التعليم فى مصر والعالم العربى:

لكى نفهم التأثير الفرنسى على النظام التعليمى فى مصر بصفة عامة، وعلى المناهج بصفة خاصة، فلا بد من العودة بالتاريخ إلى الوراء، إلى أيام محمد على. لقد اعتاد كثير من الكتاب أن يؤرخوا لمصر الحديثة بقدوم محمد على إلى الحكم عام ١٨٠٥، أى بعد هزيمة الحملة الفرنسية على مصر وعودتها إلى فرنسا ببضع سنين.

محمد على والثقافة الفرنسية:

ولد محمد على فى ميناء مقدونى صغير على بحر إيجه. وقد عنى به فى صباه وشبابه وقدمه للثقافة الفرنسية تاجر فرنسى[1]. وقد اعتاد محمد على أن يفخر بأنه ولد فى نفس العام الذى ولد فيه نابليون. وكان محمد على متأثرًا تأثرًا كبيرًا بالرؤى السياسية لنابليون، كما كان معجبًا بشجاعته وقيادته الحربية. وكان لهذا أثر كبير فى حياة محمد على وأعماله بعد ذلك. قدم محمد على إلى مصر ضمن القوة الألبانية التى أرسلها السلطان العثمانى لإخراج الفرنسيين من مصر التى كانت فى ذلك الوقت تابعة للخلافة العثمانية.

وكانت التربية فى مصر قبل قدوم محمد على مقصورة على النظام الأزهرى، الذى يبدأ بالكتاب فى القرية. وكان الكُتّاب يهتم بتعليم القراءة والكتابة والحساب وحفظ القرآن الكريم. وبعد انتهاء التلميذ من مرحلة الكتاب، يذهب

(1) Morsi, M., Education in Egypt: Retrospect and Prospect, in Sullivan, J., (ed) Egypt in Perspective, Cairo, The American University in Cairo Press, 1975, P 79.

إلى الأزهر ليكمل تعليمه فيه، والذى يوازى ما يعرف الآن بالتعليم الثانوى والعالى.

وعندما جاء محمد على إلى مصر قرر أن يبدأ حياة جديدة، وأن يستقل بمصر عن الخلافة العثمانية. ولكى يحقق طموحاته كان لابد له من أن يكون جيشًا قويًا. ويبدو أن شجاعة نابليون وقوة جيشه كانت مثلاً يحتذيه محمد على، فقد تبنى من البداية أسلوبًا نفعيًا فى تعليم الناس من أجل القيام بالأعمال الإدارية والفنية التى تستلزمها الإدارات الحكومية والعسكرية. وكما يقول أمين بقطر: «محمد على مثل نابليون كان مغرمًا ببناء جيش قوى كى يسيطر به على أجزاء كثيرة من العالم»[1] ومن أجل خدمة هذا الغرض فقد قام محمد على على الفور ببناء نظام للتعليم على غرار النظام الفرنسى، لكن الهدف الأساسى منه كان خدمة الإدارات الحكومية والعسكرية وإمدادها بالموظفين الإداريين والفنيين. وكان الإشراف على المدارس من اختصاص الإدارة الحربية. كما كان التلاميذ يمنحون رتبًا عسكرية على أعمالهم فى المدرسة.

وقد بدأ محمد على الهرم التعليمى من أعلاه. وأوحى إليه اتصاله المستمر بالفرنسيين بفكرة أن أول ما يحتاج إليه هو الأطباء المثقفون ثقافة فرنسية. فأرسل عام ١٨١٦ اثنى عشر خريجًا من الأزهر كانوا قد نجحوا فى تعلم اللغة الفرنسية لدراسة الطب فى فرنسا. وقد عاد هؤلاء عام ١٨٣١ وهم يحملون درجات علمية فى الطب، وعينوا أساتذة فى مدرسة الطب التى كانت قد بدأت فى مصر ذلك الوقت[2]. وقد أرسل محمد أيضًا بعثة أخرى مكونة من ٣١٩ طالبًا لدراسة فروع العلم المختلفة فى باريس وميلانو، وفلورانس[3]. وقد عاد أغلب هؤلاء عام

---

(1) Bocotor, A., School and Society in the Valley of The Nile, Cairo, Elias Moder Press, 1936, P.11.

(٢) عبد الرحمن الرافعى: تاريخ الحركة القومية فى مصر، الجزء الثالث، ص٤٤٦.

(٣) المرجع السابق، ص٤٥١.

١٨٣٤ إلى مصر. وقد استقبلهم محمد على باحتفال رسمى، وأعطى كلا منهم كتابًا باللغة الفرنسية فى مجال تخصصه ليقوم بترجمته إلى العربية. وقد أقفل القلعة على هؤلاء المبعوثين العائدين ولم يسمح لأى منهم بالخروج منها إلى الحرية إلا بعد أن يتم الهدف الذى كلف به. وقد طبعت هذه الكتب المترجمة، واستخدمت بعد ذلك ككتب دراسية فى المدارس العليا المختلفة التى بدأ النظام التعليمى بإنشائها. ومنذ ذلك الوقت ومناهج الثانوية فى مصر تتبع النمط الفرنسى «الذى وجد على الفور تربة خصبة فى وادى النيل البكر»[1].

وعلى ذلك يمكن القول[2]، بأنه منذ قدوم الحملة الفرنسية على مصر عام ١٧٨٩ بعساكرها وخبرائها فى مختلف فروع المعرفة، ومحاولتهم «فرنسة الحياة الثقافية والاجتماعية فى مصر»، هذا بالإضافة إلى ما فعله محمد على، منذ ذلك الوقت وحتى نهاية النصف الأول من القرن العشرين، كل ذلك جعل الطبقة المثقفة فى مصر فرنسية فى تربيتها ولغتها، وعاداتها وطعامها، وآداب المعاشرة الاجتماعية الذى تتبعه. وقد تأثرت الطبقتان الوسطى والأرستقراطية بوسائل الثقافة الفرنسية التى كانت متوافرة فى مصر فى ذلك الوقت كالصحف، والمجلات والكتب المترجمة والمدارس ومراكز الثقافة الفرنسية. . إلخ.

كانت المدارس الفرنسية السائدة والمنتشرة فى القاهرة والإسكندرية والمدن الكبرى تفوق بكثير نظيراتها الإنجليزية والأمريكية.

وربما كان الأقرب إلى الحقيقة فى تفسير عدم قضاء الإنجليز على المدارس الفرنسية والأمريكية، ومدارس التبشير الأخرى التى كانت موجودة وسائدة حتى أثناء الاحتلال الإنجليزى، وهو وحدة الهدف. فقد كان الهدف لدى الجميع - بما فى ذلك أبناء محمد على أنفسهم الذين أرادوا أن يجعلوا مصر قطعة من أوروبا!- إبعاد المسلمين عن الإسلام، وإبعاد الإسلام عن حياة الناس.

---

(1) Boctor, Op., Cit138.

(٢) انظر فى هذا الموضوع: تاريخ الجبرتى.

إذن - فقد كان تغريب الحياة المصرية - وبالتالى الحياة العربية - وإبعادها عن الإسلام هو هدف الجميع وهذا يفسر لنا عدم تعرض الإنجليز قطعًا للمؤسسات كالمدارس والمعاهد التبشيرية الفرنسية وغيرها أثناء الاحتلال الإنجليزى. فرغم حرص إنجلترا على طرد النفوذ السياسى الفرنسى، إلا أن دول أوروبا قد تتنافس فيما بينها على النفوذ والمغانم تنافسًا عنيفًا يؤدى إلى الحرب بين الحين والحين، لكنها إزاء محاربة الإسلام، ومسخ حياة المسلمين عن طريق إبعادهم عن الإسلام، تتساند، ويحمى بعضها مصالح بعض!.

ومع ذلك فقد خطط كرومر ودانلوب، ووضعا سياسة تعليمية لتشويه الحياة الإسلامية فى مصر. وبالطبع كان الأزهر هو مفتاح الحياة المصرية. ومن هنا حول دانلوب التعليم فى الأزهر... رويدًا رويدًا، من شرف تتسابق إليه الأسر الغنية قبل الفقيرة، إلى كارثة لا تحل إلا بالفقراء الذين ينالون جزاء فقرهم ضياعًا وهوانًا فى المجتمع، وذلك عندما أنشأ المدرسة الابتدائية التى تخرج الطبقة الجديدة، التى يعمل أبناؤها فور تخريجهم فى دواوين الحكومة والوظائف المدنية الأخرى، بينما خريج الأزهر الذى قضى فى الدراسة ما يقرب من عشرين سنة لا يجد عملاً!

وحوربت اللغة العربية حربًا شعواء؛ فمنع التدريس بها خمسة عشر عاما من نهاية القرن التاسع عشر إلى بدايات القرن العشرين، فبينما يتقاضى خريجو المدارس الجديدة - أبناء الطبقة الصاعدة، الذين يلوون ألسنتهم برطانة المستعمر، ويفاخرون بها - اثنى عشر جنيهًا فى الشهر، فإن مدرسى اللغة العربية من أصحاب المؤهلات العليا لا يكاد يصل مرتب الواحد منهم إلى أربعة جنيهات شهريًا... وهكذا مضت سياسة التغريب على الطريقة الإنجليزية أثناء الاحتلال[1].

وهكذا نرى أن الحملة الفرنسية، ومحمد على وأبناءه قد نجحوا فى «فرنسة» الحياة الاجتماعية والتربوية فى مصر منذ بداية القرن التاسع عشر وحتى نهاية النصف الأول من القرن العشرين.

---

(١) انظر: محمد قطب: واقعنا المعاصر، المملكة العربية السعودية، جدة، مؤسسة المدينة للصحافة والطباعة والنشر، ط١، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م، ص٢١٥ - ٢١٩.

كما خلقت الازدواجية فى الثقافة وفى الشخصية المصرية والعربية وقد أدى ذلك بالعالم العربى كله - بما فيه مصر بالطبع - إلى معاناته من مشكلة تربوية خطيرة. وتتمثل هذه المشكلة فى حياته أمام النظام التربوى الذى يسير عليه. فهناك من يدعو إلى العودة إلى المنهج الإسلامى، وهناك من يدعو إلى التجديد والمعاصرة ونسيان الإسلام. وقد أدت هذه الحيرة والتخبط إلى ازدواجية فى الثقافة، وبالتالى فى الفكر التربوى، ثم فى الإنسان نفسه.

إن تغييب التصور الإسلامى الصحيح لمناهج التربية القادرة على قيادة الحياة، وعلى التغير والتطور هو المسؤول عن الفوضى التربوية فى العالم العربى، كما أنه المسؤول أيضًا عن الانبهار بالفلسفة الأمريكية والغربية عمومًا التى تحاول أقطار العالم الإسلامى تقليدها، وكانت النتيجة هى الفشل لعدم ملاءمة هذه الفلسفات لعقيدتنا وتراثنا الحضارى والثقافى، ومن ثم أصبحت مناهجنا عاجزة عن تكوين المسلم القوى فى عقيدته ومبادئه، والموصول بتراثه، والمتمكن من مستحدثات العصر مع الحفاظ بأصالته فى نفس الوقت[1].

وليس أمامنا - فيما أعتقد - إلا أن نحلل ممارستنا التربوية وأفكارنا الكامنة خلفها فى ضوء المبادئ التربوية الإسلامية، فما وجدناه متفقًا مع هذه المبادئ احتفظنا به، وما وجدناه مختلفًا معها وغير مفيد هجرناه. وينطبق هذا على التعليم العام والتعليم الأزهرى فى مصر وفى الأقطار العربية الأخرى. حيث يجب أن لا يوجد نظامان للتعليم، وبالتالى ثقافتان، ونمطان للإنسان المسلم فى كل قطر عربى!.

ويمكن إيجاز الإستراتيجية المقترحة فى النقاط التالية:

أولاً: دعم الفلسفة العربية الإسلامية، ورؤاها للكون والإنسان والحياة وقيمها الثابتة للعدالة والحرية والوحدة، والإحسان فى العمل

(١) آمال حمزة المرزوقى: النظرية التربوية الإسلامية ومفهوم الفكر التربوى الغربى، جدة، المملكة العربية السعودية، شركة المدينة المنورة للطباعة والنشر، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م، ص١٥٤.



بالإبداع فيه والابتكار، وذلك كإطار مرجعى للتربية والتعليم، والثقافة والإعلام والفنون والآداب.. إلخ

ثانيًا: دعم الثقافة الإسلامية العربية بما يتسق مع الفلسفة السابقة - وجعلها عاملاً رئيسيًّا لوحدة الأمة وتماسكها، وعنصرًا أساسيًّا فى تواصلها الحضارى مع الاحتفاظ بدورها المتميز فى المحيط الإنسانى، وحقها فى الإشعاع والتواصل، باعتبارها أمة واحدة ذات تراث حضارى ضخم، تسعى من خلال تفاعلها المعاصر إلى النهوض والتقدم.

ثالثًا: الاهتمام باللغة العربية باعتبارها مفتاح شخصية الأمة، وجوهر هويتها، والحارس الأمين على ثقافتها الأصيلة والمعاصرة، وذلك بتطوير التشريعات والسياسات الخاصة بجعلها لغة التعليم فى جميع المراحل، وتيسير تعليمها وتعلمها، وتعريب التعليم فى مؤسسات التعليم العالى، وتعريب المصطلحات والمفاهيم لتمكينها من التعبير عن كل ما هو جديد، والإضافة إليه بالابتكار والابداع.

رابعًا: الاهتمام بمهنة التعليم باعتبارها مهنة صناعة الإنسانية، والأساس فى رقى الإنسان وتقدم المجتمع. ويكون ذلك بالدرجة الأولى عن طريق تعزيز مكانة المعلمين الأدبية والمادية والاجتماعية، ورفع مستوى تنظيماتهم المهنية والثقافية والاجتماعية، وربطها بالمؤسسات التعليمية عامة وكليات التربية والمعلمين بصفة خاصة، وحفز العناصر المتميزة على الانخراط فى هذه المهنة المقدسة.

خامسًا: التأكيد على ضرورة تحقيق إلزامية التعليم الأساسى حتى نهاية المرحلة الثانوية، وعدم تشعيبه، والارتقاء بكفاءته فى بناء شخصية الإنسان العربى، والحفاظ على هويته. ويقتضى ذلك استيعاب الملزمين استيعابًا كاملاً ذكورًا وإناثًا. فمن العبث الحديث عن الأمية ورصد الأموال وتصميم البرامج للقضاء عليها فى نفس الوقت الذى لا يتم فيه استيعاب الملزمين فى التعليم الابتدائى!.

سادسًا: تطوير التعليم الثانوى العام بحيث يصبح متكاملاً وموحدًا للجمع، قنوات الاتصال بينه وبين التعليم العالى. وتوزيع التلاميذ فى التعليم العالى على أساس القدرات والميول والرغبات لا على أساس تنسيق الدرجات. وتطوير مناهجه وطرائق وأساليب التدريس فيه والتقويم، وتحديث تقنيات التعليم بما يخدم أهدافه، ويدرب على أساليب حل المشكلات فيه.

سابعًا: تحرير التعليم الوطنى والقومى من الضغوط الخارجية، وذلك من خلال التأكيد على الطابع الإسلامى العربى والقومى والاهتمام بمواد التاريخ، والجغرافيا واللغة العربية، والتربية الدينية، وأيضًا من خلال الحد من ظاهرة المدارس الخاصة ذات الطابع الأجنبى التى لا تستخدم اللغة العربية فى التعليم والتعلم، وتركز بدلا من ذلك على لغاتها، وعلى طابعها الثقافى الخاص، الأمر الذى يؤدى إلى تدنى مستوى الولاء القومى، وانفصام الشخصية، والعداء للثقافة الوطنية والنفور منها، وهجرة المتميزين من أبناء الوطن فى النهاية أن يقودوا المجتمع فى مسعاه الصاعد نحو التقدم، الرقى.

ثامنًا: تقليص مركزية التعليم الحادة فى أقطار العالم العربى، وذلك لتخفيف العبء عن ميزانية الدولة، وتشجيع المواطنين على المشاركة فى تحمل أعباء التعليم، وذلك بأن يترك شأن التعليم للمحافظات أو المقاطعات أو الإمارات المختلفة تديره بما يتسق مع طبيعتها الجغرافية والاقتصادية وحاجاتها وعدد سكانها، ونوعية الحرف والمهن فيها، وأن يتقلص دور وزارات التربية والتعليم المركزية فى الإشراف على المستوى التعليمى العام داخل القطر، والحفاظ على الهوية الإسلامية والشخصية القومية من خلال عدد من مواد المنهج المحورى ذات الطابع القومى التى تدرس فى جميع أنحاء القطر أو المملكة أو الجمهورية، ومن خلال ميزانية سنوية توزعها الوزارات المركزية على

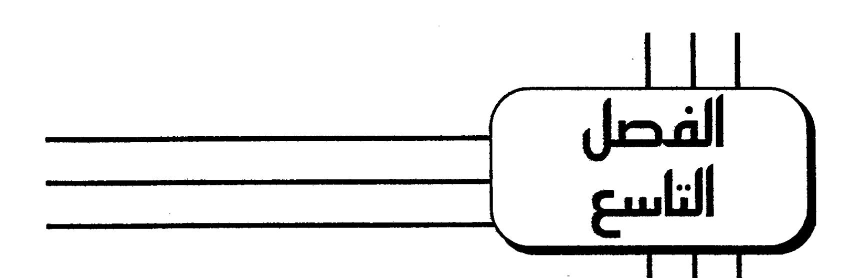


المناطق والمحافظات حسب عدد سكانها على أن تقوم كل محافظة أو منطقة بتمويل التعليم فيها بطريقتها الخاصة من خلال ضريبة التعليم والتبرعات المالية والعينية المختلفة لأبناء كل محافظة أو مقاطعة، بالإضافة إلى حصتها من الميزانية القومية السنوية.

تاسعًا: تحديث نوعية التعليم العالى والجامعى والتوسع فيه، وتشجيع البحث العلمى بما يتسق مع مشكلات التنمية الاقتصادية والاجتماعية. وتشجيع التعليم المستمر عن طريق الوسائل والمستحدثات المختلفة مثل: الجامعة المفتوحة والتعليم بالمراسلة، والبرامج التدريبية وتطوير سياسة القبول بالجامعات بحيث يراعى فيها الميول والقدرات والرؤى المستقبلية، وليس مجرد تنسيق الدرجات.

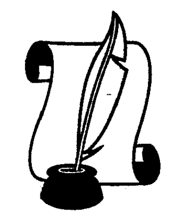
عاشراً: الاهتمام بتنمية الموارد البشرية عن طريق الاهتمام بالموهوبين والمعاقين، وعن طريق تدريب القادة والفنيين والكوادر عالية التخصص، ومتوسطة التخصص، ومدربى المتدربين، وتهيئة الظروف لحفز المتخصصين على البقاء فى أرض الوطن للمشاركة فى قيادة عملية التنمية.

حادى عشر: الاهتمام بالدراسات الإستراتيجية والمستقبلية، عن طريق إنشاء مركز عربى للدراسات الإستراتيجية والمستقبلية، وتحديد أولويات هذه الدراسات فى ضوء دعمها لوحدة الأمة، وتعزيزها للعوامل السياسية والاقتصادية والاجتماعية التى تقودها نحو التعاون والتكامل وتحويل رؤاها المستقبلية إلى واقع عملى، وتقويم الإنجازات فى ضوء الأهداف المنشودة.



الفصل التاسع

المدرسة المادية السلوكية وموقف التربية العربية الإسلامية منها





النظرية النفعية Pragmatism

الأسس الفلسفية:

فى منتصف القرن الثامن عشر تقريبًا بدأت قضية الاستخدام العلمى للتربية، بما لها من دوافع ضاربة الجذور فى النواحى الفلسفية والسياسية والاقتصادية تظهر فى الولايات المتحدة بصفة خاصة.

وقد وضع الخطة التفصيلية للنظرية النفعية فى التربية بنجامين فرانكلين Benjamin Franklin فى تقريره المتعلق بتربية الشباب فى بنسلفانيا عام ١٨٤٩[١]. وكانت خطته علمانية الاتجاه، كما أنها وضعت فلسفة تربوية جديدة تقوم على أساس عملى وواقعى ونفعى. وأعطت الخطة اهتمامًا كبيرًا للتدريب المهنى، والإعداد العملى الذى أشاع النشاط فى الزراعة والصناعة والتجارة. وبهذا ظهر بنجامين فرانكلين على أنه المنشئ الحقيقى للنظرية النفعية أو العملية[٢].

وهناك عوامل أربعة لعبت دورًا كبيرًا فى تطوير النظرية العملية وهى:

(١) ظهور العلوم التجريبية.

(٢) نظرية النشوء والارتقاء لدارون.

(٣) ظهور الاتجاه التجريبى للعلوم، ونمو الديمقراطية.

(٤) ظهور الحضارة الصناعية.

---

(1) Woody, T., Education Views of Benjamin Franklin, New York, Mcgraw - Hill Book co., 1931, P. 158.

(2) Brubacher, J.S., A History of the Problems of the Education. New York, McGraw-Hill Book Co.,, 1947, P. 429.

الاتجاه التجريبى:

فى بداية القرن السابع عشر كانت قوة إنجلترا تنمو، ومساحتها الجغرافية تتسع بسرعة هائلة. وكان من نتائج هذا النمو والامتداد أن ظهرت الحاجة إلى مزيد من الأساليب والطرق العملية للتعامل مع الواقع وللحصول على المعرفة. وفى هذا الجو نمت حركة فلسفية تعرف بالتجريبية Empiricism. وسلمت التجريبية بأن الخبرة هى أساس الواقع وأساس المعرفة. ولو أن فلاسفة الإغريق الأول قد اقترحوا بأن الخبرة هى أساس الحقيقة، إلا أن الفلسفة التجريبية الجديدة Experimentalism قد نمت من الأساس الإنجليزى Expiricism الذى نما وانطلق على يد العلماء المسلمين من أمثال الحسن بن الهيثم، وجابر بن حيان، وأبو بكر الخوارزمى وغيرهم. وبهذا ظهرت وصنفت على أنها نظرية عصرية مع عدم اعتبار الأصل العربى والإسلامى!

والأساس العام للنظرية التجريبية - بصورتها الغربية المنقطعة عن الأصل الإسلامى - هو أن المعرفة والواقع يعتمدان على ملاحظات الإنسان وخبراته، وبذلك يصبح الإنسان هو المحدد للواقع من خلال الإدراكات والمفهومات الفردية. فالإنسان هو الذى يختار معتقداته الخاصة المتعلقة بالأصل فى تطور الكون. فقد يعتبر وجود الكون من خلق الله، أو كنتيجة طبيعية لعملية الارتقاء! وبذلك يمكن إدراك الإنسان نفسه بطريقة مباشرة على أنه مظهر من مظاهر عملية الفعل الارتقائى. أما عقله فإنه يوجد كوظيفة للمخ، وبذلك يمكن تحويل ملاحظات الأنشطة المختلفة إلى مفهومات، ومن استجابات الإنسان لكل المدركات والمفهومات يعمم هذه الاستجابات التى تعطى اتجاهًا أو معنى للواقع.

وعلى هذا فأفعال الإنسان ليست مفروضة عليه بواسطة قوى أكبر وأعظم منه؛ لأنه قادر على القيام بالمبادرات الأصلية عن طريق إرادته الحرة القوية القادرة على الاختيار.

والغرضية ليست موجودة فى الكون عن طريق الإرث أو الصدفة، بل إن غرضية الكون تظهر نتيجة للنشاط الهادف للإنسان. وعلى ذلك، فالواقع هو وضع متغير، وكل شىء فيه فى حالة تغير مستمر[1].

وتوجد تساؤلات كثيرة مهمة متعلقة بطرق اكتساب الإنسان للمعرفة، والفرضية الأساسية هنا هى أن كل ما هو ضرورى لحل مشاكل الإنسان لا بد أن يكون جزءًا كبيرًا من منهجه التعليمى. وعلى هذا، فالمعرفة - رغم أنها يجب أن تكون قائمة على أساس من الملاحظات والخبرات - لا يجب اعتبارها نهائية، بل يجب اعتبارها معرفة وظيفية طالما أنها ما زالت صالحة للاستخدام فى حل مشكلات الإنسان. فإن فقدت المعارف وظيفتها، لأى سبب من الأسباب، فقدت أهميتها أيضًا، وأصبحت غير ذات موضوع. فالتجريبية لا تقبل الواقع على أنه مطلق، كما لا تقبل المعرفة على أنها نهائية. فلا توجد معرفة نهائية، كما لا توجد حقائق مطلقة.

أما القيم فهى نسبية، فما هو خير أو شر اليوم قد لا يكون كذلك فى المستقبل، فمصدر القيم هنا ليس ثابتًا كما فى الإسلام مثلاً. حيث إن مصدر القيم فى الإسلام هو الدين الإسلامى الذى لا يتغير بتغير الزمان والمكان. ولكن مصدر القيم هنا هو المجتمع، فالأوضاع الخلقية للإنسان محدودة بقبول أو عدم قبول المجتمع لها؛ لأنه هو الذى أوجدها، وبالتالى، هو الذى يغيرها. وبما أن المجتمع فى تغير مستمر، فالقيم أيضًا فى تغير مستمر.

ومما سبق يتضح لنا أن الأفكار العملية، والتقدمية والغرضية مرتبطة بطريقة مباشرة بالمفهومات الفلسفية للنظرية التجريبية المنفصلة عن أصلها الإيمانى الإسلامى.

---

(1) Kneller, Op. Cit., PP. 50-.

الواقعية الطبيعية:

هذه فلسفة إغريقية قديمة. ظهرت فى الواقع كرد فعل للفلسفة المثالية. حيث إن هذه الفلسفة تتبنى وجهة نظر متعارضة مع الفلسفة المثالية[1]. فالواقعية تتمسك بأن الأشياء والموضوعات الموجودة فى العالم الخارجى هى أشياء حقيقية، ولها وجود حقيقى فى حد ذاتها. كما أنها لا تعتمد فى وجودها على إدراك عقل الله أو عقل الإنسان لها. فالواقعى يرفض أى شىء وراء الطبيعة، فكل شىء يأتى من الطبيعة، ويخضع للقوانين العلمية والطبيعية، ومذهب الطبيعيين يقف على نفس الخط مع العلوم الطبيعية. إن عالم الطبيعة يشتمل فقط على تلك المظاهر التى يمكن فحصها علميًا، وهذا العالم - بالنسبة لأنصار هذه الفلسفة - ليس محكومًا بالعقل، أو الإدراكات الحسية، تقترح أن الحياة الإنسانية بكل أبعادها الجسمية والعقلية والروحية والخلقية، هى حدث طبيعى عادى، يمكن عزوه فى كل أبعاده إلى العمليات الطبيعية العادية! فالطبيعة خالقة للإنسان والحياة! والطبيعة هى مصدر الإنسان، ومصدر المعرفة والأشياء كلها!

وقد اعتنق هذه الفلسفة بعض المفكرين الإنجليز مثل هربارت سبنسر وغيره؛ على اعتبار أنها تكون الأساس الفلسفى للفكر التربوى الذى يؤمنون به ويواجهون به هؤلاء الذين لا يريدون الخروج بالمناهج الدراسية إلى الحياة الواقعية كالمثاليين.

وتعتبر هذه الفلسفة المصدر الحقيقى لنظرية دارون، حيث إن المبدأ لدى أصحاب المنهج الواقعى الطبيعى هو أن النفس والجسم بالضرورة شىء واحد، ومع ذلك فالواقعى يعتقد أن العقل شىء جديد نشأ عن طريق الطبيعة خلال عملية الارتقاء، فهو ليس مطابقًا أو مماثلاً للجسم مماثلة تامة. وليس معتمداً عليه بصورة كلية، فالعقل هو فقط للمخ. وفى هذا السياق، يرون أن العقل لا يسيطر على أنشطة الجسم ولكنه يصاحبها فقط. فأن تكون موجوداً فى العالم معناه أن تحتل زمانًا ومكانًا، وأن تكون جزءًا من مادة الطبيعة، فالطبيعة متطابقة مع

---

(1) Brubacher, JS., OP. Cit., P. 330.

الوجود[1]. والإنسان ليس أكثر من مادة تحتل حيزًا فى زمن، لا إرادة له خارج حتمية الطبيعة!

ما المعرفة؟ وما وسائلها؟ تؤكد الفلسفة الواقعية إمكانية المعرفة. وترى أن العلاقة بين السبب والنتيجة يمكن النظر إليها على أنها محكومة بالقوانين الطبيعية. ويعتقد الواقعيون أنه عندما لا يمكن الإجابة عن سؤال سببى فى الحاضر فإن هذا يعنى أن الإنسان لم يتعلم كل ما فى الطبيعة، وعندما يعرف كل ما فى الطبيعة فسوف يعرف إجابات كل الأسئلة للحصول على المعرفة، كما يرون أن المعلومات والحقائق التى تم الحصول عليها من الطبيعة واضحة ويمكن ملاحظتها.

ويستخدم الواقعيون الطريقة التجريبية التى تقوم على فحص الجزئيات، فى دراسة الطبيعة واكتشاف المبادئ العامة من الملاحظات. وباختصار، فإن جوهر نظرية المعرفة عند الواقعيين هو أن المعرفة تعتمد على الخبرة والملاحظة. وأن الطبيعة تحتوى على الصدق، فالصدق حقيقة يمكن ملاحظتها، وأن هذا الصدق يمكن الحصول عليه بواسطة الفحص العلمى للطبيعة.

ويؤمن أنصار المذهب الواقعى بأن القيم يتم الحصول عليها من الطبيعة! وكنتيجة لملاحظة الطبيعة، فإنسان يتعرف على القوانين التى تزوده بالأساس الذى يعتمد عليه فى إصدار أحكامه الخاصة بالقيم الخلقية والجمالية. كما أن الإنسان الذى يتصف بحسن الخلق عليه مسؤولية أن يختار قوانين الطبيعة التى تعبر عن الخير، وعليه أن يأخذ نفسه بهذه القوانين وأمثالها، فالطبيعة تزودنا بالمبادئ التى تحكم تقديرنا للجمال!



أفكار دارون:

ولقد أثرت أفكار دارون Darwin تأثيرًا كبيرًا على الفلسفة الغربية ابتداء من النصف الثانى من القرن التاسع عشر. فأفكار دارون عن الارتقاء كنمط مستمر من التغير يتطور من شكل إلى آخر، ويتحرك طبقًا لقوانينه الداخلية الخاصة، وليس

(1) Kneller, G.F., OP. Cit., PP. 40-5.

طبقًا لأية تأثيرات أخرى خارجية كالعناية الإلهية أو قوى ما وراء الطبيعة، كانت جديدة ومؤثرة، رغم أن أصولها الحقيقية فى الفلسفة الواقعية الطبيعية الإغريقية القديمة.

وقد اعتقد دارون أنه ما دامت عملية الارتقاء لا توجه بواسطة قوى ميتافيزيقية، أو إلهية، بل تتطور عن طريق حركتها الداخلية، فإن مصير العالم يجب أن يكون فى يد الإنسان نفسه. فالإنسان وحده هو الذى يجب أن يتحمل مسؤولية توجيه العالم إلى الخير والنفع أو إلى الخراب والدمار. وعلى الرغم من أن الأوروبين قد تلقوا هذه المفهومات بشىء من الحذر والخوف، فقد تلقفها الأمريكيون بروح التفاؤل والمغامرة!

وهذا التفكير الجديد المؤثر وجد أرضًا خصبة فى الغرب، وتحرك من العلوم الطبيعية إلى علوم الاقتصاد. وخلق فى الاقتصاد الغربى الرأسمالى فكرة «الانتقاء أو الاختيار الطبيعى» Natural Selection. كما ساعد على بناء نظام الاقتصاد الحر Laissez Faire وقد تبنت أمريكا هذه النظرية بسرعة فائقة وظهرت نتيجة لذلك حركات تقدمية فى التربية والسياسة والاقتصاد[1].

وعلى أثر ذلك ظهرت الحركة التقدمية فى التربية، التى أسسها لها - كما قلنا من قبل - بنجامين فرانكلين، وتشارلس بيرس، ووليم جيمس. ثم طبعها بصورتها الحالية جون ديوى (١٨٥٩-١٩٥٢) وقد شاعت الروح البراجماتية فى كثير من مجالات الحياة الأوروبية عمومًا والأمريكية على وجه الخصوص. فقد انتقلت الروح البراجماتية فى التربية إلى إنجلترا - على سبيل المثال - على يد هيربارت اسبنسر، وشيلر وغيرهما.

---

(1) Childs, J.L., American Pragmatism and Education, New York, Henry Holt & Co., 1956, Ch. 4., PP. 76-105.

الاتجاه الديمقراطي النفعي:

يربط «البراجماتيون» بين العلم والديمقرطية. فهم يرون أن العلم قد حرر الإنسان من الخرافات والأساطير التي سادت الحياة البدائية. كما حرر العلم الإنسان أيضًا من الخوف من القوى غير الطبيعة والخيالات التي سيطرت على عقله قرونًا. وأن الديمقراطية قد حررت الإنسان من ظلم السلطة المطلقة، وتسلط الطبقات الغنية الحاكمة، وطورت مجتمع الإنسان الحر، الذي تسير العملية الديمقراطية فيه بطريقة عملية. وهذا كلام يحتاج إلى مناقشة ليس هذا مجالها.

لكن الديمقراطية بالنسبة للتربويين البراجماتيين «ليست فقط عملية سياسية، بل قوة حافظة، أو «دين»[1]. فالحرية المنظمة تسمح لكل عضو في المجتمع أو «المدرسة» أن يشارك في صنع القرارات.

وقد أكد ظهور العلم التجريبي عند علماء المسلمين أهمية التجريب، وتعلم «كيف نفكر»، وليس فقط «بماذا نفكر». كما أكد على التعلم عن طريق عمل الأشياء، وليس فقط عن طريق القراءة عنها. كما أكدت النظرية التجريبية أيضًا على أهمية التعلم عن طريق استخدام الطريقة العلمية في حل المشكلات وإذا كانت التجريبية قد استخدمها المسلمون لحل المشكلات الإنسانية دون تفريق، فقد استخدمها البراجماتيون لحساب حل المشكلات القومية حتى لو كانت على حساب الآخرين.

وتصر النظرية البراجماتية في تعاملها مع المشاكل التربوية، وفي عملية السيطرة الاجتماعية على أن الحرية مرتبطة إيجابيًا بالنظام. ومن هنا فالحرية تقبل كل نوع من أنواع التنظيم يكون نابعًا من متطلبات الحياة التعاونية الحرة. لكن التقدميين لم يتفقوا - مع ذلك - اتفاقًا كاملاً على ترجمة مبادئهم عن السيطرة الاجتماعية Social control إلى ممارسة واقعية، فهم لم يتفقوا، أو لم تتضح

(1) Bender, L., and John, E., Teaching and Learing, Philosophical, Psychological Gurriculum Application, New York ,macmillan publishing go . Inc . 1975,p. 149.

لديهم جيـدًا كميـة ونوعية السـيطرة التى يحتاجـونها فى تخطيط المجـتمع «الذى يؤيدونه، وذلك فى مقابل مجتمع السوق الحر Laissez - Faire، والمجتمع المخطط Planned Society على الجـانب الآخـر[1]. فـهم يـؤمنون بنوع من التـخطيط الاجتماعى، لكنهم لم يحددوا كميـة ونوعية التخطيط الذى يؤكدون على ضرورة وجوده.

نظرية المنهج:

وكانت النتيـجة أنهم انقسموا إلى مجـموعتين: إحداهما تؤكـد على أهمية الأسلوب المتمركـز حول التلميذ فى التـربية. والثانية تؤكـد على ضرورة أن تركز التربية على حـاجات التلميذ وحـاجات النظام الاجتماعـى معًا. والجماعـة الثانية تسمى بجماعة إعادة البناء الاجتماعى Social Reconstruction.

وقد وجد أنصـار حركة إعادة البناء - أثناء تتبـعهم للتجريبـيين - أن القيم ليـست جـزءًا موروثًا فى الإنسـان، أو فى الطبـيعـة، أو فى الكون. وعلى هذا اسـتنتجـوا أن كل القيم من وضع الإنسـان، وأنهـا مرتبطة بالزمـان والمكان ونوع الثقافة!

وعلى هذا الأساس، فحركة إعادة البناء - كحـركة براجماتية - تعتمد على الطاقة الإنسانيـة، والخبرة الإنسانية فى تعـميم القيم الأساسـية (التى هى الغايات) وفى توجيه الجهود نحو تحقيق هذه القيم (وهذه هى الوسائل)[2].

وينظر إلى المتعلم هنا على أنه شـخص مفكر ومكتشف وله خبـرة. فهو إذا تعرض لدراسـة مواد الخـبرة الإنسانيـة، والدراسات الاجـتماعـية، والمشـروعات والمشاكل والتجارب، وإذا درسهـا بطريقة علمية فسوف تتكون لديه معـرفة وظيفية بكل مواد المعرفة المختلفة، وهـنا لا يجب النظر إلى الكتب الدراسية على أنه أكثر

---

(1) Brameld, Op ., PP.197-220.

(2) Burns H.W.. ((Brameld's Rconstruction Reviewed as referred to by Jhonson,J.A. et al .. Op. Cit ,, pp . 33-3.

من وسائل أو أدوات فى عـملية التـعلم، وليست مصـادر للمعرفـة التى لا يمكن الشك فيها.

وقد أظهر جـون ديوى اهتمامًا كبيـرًا بالارتباط العضوى بين التربيـة والخبرة الشخصية. ولكنه - كتقدمى اجتماعى - لم يعتبر الخبرة مربية فى حد ذاتها.

لكن ديوى يحذرنا من أنه ليـست كل الخبرات مربيـة بالضرورة، ويجب أن نختار بعناية لكل فرد أو جماعة الخـبرات المناسبة التى تساعدهم فى أن ينوا خطوة خطوة منهجـًا عقليا تقـدميًا متكاملا. أمـا الخبرات التى تقيد أو تشوه مـفهومات الجماعة فهى ليست تربوية.

لكن الحركة التقدمـية (كتيار أساسى فى النظرية البراجمـاتية) لم تـستمر دون تحد، بل كانت موضوعًا لصراعات وتناقضات على مدى عشرات السنين من القرن العشـرين. فلقد تكونت اللجنة الأساسـية Essentialist Committee عام ١٩٣٥ بقيادة وليم باجلى William Begley. وكان المبدأ المهم الذى تؤمن به هذه اللجنة هو أنه من الضرورى أن نعـد أطفالنا وشبابنـا لتحمل مسـؤولياتهم المستقـبلية عن طريق التعليم المنظم للأساسـيات، وللعموميات الأساسيـة من الميراث الثقافى، مع التأكيد على النظام على احترام السلطة فى العملية التربوية.

لكن النظرية الأساسية الأمريكية، كانت، مع ذلك، براجماتية أو عملية فى تفكيـرها، فلم تكن كنظيرتهـا الإنجليزية السـابقة، حيث إن هـذه أرادت أن تثقف التلميذ بثقافة مجتمع الكبار الحاضر مع ربطه الماضى، وتعطيه فى نفس الوقت من الضروريات مـا يمكنه من ممارسة دوره الوظيـفى فى الحياة. ولهـذا فقد شـجعت النظرية الأساسية الأمريكية دراسـة المواد العملية والمهنية فى حين أن مثل هذه المواد والدراسات لم تكن أساسيـة بالنسبة للأساسية الإنجليزية. كـما أن هذه قد وجهت أيضًا اهتمامًـا خاصا لميدان العلوم والتقانة، وشجـعت على إكسـاب الطلاب لمهارة استخدام معلوماتهم فى حل المشكلات التى ستـواجههم فى حياتهم عندما يصيرون راشدين.

فالنظرية الأساسية الأمريكية - إذن - نظرية عملية نفعية إلا أنها كانت تهتم بمواد معينة أكثر من غيرها، على اعتبار أنها مواد أساسية أو ضرورية فى تعليم الفرد.

الجانب الإنسانى فى النظرية:

المعرفة أو المعارف الإنسانية فى المدرسة البراجمانية أو التقدمية ليست منزلة من عند الله - سبحانه وتعالى - وإنما هى من صنع الإنسان. والمقصود بالإنسان ليس الفرد أو الجهود الفردية، وإنما الجماعة الاجتماعية. ولكن فى نفس الوقت علينا أن نقبل المعارف التى يتوصل إليها صفوة العلماء والمفكرين ولو بشكل مؤقت، ولا يعنى هذا الخضوع للأفكار الفردية كما يرى بعض البراجماتيين أمثال وليام جيمس.

وتنطلق أفكار المدرسة البراجمانية عامة وأفكار ديوى خاصة من نظريتين هما: نظرية المعرفة التجريبية، ونظرية التطور عند دارون التى سيطرت على الحركة الفكرية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين. ويمكن أن نضيف مصدرا ثالثا هو حركة المد الديمقراطى التى سبق الحديث عنها والذى بدأ فى أوروبا وانتقل إلى الولايات المتحدة؛ لذلك فإن التربية التقدمية ترى أن التطور ليس مقصوراً على الكائنات الحية، وإنما يتعداها إلى المجتمعات الإنسانية، والمعارف الإنسانية. فالمعارف الإنسانية فى حالة تطور مستمر. فحصيلة المعارف الإنسانية، هى نفسها المعارف العلمية، وهى مجموع ما يتوصل إليه الإنسان من الفرضيات الخاضعة للتجريب والتعديل المستمرين فى ضوء ما يستجد من معلومات للخبرات الإنسانية الجديدة. فالحقائق هى الأفكار القابلة للتطبيق، أو هى الفرضيات التى يمكن تفسيرها من خلال الخبرات الإنسانية.



الخبرة مصدر المعرفة:

ومفهوم المعـرفة هذا يعنى أنها لا تكتسب إلا من خلال الخبـرة؛ فالخبرة هى بؤرة العملية التربوية.

كما يعنى أن المعرفة لا تملى ولا تلقن، وإنما يكتشفها المتعلم بنفسه، فالمتعلم الجيد هو الذى يكون بنفسه فـرضيته أو فرضياته، ثم يقوم بتحـليلها وتفسيرها من خلال الملاحظة والاختبار والمشاهدة... من خلال الخبرة.

لذلك فـإن الطريقة التـربوية الأساسـية فى تكوين المعـرفة هى طريقـة حل المشكلات والاستكشاف واختبـار الفرضـيات من أجل التـوصل إلى كافـة أنواع المعارف، والاستمرار فى تعديلها وتطويرها من خلال الخبرات المتجددة.

لذلك ينبغى على كل إنسان أن يفكر ويجرب، لكى يبنى لنفسه بنية معرفية، أو مجموعة من التصورات المعرفية المتعلقة بهذا العالم، ويظل يراجع، ويعيد النظر فى هذه البنية المعرفية فى ضوء تجاربه وخبراته فى الحياة.

النمو والتغير والتطور مصدر آخر للمعرفة:

يرى ديوى أن إدراك الطبيعة التطورية للمعرفة يعنى أن تبدأ المعرفة من داخل الفرد لا أن تملى عليه من الخـارج. فهو لا يؤمن بوجود أهداف ثابتة للتـربية، كما لا يؤمن بضرورة تعليم الجـيل الحالى قيم الجيل السـابق؛ لأن هذا فى نظره يحول التربيـة إلى عملية تلقـين، ولا يتيح المجال للمـعرفة كى تتطور، كـما يؤدى إلى ترسيخ صلابة المعرفة المبنية على الخبـرات الإنسانية السالفة، وهذا أمر سلبى؛ لأنه يؤدى - فى رأيه - إلى إضعاف مسيرة التطور الإنسانى.

الاهتمام بعملية التربية لا بنواتجها:

من المبادئ الأساسية للمـدرسة التقدمية الإنسانية، الاهتمام بالتـربية كعملية فى حـد ذاتهـا، وليس بنواتجـها. وهذا فى الواقـع هو الأساس الذى يمـيـز هذه

المدرسة عن المدرسة المادية السلوكية كما تمثلها النظريتان: المادية السلوكية والتطبيقية الروسية.

وهذا يعنى - كما يرى ديوى فى كتابه «الخبرة والتربية» - أن التربية ليست عملية إعداد للحياة، بل هى الحياة نفسها. فالعملية التعليمية فى رأيه ليس لها هدف يمتد لما وراءها، وإنما هى نفسها نهاية المطاف. وهكذا فإن ديوى يعرف التربية على أنها مجموعة من العمليات، وليست مجموعة من المخرجات كما يرى أنصار المادية السلوكية.

لكن المدرسة المادية السلوكية فى علم النفس كان وما يزال لها تأثير كبير على الاهتمام بالنواتج، فقد طوروا مفاهيم كثيرة فى هذا الاتجاه مثل: المثير، والاستجابة، والحوافز، والاقتران الشرطى.. وغير ذلك مما له أثر كبير فى تصميم بيئة التعلم التى تساعد على الحصول على النتائج المرغوبة. ومن أهم هؤلاء سكنر، وجانيه وغيرهما. وكان من أثر ذلك ظهور فكرة «الأهداف السلوكية» للمناهج التربوية، والتى ركزت على ضرورة تحديد الأداء المرغوب سلفا، وأن التعزيز، والتغذية الراجعة، والحفز عمليات ضرورية لحدوث التعلم.

وقد تأكد هذا الاتجاه الكاسح نحو ضرورة تحديد الأهداف على يد بوبت عام ١٩١٨، وتشارترز عام ١٩٢٤، ورالف تايلور عام ١٩٤٩، وهيلدا تابا عام ١٩٦٢، وبلوم عام ١٩٧١ الذى وصف الأهداف بأنها «نواتج التعلم».

ورأى أنصار هذه المدرسة أن الأهداف لابد أن تكون «سلوكية إجرائية»؛ تصف السلوك المرغوب، كما تصف «المجال»؛ أى المحتوى أو الموقف الذى يتم تعلم هذا السلوك من خلاله. أى أن المنهج لابد أن يكون مخططا من البداية.

ودعاة هذا النوع من المناهج لا يدعون إلى قيم تربوية معينة؛ فهم لا يؤمنون بالثوابت، ويرون أن يترك الأمر للمنهجين يتخذون القرار الخاص بالتغير فى سلوك التلاميذ. فهم يؤمنون أن التعلم تغير فى السلوك، لكن نوعية السلوك المرغوب متروك للمنهجين فى كل زمان ومكان.

النقد الموجهة للمدرسة السلوكية المنتصرة للأهداف السلوكية:

ويرى أصحاب المدرسة التقدمية، القريبة من فكر المدرسة الإنسانية، أن عملية التربية نفسها عملية نمو وتطور للإنسان، وأنه ليس من الضرورى أن تكون العملية التربوية عملية محدودة من أجل تحقيق أهداف ظاهرة ومحسوسة. ويكفى أن يكون لها أهداف عامة بحيث لا تصبح عملية عشوائية لا يمكن السيطرة عليها.

وهؤلاء يرون أنه لا يمكن التعامل مع الإنسان على أنه مخلوق سلبى، كما لا يمكن اعتبار عملية التربية مجرد وسيلة نفعية لتحقيق غايات محدودة، فالتربية نفسها حياة.

كما يرى هؤلاء أننا إذا اعتبرنا أن التربية ما هى إلا تعديل سلوك المتعلم من أجل تحقيق مجموعة من الأهداف السلوكية، فإننا بذلك نكون قد اعتبرنا عملية التربية عبارة عن عملية تدريب أو تلقين، يكون فيها المتعلم مستقبلاً، وسلبيًا، تمامًا كما ندرب حصان السيرك على القفز، أو الدولفين على أداء حركات معينة فى الماء، وبذلك نكون قد أغفلنا إنسانية المتعلم، وحريته فى التفاعل مع المعلم ومع الموقف التعليمى، وتلك هى محور العملية التربوية الناجحة.

ورأى هؤلاء النقاد أن الأهداف السلوكية الإجرائية قد تكون مفيدة فى بعض المقررات الدراسية مثل العلوم والرياضيات والتربية الرياضية، لكنها لا تفيد عندما نعلم الدين والعقيدة، والآداب والفنون التى تنطوى على تشجيع المتعلم كى يعبر عن شعوره الشخصى تجاه دينه وعقيدته أو تجاه المسرحية التى رآها، أو القصيدة التى قرأها. . . وهذه أمور تختلف من شخص لآخر؛ فمن غير الممكن وضع صياغات محدودة لسلوكيات الأشخاص مسبقًا.

وقد يكون من المفيد هنا وضع أهداف عامة، تعبيرية: كأن نقول: أن يحلل التلاميذ ويفسروا مسرحية هاملت، أو أن يعبر التلاميذ عن شعورهم تجاه الإسلام.

وهكذا فإن نقاد المدرسة المادية السلوكية يميزون بين التربية وبين التدريب. فالتربية هى عمليات تطور الفرد من الداخل: فإذا قيل مثلاً إن شخصا ما قد

حصل على قسط من التربية، فإن هذا يعنى أنه قد حصل بداخله تطور فكرى، أو اكتسب قدرات عقلية معينة على الفهم، أو على التمييز أو الاستدلال أو غير ذلك. وليس من الضرورى أن يكون المعنى أنه قد حصل على معلومات نافعة، أو مهارات تفيده فى الحصول على عمل معين أو على وظيفة بذاتها.

أما التدريب فهو الوسيلة النفعية التى نحقق بها نتيجة معينة. ومن هنا فإن الأهداف السلوكية إنما تصلح جيدًا للتدريب على مهارات محدودة بعينها فى بعض مجالات التدريب المهنى.

الأهداف العامة:

إن الأهداف الرئيسية للنظرية النفعية - كما أرساها بنجامين فرانكلين - هى: إعداد الطلاب للدراسة فى الجامعات والمعاهد العليا، وإعدادهم أيضًا لمواجهة الأوضاع المتغيرة فى مجتمعهم، وللحياة الوظيفية فى مستقبلهم، وذلك عن طريق البرامج والدراسات المهنية والعلمية. يقول كابرلى Cubberley: «لقد كان أحد الأهداف الرئيسية هو إقرار الدراسات ذات الطبيعة الحديثة والمفيدة فى إعداد الشباب للأوضاع المتغيرة فى المجتمع وخاصة ما يتصل منها بالعمل. وتهدف هذه النظرية إلى أن يكون الإعداد من خلال دراسة الأشياء نفسها، لا من القراءة عنها، ومن خلال دراسة الأشياء المفيدة للطلاب حاليًا، لا من خلال دراسة الموضوعات والمواد التى تعدهم لدخول الجامعات فقط»[1].

وقد نمت هذه الأهداف وتطورت على يد قادة التربية النفعية والعملية مثل تشارلز بيرس، ووليم جيمس، وعلى يد جون ديوى بصفة خاصة.

إن وظيفة التربية فى المدرسة التقدمية هى المشاركة الفعالة فى صنع التغير فالتربية يجب أن تقود عملية التغير فى المجتمع، لا أن تعكسه فقط؛ ولذلك

(1) Cubberley, E.p. the History of Education Boston, Houghton, Mifflin Co., 1970, p. 1983.

فالنظرية البـراجمانية تؤكد على أهمـية دراسة كيفـية إدارة وتنظيم عملية التـغير، وكيفية إعادة بناء النظام الاجـتماعى. فالمدرسة كمؤسسة اجتمـاعية رئيسية من أهم أهدافها ليس فقط الحفـاظ على الحياة الاجتماعية. بل أيضـا تحسين أسلوب الحياة فى المجتمع، فالتربية - إذن - من أجل التغير إلى الأفضل فى نظرهم.

ولا يؤمن النفعيون بوجود أهداف ثابتـة للمنهج، فجون ديوى - على سبيل المثال - يؤكـد بشكل قاطع أن «الفكرة القائلة بأن النمـو والتغير يرمـيان إلى هدف نهائى لا يتغير ولا يتبدل هى آخر أمراض العقل البشرى فى انتقاله من نظرة جامدة للحياة إلى نظرة مفعمة بالحركة»[1].

وهذا الإيمان بعدم وجود أهداف ثابتة للمنهج يجعل الحياة الإنسانية كلها - بجانبيها القيمى والعملى - على حافة التغير، لا يستقر لها قرار، ولا يمكن تصور مستقبل مأمون لها.

ومن أهم أهداف المناهج هنا أيضـا تعليم التلميذ كـيف يفكر، لا بماذا يفكر فقط. فـالمدرسة هنا تجـد فى إكسـاب التلامـيذ المهـارات الواقعيـة والعمليـة التى يحتاجـونها لكى يكونوا مواطنين وأفرادًا ناشـطين مكتشفين عاملـين؛ ولهذا فهى تؤكد على أن الخبرة الكاملة والنمو الشامل المتـكامل للتلميذ هما الموضوع الرئيسى للتربية[2].

ويمكن القول هنا - بصفـة عامة - بأن هناك سمات رئيـسية لمناهج النظرية النفعية وهى:

- اهتمامها بالتغير الاجتماعى.
- تأكيدها على النمو الشامل المتكامل للتلميذ.
- تأكيدها على أهمية المعرفة العملية.

---

(١) جون ديوى: الديمقراطية والتربية، ترجمة متى عقراوى وزكريا ميخائيل، ط٢، القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٥٤ م ص ٥٨.

(2) Brameld, OP., Cit., p. 198.

المحتوى:

لقد اتضح لنا فيما سبق من أصول هذه النظرية أنها تعتمد على عدد من الفلسفات التى تشترك فى مبدأ عام واحد - فيما يتصل بمحتوى المنهج - وهو أن صحة الفكرة تعتمد على ما تؤديه هذه الفكرة من نفع أيا كان هذا النفع، أو على ما تؤدى إليه من نتائج عملية ناجحة فى الحياة الاجتماعية الخاصة.

ويحدد جون ديوى وظيفة المعرفة فى المفهوم النفعى، فيرى أن عمليات المعرفة وموادها إنما تحدد فى حدود الاعتبارات العملية أو الفرضية، فليس هناك محل للقول بأن المعرفة تتحدد فى حدود الاعتبارات النظرية التأملية، أو الاعتبارات الفكرية المجردة[١].

ولا تختلف النظرية المعرفية النابعة من الفلسفة النفعية كثيراً عما اقترحه المفكر الإنجليزى هيربارت سبنسر Herbert Spencer. فهذه النظرة - كما رأينا - تؤكد «أن محتوى المنهج يجب أن يتم اختياره فى ضوء المنفعة، وفى ضوء المشكلات التى يحتمل أن تواجه الشباب فى حياتهم اليومية عندما يتركون المدرسة الثانوية»[٢].

ومن المؤكد أن هناك علاقة ما بين تعبير سبنسر الشائع «الحياة الكاملة Com-plete Liviing»، وبين تعبير المدرسة النفعية خبرات الحياة «Experincies Life» والتى تعنى أن المنهج يجب أن يدور حول الخبرات الحياتية التى يعيشها التلاميذ.

ومن هنا «فالتأكيد مركز على الخبرة والتجريب، مع عدم التركيز على جانب واحد من جوانب المعرفة دون غيرة. فبما أن الخبرات الحياتية والتجريب هما اللذان يحددان محتوى المنهج، فكل أنماط المعارف والمهارات والمفهومات لا بد أن يسمح بدراستها»[٢]. ولقد شجع هيربارت سبنسر هذا الاتجاه البراجماتى عندما سأل

---

(1) Beck, r.n. Handbook in Social Philosophy, Macmillan Puplishing Co . Ne York, 1979,121.

(2) Holmes,B.(IBE) , Op . Cit.,23.

سؤاله الشهير: ما المعرفة الجديرة بالاهتمام والدراسة؟ What Knowledge is of most Worth، ولقد أجاب على السؤال بتأكيد أن التربية يجب أن تكون من أجل الإعداد للحياة الكاملة. فالحياة الكاملة هى الهدف الأسمى الذى يجب أن تتجه التربية إلى تحقيقه. واهتم سبنسر فى هذا الإطار بدراسة العلوم، وذلك بتأثير من النشاط العلمى والمعروفة العلمية التى بدأت تنمو فى ذلك الوقت. كما أنه أشار بصفة خاصة إلى الأنشطة الآتية:

أ - الدراسات التى تؤدى إلى معرفة النفس، والطبيعة الإنسانية.

ب - الدراسات التى تؤدى إلى ضمان الحصول على ضروريات الحياة.

جـ - الدراسات التى تؤدى إلى تنمية وتنظيم شخصيات الناشئة.

د - الدراسات التى تؤدى إلى تحقيق العلاقات السياسية والاجتماعية الجيدة.

هـ - الدراسات التى تساعد على الاستمتاع بوقت الفراغ، وترقية الأذواق والمشاعر(٢).

ومن الملاحظ هنا التداخل بين الدراسات التى اقترحها سبنسر وبين تلك التى تتضمنها المبادئ السبعة النابعة من جمعية التربية القومية - The National Education - Association عام ١٩١٨. وهذه المبادئ السبعة هى:

١- الاهتمام بالصحة والتربية الصحية.

٢- التربية المنزلية، وكل ما يساعد فى تكوين بيت كامل وأسرة سعيدة (لا ينفذ حاليا).

٣- كل ما يتصل بالأساسيات والعمليات التعليمية الأساسية.

٤- ما يتصل بالدراسات العملية والمهنية.

---

(1) Johnson,, etal., OP. Cit., p. 326.

(2) Spencer, H., Education, New, York: D.,Appleton, 1880,pp. 31-4.

٥- ما يتصل بالحياة المدنية، والدراسات الاجتماعية.

٦- ما يتصل بأوقات الفراغ، من حيث التخطيط والتنفيذ.

٧- ما يتصل بالنواحى القيمية والأخلاقى بصورتها الاجتماعية التى تتغير بتغير الأجيال.

«وقد كانت هذه المبادئ هى أساس إعادة تنظيم المدرسة الثانوية فى كل الولايات المتحدة منذ عشرينيات القرن العشرين حتى الآن»[١]، فما زالت المناقشات بشأن تطوير المناهج هناك تدور حولها. كما أنها تعتبر تأكيدًا واستمرارًا لمبادئ فرانكلين، وهيربارت سبنسر، ثم جون ديوى بعد ذلك.

ويشتمل المنهج المحورى الذى يعد للطلاب الذين يرغبون فى دخول الجامعات فى الولايات المتحدة على ثلاث مناطق إلزامية من المعرفة، وهى: العلوم الاجتماعية، والعلوم الطبيعية، والدراسات اللغوية والاتصالية. وهناك مواد اختيارية يسمح للطلاب بمتابعة الدراسة فيها عندما يتخصصون فى المرحلة الجامعية. والجدير بالملاحظة هنا أن المواد المحورية الإلزامية يدرسها جميع الطلاب سواء رغبوا فى أن يتخصصوا فيها على المستوى الجامعى أم لا. أما المواد الاختيارية فهى تعطى فرصة لمن لا يرغب فى التخصص فى المواد الإلزامية فى المرحلة الجامعية بأن يجد بدائل أخرى. أما الطلاب الذين لا يرغبون فى مواصلة الدراسة فى الجامعة، فهم يدرسون المواد المحورية الإلزامية، ويختارون ما يشاءون من المواد الاختيارية المعروضة عليهم إذا رغبوا فى ذلك[٢].

ولقد أثارت الثورة العلمية وتطبيقاتها التقانية، بالإضافة إلى قضية العلاقة بين التربية الأكاديمية والتربية المهنية خاصة للتلاميذ فى سن ١٦ إلى ١٨، كذلك قضية العلاقة بين المدرسة والعمل، كل هذا أحدث اهتمامًا كبيرًا بين المسئولين،

---

(1) Gressman, G.r.. and Bender. H.w..Public Education in **Amirica**. 2nd ed .. New York, Appleton - Century - Crofts. Inc., 1961, p.253.

(2) Holmes, B.. Op p Cit., p. 25.

وأصبح السؤال الملح هو: هل يمكن للمدرسة أن تتطور وتتكيف بحيث تلبى المطالب الأكاديمية ومطالب التلاميذ، ومطالب القوى العاملة فى نفس الوقت؟

تتفق النظرية النفعية مع النظرية التطبيقية Polytechnica;ization السوفيتية من حيث المبدأ وفى الاستجابة للمطالب المختلفة، فالنفعية فى الولايات المتحدة تقدم برامج ودراسات تربوية تهتم بإعداد الطلاب للحرف والأعمال البديلة، بالإضافة إلى برامج ودراسات أخرى تركز على الاهتمامات المدرسية والأكاديمية، وثالثة تقدم على أساس متطلبات العمالة، ورابعة تقدم على أساس متطلبات البيت والبيئة، وخامسة تقدم على أساس متطلبات البيئة الريفية والقروية.. إلخ. والهدف من كل هذه البرامج والدراسات هو إيجاد بدائل تربوية قائمة على أساس متطلبات العمالة بجميع أنواعها فى المجتمع للتلاميذ من سن ١٣ إلى ١٨، بالإضافة إلى البديل الأكاديمى(١).

وتتضح مدى استجابة المنهج للضغوط والمتطلبات الاجتماعية المختلفة من زيادة الملتحقين بالبرامج المهنية وزيادة عدد المدارس الثانوية العالية التى تقدم دراسات مهنية وعملية فى برامجها(٢).

تنظيم المحتوى وطريقة التدريس:

تهتم النظرية النفعية اهتمامًا كبيرًا بعملية المرونة فى تنظيم محتوى المنهج وفى استخدام طرق التدريس. فالمنهج هنا يحبذ تنظيم الأنشطة والخبرات والمواد الدراسية حول تعليم الطريقة العلمية فى التفكير وفى مواجهة المشكلات. ويمكن تسمية هذه الطريقة المنهجية «بالطريقة المتمركزة حول الخبرة»(٣). فالمدرسة النفعية تنسجم مع النموذج المحورى وطرق النشاط أكثر منها مع التنظيم المتمركز حول المادة الدراسية(٤).

(1) Ibid,p.31.

(2) Ibid.

(3) Brameld, OP. Cit.,p.198.

(4) Ibid., p.199.



وبما أن المنهج المحورى يركز على حاجات وميول واهتمامات الطلاب - بالإضافة إلى حاجات المجتمع - فإنه يتطلب وحدات زمنية أطول من حصص الدراسة العادية كما تعتمد طريقة التدريس هنا على المناقشة والتفاعل داخل الفصل الدراسى، وعلى التعلم عن طريق الخبرة والممارسة. وبالرغم من ذلك، فمن السذاجة أن نفهم أن الطريقة النفعية قد محت تمامًا طريقة الحفظ، والتسميع من ممارساتها. ولكن تبقى الحقيقة، وهى أن هذه المدرسة لا تركز على تذكر وحفظ الحقائق، وعلى التسميع كوسائل أساسية فى عملية التعليم والتعلم. فالأساس هنا هو الاهتمام بالنشاط العقلى الذى سوف ينسحب ويعمم على الممارسة الفردية لعملية التعلم.

ويعتقد المدرس النفعى أن كل التلاميذ يحتاجون إلى تعلم المهارات الأساسية والوظيفية فى القراءة، والكتابة، والرياضيات، والمواد الاجتماعية، والمواد العلمية، والمواد المهنية والعملية، ومواد التربية الرياضية والجسمية، والدراسات الخلقية. وتعتمد طرق تنمية هذه المهارات على اهتمامات وقدرات واتجاهات، واستعدادات كل تلميذ[1]. كما يؤمن هذا المدرس بأن هناك مجموعة من المواد الدراسية التى تصلح لكل التلاميذ، ولكنه لا يعتقد أن كل تلميذ يتعلم بنفس الأسلوب أو بنفس الطريقة.

ويشيع فى جو الفصل الدراسى تفاعل مستمر بين المدرس، والتلميذ، والخبرات التعليمية. واعتماد هذه المتغيرات الثلاثة على بعضها البعض يتوقف على درجة وسيادة أحد هذه المتغيرات على المتغيرين الأخيرين.

التقويم:

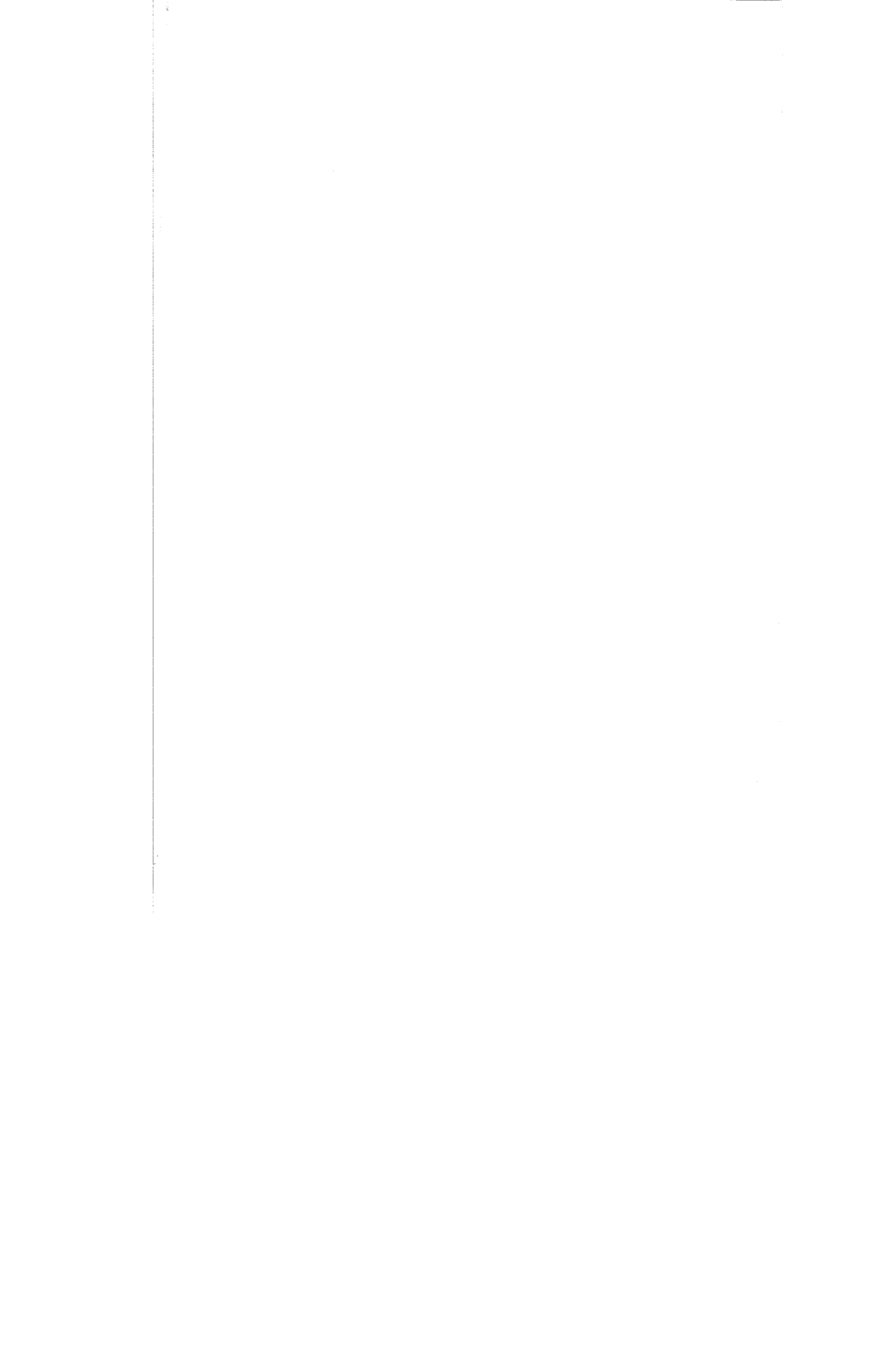
والامتحانات، طبقًا لهذه النظرية، ليست ذات أهمية خاصة، كما أنها ليست أداة تسلط أو إرهاب للتلاميذ، بل هى أداة تقويم للعملية التعليمية من أجل تحسينها وتطويرها بالدرجة الأولى؛ ولهذا فإن التقويم لا يهدف إلى معرفة مدى

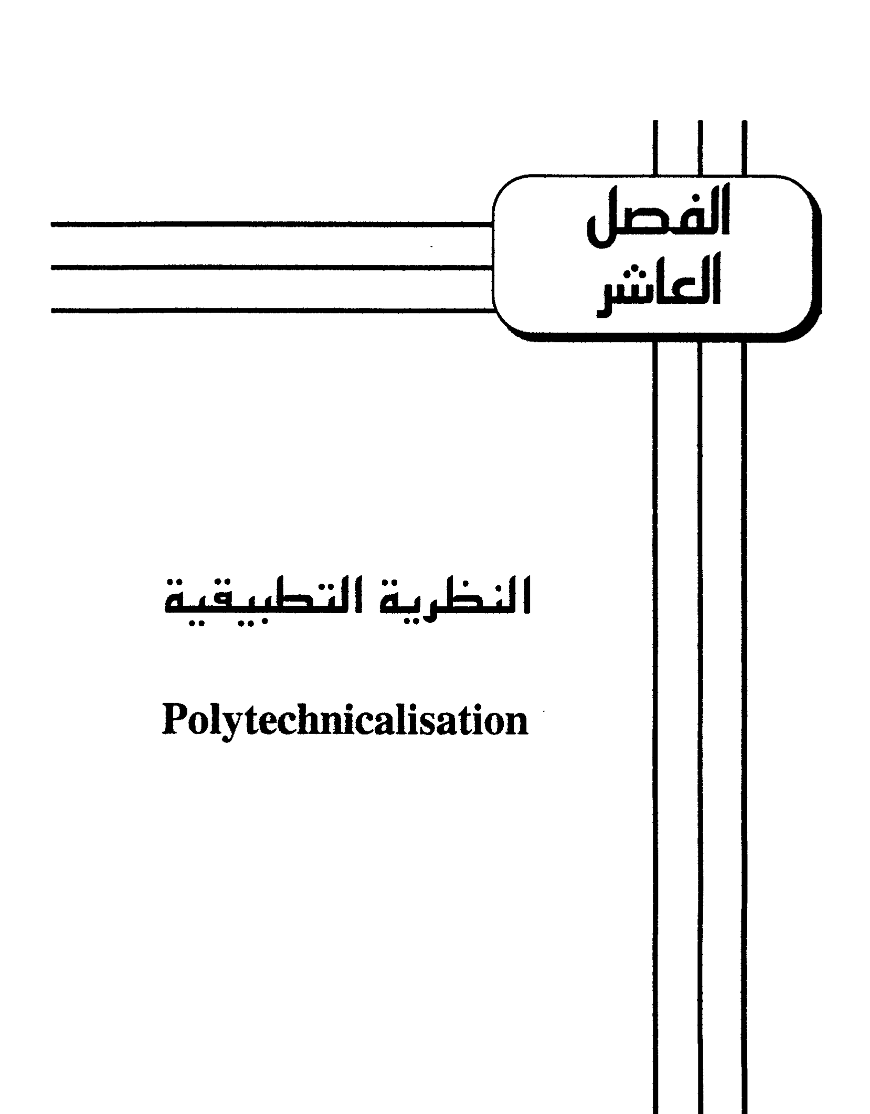
(1) Bender and Joha, Op. Cit., P. 160.

سيطرة التلاميذ على المعارف والمهارات فقط، ولكنها تعد وسيلة ضمن وسائل أخرى كثيرة للحصول على المعلومات الضرورية لتخطيط المنهج وتحسين طرق التدريس.

وقد أدى ظهور النزعة التجريبية والاتجاه الصناعى إلى ظهور الأنواع الحديثة فى اختبارات التوديم كالاختيار من متعدد، والصواب والخطأ، أكثر من اعتمادها على ألوان الاختبارات التى تتطلب تحليل النصوص، والتذوق، ومنطقية العرض، واستخلاص المبادئ، والوقوف على جماليات المبانى والمعانى وغيرها.

* * *





الفصل العاشر

النظرية التطبيقية

Polytechnicalisation

الأسس الفلسفية:

تنبثق النظرية التطبيقية فى التربيــة - بالدرجة الأولى - من الفلسفة الماركسية اللينينية أو تنشــد الماركسية كنظرية سـياسية واقتـصادية واجتمـاعية تفسـير التاريخ الإنسانى، وتركيب المجتـمعات، كما تنشد تقديم نمـوذج للمجتمع الذى يجب أن يسود من وجهة نظرها.

ويمكن إيضــاح المعتقـدات الأساسيـة للنظرية الماركسـية بإلقـاء الضوء على المفاهيم الأســاسية الثـلاثة التاليـة: التفسـير المادى للتاريخ، والاقـتصاد السـياسى للرأسمالية، وطبيعة الاشتراكية والشيوعية.

«والفرضية الأولى للوجود الإنسانى، وللتاريخ الإنسانى - فى نظر أصحاب هذه النظرية - هى أن أول عمـل تاريخى للإنسان هو إنتاج الحـياة المادية نفسـها، وهذا العمل التاريخى هو شرط جوهرى لكل التاريخ الإنسانى»![1].

والجدير بالذكر هنا، أنه بالرغم من مـرور حوالى ثلاثة أرباع قرن من الزمان على قيـام هذه الفرضيـة قبل انهيـار المجتمع الـسوفيـتى، إلا أن الناس ما يزالون يعانون حتى اليـوم معاناة شديدة فى سـبيل الحصول على حاجـاتهم الضرورية من طعام وشراب ومـسكن ولباس.. إلخ، وهى الأمور الضرورية كـما يقولون لصنع التاريخ!

والقـوى الإنتاجـية فى المجتـمع هى أدوات الإنتاج. وأدوات الإنتـاج هى العمـال والوسائل المادية الأخرى. فـالإنتاج عمل اجـتماعـى يأتى نتيجـة للنشاط التعاونى للإنسان القائم على تنظيم العمالة[2].

---

(1) Rubel. M.. Karl Marks. Selected Writing in Sociology and Scoial philosophy,1963,p.75.

(2) Quoted by : Lane, D., Politics and Socity in the USSR, London, Weiden et al & Nicolson. 1970. p.2.

ولقد فسر ماركس التاريخ الإنسانى كله عن طريق العلاقات الطبقية. فتاريخ المجتمعات الإنسانية من البداية للنهاية ما هو إلا تاريخ للصراع الطبقى[1]!.

إن أسباب التغير الاجتماعى لا توجد فى عقول الناس وأفكارهم، وإنما توجد فى كيناميكية العملية المادية. «فالأسباب الجوهرية لكل التغيرات الاجتماعية، والثروات السياسية لا يجب البحث عنها فى عقول الناس، وفى تبصرهم المتزايد فى الصدق والعدل الأبدى، وإنما فى التغيرات التى تحدث فى أسلوب الإنتاج والتجارة. كما أن هذه الأسباب لا توجد فى العقل، وإنما توجد فى اقتصاديات الحقبة الزمنية المعينة»[2] فالإنسان - إذن - لا إرادة له فى التغير، بل هو أحد المتغيرات مثله فى ذلك مثل أدوات الزراعة أو الصناعة التى يديرها! أليس هو أحد أدوات الإنتاج؟!

ويتناقض هذا تناقضًا كاملاً مع منهج الإسلام فى التغير الاجتماعى الذى يقرره القرآن في وضوح كامل، فى قوله تعالى: ﴿... إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ... ﴿١١﴾﴾ [الرعد]. وهذا يعنى أن التغير الاجتماعى يبدأ بتغير الأنماط المعيارية والقيمية والفكرية أولاً، فإذا حدث هذا انعكس على الأمور المادية، والمؤسسات الاجتماعية بعد ذلك. والواقع أن التغير يبدأ داخليًا فى فكر الإنسان وعقله، ثم ينتقل بعد ذلك إلى أنماط سلوكه وممارساته ومؤسساته المختلفة، وأساليب إنتاجه وتجارته وغير ذلك.

فالنظرية الماركسية، قصد بها أن تكون فلسفة جديدة للحياة، تنادى بالتغير الدموى فى التاريخ الإنسانى. ففى رأى ماركس أن ثورة البروليتاريا كانت نتيجة حتمية للتطور الرأسمالى الذى يعتمد على تركيز الإنتاج الصناعى وتطبيق طرق التقانة الحديثة. فالاعتماد على الإنتاج الصناعى، واستخدام التقانة الحديثة. وبالتالى ريادة الطبقة العاملة الصناعية هو شرط لحدوث «الثروة» الاجتماعية من وجهة النظر الشيوعية.

---

(1) Marx, Karl and Engles, F., Selected Works, Vol. I., Moscow, 1958, p. 34.

(2) Quoted by : Lane, Op. Cit.,p.3.

وطبقًا لهذه الفرضية، فإن ثورة البروليتاريا يجب أن تحدث فى الأقطار الصناعية؛ حيث تتركز الطبقة العاملة فى المدن الصناعية والعواصم الكبرى، والمراكز الصناعية. فوصول البروليتاريا إلى الحكم يمكن أن يحدث - على أساس هذه الفرضية - فى البلاد ذات التجمعات العمالية القوية، المتعلمة، والواعية.

ولقد كذب الواقع المعاصر على خريطة العالم هذه الفرضية أيضًا، فالحقيقة أن «الثورة» الماركسية لم تحدث فى البلاد الصناعية كدول غرب أوروبا الصناعية الراسمالية أو غيرها، وإنما الذى حدث هو بعض الثورات والانقلابات والمؤامرات فى بعض الدول الزراعية المتخلفة.

والأجور - طبقًا للاشتراكية الماركسية - تدفع للفرد طبقًا لحاجته؛ حيث لا توجد بضائع كافية لسد كل الحاجات. لكن الاشتراكية لا بد أن تؤول إلى الشيوعية وفى الشيوعية وفرة وغزارة فى البضائع المنتجة. وعندئذ، فالأجور والنقود عديمة القيمة، ولا معنى لها، فالنقود وسيلة للحصول على الحصة أو الجراية، وكل شىء متوفر! وليس هناك داع لتقسيم العمال؛ لأنهم يعملون كل على حسب قدرته، ويأخذون كل على حسب حاجته! وهذا إفراط فى المثالية يتناقض مع الطبيعة الإنسانية.

لقد جاء جورباتشوف بعد سبعين عامًا من قيام نظرية «الوهم» فى روسيا السوفيتية ليعلن الحقائق المؤسفة ويفضح الأوضاع المتردية التى صارت إليها البلاد فى مبدئه المسمى بـ «الجلاسنوست» ومعناه المصارحة أو المكاشفة. وعندما تأكد الناس هناك من حقيقة الأوضاع، ثاروا وقامت المظاهرات، وظهرت الخلافات القومية والعرقية. ووقعت الصدامات الدموية والتقاتل الوحشى بين القوميات المتنافرة والعصبيات المتصارعة التى كتمت أنفاسها ثلاثة أرباع قرن من الزمان! وانهار الاتحاد السوفيتى وسقطت دويلاته كأوراق الخريف.

والمادية الجدلية تعنى أن المادة يمكن تقسيمها إلى شىء، ونقيضه. وبتفاعل هذين العنصرين مع بعضهما البعض تنتج حالة جديدة أو تركيب جديدة. والمثال على ذلك من التاريخ هو أن المجتمع فى العصور الوسطى كان مكونًا من عنصرين: طبقة الملاك للأراضى، والطبقة البرجوازية، وكان من نتيجة تصادم

هذين العنصرين أو الطبقتين وصراعهما أن ظهر عنصر ثالث أو طبقة ثالثة هى الرأسمالية الصناعية. والرأسمالية الآن يحدث لها نفس الشيء، وتخضع لنفس القانون فهى فى صراع مع الاشتراكية، سوف تكون نتيجة الصراع - من وجهة نظر ماركس - ظهور العنصر الجديد، وهو الشيوعية[1] أو ظهور ما يسميه البعض الآن الطريق الثالث.

وبدلاً من ظهور الشيوعية فى العالم - كما كان يود ماركس - وبعد ثلاثة أرباع قرن، ظهرت «البريسترويكا» أو «إعادة البناء» فى الاتحاد السوفيتى نفسه، وعلى يد زعيم الاتحاد السوفييتى جورباتشوف. و «البرويستوريكا» ليست مجرد ثورة تصحيح، إنها اختراق للأصول، وتغيير للمفاهيم الأساسية، وتصحيح للأخطاء الفكرية والفرضيات الكامنة فى داخل النظرية وبنيتها الأيديولوجية.. بل إن «البريسترويكا» تعنى - فى الحقيقة - عجز النظرية الماركسية عن ملاحقة التطور، وإعلان فشلها التاريخى.

وبدلاً من أن يثور العمال ضد الطبقات الرأسمالية، ثاروا ضد الحزب، وضد الحكومات الحامية «للنظرية»، كما فعل عمال نقابة التضامن فى بولندا، وكما فعل عمال المناجم فى الاتحاد السوفييتى نفسه، وكما حدث فى ألمانيا الشرقية، وتشيكوسلوفاكيا، والمجر، وبلغاريا، ورومانيا.. فعندما أرخيت القبضة الحديدية التى كتمت الأنفاس ثلاثة أرباع قرن من الزمان، وعندما بدأت المكاشفة والمصارحة بواقع الحال التى أعلن عنها جورباتشوف.. عندئذ تأكد الناس أنهم كانوا يعيشون فى وهم كبير.. لقد ضاعت كل الأحلام الحمراء.. وأفاق الناس على ما يعنيه قول الله تعالى ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩)﴾ [النور].

لقد تصادمت هذه النظرية مع الفطرة الإنسانية كثيراً. تصادمت معها عندما أنكرت «الدين» وسمته «أفيون الشعب» وشكل من أشكال الخرافات. وتصادمت معها عندما سلبت من الإنسان إرادته، ومنعته من تحقيق ذاته واعتبرت «الحياة المادية

(1) Fandamentals of Marxism, Moscow, 1961, pp, 44-5 Quoted by lane, OP. Cit., p .4.

فى المجتمع حقيقة موضوعية موجودة وجودًا مستقلاً عن إرادة الإنسان، بينما الحياة الروحية للمجتمع ما هى إلا انعكاس للحياة الواقعية أو الكون المادى»[1].
وتصادمت معها حين سلبت الإنسان مسؤولية الاختيار والتصرف على أساس الحتمية المادية التى تعنى أنه ليس بوسع أحد أن يتصرف بغير ما تصرف به بالفعل، مما يؤدى إلى سقوط مسؤولية الإنسان الأخلاقية عن أفعاله!.

وفى التصور الإسلامى إذا كان قدر الله أو مشيئته وعلمه قد سبقا اختيار الإنسان ومعرفته فإن الإنسان لا يعلم شيئًا عما هو «غيب» من قدر الله وعلمه، ثم إن للإنسان عقله وضميره، فهو يختار دون أن يعلم ما سبق الله إلى العلم به، ولذلك فالإنسان مسؤول عن اختياره بصرف النظر عن سبق تقدير الله لهذا الاختيار.

وتشترك هذه النظرية مع النظرية النفعية فى أن أحد أهم روافدهما الفلسفية هو «المدرسة الطبيعية» وكذلك الأفكار المتطورة عنها عند «دارون». فهذه النظرية ترفض الثنائية القديمة بين الجسم والعقل للفلسفة المثالية، كما ترفض كل نظم الفكر التى تحاول توضيح عالم الطبيعة والكون المادى على أنه نظام بديع من صنع القوة الإلهية فإذا كانت النفعية لا تنكر وجود الحقيقة الإلهية، إلا أنها «علمانية» تغتصب حاكمية الله، وتجعل لله ملكوت السماء، وللبشر ملكوت الأرض! لكن الماركسية تذهب أبعد من ذلك إذ تنكر وجود الحقيقة الإلهية أصلاً! فلا وجود لإله، ولا يوجد عالم فوق عالم الطبيعة!

فالمادة - فى المفهوم الماركسى - هى أصل كل الوجود ومصدره! والعالم الواقعى حقيقة أساسية موجودة، سواء أدركه الإنسان أم لا. والعقل والطاقات الإنسانية الأخرى ما هى إلا وظائف لأشكال دقيقة ومعقدة للمادة أو المادة ليست نتاجًا للعقل، فالعكس هو الصحيح، فالعقل نتاج للمادة!

---

(1) Ibid,p.5.

التعلم عن طريق العمل والإنتاج:

لقد تم التمييز بين التربية عن طريق العمل الإنتاجى والتربية عن طريق الفنون الحرة منذ عهد أرسطو. فالتربية عن طريق العمل لم تكن جديرة بأبناء الطبقات العالية الذين كانوا يتعلمون عن طريق دراسة الفنون الحرة، بينما يتركون العمل اليدوى لأبناء الطبقات الدنيا(١).

وظل الحال كذلك فى روسيا إلى أن جاء القيصر الذى كان يسمى بيتر العظيم Peter the Great فكان هو أول قيصر لا يخجل من العمل بيديه، فقد كانت تربيته عملية، وعلمية نفعية، لا تعتمد بصورة أساسية على المعلومات المستمدة من الكتب، وبذلك أرسى هذا القيصر تقليد التعلم عن طريق الحياة الواقعية والخبرة العملية(٢). وقد نفذ هذا التقليد فى بداية الأمر فى بعض المدارس الروسية كالمدارس العسكرية ومدارس الهندسة.

التعلم من أجل العمل والإنتاج وليس عن طريقه:

وقد طور مبدأ الإنتاج كجزء من التربية وقد تبنى بعض الشخصيات الجماهيرية هذه الأفكار. فقد كتب بيزارف - مثلاً - يقول: «إن المشكلة التى يجب أن تعنى بها التربية هى تنمية حب التلميذ للعمل، وحبه لبذل الجهد.. فالإنسان بدون حب العمل لا قيمة له. كما أن العمل بدون الإنسان ليست له قيمة»(٣).

ولقد أدرك تولستوى أيضا أهمية العمل اليدوى فى التربية، أو التربية عن طريق العمل. والحقيقة أن معظم الشخصيات الجماهيرية قد أدركت أهمية هذه الفكرة. لكنهم بالرغم من ذلك قد أنكروا الأهداف النفعية للتربية. فقد كان

---

(1) the Central Commette of the C.p S .U., History of the Communist party of the Soviet Union , Ney York , 1939, p 115.

(2) Hass, N., the Russion tradition in Education , Lonon, Rotledge & Kegan paul. 1963. p.160.

(3) Ibid.

الهدف من التربية هو أن يتعلم الإنسان أن ينتج أكبر قدر ممكن فى أقل وقت وبأقل مجهود ممكن. إذن فقد أنكروا أن يكون الهدف المباشر للتربية هو الإنتاج الفعلى عن طريق التربية، بل كان الهدف المباشر - فى رأيهم - هو التعلم؛ أى أن يتعلم الإنسان كيف يحصل على أكبر قدر من الإنتاج بأقل مجهود وفى أقل وقت.

تأثر النفعية الأمريكية بالتقاليد الروسية:

ومن هذا نرى أن فكرة العمل الإنتاجى كجزء من التربية وأسلوب من أساليبها التى وضعها ماركس ولينين لم تكن جديدة تمامًا على الفكر الروسى. فلقد كانت تقليدًا روسيًّا معبرا عنه بأسلوب ماركس. ولقد تأثر الأمريكان بهذا الفكر الروسى فى مرحلة ما قبل الماركسية عندما أقاموا الكليات الفنية فى القرن التاسع عشر. «ولهذا أيضًا كانت أفكار ديوى النفعية تجد آذانًا صاغية وقبولاً كبيرًا بين جماهير المدرسين الروسيين حتى قبل قيام الحكم الشيوعى عام ١٩١٧، ولذلك فإن أفكار ديوى لم تكن بعيدة، بل ربما كانت انعكاسًا للتقاليد الروسية القديمة»[1]. وهنا تتضح العلاقة بين أصول النفعية العملية الأمريكية وبين التطبيقية الروسية.

إذن فالتربية عن طريق العمل كانت تقليدًا موجودًا وراسخًا فى الثقافة الروسية قبل قيام الثورة الشيوعية هناك، ولقد أكد الماركسيون قبل قيام الحكم الشيوعى فى روسيا أنهم كانوا يتبعون معسكر التربية النفعية العملية.

لقد كتب لينين عام ١٨٩٧ يقول:

«إنه لمن المستحيل تخيل نموذج لمجتمع المستقبل دون تصور أن تقوم المدرسة بإعداد جيل قادر على العمالة المنتجة أثناء وبعد الانتهاء من المدرسة. فلا التربية والتعليم بدون العمل الإنتاجى، ولا العمل الإنتاجى بدون التربية والتعليم، يمكن أن يصلا إلى المتطلبات الكبيرة للمعرفة العلمية والتقنية»[2].

---

(1) Ibid, p.161.

(2) Quoted by Ibid,p. 256.

وكـتب بعد ذلك يقـول: «إن المبـدأ التطبيـقى Polytechnical Priniple لا يتطلب تعلم كل شيء، ولكن يتطلب معرفة أساسيـات العمليات الصناعية الحديثة بصفة عامة»[١] هذه النفعية العلمية كـانت قد تأكدت فى كل التغيرات التى طرأت على السياسة التعليمية فى الاتحاد السـوفييتى بصفة خاصة، وفى بلاد شرق أوروبا بصفة عامة.

النمو مرهون بالعوامل البيئية والطبيعية لا بالاستعدادات الوراثية:

ونمو شخصية الطفل وطاقاته المختلفة مرهون بالعـوامل البيئية والطبيعية، ولا قيـمة فى ذلك للعوامل الوراثيـة! «فالعوامل البـيئية حـاسمة فى ارتقـاء الإنسان، فشخـصية الطفل تصاغ عن طريق المدرسة، أو غـير شكلية كتأثيـر وسائل الإعلام الموجهة المختلفة»[٢].

والطبيعة هى التى تمنح الطفل سماته الشـخصية، وطاقاته الكامنة والمحتملة! ومهمة التربية هى تهيئة الظروف التى تتيح الفرص لهذه الطاقات الكامنة كى تزدهر وتنمو نمواً كاملاً. ولهذا فكل شيء يعتمـد على الظروف التى تتيح الفرصة للتلميذ كفرد أن ينمو وأن تنـمو قدراته أيضًا. وعلى هذا فالاستعـدادات الوراثية ليس لها أى دور فى تحديد عـملية النمـو الكاملة للتلمـيذ وليس لهـا دور أيضًا فى تحـقيق الطاقات والقدرات الفردية!

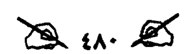
فالتربية فى المجتمع الشـيوعى مرتبطة ببناء إنسان «جديد»[٣] الإنسان القوى جسميًا، وعقليًا، الذى لا يؤمن بوجود الله، أو لا يؤمن بالدين، ولا ولاء له إلا للعقيدة الشيـوعية. وعلى ذلك فالتربية الماركسيـة تغرس الصراع وعدم التوازن فى نفسية الإنسان «الجديد» وشخصيته!

---

(1) Ibid.

(2) Koutassoff, E. the Soviet Union, London, Emest Ben 1971.p.141.

(3) Progrov G.s. Heredity and Upbringing in Redl, H.B. (ed.) Soviet Educators on Soviet Education, London, the free press of Glencoe. 1964. p.4.



التعليم عملية تدريب وليس تربية:

وطرق تنمية قدرات الإنسان تعتمد على إعطاء التلاميذ حلولا جاهزة للمشكلات التى يواجهونها[1]. ولا على دفعهم للتفكير والتحليل ولكن طريقة التعليم تعتمد على الربط بين التعليم العقلى والتعليم المهارى، فكلا التعليمين يكون على نفس المستوى فى هذه النظرية. كما أنهما يجب أن يتما فى مكان واحد، وفى زمان واحد[٢].

ويؤكد التربويون السوفييت أنه من الخطأ افتراض أن التلاميذ الموهوبين يستطيعون السيطرة على المعلومات والمعارف عن طريق الإلهام أو اعتمادًا على ذكائهم فقط[٣]. فالقدرات الخاصة لدى الأذكياء الموهوبين لا تعفيهم من العمل، بل تتطلب منهم أعباء ومطالب إضافية. والذين لا يخافون من العمل هم فقط الذين يصلون إلى قمته [٤].

وخلاصة القول إن مؤسسى هذه النظرية قد رأوا بذور التربية فى قوانين الصناعة التى صدرت فى منتصف القرن التاسع عشر والتى دعت إلى تعديل نظام العمل فى المدرسة ونظام العمل فى المصانع. ومن هنا ظهرت فكرة التربية التطبيقية Polytechnical Education ولقد عاش هذا المفهوم طوال حكم الحكومة السوفيتية تحت شعار الوحدة بين النظرية والتطبيق [٥].

وسوف نحاول وضع هذه النظرية فى صورة أكثر وضوحًا، بتحديد أهدافها، ومحتواها وطرق تدريسها، وأساليب تقويمها.

---

(1) Ibid, p.7.

(2) Ibid, p.5.

(3) Ibid, pp.5.6.

(4) Ibid, p.6.

(5) Holmes B., Cit., P.23.

الأهداف العامة:

النظرية التطبيقية - إذن - هى أساس الممارسة المنهجية فى الأقطار الاشتراكية التى كانت دائرة فى فلك الاتحاد السوفييتى السابق. وهذه النظرية عمومًا، ترى أن كل عمل من أعمال المدرسة يجب النظر إليه فى ضوء علاقته بالحياة الإنتاجية فى المجتمع. فالعمل هو المعيار الذى يحكم به على مدى جودة الممارسة المنهجية.

لقد كان الهدف الأول للتربية فى عملية بناء الإنسان السوفييتى «الجديد» هو أن تمحو من ضمائر الناس كل آثار الرأسمالية، والحيادية، والأفكار المضادة للنظرية البولشيفية. وينطبق هذا - بصورة خاصة - على الاتجاهات المتصلة بالعمال والعمال.

إن أحد أهم الأهداف التربوية، إن لم يكن أهمها على الإطلاق، هو أن توصل التربية إلى ضمائر الأجيال العقيدة الشيوعية، وأن تصهر عقول التلاميذ مع هذه العقيدة.

كما أن التربية لا بد أن تهتدى بالتراث الإنسانى، ولكن على أساس إعادة صياغة هذا التراث فى إطار الماركسية اللينينية!

كما يجب أن يوجه الاهتمام فى التربية أيضًا إلى ذلك الجزء من التراث الإنسانى الذى يؤكد المعرفة العملية والتقانية، والعلوم والرياضيات، التى هى ثمار الجهود الإنسانية فى فهم قوى الطبيعة والسيطرة عليها!

وتؤكد هذه النظرية على نوع التربية التى يتدرب التلميذ على المبادئ الأساسية لكل عمليات الإنتاج.

المحتوى

إن المحور الأساسى هنا، هو تقديم مواد عامة وفنية إلزامية لجميع الأطفال بنين وبنات حتى سن السابعة عشرة. وتعنى التربية التطبيقية هنا تزويد التلميذ بالنظرية والتطبيق لكل فروع الإنتاج الرئيسية؛ ولذلك «فإن محور هذه النظرية هو

كسر الحواجز وإزالة الازدواجية بين التعليم العام والتدريب المهنى. فالدراسات المهنية يجب أن تكون هى قلب التعليم العام[1].

فمفهوم ربط «العمل بالعقل» وربط «العمل باليد» هو ربما أكثر المفهومات جوهرية فى هذه النظرية التربوية. فالأطفال من سن التاسعة إلى الثانية عشرة يجب أن يعملوا بأيديهم فى مصنع لمدة ساعتين فى اليوم. ومن الثالثة عشرة إلى الخامسة عشرة أربع ساعات فى اليوم. ومن السادسة عشرة إلى الثامنة عشرة، ست ساعات فى اليوم. ويجب أن يشتمل العمل فى المدرسة على التربية العقلية والتربية البدنية، والتربية العسكرية، والتربية المهنية. وهنا يجب أن تزود التلميذ بالمبادئ الأساسية للإنتاج، وأن تعطيه الفرصة للتعامل مع الأدوات البسيطة لكل عمليات الإنتاج.

ويجب أن تقدم البرنامج المدرسى لكل التلاميذ المعارف المنظمة والقوية عن أساسيات الرياضيات والعلوم. كما يجب تدريبهم - فى نفس الوقت - على أساسيات الممارسة الإلزامية فى الزراعة والصناعة. وهذا يعنى ضرورة الاهتمام بوضع الأسس - فى المدرسة - المتوسطة - اللازمة لإعداد الفنيين فى معاهد إعداد الفنيين الابتدائية والمتوسطة. وتصنف هذه النظرية الرياضيات والعلوم على أنها «مواد مهمة» ويجب أن تعطى مكانًا خاصًا فى محتوى المنهج. وكل مدرسة يجب أن تكون مزودة بالمحلات والورش والمعامل، وقطع من الأرض للزراعة والحدائق. كما تعتبر الزيارات المنظمة لأماكن الإنتاج المختلفة جزءاً متكاملاً مع خبرات وأنشطة ومواد المنهج الأخرى.

تنظيم المحتوى وطرق التدريس:

فالمفهوم الأساسى للتربية التطبيقية لا يعنى تقديم بعض المواد المهنية فى المناهج، كما لا يعنى تعليم بعض التخصصات الفنية كالكهرباء، أو الميكانيكا، أو النجارة... إلخ. بل يعنى أن تكون التربية التطبيقية هى الشكل الأساسى والأصلى للتربية العامة وبمعنى آخر، فهى تعنى التربية المنظمة حول القوى الإنتاجية الأساسية فى المجتمع الصناعى، كالطاقة الكهربائية، والإنتاج الآلى، والإنتاج

(1) Holmes B., OP. Cit., P.34.

الكيميائى، والإنتاج الزراعى.. إلخ. فتنفيذ العـملية التعليمية يشمل التدريب فى المحلات والورش المدرسيـة وممارسة الخبرات العمليـة فى المصانع والمزارع - حيث يكون التعلم عن طريق الـعمل، والعمل عن طريق التعـلم، ودراسة كيفـية تنظيم الإدارة العمالية، والتخطيط الاقتصادى.. إلخ.

فالتربية التطبيقية هنا تبدو وكأنهـا عملية تطوير وتنمية الفرد الممارس والخبير فى الأسس العملية، والعمليـات التطبيقية للفروع الرئيسيـة للاقتصاد الصناعى فى مجـتمع اشـتراكى، وبـالرغم من هذا كله، فإن هناك تأكـيدات ضـمنية بـضرورة السيطرة على المعارف النظرية وحفظها وتسميعها.

أما بالنسـبة للجـانب الإدارى فى تنفيـذ المنهج، فلم يُترك شىء للصـدفة. فالمنـهج موحد لجـميع التـلاميـذ من الصف الأول إلى الصف العاشـر، والكتب الدراسية تؤلف وتعتمد رسميًا قبل إقرارها على التلاميذ.

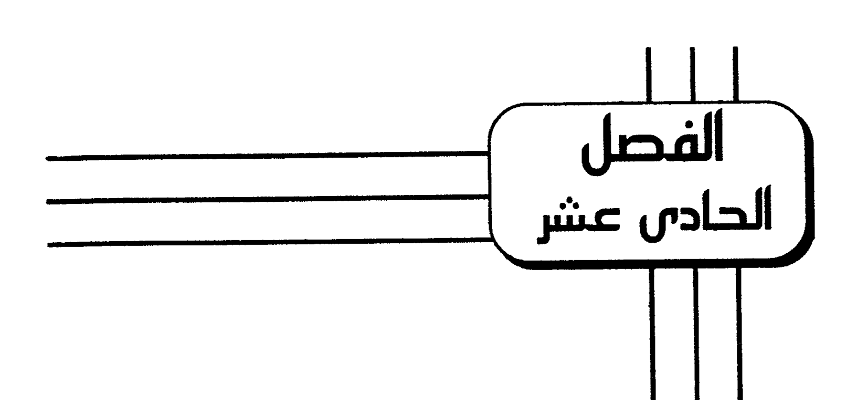
والبرامج أو المناهج التى تعدها السلطة التربوية العليا فى البلاد تعتبر إلزامية، يجب الالتزام بتنفيذها من كل مدرس وكل موجه، كما أنها تعتبر «وثائق قومية أو حكومية». وتعـتبر وحدة المناهج والالتـزام بها من جميع المدارس فى كـافة أنحاء البلاد من أهم الشروط الضرورية لتحسين العمل فى المدارس.

التقويم:

والخطوة الأخرى لضمان سيطرة الدولة على العملية التعليمية ولتأكيد سيطرة التـلاميـذ على المعـارف والمعلومـات هى، تنمـية وتطوير نظـام قوى للدرجـات والامتحانات، والنقل، والمنح، فمـعايير تقويم أعمال التلاميـذ إلزامية على جميع المدارس ويمنح التـلاميذ الذين يجـتازون امتـحانات النقل والامتـحانات النهـائية شهـادات بها الدرجات التى حـصل عليها الـتلميذ فى جـميع المواد. أما خـريجو المدارس الذين يحصلون على تقدير «ممتاز» فى المواد الأساسية، وتقدير لا يقل عن «جـيد» فـى المواد الأخرى، فـإن لهـم الحق فى الالتـحـاق بالمدارس العليـا بدون امتحانات قبول.

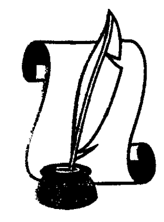
وتستخدم جمـيع أنواع الاختبارات والامتحانات فى تقدير أعـمال التلاميذ. ويعتبر الواجب المنزلى جزءًا متكاملاً ومهمًا فى عملية التربية.





الفصل الحادى عشر

عود على بدء
بين التصور الإسلامى
والنظريات الأخرى



بين التصور الإسلامى والنظريات الأخرى

لعل من المناسب فى هذا الفصل الأخير من الكتاب، أن نعقد مقارنة بين التصور الإسلامى للعملية التربوية - الذى لم أشأ أن أسميه «نظرية» - وبين النظريات الأخرى التى عرضنا لها بعد هذا التصور وأن نركز المقارنة حول الأساسيات التى يقوم عليها التصور الإسلامى لمناهج التربية، وتقوم عليها النظريات الأخرى. وأقصد بهذه الأساسيات: حقيقة الألوهية، وحقيقة الكون: غيبه وشهوده، وحقيقة الحياة غيبها وشهودها، وحقيقة الإنسان ومركزه فى الكون، ووظيفته فى الحياة، وأهم المبادئ التربوية المترتبة على ذلك كله. . . .

١- حقيقة الألوهية:

الحقيقة الإلهية إيجابية فاعلة فى الكون والإنسان والحياة. فالتصور الإسلامى يبدأ من الحقيقة الإلهية التى يصدر عنها الوجود كله، ثم يسير مع هذا الوجود فى كل صوره وأشكاله وكائناته ،موجوداته، ويعنى عناية خاصة بالإنسان - خليفة الله فى الأرض - فيعطيه مساحة واسعة من الصور، ثم يعود بالوجود كله مرة أخرى إلى الحقيقة الإلهية التى صدر عنها، وإليها يعود.

والتصور الإسلامى «فى هذه الجولة الواسعة من الله وإليه، يشمل كل دقائق الكون، لا يغادر منها شيئا يقع فى محيطه، سواء منها ما تدركه الحواس وما لا تدركه، وما يدركه العقل بوعيه، وما تدركه الروح فيما وراء الوعى. ويشمل كل نشاط الإنسان وكل طاقاته. سواء نشاطه المادى ونشاطه الروحى. وسواء حياته الاقتصادية والاجتماعية والفكرية وسواء عمله فى الحياة الدنيا وفيما وراء هذه الحياة»[1]. . .

أما الحقيقة الإلهية فى الفكر الأفلاطونى والأرسطى الذى قامت عليه النظرية الأساسية الإنجليزية، وتأثرت به النظرية الموسوعية الفرنسية فأمرها غريب، فإله

---

(١) محمد قطب: منهج الفن الإسلامى، مرجع سابق، ص ١٦.

أفلاطون وإله أرسطو لا عـمل لهما ولا إرادة! وإذا كان أرسطو يرى أن من كـمال إلهه ألا يشـعر إلا بذاته وألا يفكر إلا فى ذاته، فـإن أفلاطون يزعم أن من كـمال إلهه «الأحد» ألا يشعر حتى بذاته، لأنه يتنزه عن ذلك الشعور!

وقد أثر هذا اللون من الفلسـفة فيـما يتصل بالحـقيقة الإلهـية على المدارس الفكرية التـربوية التى أتت بعـد أفـلاطون وأرسطو. فـتـوماس الإكـوينى المتـأثر بأرسطو، وهو أحد أبرز المؤسسين للفلسفة الواقعـية المدرسية - قد شارك فى إقامة هذه الفلسفة على الاعتراف بكل من الطبيعة، والقوة الخارقة للطبيعة ممثلة فى الإله الذى خلق الوجود.

فهذه فلسفة ذات طبيعة ثنائية بين الإله والطبيعة! فلكل منهما صفات خاصة به لا تنسب إلى الآخـر، فالزمان والمكان والتـغير والنـمو من خصـائص الحوادث الطبيـعية، فى حين أن الأزليـة، وعدم التغيـر، وعدم التقيـد بالزمان والمكان من خصائص الإله!.

لذلك كان الهدف الذى تنشده الفلسفة الواقعـية المدرسية من التربية والتعليم هو نقل المتـعلم والارتفاع به إلى أزليـة الإله! وكلمـا اتخذت المناهج التـربوية من الوسائل ما يزيد قـرب الإنسان من الأزلية الإلهيـة، كانت أكثر تقدمـا من الناحية التربوية!

فإذا كانت وظيفـة مناهج التربية - فى التصور الإسلامى للحقيـقة الإلهية - هى أن تغـرس فى المتعلم الإيمـان بالله - ذاتا، وصـفات - والإيمـان بمنهج الله للكون والإنسان والحـياة، وأن توصل هذا المتـعلم إلى درجة كمـاله التى تمكنه من الإسهام فى تنفيذ منهج الله فى الحيـاة - إذا كان ذلك فى التصور الإسلامى، فإن سلبية الإله فى التصور الأفلاطونى الأرسطى، والازدواجية بين الإله والطبيعة لدى تلاميذ المدرسة الواقـعية المدرسية العلمانية بالإضافـة إلى عوامل أخرى - كان كل ذلك هو الخطوة الأولى نحو فصـل حقيقة الحيـاة عن الحقيقة الإلهـية... وفصل الدين عن الحياة، وظهور النظام «العلمـانى» الغربى، الذى شارك فى وضع أساسه جون لوك وآخرون. هذا النظام الذى يقوم على أساس فصل الدين عن الحياة، وأن لله ملكوت السماء، وللإنسان ملكوت الأرض، وأن ما لقيصر لقيصر وما لله لله!

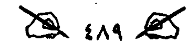
وعلى ذلك الأساس قامت معظم الدراسات النفسية ودراسات الأصول التربوية فى الغرب. وجاءت النظرية الموسوعية الفرنسية غير بعيدة عن هذا التصور للحقيقة الإلهية. فالحقيقة الإلهية هى إحدى مكونات الكون! مع الطبيعة والإنسان! وأصبح من مهام التربية الأساسية فى النظرية النفعية تكييف المتعلم مع البيئة والطبيعة من حوله، لا على أساس أنها من خلق الله، بل على أساس أن الطبيعة خالقة. ومن مهام التربية أن يفهم المتعلم القوانين التى تحكم العالم المادى من حوله، لا على أساس أن هذه القوانين ما هى - فى الواقع - إلا نواميس وقوانين وسنن خلق الله الكون عليها، وإنما على أساس أن الطبيعة هى صانعة قوانينها! فإدراك الحقائق العلمية للطبيعة هى وسيلة للمعرفة الجوهرية الكاملة! وبذلك أغفلت تماما برامج ومناهج التربية الدينية!.

ولقد كانت هذه هى الحلقة قبل الأخيرة. حيث جاءت الحلقة الأخيرة على يد أنصار النظرية التطبيقية الماركسية التى وضعت النهاية المتوقعة لهذا التطور الأخرق، فأنكرت وجود الله وآمنت بأنه «لا إله موجود والحياة مادة!» فحتمية المادة، وحتمية التاريخ، وحتمية الاقتصاد، وحتمية التكنولوچيا.... كل هذه الحتميات هى التى تصنع كل شىء، وتخلق كل شىء: الكون، والإنسان والحياة! وجاءت النظرية التربوية لتكريس هذا الفكر النظرى الذى يتصادم مع طبيعة الفطرة الإنسانية، والحياة الإنسانية، والرقى الإنسانى... وجاءت النتيجة فى صورة أجيال هم من أكثر خلق الله بؤسا وضياعا على وجه الأرض.

٢- حقيقة الكون:

الكون آية الله الكبرى، ومعرض قدرته المعجزة المبهرة، أراده الله فكان، وقدره تقديرا محكما، وجعل كل شىء فيه خاضعا لإرادته وتدبيره.

والكون - فى التصور الإسلامى - غيب وشهود. وهو من خلق الله: (عالم الغيب والشهادة). **والكون المغيب** كالروح، والملائكة، والجن... إلخ، نحن نؤمن به إيمان تسليم بوجوده كما علَّمنا الله. ونتكيف بذلك. وواجب الباحثين والمعلمين والمتعلمين والمناهج التربوية كلها أن يتأدبوا بأدب القرآن، وأن



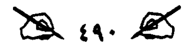
يقفوا عند حد ما جاء به، ولا يتركوا العقل يسبح فى هذه المغيبات: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء].

أما الكون المشهود، فهو كل ما نحسه حولنا، كالشمس، والقمر والسماء، والأرض، والبحار والأنهار والشجر والدواب... إلخ... وقد عرض لها الإسلام على أنها دلائل قدرة الله، وعلائم صنعه الدقيق الحكيم، ولتكون نبراسا يهدى الناس إلى معرفة الله، وفهم منهج الله، والعيش وفقا له.

وواجب مناهج التربية أن تتناول هذا الجانب من الكون بالدراسة والتفكير والتدبير، واكتشاف قوانين الله ونواميسه وسننه فيه. وأن تعلم الناشئة كيف يتلطفون فى التعامل مع هذا الكون المادى ومع البيئة المادية من حولهم ويبعدون عنها التلوث والنفايات والإشاعات، وبذلك يستثمرون خيراتها لخدمة أنفسهم ولخدمة البشر جميعا.

أما الكون المادى فى نظر المثاليين الذين يكونون الأساس فى النظرية الجوهرية أو الأساسية - فهو ممثل فى العقل، فالعقل - الممثل بعقل الله - هو سبب وجود الكون، فالكون عملية عقلية عظيمة، فالله أوجد العقل الإنسانى الذى أدرك الكون، فكان سببا فى وجوده. وبما أن العقل الإنسانى هو الذى أدرك الطبيعة أو الكون، فإنه يشارك فى طبيعة العقل المطلق - عقل الإله - ويعد جزءا منه، أو صورة مصغرة له! ومهمة التربية أن تتيح الفرصة للعقل كى يدرك الأشياء، فكل شىء لا يكون موجودا إلا إذا أدرك بالعقل - فالأشياء ليس لها وجود فى ذاتها! - وإنما لا بد أن تدرك بالعقل كى تكون موجودة!.

وبناء على هذه النظرية فالتعلم ليس ابتكارا ولا إبداعا، ولكنه تحقيق الفكرة المطلقة بالنسبة للحقيقة والخير، والمثل التى وضعت سلفا، وليست قيمة الأفكار مبنية على ما لها من أهمية فى حياة التلاميذ أو ضرورة فى إنجاز مشروعاتهم، أو فى ترقية حياتهم، بل إن قيمة الأفكار فى ذاتها، حيث إنها تصور الواقع الممثل للحقائق اللانهائية، ومن أجل ذلك فالأفكار جديرة بالتعلم، وهى تستحق أن يكون تعلمها هدفا فى حد ذاته! ومن هنا ظهرت نظريات العلم للعلم، والفن للفن، والأدب للأدب.. إلخ.



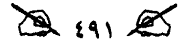
ولقد أثر هذا اللون من الفكر على كل المدارس التى كونت الروافد الأساسية للنظريتين: الأساسية، والموسوعية، فأوجدت الازدواجية بين العقل والجسم فى الطبيعة الإنسانية. وبما أن خاصية التفكير هى جوهر الطبيعة الإنسانية، فلقد كان الهدف الرئيسى للمنهج متمركزا حول تربية العقل وتدريبه على التفكير الصحيح، من خلال الفلسفة والعلوم النظرية التى لا تتطلب الملاحظة والممارسة والتجريب والعمل الميدانى!

ولقد أدى التفريق بين العقل واعتباره صورة مصغرة (للعقل المطلق الإله) وبين الجسم، وتركيز التربية على العقل، أدى هذا إلى تكوين المجتمعات الطبقية التى تسود فيها الأرستقراطية الطبقية الحاكمة. حيث خرجت المدرسة مجتمعا طبقيا مكونا من: طبقة التربية العقلية والفلسفية، وهى طبقة الحكام، وطبقة أخرى تعمل فى الصناعة والتجارة حيث يقل التركيز فى تربيتها على العقل، ثم طبقة الجنود والعمال الذين تعلموا عن طريق العمل اليدوى والعمل الميدانى والملاحظة والتجريب.

وفى النظرية الموسوعية تم التحرك بعيدا عن العقل قليلا، واعتبر (الكون) كلا كبيرا مشتملا على جزئيات متناسقة. وأهم هذه الجزئيات: الطبيعة، والإنسان، والإله. بل لقد اعتبر الإنسان فى أهم مرحلة من مراحل تطوره أحد مكونات الطبيعة.

هنا بدأت الفلسفة الواقعية الطبيعية تطفو على السطح إلى درجة أن صار الإنسان أحد مكونات الطبيعة. لكنه يمتلك طاقات وقدرات بشرية هائلة، ومهمة التربية تربية الطاقات والقدرات هذه منذ الصغر، حتى يستطيع الإنسان السيطرة على الطبيعة ويقترب من مرحلة الكمال الإلهى!

وبالرغم من أن فكرة الكونية والطبيعية أتت فى فكر كومينيوس وديكارت، وبيكون وجون هس، وهم الذين كونوا الأفكار الأساسية للنظرية الموسوعية، إلا أنهم لم يكونوا قد تخلصوا من الفكرة المثالية بعد، فالإنسان قد صنع فى صورة إله، وإنسانيته قد بنيت على العقل، فلا سلطة سواه، ولا مقياس للحقيقة إلا



بالمبادئ والمعايير التـى يضعها. وقد ألقى هذا على عاتق مناهج التربـية تبعة تعليم الناس وتنمية مـواهبهم الطبيعية، كـما ألقى على عاتق الناس تبعة الاسـتمرار فى التربية للوصول إلى الكمال...

ولقـد انقلب مـفهـوم (الكون) رأسـا على عقب فـى النظريتيـن: العمليـة (النفعية) والتطبيقية (الماركسية). فهاتان النظريتان تعتمدان على الفلسفتين: الطبيعية الواقعية وأفكار دارون المتطورة عنهـا، وعلى الفلسفة التجريبية الميدانيـة. فالواقعية الطبيعـية تتمسك بأن الكون هـو هذه الأشياء الموجودة فى هذا العـالم المحسوس. وأن العالم المحـسوس هو عـالم حقـيقى فى حـد ذاته، وأن هذا العالم والأشـياء الموجـودة به لا يعـتـمـد فى وجـوده على إدراك عـقل الله، أو عـقل الإنسـان. فالواقعيون الطبيعيون يرفضون أى شىء وراء الطبيعة.

والحياة الإنسانية بكل أبعادها الجسميـة والعقلية والروحية والخلقية هى حدث طبيعى عادى، يمكن عـزوه فى كل أبعاده إلى العمليات العادية للطبيعـة! فالطبيعة خالقة للإنسان والحياة، فهى مصدر المعرفة، ومصدر الحياة!.

وعلى هذا فالتـربية تعتـمد على الخبرة والتـجربة والملاحظة، والطبيـعة هى مصدر مناهج التربية، فهى تحتوى على الصدق، فالصدق حقيقة يمكن ملاحظتها، وهذا الصدق يمكن الحصول عليه بواسطة الفحص العلمى للطبيعة.

وقد أثر هـذا الفكر على حركـة التربيـة والمناهج فى أمريكا، ثم انتـقل إلى أوروبا على يد عدد من المفكرين من أمثال هيربارت سبنسر وشيلر وغيرهما، حتى إن الملاحظة الآن لحركة التربيـة والمناهج فى أوروبا يجد أنها أقرب إلى هذا المنظور منها إلى النـظريتين الأساسـية الإنجليزيـة، والموسوعيـة الفرنسيـة، واللتين كـانتا تستحوذان على التفكير التربوى الأوروبى حتى نهاية الحرب العالمية الثانية.

٣ - حقيقة الحياة:

الحياة - فـى التصور الإسلامى - مـغيبة، ومـشهودة، دنيا وآخـرة. والحياة الآخرة هى الحـياة الباقـية الخالدة.. فـيها يحـاسب الإنسان على عمله فى الحـياة

الدنيـا، وعلى مقدار سـعيـه وكده، وكـدحه فى سـبيل القـيام بحق الخـلافة فى الأرض، وعلى مقدار إسهامه فى عمارة الأرض وترقية الحياة وفق منهج الله.

وعمـارة الأرض وترقيـة الحيـاة على ظهرها وفق منهج الله - وهـى جوهر الأمانة التى حملها الإنسان - إنما تكون باستثمار ما أودعه الله فى الأرض استثمارا صالحا... وتكون أيضا عـن طريق توجيهه ألوان النشاط البشـرى لاستخدام تلك الطاقات التى أودعها الله فى الأرض، وفى الكائنات الأخرى، واسـتثمارا صالحا. وتكون باستـثمـار الإنسان لتلك الطاقات بالـلطف والرفق واللين وفق منهج الله. وبذلك يتحقق التناسق والتكامل بين أنشطة الكائنات من إنـسان، وحيوان، ونبات وجماد، من أجل إعمار الحياة.

والحيـاة إنما تعمر بالعلم، والعـدل والإحسان فى العـمل، والاتجاه إلى الله بكل نشاط فى كل حين.

والعلم - فى التصـور الإسلامى - هو معرفـة قوانين الله وسننه ونواميـسه التى خلق الكون عليها، واستخدام هذه المعرفة بالقوانين الكونية فى عمارة الأرض واستثمار خيراتها، وترقية الحياة على ظهرها.

ومهـمة التربيـة هنا هى أن توصل الإنسان إلى درجـة كمالـه. فلكل إنسان درجة كـمال هيـأه الله لها، حـتى يكون قادرا على القـيام بواجـبات الخـلافة فى الأرض. والمناهج التربوية هى: نظم تزود الإنسان بالحقائق والمعـايير والقيم الإلهية الثابتـة، والمعارف والخبـرات والمهارات الإنسانيـة المتغيـرة، التى توصله إلى درجة كماله الـتى هيأه الله لها، وبذلك يكون قادرا على المسـاهمة بإيجابية وفـاعلية فى عمارة الأرض وترقية الحياة على ظهرها وفق منهج الله.

والإنسان يتعلم - وفقا للتصور الإسـلامى - عندما يثار بدوافعه الداخلية أو الخارجية، فيستعين بهـدى الله، ويأخذ بالأسباب الممكنة أو بعضها، فيصل - عن طريق الملاحظة والمشاهدة والتدبر والتجربة، أو عن طريق الإلهام - إلى الفهم، ثم

يحول هذا الفهم النظرى الذهنى إلى سلوك عملى فى واقع الحياة. بذلك يكون قد علم.

والعدل هو زمام الحياة الإنسانية وقائد حركتها نحو السمو، نحو الخير، والحق والجمال. فالعدل فرض فى الحكم، وفى السياسة المالية والاقتصادية، وفى العلاقة بين الفرد والجماعة، وبين الرجل والمرأة. والعدل واجب على الأنبياء، وحق حتى للأعداء... ولذلك صدق فخر الدين الرازى عندما قال: العدل هو تنفيذ حكم الله وتطبيق منهجه فى الحياة.

والعمل - فى التصور الإسلامى - هو حركة الحياة، وعمارة الأرض وفق منهج الله. وليس المراد بالعمل - فى التصور الإسلامى - مجرد العمل، وإنما الإحسان فى العمل. والإحسان فى العمل ذو شقين: بذل أقصى الجهد للوصول إلى درجة الإتقان والمهارة فيه، ثم التوجه به كله إلى الله، بذلك لا يضل العمل، ولا يتجه إلى غير خير الناس، كل الناس.

ومفهوم العبادة - فى التصور الإسلامى - لا يقتصر على مجرد أداء المناسك التعبدية من صلاة، وصيام، وزكاة، وحج، وإنما العبادة تشمل كل حركة الإنسان ونشاطه الفكرى والعملى فى الحياة. فنشاط الإنسان كله حركة واحدة متجه إلى الله. وبذلك يكون الإنسان عابدا لله حيثما كان.

ومهمة التربية ومناهج التربية، هى ترسيخ هذه المفاهيم فى أذهان الناشئة عن طريق التمحور حول الحقائق والمعايير والقيم الإلهية الثابتة، المتمثلة أولا فى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فالتربية الإسلامية يجب أن تكون ملتزمة بذلك التزاما مطلقا، والمتمثلة ثانيا فى الصالح المفيد من التراث الإسلامى، وثالثا فى الصالح المفيد من التراث الإنسانى الذى لا يتناقض مع موجهات منهج الله.

ثم إن الكون كله لله، والحياة كلها لله، فالكون كتاب الله المفتوح لمنهج التربية الإسلامية ينهل منه ما يشاء، حيث يشاء، على أن يكون معيار الاختيار والانتقاء هو ما ينفع المتعلم فى بناء شخصيته، وفى القيام بواجبات الخلافة عن الله فى عمارة الأرض.

أما لب الحياة وجوهرها - فى نظر المثاليين - فهو العقل، لأن العقل هو السبب فى وجود الحياة. فالله أوجد العقل الإنسانى، والعقل الإنسانى أوجد الحياة والواقع بإدراكه لها. ودور الطبيعة هو دور الوسيط الذى يمثل هذه العملية فى نموذج يمكن إدراكه بالعقل الإنسانى ذى القدرة المحدودة. فالعقل الإنسانى إنما يثبت وجوده عن طريق فهمه للحياة والواقع! ومن أجل أن يكون الواقع أو الحياة موجودة، لا بد أن تكون مدركة بالعقل، لأن هذا العقل إنما هو صورة مصغرة للعقل الإلهى.

والعملية التربوية هنا ليست فهما أو إدراكا وعلما وابتكارا، وإنما هى تذكر... تذكر للحقائق والأشياء والمثل التى وضعت سلفا فى العالم المثالى الأعلى، وهو العالم الحقيقى، والهدف الحقيقى للتربية هو تربية العقل، وتدريبه على التفكير والإدراك.

وإذا كانت النظرة المثالية لأفلاطون قد قصرت الحياة والواقع على ما يدركه العقل، فإن الواقعية المدرسية المتأثرة بأفكار أرسطو وبالفكر الدينى لتوماس الإكوينى، تقوم على الاعتراف بكل من الطبيعة، والقوة الخارقة للطبيعة ممثلة فى الإله الذى خلق الوجود كله. فالحياة مخلوقة لله عن طريق القوى الخارقة للطبيعة، فالطبيعة اشتركت فى الخلق - بشكل ما - مع الإله!

والهدف الذى تنشده التربية هنا هو التعليم الذى ينقل المتعلم ويرتفع به إلى الأزلية التى يتمتع بها الإله. والتربية الحقيقية هى التى تكسب الإنسان السيطرة على النفس، وعلى البيئة من حوله.

وإذا كانت الحياة موجودة وجودا مستقلا فى رأى ديكارت والمؤسسين للنظرية الموسوعية الفرنسية، فإنه يمكن إثبات وجود الله عن طريق مخلوقاته، فحيث لا توجد معرفة مباشرة بالله، فإنه يمكن فقط معرفة الله عن طريق التفكر فى خلق الله.

والحياة - فى تصور الفلسفة الطبيعية المكونة للنظريتين النفعية والتطبيقية - هى حدث طبيعى، فالحياة هى البيئة المحيطة بنا بكل أبعادها، فالواقعية الطبيعية

تفترض أن الحياة الإنسانية بكل أبعادها الجسمية والعقلية والروحية والخلقية هى حدث طبيعى عادى، يمكن عزوه فى كل أبعاده إلى العمليات الطبيعية العادية. والتربية تعتمد على الخبرة والملاحظة للبيئة والطبيعة. فالطبيعة هى مصدر الحياة، وهى مصدر الصدق.

ونتيجة للعمليات المستمرة للطبيعة، وللإدراك الإنسانى وللنشاط الإنسانى، فإن الحياة - بكل أبعادها متغيرة. ويجب أن تظل كذلك. فالتغير هدف من أهداف التربية الرئيسية.

ويتم الحصول على القيم من البيئة ومن الطبيعة! وكنتيجة لملاحظة الإنسان للبيئة والطبيعة، فإنه يتعرف على القوانين التى تزوده بالأساس الذى يعتمد عليه فى إصدار أحكامه الخاصة بالقيم الخلقية والجمالية. هذا هو أساس تكوين القيم الحياتية فى النظرية النفعية.

أما فى النظرية التطبيقية الماركسية فإن القيم يتم تكوينها بطريقة آلية عن طريق تعليم الخبرات والمهارات المكتسبة من (المادة). فالقيم يمكن اكتسابها عن طريق الممارسة المستمرة لعملية التعليم والتعلم. فآلية تكوين القيم هى امتداد لآلية تكوين الخبرات المعرفية والتطبيقية المستمرة. فالتعليم والتعلم يؤديان إلى تكوين المهارات والخبرات المعرفية والتطبيقية، وتكرار هاتين العمليتين يؤدى إلى تكوين قيم الفرد ووجهة نظره تجاه نفسه، وتجاه العالم من حوله!.

والنمو - كالتغير - من أهم أهداف التربية فى النظرية النفعية. وليس هناك للتغير ولا للنمو معايير يمكن الحكم بها عليهما. وبمعنى آخر، ليس هناك معايير للحكم عليها من خارجهما، فالتربية من أجل النمو والتغير، وبالنمو والتغير، وبالتالى ليست هناك أهداف ثابتة للتربية، فالقول بوجود أهداف ثابتة للتربية، مرض عقلى، فى نظر جون ديوى.

وهذا الإيمان بعدم وجود أهداف ثابتة للتربية، يجعل الحياة الإنسانية كلها على حافة التغير، ولا يمكن تصور ما تكون عليه فى المستقبل.

وإذا كان التغير فى الحياة الإنسانية وفى واقع الأرض يتم - فى التصور الإسلامى - بفعل الإنسان نفسه، ولكن فى إطار المشيئة المطلقة لله، فإن التغير الاجتماعى فى النظرية التطبيقية، إنما يحدث وفقا لديناميكية العملية المادية. فأسباب التغير لا يتم البحث عنها فى عقول الناس، وإنما يتم البحث عنا فى التغيرات التى تحدث فى أسلوب الإنتاج والتجارة، واقتصاديات الحقبة الزمنية المعينة!.

لذلك فإن التربية تتطلب معرفة أساسيات العمليات الصناعية والعمل الإنتاجى، والتغيرات التى تطرأ على العمليات العملية والتقانية.

٤- حقيقة الإنسان:

الإنسان فى التصور الإسلامى هو أكرم مخلوقات الكون. وقد خلقه الله من طين الأرض، ثم نفخ فيه من روحه فكان:

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٢٨) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٢٩) ﴾ [الحجر]..

وهو كائن من كائنات الملأ الأعلى؛ لأن إنسانيته لم تتكون إلا بعد أن نفخ الله فيه من روحه فقد نشأ فى الملأ الأعلى، ثم هبط على الأرض باختياره:

﴿ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨) ﴾ [البقرة].

وقد عقد الله للإنسان الخلافة فى الأرض ليعمرها ويرقى الحياة على ظهرها وفق دينه - تعالى - ومنهجه:

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً ... (٣٠) ﴾ [البقرة]..

وقد أعد الله الإنسان للخلافة فى الأرض، فجعل الإيمان بالله، والشعور بوجود الله فطرة مستكنة فى الطبيعة الإنسانية، وأخذ على بنى آدم العهد بذلك، وهم بعد فى ظهر الغيب:

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ ﴾ [الأعراف].

واقتضى الإعداد للخلافة أن علم الله آدم الأسماء كلها. وجعل عقل الإنسان هو مناط التكليف والمسؤولية. وجعل قدرته على التفكير والاختيار أهم مؤهلاته للخلافة وتنفيذ منهج الله فى الأرض:

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ ... ﴿٧٢﴾ ﴾ [الأحزاب].

لذلك، فإن مهمة التربية الرئيسية فى التصور الإسلامى، هى إعداد الإنسان للقيام بواجبات الخلافة، عن طريق بناء الإنسان القوى فى جسمه، وعقله، وعقيدته. الإنسان القوى فى أن يفعل، وألا يفعل، الإنسان الحر، القادر على التفكير والاختيار، فهذا مناط التكليف، وأساس حمل الأمانة.

ولأن الإنسان مسؤول عن أمانة تنفيذ منهج الله، فقد خلقه الله حرا، فهو حر لأنه مسؤول، فالمسؤولية تتطلب الحرية، والحرية تستتبع المسؤولية.

والحرية - فى التصور الإسلامى - جزء مركوز فى فطرة الإنسان. فالله خلق الإنسان حرا. وقد عبر عن هذا المعنى عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - حين قال: «متى استعبدتم الناس، وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا؟»!.

فالحرية ليست منحة يمنحها النظام الاجتماعى للإنسان، أو يمنعها عنه إذا أراد. وهى ليست مجرد ميزة اجتماعية، لا تمنح للأفراد إلا بقدر ما حصلوا عليه من معارف - كما يقول أنصار المدرستين: الأساسية والموسوعية. فهى ليست مجرد غاية للتربية، تظل مقيدة ومحدودة بما حصل عليها الفرد من معرفة، لأن ربط الحرية بهذا القيد يجعل تسعة أعشار خلق الله فى الكون عبيدا لعشرهم.

فهذه نظرية تعبد العباد للعباد، تعبد الكثرة المحكومة للقلة الحاكمة. وبالرغم من أن أنصار هاتين المدرستين ينادون بالحرية فى التربية، إلا أنهم يرون ألا يكون للمتعلمين رأى فى اختيار محتوى المنهج وتنظيمه، فهذا عمل الكبار ومسؤوليتهم.

وأما فى التصور الإسلامى، فالحرية جزء مركوز فى فطرة الإنسان، وأساس فى إنسانيته، بها يصير إنسانا مسؤولا، وبدونها يهبط إلى درجات أدنى من الحيوان. فالإنسان حر فى كل شىء، حتى فى العقيدة التى يؤمن بها، رغم أنها أشرف من كل شىء:

﴿ ... فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ... ﴿٢٩﴾ ﴾ [الكهف].

﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ... ﴿٢٥٦﴾ ﴾ [البقرة].

وليست أفعال الإنسان مفروضة عليه بقوى أعظم منه، كما يرى فلاسفة النظريتين: الأساسية والموسوعية.

والقول أيضا بأن هذه الأفعال التى يقوم بها الإنسان لا وجود لها فى الكون قبل قيام الإنسان بها، فالإنسان أوجدها بمبادرات أصلية منه عن طريق إرادته الحرة القوية القادرة على الاختيار - كما يقول النفعيون، هذا أيضا قول ينفى علم الله وإرادته!

والصحيح - كما فى التصور الإسلامى - أن الله أراد كل شىء فى الكون، بما فى ذلك أفعال الإنسان، وأنه بمقتضى علمه - سبحانه، لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض - كتب هذه الأفعال على الإنسان فى اللوح المحفوظ. وهذا لم يمنع طبعا أن يقوم الإنسان بأفعاله هو، وفقا لإرادته هو واختياره، فالله يغير ما بالناس وفقا لما صارت إليه نفوسهم وأعمالهم، وإن كان يعلم ما سيكون منهم قبل أن يكون، إلا أن ما يقع عليهم يترتب على ما يكون منهم، ويجىء لاحقا له فى الزمان بالقياس إليهم:

﴿ ... إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ... ﴿١١﴾ ﴾ [الرعد].

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ... ﴿٥٣﴾ ﴾ [الأنفال].

ويتصادم مع هذا تصادما عنيفا - بالطبع - قول أئمة الإلحاد فى النظرية التطبيقية، والتى ترى أن أسباب التغير الاجتماعى لا توجد فى عقول الناس وأفكارهم، وإنما توجد فى ديناميكية العملية المادية!.

وتتصادم معه - أيضا - فكرة سلب الإنسان مسؤولية الاختيار والتصرف على أساس الحتمية المادية، والتاريخية، والاقتصادية.... إلخ. التى تعنى أنه ليس بوسع أحد أن يتصرف بغير ما تصرف به الفعل، مما يؤدى إلى سقوط مسؤولية الإنسان الأخلاقية عن أفعاله، وبذلك تنحط قيمة الإنسان إلى درجات أدنى من الحيوان!

أما فى التصور الإسلامى، فالإنسان هو أكرم خلق الله على الله، لا شىء يعلو عليه، ولا قيمة تعلو على قيمته، ولا يجب أن تهدر قيمته فى سبيل أى شىء. فهو خليفة الله فى الأرض. وهو معان من الله على القيام بواجبات الخلافة، فالكون - كله، بما فيه من جماد ونبات وحيوان - مصمم له -، ومسخر لخدمته:

﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ ... (١٣) ﴾ [الجاثية].

٥ - حقيقة الفطرة الإنسانية:

وعلى هذا الأساس يختلف مفهوم «الفطرة الإنسانية» فى التصور الإسلامى، عن مفهوم «الطبيعة الإنسانية» لدى معظم الفلسفات ومدارس علم النفس التى تقوم عليها نظريات المناهج السابقة.

فالفطرة فى الإسلام هى الخلقة السليمة التى لم تشب بعيب، والتى يكون عليها كل موجود أول خلقه. وفى التنزيل:

﴿ ... فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ... (٣٠) ﴾ [الروم].

فالفطرة - إذن - هى خلق الله الإنسان على الإسلام، أى شاهدا بعبوديته لله، ومقرا بربوبيته، ومزودا بالاستعدادات والطاقات، الظاهرة والباطنة، التى تمكنه من إصابة الحكم، والتمييز بين الحق والباطل، وفقا لمعايير منهج الله.

أما الطبيعة فى المصطلح الفلسفى الذى قامت عليه معظم النظريات السابقة ومدارس علم النفس، والدراسات الإنسانية فهى الأشياء المادية المحسوسة حولنا من

من جماد ونبات وحيوان. فهى عند أفلاطون المثال، وعلة الوجود. وهى عند أرسطو أصل الأشياء ومصدر الحركة، وقد استخدمت معظم الفلسفات والنظريات الغربية الحديثة مفهوم الطبيعة بهذا المعنى الإغريقى القديم، وخاصة بعد أن عزلوا الدين عن الحياة، فالطبيعة عندهم هى أصل الأشياء وهى القانون الطبيعى الذى يعمل فى الأشياء. فالطبيعة - إذن - ليست من خلق الله، بل خالقة الكون، وسبب وجوده الأول!.

وإذا كان الإنسان فى التصور الإسلامى هو أرقى مخلوقات الكون الذى خلقه الله. فهو لدى كثير من الفلسفات الغربية الحديثة حيوان متطور عن الطبيعة، التى هى أصل الأشياء وسبب وجودها!.

وإذا كانت النفس - الجسم والعقل، والروح والطاقات كلها - هى كلا متكاملا، تمثل جماع شخصية الإنسان فى التصور الإسلامى. وإذا كانت الروح هى أصل النفس، ومادتها؛ فالنفس مكونة منها ومن اتصالها بالبدن، فإنه فى معظم الدراسات النفسية والنظريات التربوية فى الغرب، ليس للإنسان نفس مخلوقة، وإنما نفس طبيعية، تصنعها الظروف والمؤثرات البيئية الخارجية!.

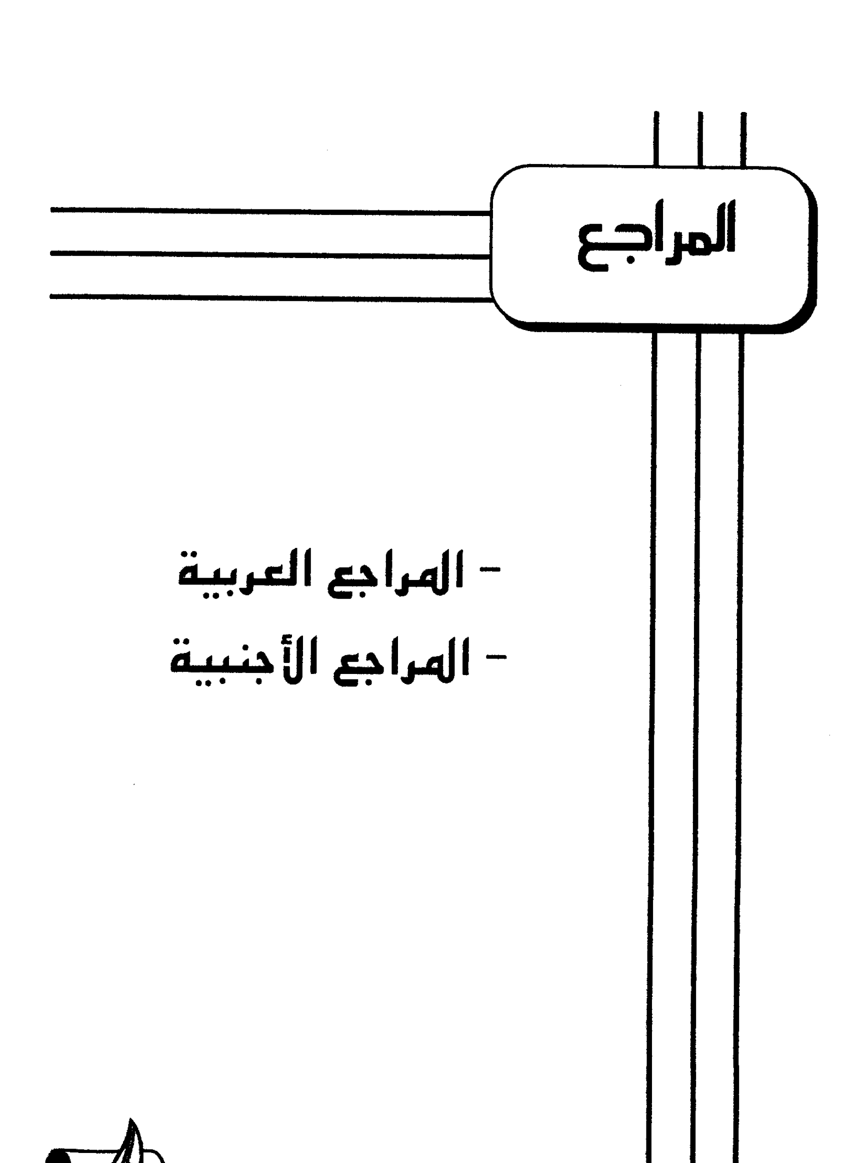
وعلى هذا، فإن علم النفس فى التصور الإسلامى يتعامل مع الإنسان الذى خلقه الله، ومع النفس المخلوقة من مركب الروح والجسد متفاعلين ومتكاملين. لكن علم النفس الغربى - فى عمومه - يتعامل مع الإنسان الطبيعى الذى جاء نتيجة تطور الأحياء، ومع النفس التى جاءت نتيجة للظروف الطبيعية والمؤثرات البيئية!.

ولما كان هذا كله ينعكس على نظريات التعلم، وعلى دوافع السلوك وغاياتها، ولما كانت التربية هى تطبيق لمفاهيم علم النفس ونظريات المناهج، فإن التربية فى التصور الإسلامى، تختلف عن التربية حسب نظريات المناهج الأخرى، بقدر الاختلاف بين علم النفس فى التصور الإسلامى وعلم النفس الغربى فى فهم حقيقة النفس، وحقيقة الفطرة التى فطر الله الناس عليها.

والخلاصة: أننا إذا أردنا أن يكون لنا مكان فى الأرض - فضلاً عن مكانة وذكر فى السماء، فعلينا أن نتمسك بهويتنا، وأن نربى أجيالنا وفقًا للتصور الذى وضعه الله لنا. وليس فى هذا تخل عن «الحكمة»؛ لأن الحكمة ضالة المؤمن - كما قال الرسول الكريم عليه ﷺ حتى لو امتلكها الأعداء. لكن «الحكمة» التى نحن مأمورون بأن ننشدها، ليست مجرد محاكاة الآخرين فى كل شىء كما تفعل القردة والببغاوات، لكنها الحكمة التى يقول عنها ابن كثير: إنها الفهم فى الدين. وهى ثمرة التعلم لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ؛ حيث تربى لدى الإنسان ملكة يتأتى معها وضع الأمور فى نصابها ووزنها بمعاييرها الصحيحة، وإدراك غايات الأمور والتوجيهات فى منهج الله للكون والإنسان والحياة.

والله يقول الحق، وهو يهدى السبيل.

على أحمد مدكور



المراجع

- المراجع العربية
- المراجع الأجنبية

المراجع العربية:

١- **ابن كثير**: تفسير القرآن العظيم، دار الأندلس، ١٤ هـ.

٢- **ابن القيم**: أعلام الموقعين عن رب العالمين، بيروت، دار الجيل، بدون تاريخ.

٣- **ابن عبد البر النمرى القرطبى**: جامع بيان العلم وفضله، الطبعة الثانية، تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان، المدينة المنورة، المكتبة السلفية، ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨ م.

٤- **ابن خلدون**: المقدمة، الطبعة الأولى، بيروت، دار القلم، ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨ م.

٥- **ابن تيمية**: درء تعارض العقل والنقل، تحقيق محمد رشاد كامل - القاهرة، دار الكتب، ١٩٧١ م.

٦- **الراغب الأصفهانى**: الذريعة إلى مكارم الشريعة، راجعه وقدم له طه عبد الرؤوف سعد، القاهرة، مكتبة الكليات الأزهرية، ١٩٧٣م.

٧- **الجاحظ**: البيان والتبيين: تحقيق حسن السندوبى، ط٤، المكتبة التجارية الكبرى - القاهرة، ١٩٥٦ م.

٨- **أبو الأعلى المودودى**: مفاهيم إسلامية حول الدين والدولة، الرياض، الدار السعودية للتوزيع والنشر، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م.

٩- ــــــــــــ: المنهج الإسلامى الجديد للتربية والتعليم، جمعه وقدم له وعلق عليه محمد مهدى الاستانبولى، ط٢، بيروت، المكتب الإسلامى ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م.

١٠- ــــــــــــ: الحكومة الإسلامية، جدة، الدار السعودية للتوزيع والنشر، ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م.

١١- ــــــــــــــــــ: أسس الاقتصاد بين الإسـلام والنظم المعاصرة، ومعضلات الاقتصاد وحلها فى الإسلام، جدة، الدار السعودية للتوزيع والنشر، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م.

١٢ - **أبو الحسن الندوى**: ماذا خسـر العالم بانحطاط المسلمـين، بيروت، دار الكتاب العربى، ط٨، ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م.

١٣ - ــــــــــــــــــ: النبوة والأنبـياء فى ضوء القـرآن، دمشق، دار القلم، ط٦ ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م.

١٤ - **أنور الجندى**: التربيـة وبناء الأجيال فى ضوء الإسـلام، بيروت، دار الكتاب اللبنانى، ١٩٨٢ م.

١٥ - **أليكسيس كاريل**: الإنسان ذلك المجهول، تعريب شفيق أسعد فريد، بيروت، مكتبة المعارف، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٢ م.

١٦ - **أمـال حمـزة المرزوقى**: النظرية التـربوية الإسلامـية ومـفهـوم الفكر التربوى الغربى، جدة، شركة المدينة المنورة للطباعة والنشر، ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م.

١٧ - **إدارة الثقافة والنشر بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية**: بحوث وتوصـيات ندوة الشبـاب المسلم ودور الجـماعـات فـيهـا، الرياض، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨ م.

١٨ - **توفيق الطويل**: أسس الفلسفة، ط٥، القاهرة، دار النهـضة العربية، ١٩٨٨ م.

١٩ - **ت. مور**: النظرية التربوية، ترجمـة الدكتور محمد أحـمد الصادق، والدكتور عبد المجـيد عبد التواب شيحة، ط١، القاهـرة مكتبة النهضة المصرية، ١٩٨٦ م.

٢٠ - **جون ديوى**: الديمقـراطية والتربـية، ترجمـة متى عقـراوى وزكريا ميخائيل، ط٢، القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٥٤ م.



٢١ - حسن البنا: حديث الثلاثاء: إعداد أحمد عيسى عاشور، القاهرة، مكتبة القرآن، بدون تاريخ.

٢٢ - **حسين سليمان قورة**: الأصول التربوية فى بناء المناهج، القاهرة، دار المعارف؟، ١٩٧٢ م.

٢٣ - **سيد قطب**: فى ظلال القرآن، الطبعة العاشرة، بيروت، دار الشروق، ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م.

٢٤ - ــــــــــ: خصائص التصور الإسلامى ومقوماته، الطبعة الشرعية السابعة، بيروت، دار الشروق، ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م.

٢٥ - ــــــــــ: معالم فى الطريق، الطبعة الشرعية العاشرة، بيروت، دار الشروق، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م.

٢٦ - ــــــــــ: العدالة الاجتماعية فى الإسلام، الطبعة الشرعية التاسعة، بيروت، دار اشروق، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م.

٢٧ - ــــــــــ: المستقبل لهذا الدين، الطبعة الشرعية التاسعة، بيروت، دار الشروق، ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م.

٢٨ - ــــــــــ: هذا الدين، الطبعة العاشرة، بيروت، دار الشروق، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م.

٢٩ - ــــــــــ: نحو مجتمع إسلامى، الطبعة الشرعية السادسة، بيروت، دار الشروق، ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م.

٣٠- ــــــــــ: الإسلام ومشكلات الحضارة، الطبعة الثامنة، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣ م.

٣١- ــــــــــ: فى التاريخ فكرة ومنهاج، الطبعة الشرعية السادسة، بيروت، دار الشروق، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٩ م.

٣٢ - **عباس محمود العقاد**: الله، القاهرة، دار المعارف، بدون تاريخ.

٣٣ - **عبد اللـه المغيرة**: طرق تدريس الرياضيـات، عمادة شؤون المكتـبات بجامعة الملك سعود، الرياض، ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م.

٣٤- **عبد الغنى عبود**: فى التربية الإسلامـية، القاهرة، دار الفكر العربى، ١٩٧٧ م.

٣٥ - **عـبـد الرحمن صـالح عـبـد الله**: المنهـاج الدراسى، أسسه وصـلته بالنظرية التـربوية الإسلامـية، الرياض، مـركز الملك فـيصل للبـحوث والدراسات الإسلامية ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م.

٣٦ - **عبـد القادر هاشـم رمزى**: النظرية الإسلامـية فى فلسفـة الدراسات الاجتماعية والتربوية، الدوحة، ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م.

٣٧ - **عبد الوهاب المسيرى**: العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، القاهرة، دار الشروق، ٢٠٠٢م.

٣٨ - **على أحمد مدكور**: منهج التربية فى التصور الإسلامى، بيروت، دار النهضة العربية، ١٤١١ هـ - ١٩٩٠ م.

٣٩ - ـــــــــــــ: المفاهـيم الأساسيـة لمناهج التربيـة، الرياض، دار أسامة للنشر والتوزيع، ١٤١١ هـ - ١٩٨٩ م.

٤٠ - **على عبد الواحد وافى**: أصول التربية الإسلامية، القاهرة، دار الفكر العربى، ١٩٧٧ م.

٤١ - **محمـد أحمد الغنام**: تعليم الأمة العربية - القـاهرة، مطبعة التقدم، ١٩٦٩م.

٤٢ - **مـحمـد أمين المصـرى**: المجتـمع الإسلامى، الكويت، دار الأرقم، ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠م.

٤٣ - **محمـد رشاد خليل**: علم النفس الإسلامى العـام والتربوى، دراسة مقارنة، الكويت، دار القلم، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧م.



٤٤ - **محمد سيف الدين فهمي**: النظرية التربوية وأصولها الفلسفية والنفسية، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٨٠م.

٤٥ - **محمد ضياء الدين الريس**: النظريات السياسية الإسلامية، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٦٠م.

٤٦ - **محمد عزت عبد الموجود وآخرون**: أساسيات المنهج وتنظيماته، القاهرة، دار الثقافة للطباعة والنشر، ١٩٨١م.

٤٧ - **محمد عطية الأبراشي**: التربية الإسلامية وفلاسفتها، القاهرة، دار الفكر العربي، بدون تاريخ.

٤٨ - **محمد عمارة**: الشريعة الإسلامية والعلمانية الغربية، القاهرة، دار الشروق، ط١، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م.

٤٩ - **محمد الغزالي**: عقيدة المسلم، دمشق، دار القلم، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م.

٥٠ - ــــــــــــ: مشكلات في طريق الحياة الإسلامية، دمشق، دار القلم، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م.

٥١ - **محمد قطب**: منهج التربية الإسلامية، بيروت، دار الشروق، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

٥٢ - ــــــــــــ: منهج الفن الإسلامي: ط ٦، بيروت، دار الشروق، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣م.

٥٣ - ــــــــــــ: دراسات في النفس الإنسانية، بيروت، دار الشروق، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م.

٥٤ - ــــــــــــ: واقعنا المعاصر، جدة، مؤسسة المدينة المنورة للصحافة والطباعة والنشر، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٦م.

٥٥ - **محمد متولي الشعراوي**: منهج التربية في الإسلام، القاهرة، المكتب الإسلامي، بدون تاريخ.

٥٦ - **محمد متولى الشعراوى**: هذا هو الإسلام، نيوقوسيا، قبرص، الدار المصرية للنشر والتوزيع، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م.

٥٧ - **محمود أحمد شوق**: الاتجاهات الحديثة فى تعليم الرياضيات، الرياض، دار المريخ للنشر، ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩م.

٥٨ - **مصطفى عبد الواحد**: شخصية المسلم كما يصورها القرآن، ط ٥، القاهرة، مكتبة المتنبى، ١٩٧٥م.

٥٩ - **يوسف القرضاوى**: الخصائص العامة للإسلام، القاهرة، مكتبة وهبة، ط٢، ١٤٠١ هـ - ١٩٨١م.

٦٠ - ــــــــــــ: التربية الإسلامية ومدرسة حسن البنا، الكويت، الاتحاد الإسلامى العالمى للمنظمات الطلابية، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣م.

المراجع الأجنبية:

1- **Abdel Meguid**. A.A "Islam" in the Yearbook of Education, 1951, London, Evans Brothers, 1951.

2- **Apter, D.E.**, The Politics of Modernisation, Chicago, The University of Chicago Press, 1965.

3- **Bender, L.and John E.**, Teaching and Learing, Philosophical, Psychological, Curriculum Aplication, New York, Macmillan, Publishing co,Inc., 1975.

4 - **Bereday, G.**, Comparative Method in Education New York, Holt, Rinchart & Winston, Inc., 1964.

5- **Boctor, A.**, School and Society in the Vally of the Nile. Cairo, Evas Press,1936.

6 - **Branmeld, T.**, Philosophy of Education in Cultural Perspective, New York, Holt, Rinehart Winston, Inc., 1955.

7 - **Brubacher, J.S.**, A History of the Proplems of Education New York, Megraw, Hill Book co 1947.

8 - **Brubacher, J. S.**, Modern Philosophies of Education, 3rd. Edn.McGraw- Hill Book Company Inc., New York,1962.

9- **Chapman, B.**, The Prefects and the provincial France, London,G.Allen 1955.

10 - **Childs,J.L.**, American Pragmatism and Education,New York Henry Holt co.,1956.

11- **Counts, G.S.**, The Challenge of Soviet Education,New York McGraw- Hill Book co.,Inc.,1957.

12- **Cubberley, E.P.**,The History of Education, boston, Houghton, Mifflin Co., 1920.

13- **Curtis S SJ., and Boultwood, M.E.A.**,A Short History of Educational Ideas, London,University Turtorial Press, 1965.

14- **Dent, H.C.**,The Educational System in England and Wales London, University of London Press L td.,1971.

15- **Dewey,J**, Experience and Education, New York,Macmillan Publishing Co,Inc.,1938.

16- **Dobinson, C H.**, ed.,Comenius and Contimporary Education Hamburg, Unesco, Institute of Education,1970.

17- **Faber,M., ED.**,Philosophic Thought in France and the United States, New York,States University of New York press 1968.

18- **Gressmam G., R., and benda,H.W.**, Public Education EN America,2nd End.,New York Appleton -century -Crofts, inc.,1961.

19- **Hans, N.**, "the Philosophy of Edlighonment and Basedows Philanthropain" in the Book of Education, 1957, London, Evanc Brothers, 1957.

20- **HANS, N.**, The Russian Tradition in Education, London, Routledge & kegan Paul,1963.

21- **HIRST, P. H.**, Knowledge and the Curriculum, London, Rovtledge and Keagan Paul 1974.

22- **HOLMES, B.**, Curriculum Innovation at the Second Level of Education, Paris Unesco,IBE,NO,190,1974.

23- **JOHNSON,J.A.,et al.**, Intloductlon to The Foundation of American Education Boston, Allyn & Bacon, inc,.1969.

24- **KING. E.J other**, Schools and Oures, London, Rinceher & Winiston,4th end.,1973.

25- **KANNY,A.,Descartes**.l, a Study of his Philosophy, New York, John Willey & Sons,1968.

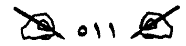
26- **Keneller, G.F.**, Introduction to The Philosophy of Education, New York, John Willey & Sons, 1965.

27 - **Koutaissoff, E.**, The Societ Union London, Ernest Benn, Ltd, 1971.

28- **Lane, D.**, Politics and society in the USSR, London Wiedenfeld & Nicolson, 1970.

29 - **Lenin, V.I.**, Selected Works, New York, 1943.

30 - **Lawton, D.**, Social Change, Educational Theory, Curriculum Planning, London U.L.P., 1973.



31 - **Mabbott, Jp., John loke,** Great Britain, the Bowering Press, 1985.

32 - **Marx. K., and Engels, F.,** Selected Works, Vol. I, Moscow, 1985.

33- **Marx**, Capital, New York, 1929.

34- **Ministry of Education**: The New York Secondary Education, London, HMSO, 1976.

35 - **O, Connor, D. J., John Lock**, New York Dover Publication, Inc., 1976.

36 - **Redl, H. B.**, ed., Soviet Education, Inc., 1976.

37 - **Saliba, D., and Tomeh G.J.**, " Islam" in the Yearbook of Education 1957, London, Evans Brothers, 1957.

38 - **School's Councel, Enquiry No. I**, London HMSO, 1968.

39- **Smith, N.K.**, New Studies in the Philosophy of Descartes, London, Macmillan& Co., Ltd, 1952.

40- **Spencer, H.** Education, New York, D. Appleton, 1880.

41- **School's councel**: Report 1972-73, London, Evans/Methuen Education, No, 45.

42 - **The Centeral Commette of the C.P.S.U.**, History of the Communist party of the Soviet Union, New York, 1939.

43- **The Yearbook of Education 1951**, London, Evans Brothers 1951.



44- **The Yearbook of Education 1951**, London, Evans Brothers, 1957.

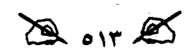
45 - **The Yearbook of Education**, London, Evans Brothers, 1958.

46- **Tihbawi, A.L.**, " Philosophy of Muslem Education in the yearbook of Education 1957, London, Evans Brothers, 1957.

47- The philosophical Works of Descartes, Rendered Into English by **Elizabeth. S. Haldanee and G.R.T. Ross**. e vols., Cambridge Univesity Press, England, 1912.

48 - **Walton, J., ed.**, The Secondary School Timetable, London, Word Lock Educational, 1972.

49- **Woody**, T., Educational Views of Bengjamin Franklin, New York, McGraw-Hill Book Co, 1947.



صدر من السلسلة :

(١) رياضة المشى مدخل لتحقيق الصحة النفسية والبدنية.

تأليف أ.د. أسامة كامل راتب و أ.د. إبراهيم خليفة تقديم أ.د. جابر عبد الحميد.

(٢) التعليم والتنمية الشاملة : دراسة فى النموذج الكورى.

تأليف د. عبد الناصر محمد رشاد. تقديم أ.د. عبد الغنى عبود

(٣) مناهج التربية : أسسها وتطبيقاتها.

تأليف أ.د. على أحمد مدكور. تقديم أ.د. جابر عبد الحميد

(٤) المدخل فى تدريس العلوم (من سلسلة تدريس العلوم فى العالم المعاصر).

أ.د. أحمد النجدى. تأليف أ.د. على راشد. أ.د. منى عبد الهادى

(٥) التربية البيئية لطفل الروضة .

تأليف أ.د. وفاء سلامة. مراجعة وتقديم: أ.د. سعد عبد الرحمن

(٦) التدريس والتعلم: الأسس النظرية والاستراتيجية والفاعلية - الأسس النظرية .

تأليف أ.د. جابر عبد الحميد.

(٧) النمو الحركى: مدخل للنمو المتكامل للطفل والمراهق.

تأليف أ.د.أسامة كامل راتب.

(٨) الإرشاد والعلاج النفسى الأسرى:المنظور النسقى الاتصالى.

تأليف أ.د.علاء الدين كفافى.

(٩) علم النفس الاجتماعى: رؤية معاصرة.

تأليف أ.د. فؤاد البهى. وأ.د. سعد عبد الرحمن

(١٠) استراتيجيات التدريس والتعلم .

تأليف أ.د. جابر عبد الحميد.

(١١) الإدارة المدرسية فى مطلع القرن الحادى والعشرين.

تأليف أ.د. أحمد إبراهيم أحمد

(١٢) علم النفس الاجتماعى والتعصب.

تأليف أ.د. عبد الحميد صفوت

(١٣) التربية المقارنة والألفية الثالثة: الأيديولوجيا والتربية والنظام العالمى الجديد.

تأليف أ.د. عبد الغنى عبود وآخرون

(١٤) مدرس القرن الحادى والعشرين الفعال:المهارات والتنمية المهنية.

تأليف أ.د. جابر عبد الحميد، ود. بيومى ضحاوى.

أ.د. عادل سلامة،أ.د. عبد الجواد السيد بكر

(١٥) الإعداد النفسى للناشئين: دليل للإرشاد والتوجيه للمدربين والإداريين وأولياء الأمور.

تأليف أ.د. أسامة كامل راتب

(١٦) القلق وإدارة الضغوط النفسية.

تأليف أ.د. فاروق السيد عثمان

(١٧) طرق تدريس الرياضيات.. نظريات وتطبيقات.

تأليف أ.د. إسماعيل محمد الأمين

(١٨) خصائص التلاميذ ذوى الحاجات الخاصة واستراتيجيات تدريسهم.

تأليف: مارتن هنلى - روبارتا رامزى - روبرت ألجوزين

ترجمة أ.د. جابر عبد الحميد

(١٩) تحليل المحتوى فى العلوم الإنسانية.

تأليف أ.د. رشدى أحمد طعيمة

(٢٠) أصول التربية البدنية والرياضة: المدخل ـ التاريخ ـ الفلسفة - المهنة والإعداد المهنى - النظام العلمى الأكاديمى.

تأليف أ.د. أمين أنور الخولى

(٢١) فقه التربية: مدخل إلى العلوم التربوية.

تأليف أ.د. سعيد إسماعيل على

(٢٢) اتجاهات وتجارب معاصرة فى تقويم أداء التلميذ والمدرس.

تأليف أ.د. جابر عبد الحميد

(٢٣) علم اجتماع التربية المعاصر: تطوره ـ منهجيته ـ تكافؤ الفرص التعليمية

تأليف أ.د. على السيد الشخيبى

(٢٤) تربية الأطفال المعاقين عقليا

تأليف أ.د. أمل معوض الهجرسى

(٢٥) القياس والاختبارات النفسية

تأليف أ.د.عبد الهادى السيد على وأ.د. فاروق السيد عثمان

٢٦) التربية وثقافة التكنولوچيا.

تأليف أ.د. على أحمد مدكور

٢٧) طرق وأساليب وإستراتيچيات حديثة فى تدريس العلوم (من سلسلة تدريس العلوم فى العالم المعاصر).

تأليف أ.د. أحمد النجدى. أ.د. منى عبد الهادى أ.د. على راشد.

٢٨) الذكاءات المتعددة والفهم.

تأليف أ.د. جابر عبد الحميد

٢٩) المنهجية الإسلامية فى البحث التربوى.

تأليف أ.د. عبد الرحمن النقيب

٣٠) نحو تعليم أفضل: إنجاز أكاديمى وتعلم اجتماعى وذكاء وجدانى.

تأليف أ.د. جابر عبد الحميد

٣١) النشاط البدنى والاسترخاء: مدخل لمواجهة الضغوط وتحسين نوعية الحياة.

تأليف أ.د. أسامة كامل راتب

٣٢) علم النفس الصناعى والتنظيمى: بحوث عربية وعالمية.

تأليف أ.د. محمود السيد أبو النيل

٣٣) اتجاهات حديثة فى تعليم العلوم على ضوء المعايير العالمية وتنمية التفكير والنظرية البنائية.

تأليف أ.د. على راشد أ.د. أحمد النجدى أ.د. منى عبد الهادى

٣٤) علم النفس التأهيلى وخدماته فى مجال الإعاقات والإصابات والأمراض المزمنة.

تأليف أ.د. علاء الدين كفافى أ.د. جهاد علاء الدين

٣٥) نظريات المناهج التربوية.

تأليف أ.د. على أحمد مدكور

جميع المراسلات والاتصالات على العنوان التالى:

دار الفكر العربى

سلسلة المراجع فى التربية وعلم النفـ

٩٤ شارع عباس العقاد - مدينة نصر - القاهرة

ت: ٢٧٥٢٩٨٤ - فاكس: ٢٧٥٢٧٣٥